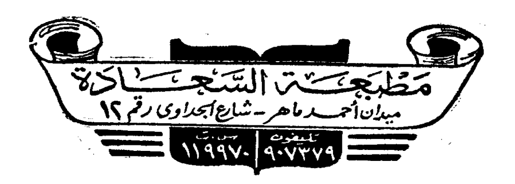
الدكتور عبد العظيم المطعني

الإسلام

في مواجهة الأيديولجيات المعاصرة

يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠



مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون
٩٠٧٣٧٩
١١٩٩٧٠

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م



إيضاح وتقديم

— ١ —

فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٨٦ م أعلمنى الأستاذ الدكتور سيد تقى الدين وكيل كلية اللغة العربية أنه تقرر أن أشترك مع الدكتور مرعى مدكور مدرس الصحافة والإعلام بالكلية فى تدريس مادة « موقف الإسلام من الأيديولجيات المعاصرة » لطلاب الصحافة والإعلام بالمرحلة النهائية « الليسانس » وكنت أميل إلى الاعتذار أولا ؛ لأنى لم أشتغل بتدريس هذه المـــادة من قبل ، ولأنها بعيدة عن مجال التخصص الذى أعمل فيه (البلاغة والنقد) . وقوبل إعتذارى بالرفض من الأستاذ الدكتور سعد ظلام عميد الكلية ، فاستخرت الله وبدأت أعد للأمر عدته . وقد كان الدكتور مرعى مدكور ، وهو صديق وفى ـ كريما حين أتاح لى فرصة الاختيار بين أن أدرس إما الفلسفات والأيديولجيات الروحية الشرقية كالبهائية والقاديانية . أو الفلسفات والأيديولجيات الأوربية الغربية ، ويغلب عليها الجانب المادى ، كالعلمانية والماركسية ، ووجدتنى أميل ميلا شديداً إلى الجانب الثانى ، وهو الأيديولجيات المادية الغربية ، والتقت وجهات نظرنا حول هذا التوزيع وأخذ كل منا يعمل فى مجاله مستمداً العون من الله .

— ٢ —

وفيما يختص بالجانب الذى أنيط بى فقد هديت إلى أن يكون المنهج الذى أمارس من خلاله عملى على الوجه الآتى :

ه التعرض لتاريخ أوربا منذ القرن الأول لميلاد السيد المسيح ـ عليه السلام ـ حتى نهاية القرن السابع عشر الذى انتقلت فيه أوربا من سيادة النصوص

الدينية كمصدر وحيد للمعرفة إلى الفلسفات المثالية العقلية خلال عصر التنوير القصير المدى (خمسون سنة تقريباً) .

• التعرض للفلسفات الوضعية المادية التي كان قيامها رد فعل عنيف على كل من الفكر الديني الكنسي، والفكر العقلي المثالي . لأن الفلسفات الوضعية المادية اتهمت كلا من الفكر الكنسي والعقلي المثالي بالقصور في مجال المعرفة وبالإفلاس في مجال التوجيه .

• وقد تجمعت خيوط الفكر الوضعي في اتجاه مادي واحد هو مايعرف الآن بـ « العلمانية » والعلمانية قد تكونت من عدة أيديولجيات مادية قمنا برصدها كالداروينية ، و"فرويدية ، والبراجماتية ، وحسية أوجست كونت وعقد جان جاك روسو ، ثم الميكيافيللية . كما خدعت العلمانية نفسها بالكشوف العلمية الصحيحة التي أساءت العلمانية فهمها ، وانحرفت بها عن مسارها مثل اكتشاف كوبرنيق لمركزية الشمس وبرونو ، وجاليليو ثم إسحق نيوتن مكتشف الجاذبية .

• ووقفنا طويلا أمام الماركسية باعتبارها الوريث لكل نفايات الفكر المادى . وناقشنافى موضوعية وصدق الأساس الذى قامت عليه هذه الفلسفة .

هذا ، ولما كان المقصود من تدريس هذه الأيديولجيات لطلاب الصحافة والإعلام هو بيان موقف الإسلام منها فإن الطابع أو المنهج الذى سرنا عليه فى هذا الكتاب منهج يقوم على العرض والنقد والنقض فى لحمته وسداه . فليس ما فى هذا الكتاب تأريخا لهذه الأيديولجيات . وإنما هو دراسة كاشفة عما فيها من زيف وقصور وانحراف .

ومواجهة الإسلام للأيديولجيات المعاصرة من ألزم الواجبات التى ينبغى أن ينهض بها الدعاة . وأن يعدوا أنفسهم إعداداً كاملا للتصدى لها لأنها - وعلى ما بين بعضها من عداء - تجمع على محاربة الإسلام وعزله عن الحياة،

حتى عن حياة المسلمين أنفسهم . وهى كلها تسير فى كسب الإنتصار لها على أساس واحد لا يكاد يتخلف وإن لم يفصح عنه . ذلك الأساس هو :

الذى يعرف هو الذى يحكم ويقود ....

وسيرى قارىء هذا الكتاب أن أحق « الأيديولجيات » على الإطلاق بالحكم والقيادة للإنسانية جمعاء بناء على الأساس الذى وضعوه هو « الإسلام » والإسلام وحده . فقد استقى الإسلام المعرفة الصحيحة من جميع مصادرها الصحيحة :

من العقل ، ومن الحواس والتجربة والملاحظة ، ومن العلم بكل فروعه ومجالاته ، ومن الواقع . ثم عصم هذه المصادر بالوحى الأمين وغيره من الأيديولجيات إذا استقى معرفة من مصدر صحيح رفض كل المصادر التى عداها ، فخسر ولم يربح ، وبعضها كان قد استقى المعرفة من مصادر غير صحيحة فكان أسرع هذه الأيديولجيات فى التردى والسقوط .

وحقيقة الحقائق التى يصل إليها قارىء هذا الكتاب :

« إن الإسلام برىء من نقص أخذه على ما سواه . وإن ما سواه ليس فيه ما هو صحيح إلا وهو معتمد فى الإسلام . وإن الإسلام فى استقائه المعرفة الصحيحة أعتمد على كل المصادر المعرفية الصحيحة . وسما فوق كل الفلسفات والايديوجيات ، لأنه من صنع الله . وماعداه من صنع البشر .

هذا وقد وقعت أخطاء فى أثناء الطبع لا تغيب على القارىء الفطن ولم نتمكن من تصويبها لضيق الوقت . وعذرنا أن إعداد هذا الكتاب (تأليفاً وطبعاً) تم فى مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر ليكون بأيدى الطلاب فى وقت مناسب . والحمد لله فى الأولى والآخرة .

د / عبد العظيم إبراهيم المطعنى

القاهرة : الظاهر فى الثلاثاء الموافق ٢٨ / ٤ / ١٤٠٧ هـ .

٣٠ / ١٢ / ١٩٨٦ م .



سيادة النصوص المقدسة
أو
سيطرة الكنيسة

عرفت أروبا المسيحية منذ القرن الأول للميلاد ، عرفتها وكانت المسيحية إذ ذاك محتفظة « بصفائها ونقائها ، أو على الأقل كان صفاء المسيحية ونقاؤها ميسوراً لمن يطلبه . لأنها كانت قريبة العهد بمبعث المسيح عليه السلام . ولم تضف إليها تلك « التراكمات » التي تنوء بها المسيحية الآن . والتي بدأت - أعني التراكمات - في الظهور من وقت مبكر على يد بولس الرسول المعروف بهذا الاسم في المصادر المسيحية »[1] .

وطوال القرون الثلاثة الأولى من ميلاد السيد المسيح عليه السلام كانت مسيحية المسيح في محنة من جهتين .

الأولى : اضطهاد أعداء المسيحية للمسيحيين وإنزال أبشع ألوان العذاب بهم من قبل الرومان وغيرهم من اليهود .

الثانية : الأفكار التي روج لها بولس في حياته ، والتي بثها في الرسائل المعروفة باسمه والمعروفة في أواخر العهد الجديد « الأناجيل » ويسميها المسيحيون برسائل الرسل . ولبولس منها أربع عشرة رسالة كل رسالة تحمل

(١) بولس هذا ليس من أصحاب المسيح عليه السلام ، وهو كان يهوديا في البدء ومن ألد أعداء المسيحية ، ثم دخل فيها بحيلة بارعة وإن لم يخف زيفها على عاقل وأخذ يدعو إلى المسيحية في جد ونشاط ، وأدخل عليها ما ليس منها . وكان عمله هذا بمثابة طمس لمعالم المسيحية الصحيحة ، كما جاء بها عيسى عليه السلام .

اسما خاصا بها . بيد أن المسيحية ، كانت قوية فى بدء الصراع ، ولها أنصار أوفياء صادقون ، وكثير منهم خروا شهداء فى سبيل التمسك بعقيدتهم الصحيحة ورفضهم لكل زيف أريد الحاقه بها .

ومسيحية بولس كانت تقوم على التثليث وتأليه المسيح عليه السلام ، الأمر الذى لم يقل به المسيح قط ، وقد أنكر مسيحية بولس كثير من المسيحيين طوال القرون الثلاثة الأولى ، وفى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع تصدى آريوس لأباطيل بولس وأذاع بين الناس أن المسيح ليس إلها وإنما هو مخلوق لله الواحد الأحد ، وكثر اتباع آريوس حتى عرفوا به « الآريوسيون » وتابع كثير من الكنائس رأى آريوس إلا كنيسة الإسكندرية فقد تبنت عقيدة بولس وحكمت على آريوس بالحرمان ، ولكنه ظل على رأيه ولم يذعن لقرار كنيسة الإسكندرية التى آل أمرها إلى البطريرك إسكندر وكان شديد التعصب لعقيدة بولس وهى التثليث والوهية عيسى عليه السلام . وما تولد عنها من عقائد .

قسطنطين وأول مجمع مسيحى فى التاريخ الكنسى

قسطنطين هو إمبراطور الرومان الذى شهد ذلك الصراع الخطير بين كل من آريوس نصير مسيحية المسيح والاسكندر بطريرك كنيسة الاسكندرية نصير مسيحية بولس ، وقد حاول قسطنطين وكان قد اعتنق المسيحية عن غير اقتناع كما يقول ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة » حاول قسطنطين هذا أن يوفق بين الفريقين ولكنه لم ينجح . ثم دعا إلى عقد أول مجمع مسيحى فى التاريخ الكنسى ، وهو مجمع نيقية بالقرب من القسطنطينية عاصمة الدولة حينذاك ، وكان انعقاده عام ٣٢٥ م وبعد مناظرات جرت بين الفريقين تضافرت الجهود لانتصار عقيدة بولس على عقيدة آريوس وأتباعه رغم معارضة حادة حتى من رجال الدين المسيحى أنفسهم ، وانتهى المجمع الذى كان

يناصره السلطان «قسطنطين» بكل ما يملك إلى قرار خطير طمس معالم المسيحية التي جاء بها عيسى طمسا . وإليك نص القرار :

قرار مجمع نيقية :

«إن الجامعة المقدسة، والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه (؟!) وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء، أو من يقول : أن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير الله الآب، وكل من يؤمن أنه خلق - بالبناء للمجهول - أو من يقول : انه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران» .

وبهذا القرار فرضت الكنيسة - ولأول مرة في التاريخ - عقيدة بولس القاضية بالوهية عيسى عليه السلام . وهي عقيدة أصدرها من لا يملك لمن لا يستحق . فالبشر لا يملكون وصف أحد غير الله بأنه إله وعيسى لا يستحق أن يكون إله ؟!

ومما تجب الإشارة إليه أن مجمع نيقية ، كان عدد أعضائه من رجال الدين المسيحي ثمانية وأربعين وألفين من الأساقفة ، ولما عرض عليهم آريوس عقيدته القاضية ببشرية عيسى وكونه مخلوقا لله وانه رسول الله وليس بابن الله اقتنع أغلبية الحاضرين أو بالتحديد كان عدد الذين اقتنعوا برأي آريوس ١٧٣٠ عضواً مقابل ٣١٨ عضوا رضخوا لتوجيهات قسطنطين والاسكندر بابا كنيسة الاسكندرية حينذاك .

أي أن نسبة الرافضين لالوهية المسيح قد بلغت ٨٤٫٤٧ ٪ تقريباً وأن نسبة القائلين بالوهيته قد وقفت عند حد ١٥٫٥٣ ٪ تقريباً فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان في تقرير هذه العقيدة التي انتهى إليها الأعضاء أل ٣١٨ فإن معنى هذا أن قرار هذه القلة ، قرار مشوب دعت إليه الرهبة من السلطان

فهو إذن قرار باطل بكل مقياس !! (٢)

صدى هذا القرار :

لم ترحب الدوائر المسيحية بقرار مجمع نيقية ، ووقعت معارضة عنيفة له من جانب الموحدين كالنسطوريين والآريوسيين وكثير من الكنائس ، وبالرغم من هذه المعارضات فإن القرار كتب له الذيوع والانتشار وساندته القوة ففرض على الناس فرضا كريها . وأخذت المجامع تتوالى بعد مجمع نيقية وتتخذ من القرارات المشابهة لذلك القرار الخطير محببة لمسيحية بولس بكل صورة من صورها . وكانت حصيلة ، هذا كله تتلخص فيما يأتي :

* القول بألوهية المسيح عليه السلام وكونه ابنا لله .. ؟ !
* القول بألوهية الروح القدس ؟ !
* القول بالثالوث المقدس : الآب - الابن - الروح القدس ؟ !
* القول بالخطيئة ، الموروثة ، وأن بنى آدم مآخذون بعصيان أبيهم آدم حيث أكل من الشجرة المحرمة ، شجرة المعرفة ، ؟!
* القول بعقيدة الخلاص عن طريق القرابين ووساطة الكهان بين العبد وربه .
* الجزم بصلب المسيح وأن الصلب كان فيه فداء وخلاص لبنى آدم من الخطيئة الموروثة ؟ !
* القول بأن للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية أو طبيعتين إحداهما ناسوتية (نسبة إلى الناس) باعتبار الجسد والأخرى لاهوتية (نسبة إلى الألوهية) باعتبار الروح أو الحقيقة ؟ !

---

(٢) وراجع فى هذا القرار إيضاحا أكثر فى محاضرات فى النصرانية للامام أبى زهرة (١٢٥) وما بعدها .

هـذا هو « كرنفال » العقيدة التى أسفرت عنهـا المجامع بدءاً من مجمع نيقية . ولم تـكتف تلك المجامع بما تقدم . بل أخذت تضيف و تضيف ما من شأنه أن يعلى من شأن الـكنيسة ، ويقوى من سيطرتها على مقاليد الأمور . فأضافت عقيدة أن البابا معصوم ، وأنه وحده له حق تفسير التعاليم وفى مجمع لا تيران عام ١٢١٥ صـــدر قرار كنسى خطير بأن الـكنيسة لها ثلاثة حقوق هى :

١ — حق الحرمان : أن الـكنيسة تملك حق الحرمان من الرحمة لـكل من يخرج على تعاليم الـكنيسة أو يرى غـير ما ترى من عقائد وتفسيرات ، وقد مارست الـكنيسة حق الحرمان على شكلين :

• شكل فردى حيث كانت تصـدر أحكاما عقابية رادعة على الأفراد المهرطقين الخارجين عن سلطانها إما بالاعدام أو اللعنة و الطرد من ملـكوت السموات . مثلما حدث مع بعض العلماء كجاليليو ونيوتن وسيأتى الحديث عنهما وعن غيرهما .

• شكل جماعى : حيث كانت الـكنيسة تعاقب الجماعات بل والشعوب بما تراه من عقوبات كما حدث للشعب الانجليزى حين اختلف الملك يوحنا مع البابا فأصدر البابا قراراً بحرمان شعب انجلترا كله فعطلت الـكنائس وعقود الزواج والصلاة على الموتى وكان الموتى يحملون إلى قبورهم بغـير صلاة وهكذا .

وفى هـذا الإطار أنشأت الـكنيسة محاكم التفتيش التى كان يحاكم فيهـا كل من تحوم حوله الشبهات ويؤخذ بالظنة فيعدم أو يحرق بلا رحمة ولا شفقة .

٢ — حق الغفران : وبمقتضاه منحت الـكنيسة نفسهـا حق غفران الذنوب والخطايا مقابل مقدار من المـال يبذل للـكنيسة من راغبى الغفران .

وكانت الكنيسة تعطى المغفور لهم صكا يسمى صك الغفران كسند مادى على الكنيسة يتيح لحامله دخول الجنة . وكان الفقراء لكى يحصلوا على صكوك الغفران هذه يقومون بخدمة الكنيسة بدلا من بذل المال الذى عجزوا عنه لفقرهم . وهكذا أخذت الكنيسة تحكم قبضتها على الناس وتسيطر على مصائرهم الدنيوية والأخروية .

٣ — حق التحلة : وفيه منحت الكنيسة نفسها حق الخروج على النصوص المقدسة وتعاليم الرسل إذا رأت فى ذلك مصلحة لها .

نموذج من صكوك الغفران :

وفيما يلى صورة لصك من صكوك الغفران التى كانت تمنحها الكنيسة لطالبى المغفرة بعد بذل الثمن :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية المقدسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها وأيضا من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا ، والكرسى الرسولى . وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة . وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر ، وأردك حديثا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك بشركة القديسين ، وأردك ثانية إلى الطهارة ... حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة ، باسم الآب والابن والروح القدس » ؟!!

ولا تعليق لناق على هذا الهذيان إلا فى العبارتين الآتيتين :

* إن مبتدعى صكوك الغفران كانوا ضالين مضللين ودجالين ؟
* وإن طالبى تلك الصكوك كانوا فى جهالة عمياء ، وما أبعد هؤلاء وهؤلاء عن السيد المسيح وتعاليمه . ؟!

أسرار الكنيسة :

والأسرار الكنسية التى ابتدعها رجال الكنيسه لاتقل شناعة عما تقدم من تصورات وخرافات . ومن تلك الأسرار :

* جعل الثلاثة واحداً :

قلنا فيما تقدم أن الكنيسة ذهبت إلى تأليه المسيح وتألية الروح القدس بالاضافة إلى تأليه الآب « الله » وبذلك كان يجب عليهم أن يؤمنوا بثلاثة آلهة لا بإله واحد . ولما كان التعدد فى الآلهة مظهرا من مظاهر الإشراك ملازما لعقيدة الكنيسة فإن الكنيسة لجأت - لكى تدفع عن عقيدتها وصمة الإشراك - فقالت إن الثلاثة : الآب ، والابن والروح القدس ، إنما هم إله واحد ؟! فوقعت بهذا القول فى ورطة أشنع من ورطة الاشراك نفسها وخالفت النقل والعقل معاً . وكانت هذه البدعة ، من أقوى الأسباب التى دعت إلى التمرد على الكنيسة فى زمن لاحق كما سيأتى فى موضعه إن شاءالله .

خالفت النقل : لأنه لا يوجد نص مقدس لا فى كتبهم المقدسة ولا فى غيرها ينص على هذه العقيدة الغريبة حقا ؟! .

وخالفت العقل ، لأن العقل لا يتصور قط أن ثلاثة أشياء لكل منها وجوده المستقل فى الخارج والمنفصل عن غيره ، لا يقبل العقل ولا يتصور أن تكون هذه الأشياء الثلاثة شيئا واحدا كما تدعى الكنيسة . وحين ووجهت الكنيسة بأن العقل لا يتصور ما دعت إليه كان ردهم لا يقل

شناعة عن عقيدتها نفسها . قالت الكنيسة لمعارضيها وناقديها : إن هذا سر من الأسرار المقدسة وليس للعقل سلطان على حقائق الإيمان ؟ !

وظنت الكنيسة أنها انتصرت وهى وحدها التى هزمت فى هذا المجال وما تزال تردد هذه الإجابة البلهاء كلما ووجهت بنقد أو اعتراض أو حتى مجرد استفهام برىء .

وهذا الاعتراض العقلى لم ينشأ فى « عصر التنوير » الذى حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى فى أوروبا - وإن راج فيه واستفحل - وإنما وجد منذ بداية القرن الرابع الميلادى ووجه به قسطنطين امبراطور روما فكان يقول كما قالت الكنيسة إنه سر من الأسرار .

تشابه السؤال ، واتحدت الإجابة فى كل العصور وإن اختلف منشأ السؤال فى العصور اللاحقة لعصر قسطنطين منذ القرن الرابع الميلادى وبالرغم من هـــذا كله فقد ظلت المشكلة قائمة إلى الآن ولم تفلح الكنيسة فى حلها :

فالكنيسة تقول : إن : ١ + ١ + ١ = ١ ؟ !!

والعلم والعقل يقولان : إن : ١ + ١ + ١ = ٣

فكيف تلتقى الإجابتان يا ترى انهما تلتقيان باحدى صورتين لا ثالث لهما :

فإما أن تتنازل الكنيسة عن جهلها وتخريفها وتسلم بالحقائق العقلية والبدائة الرياضية فتحل المشكلة ؟ !

وإما أن يكفر العقلاء بعقولهم، ويهدروا حقائق العلم ويقعون فى مغالطات الكنيسة وتعسفاتها فتحل المشكلة .

إنهما فرضان بعيدا المنال ، وغايتان لا أمل فى إدراك أى منهما ؟ !

• الاعتراف :

قلنا فيما سبق أن الكنيسة منحت نفسها فى مجمع لاتيران عام ١٢١٥ م ثلاثة حقوق منها حق « الغفران » ومحو الخطايا . وذكرنا صورة من صكوك الغفران التى كانت الكنيسة تبيع فيها الجنة بالمزاد العلنى وترتب على منح نفسها حق الغفران مبدأ الاعتراف أمام القسس ورجال الدين . فمن أذنب ذنبا أو ذنوبا وأراد أن يطهر نفسه منها فلا مناص له من الجلوس أمام الكاهن والاعتراف له بما ارتكب من جرائم وآثام . وجعلت الكنيسة هذا الاعتراف مقدمة لمنح المعترف البراءة والتطهير مقابل مقدار من المال يقدمه الخطىء للكنيسة . فإذا كان طالب الغفران فقيرا فعليه أن يخدم الكنيسة أو يجند فى جيشها ليدافع عنها .

ولما كان الاعتراف موردا من موارد مالية الكنيسة فقد قررت أن يعترف الخطاة كل عام مرة بدلا من الاعتراف مرة واحدة فى العمر ؟ !

وبذلك وضعت الكنيسة نفسها موضع الوسيط بين الخطاة والخالق فالطريق إلى « الله » مسدود أمام عامة الناس ، ولا يملك أحد أن يفتحه إلا الكاهن ؟ !

وكانت هذه الوسيلة سببا بارزا فى ثراء الكنيسة ورجال الدين ويصور ديورانت هذا الثراء فيقول :

« وإذا كانت ممتلكات الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها . . . فقد أخذت هذه الممتلكات تنمو على مر القرون لدرجة أن تملك كنيسة واحدة أو دير للرجال والنساء عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله إثنى عشرة بلدة ، بل تشمل أحيانا مدينة كبرى أو مدينتين »[٣] .

ول ديورانت يتحدث - هنا - عن إملاك كنيسة واحدة أو دير واحد فكم ياترى كانت تبلغ أملاك الكنائس والأديرة كلها ؟ !

(٣) قصة الحضارة — بتصرف (مجلد ٤ — ص ٦٩) وما بعدها .

ويقول فى موضع آخر :

« وكذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية . . . وقد حسب دخل الكرسى البابوى عام ١٢٥٠ م فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأروبية مجتمعين »(٤) .

وقد ترتب على منح صكوك الغفران فساد كبير . فإن الحاصلين عليها وقد ضمنت لهم الجنة تحللوا من الفضائل ولم يتورعوا عن ارتكاب أية جريمة أو رذيلة ، ولو كان ذلك كفرا بالله ، وشركا بالمسيح وقد دعاهم إلى ذلك قصور فى صياغة الصك . إذ جعلته الكنيسة براءة خالدة تمحو ما تقدم وما تأخر من الذنوب . ولو كانت الكنيسة قد قصرت أثره - الوهمى بالطبع - على مامضى دونما يستقبل لكانت أسهمت فى تحقيق شىء من الإصلاح . ولكن الإصلاح لم يكن فى حسابها وإنما الذى كان فى حسابها هو جمع المال بأى ثمن لذلك أطلقت أثر الصك ولم يقيد بالماضى حتى لا تقلل من قيمته عند طالبيه وقد كان مبدأ أو حق الغفران والاعتراف وصمة فى جبين الكنيسة أخذت مكانها بوضوح إلى جانب كثير من الوصمات ؟ !

• الوصية عند الموت :

وكانت الكنيسة تدخل نفسها وريثا فى مال الموتى مع ورثتهم الشرعيين ، وتحتم على كل إنسان أن يكتب وصيته للكنيسة قبل موته ، ثم خامرها الشك فأرادت أن تنظم تحرير الوصايا على شكل يضمن لها نصيبها فى مال كل من يموت . فأصدر البابا إسكندر الثالث عام ١١٧٠ م قرارا يقضى بأن تكتب الوصايا فى حضرة قسيس ، وكل من يجرؤ على تحرير وصية من غير هذا الطريق يطرد من حظيرة الدين ، وتعتبر الوصية غير قانونية من وجهة نظر الكنيسة .. ؟ !

---

(٤) المصدر السابق (مجلد ٥ جزء ٤ ص ٧٢)

• العشور :

وبالإضافة إلى موارد صكوك الغفران والوصايا كبلت الكنيسة أتباعها بمورد مالى مرهق إلى أبعد الحدود . وهو تقديم عشور الأموال لها . وقد مل الناس هذا السلوك ، وبخاصة أن الكنيسة لم تكن تقدم للناس آية خدمات مقابل هذه الأموال كبناء المدارس وشق الطرق والمصحات ، بل كانت تنفق هذه الأموال على مطالبها الخاصة ولما شعرت الكنيسة بتذمر الناس من هذه الإجراءات التعسفية جعلت للقساوسة حق إصدار اللعنات على كل من يتأخر فى دفع عشور أمواله أو يقدم بيانات غير حقيقية عن إراداته وممتلكاته ؟ !

• العشاء الربانى :

من البدع التى أخذتها الكنيسة عن مسيحية بولس البدعة المسماة بالعشاء الربانى الذى يتناوله المسيحيون فى « عيد الفصح » وهو يتكون من خبز وخمر . وكان عند المسيحيين الأوائل عادة رمزية الخبز فيها خبز ، والخمر خمر ولكن الكنيسة فى وقت لاحق أدعت أن الخبز فى العشاء الربانى يتحول إلى جسد المسيح ولحمه ، وأن الخمر يتحول إلى دم المسيح فعلا ، ويزعمون أن من تناول العشاء الربانى فقد أكل لحم المسيح فعلا وشرب دمه فعلا ، وأن ذات المسيح اختلطت بذوات آكليه وفى هذا نجاة من العذاب وبركة ؟ !

وقد أكثر بولس من ذكر هذا فى رسائله ، وعلى رغم أن إنجيلى متى ويوحنا أشارا إلى أصل هذا العشاء(٥) فإن كلام بولس فيه يعتبر هو الأصل لأن رسائل بولس سبقت كتابة الأناجيل الأربعة : متى ويوحنا ولوقا

---

(٥) انظر إنجيل متى (٢٦ : ٢٧ — ٢٨) وإنجيـل يوحنا : (٣٦ : ٥٤ — ٥٧) .

ومرقس . وأول هذه الأناجيل كتابة لم يكتب قبل عام ٣٧ م ويقال إن الذى كتبه هو بولس لا متى .

ومشكلة المشكلات فى العشاء الربانى أو القربان المقدس كما يقال أحيانا هى : كيف يتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح حقيقة ؟

الكنيسة تصر على هذا ، ولو أنها قالت أن ذلك التحويل مجازى تقديرى لا حقيقى واقعى لما اختلف معها فى هذا ، ولكن إصرارها على هذا الموقف هو مشكلة المشكلات فعلا .

ولكن الكنيسة لم تعدم حيلة توارى وراءها ماء الوجه . تلك الحيلة ماثلة فى هذا الجواب :

« إن هذا سر من أسرار الإيمان ولا مجال للعقل فيه ؟ !

وقد ثار على هذا الإدعاء الكاذب كثير من ذوى العقول من المفكرين وفلاسفة ، الغرب مثل فولتير وويكلف ولوثر وكلفن وغيرهم .

ه الرهبانية :

ومن معتقدات الكنيسة الموروثة عن بولس كراهية التزوج بالنساء وتفضيل حياة العزوبة . والسبب فى ذلك أن الكنيسة تنظر إلى المرأة نظرة ازدراء ، لأنها — فى نظرها — كانت السبب — وليس الشيطان — فى إخراج آدم من الجنة ، وتتأكد حياة العزوبة لرجال الإكليروس — رجال الدين — ومن دواعى العزوبة عندهم إمكان التفرغ لعبادة الله — لأن الذى يتزوج وينجب يمنح ولاءه لزوجه ولأولاده من دون الله ؟ ! وكمال التعبد عندهم فى حياة العزوبة

وهذا المبدأ مأخوذ من كلام بولس الذى يقول فيه « أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه خير لهم أن يبقوا مثلى[٦] ولكن إذا لم يستطيعوا أن يضبطوا

(٦) قضى بولس حياته كلها أعزب لم يتزوج . وهذا معنى قوله هنا « أن يبقوا مثلى » .

أنفسهم فليتزوجوا ، لأن الزواج أصلح . وأما المتزوجون فأوصيهم بأن لاتفارق المرأة زوجها . وإن فارقته فلتبق بغير زواج ، أو لتصالح زوجها ولا يترك الرجل امرأته » .

بولس هنا يبدو معتدلا بعض الاعتدال ، أما الكنيسة . فقد تشددت بالنسبة . لبعض الطوائف حين منعتهم من الزواج منعا باتا .

مساوىء هذا السلوك :

وكان لهذا السلوك مساوىء قبيحة . كل القبح ، فهى تحرم الإنسان من حق غرزى مكفول له ، وضد الفطرة الى فطر الله عليها خلقه وهيأ لهم سبل التمتع بها .

والواقع - كما يحدثنا التاريخ أن الذين استجابوا - فى الظاهر - لهذا المبدأ الكنسى . لجأوا فى السر إلى إرواء طبائعهم وإشباع رغباتهم الجنسية من الطرق المحرمة بعد أن أوصدت أمامهم الكنيسة أبواب الحلال .

بل إن كثيرا منهم كان يمارس الحرام داخل الكنيسة نفسها إذ لافرصة أمامه إلا هى . وما أكثر العقوبات التى أوقعت على هؤلاء المظلومين الظالمين. وما أكثر من أفلت من العقاب لاحتياطه الشديد عند الممارسة .

فهذا ول ديورانت يقول : « إن سجلات الأديرة تحوى فيما تحوى عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسى بين الرهبان والراهبات »(٧)

ويقول رئيس دير كلونى : «أن بعض رجال الدين فى الأديرة وفى خارجها يستهترون بابن العذراء استهتارا يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء فى ساحاته نفسها . بل فى تلك البيوت التى أنشأها المؤمنون لتكون ملاذا للعفة والطهارة لقد فاضت تلك البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لاتجد مكانا تضع فيه الطفل عيسى » ؟ !

(٧) قصة الحضارة (مجلد : ٦ جزء ٤ ص ٨٦) .
(٨) قصة الحضارة (مجلد : ٥ — ١٤٥) وما بعدها .

وكان لهذه الفضائح أثر سيء ذو شقين عند العامة . فكثير من الناس أخذ يرتاب في الدين الذي تمثله الكنيسة لما رأوا رجالها وخصيان الملكوت غارقين في الرذائل والدنائس . وهذا هو الشق الأول أو أحد الشقين .

أما الشق الثاني ، وكان يمثله الغيورون على الدين من غير رجال الكنيسة فقد إتخذوا من تلك الفضائح التي إرتكبها رجال الدين أسباباً وجيهة جداً للإنشقاق على الكنيسة والتمرد على التعاليم التي ينادي بها رجالها . ومدعاة للتشكك فيها . وحسناً ما فعلوا وهكذا كان كل سر من أسرار الكنيسة مدعاة للشك والإرتياب ولم تفلح الكنيسة في القضاء على تلك الشكوك ، وما ذلك في مقدورها اللهم إلا تلك الإجابة التي كانت ترددها دائما على أسماع المتسائلين والناقدين :

« إن هذا سر من أسرار الكنيسة لا يستطيع أن يدركه عقل عاقل .

أو يقولون : أن قضايا الإيمان منحة من الله وليس للعقول مجال فيها . ومن المؤسف أن مارتن لوثر وقد عرف بأنه رجل الثورة على المعتقدات الكنسية ، ورجل الإصلاح الديني كان يلجأ إلى تلك الاجابة بعد أن قرر أن الكتاب المقدس والعقل بينهما نفور شديد ، وقد قال في هذا : فإما أن نؤمن بالعقل ونكفر بالكتاب المقدس ؟ وإما أن نكفر بالعقل ونؤمن بالكتاب المقدس . وهذه قولة لو مضي معها لوثر حتى النهاية لكان قد كتب له الفلاح . ولكنه إنتكس فقال : إن الإيمان منحة من عند الله وليس للعقل مجال فيه ؟ !

مصادر المسيحية :

للمسيحية المعاصرة مصادر رئيسية وهي :

١ — رسائل بولس الاربع عشرة .

٢ — الأناجيل الأربعة .

٣ — أعمال الرسل . وهذه المصادر الثلاثة تسمى به « العهد الجديد » تمييزا لها عن العهد القديم » وهو التوارة وملحقاتها . وعلى العهدين القديم والجديد يطلق إسم « الكتاب المقدس » والعهد القديم خاص بالديانة اليهودية والمسيحيون - على الرغم من هذا الانفصال - يعتبرون العهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس يجب الإيمان به على كل مسيحى .

أزمة توثيق النصوص :

وقد واجهت المسيحية مشكلة من أعقد المشكلات منذ اللحظة الأولى . وهى أزمة توثيق النصوص — وبخاصة الأناجيل الأربعة التى هى أصل الاعتقاد عندهم .

ويهمنا أن نشير هنا إلى بعض الحقائق دون الخوض فى التفاسير والتفاصيل فذلك أمر آخر [٩] .

ومن أبرز الحقائق المتعلقة بتوثيق النصوص المقدسة عندهم :

. جهل التاريخ الذى وجدت فية تلك الأناجيل ؟!

. جهل اللغة الأولى التى كتبت بها أهى اليونانية أم العبرانية أم ماذا ؟

. جهل الأشخاص الذين كتبوا تلك الأناجيل أهم حواريو المسيح عليه السلام أم أشخاص آخرون انتحلوا أسماءهم ؟

. جهل المصادر التى أخذت عنها الأناجيل : أهى إملاء المسيح على تلاميذه ؟ أم نسخة ، أو نسخ مفقودة ؟ أم هى تدوين للروايات الشفهية التى كانت ترددها الأجيال قبل التدوين النهائى ؟ !

(٩) قد عالجنا هذه المشكلة علاجا وافيا فى كتابين : أحدهما الحكيم فى حديثه مع الله والثانى : « الاسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى » الأول نشر : دار السلام للطبع والنشر والتوزيع . والثانى دار الوفاء .

• جهل الوقائع التى ترويها الأناجيل : أهى شهادة عيان لحياة المسيح عليه السلام ، أم تصوير لعقائد طوائف مختلفة كل إنجيل منها كان يمثل عقيدة طائفة كما تراها هى لا كما كانت فى مسيحية المسيح نفسه عليه السلام .

• صعوبة التوفيق بينها فى الأناجيل من إختلافات وشناعات وتناقضات حول الواقعة الواحدة . وبخاصة فى شجرة نسب المسيح عليه السلام .(١٠)

هذا وقد خضعت أسفار العهدين القديم والجديد لدراسة نقدية موضوعية حديثة قام بها مفكرون غربيون لايحصون عدداً أمنهم من هم يهود ، ومن هم نصارى . والذى حملهم على هذا العمل النقدى المشكلات التى أشرنا إلى بعضها آنفاً أضف إلى هذا أن آباء الكنيسة فى كل زمان قد لوحظ أن إجابتهم على تلك المشكلات كانت ساذجة لم تضع حداً للمشكلة . لذلك إستأنف المفكرون والنقاد البحث فيها من جديد . ونكتفى هنا بنص جامع إنتهى إليه النقاد فى حقيقة الأناجيل بعد البحث الموضوعى الدقيق . يقول الدكتور موريس بوكاى :

« أن اللمحة العامة التى أعطيناها عن الأناجيل والتى إستخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى مفهوم أدب مفكك تفتقر خطته إلى الإستمرار؟ وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل كما تقول ألفاظ الحكم الذى أصدره المعلقون على الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ، الذين يهمنا الرجوع إلى سلطتهم . حيث أن التقديرات فى هذا الموضوع تؤدى إلى نتائج بالغة الخطورة ولقد رأينا أن بعض المعلومات عن التاريخ الدينى المعاصر لميلاد الأناجيل تستطيع أن توضح بعض سمات هذا الأدب الذى يبلبل القارىء المتأمل ، ولكن يجب الذهاب إلى أكثر من هذا ، كما يجب البحث عما يمكن

---

(١٠) أنظر فى هذا كتاب : « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة د / موريس بوكاى طبعة دار المعارف أو : الحكيم فى حديثه مع الله .

أن تعلمنا به الدراسات المنشورة فى العصر الحديث عن المصادر التى نهل منها المبشرون لتحرير نصوصهم »[١١]

وقفة مع هذا النص :

هـذا النص يسجل الحقائق التى إنتهى اليها النقاد من دراستهم لنصوص الأناجيل .

وقد استبعدوا — بشكل قاطع — أن تكون الأناجيل وحيا من عنداقه لأن بها تناقضات وجهالات ساحة الوحى مبرأة منها .

وقد أطلقوا على نصوص الأناجيل مصطلح « أدب مفكك » ، وأنه يوقع القارىء المتأمل فى حيرة وبلبلة فكر .

وقد استعان النقاد بالحكم الذى أصدره المعلقون على الترجمة، المسكونية[١٢] للكتاب المقدس والمعلقون كانوا من رجال الدين ، أى هم أهل الإختصاص فى هذا المجال ، ولهم فيه سلطة شرعية لاينازع فيها أحد . إذن فرجال الدين قد إتفقوا مع النقاد على النتائج التى أدى اليها البحث العلمى الموضوعى حول النصوص المقدسة توراتية وإنجيلية .

أى أن هذا النص يمثل رأى الكنيسة نفسها فى النصوص المقدسة . وهذا يوضح لنا أن أصـل الأصول فى الديانة المسيحية يكتنفه قدر هائل من الشكوك والإضطراب . وهذا ما أردنا تأكيده هنا .

ومعنى كلمة « أدب » التى إرتضى المعلقون والنقاد اطلاقها على الأناجيل أن هذه الأناجيل عمل بشرى لانصوص وحى . ووصف هـذا الأدب بأنه

---

(١٢) المسكونية نسبة إلى الأرض المسكونة . أى مؤتمر عام شمل علماء المسيحية فى الأرض المسكونة . وهذا مايشبه الاجماع فى المصطلح التشريعى الاسلامى .

« مفكك » يفيد أنه أدب لم تتوفر له مقومات الأصالة والإحكام وهذا وصف جد خطير بالنسبة لاعتقاد الكنيسة ؟ !

ويروى موريس بوكاى تقريراً آخر أشد خطورة مما تقدم فيقـــول : « وبعض هذه الكتابات المزورة يحتوى تفاصيل خرافية أنتجها الخيال الشعبي وعلى ذلك فبعض مؤلفى الدراسات عن الأناجيل المزورة يذكرون برضى شديد الوضوح مقاطع من هـذه التفاصيل تدعو حقاً للسخرية . . . وعلى المعلقين أن يتحلوا بشرف الإعتراف بهذا (١٣)

تشبيه رائع :

وينتهى نقاد الأناجيل إلى وصفها بأنها انموذج من أدب الملاحم الشعبية أنها مثل ملحمة رولان لها أصل تاريخى لكن الخيال الشعبى ضخم ذلك الأصل وأضاف اليه وأضاف . وهذا لا يمنع من صدق الواقعة تاريخيا ، وإنما الذى ينبغى أن يزاح عنها هو التضخيم الذى أضافه الخيال البشرى . وفى ذلك يقول موريس :

« ونفس الأمر بالنسبة ، للأناجيل فخيالات متى والمتناقضات الصارخة بين الأناجيل ؛ والأمور غير المعقولة ، وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث ، والتحريفات المتوالية للنصوص ، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوى على اصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنسانى وحده ، لكن هـذه العيوب لا تضع فى موضع الشك وجود رســالة المسيح . فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التى جرت بها » (١٤)

وهذا هو عين الحق والصواب . فلا ينبغى أن يشك مؤمن فى وجـود

---

(١٣) نفس المصدر (٩٩)

(١٤) نفس المصدر (١٣١)

المسيح وصحة رسالته ، ولكن الشك الذى هو من صميم الإيمان أن تكون هذه الأناجيل وحيا من عند الله ؟ ! !

رسائل بولس :

أما رسائل بولس وهى أهم مصادر المسيحية باعتراف الكنائس نفسها فهى من حيث تحقيق النصوص ونسبتها إلى كاتبها صحيحة النسبة ولم يعترها ما اعترى الأناجيل من أوهام وشكوك ، ولكنها تشترك مع الأناجيل فى أمور أخرى شديدة الخطورة والحساسية . الا وهى عدم شرعية الأخذ عن مصادر موثوق بها ، وعدم وفاقية ما فيها من تعاليم لتعاليم السيد المسيح عليه السلام .

فبولس ليس من حوارىي المسيح ولم يره ولم يلتق به . وحيلة اتصاله بالمسيح رؤيا ومناما حيلة مطعون فيها . وبولس كان ذو عقيدة أو ثقافة راسخة قبل التصاقه بالمسيحية ، فقد كان حافظا ومتبحرا فى تعاليم الأفلوطينيه الحديثة ، ذات الثالوث المتقدم ذكره ، وكان على صلة بالعقائد الوثنية القديمة وفى مقدمتها المترائية صاحبة عقيدة الخلاص والكهانة الوسيطة بين العبد والآلهة ، والمذابح والقرابين ورسائل بولس وإن صحت نسبتها إليه فإن التعاليم التى وردت فيها لم تصدر عن السيد المسيح عليه السلام وإنما هى ملفقة من عقائد الرومان وعقائد مدرسة الاسكندرية أو الأفلوطينية الحديثه وباختصار شديد نقول :

إن رسائل بولس صحيحة السند عليلة المتن . وصحة سندها لا تعتبر سببا فى قبولها واعتمادها مع تزوير المادة المذكورة فيها من حيث تصويرها لتعاليم السيد المسيح عليه السلام . والفروق جد كبيرة بين مسيحية المسيح عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم وكما عرفها المسيحيون الأوائل فى عهد آريوس ونسطوريس ومن قبلهما ، وبين المسيحية الحديثه ، التى ابتدعها بولس وروج لها وتقبلتها الكنيسة بالرضا والقبول .

وصفوة القول :

ان الكنيسة التى تولت الريادة والتوجيه فى أوربا حتى القرون الوسطى لم تمتلك الأصول الصحيحة للنصوص المقدسة التى ترقى إلى درجه القطع واليقين فى نسبتها إلى قطب الدين المسيحى ، وهو عيسى بن مريم عليه السلام أو أحد تلاميذه الاثنى عشر .

وترتب على هذا : تحريف العقائد ، وتحريف قواعد السلوك ، ووقوع الكنيسة فى ورطة كانت هى السبب فى القضاء على سلطانها وتدهورها إلى اليوم .

ثنائية الإنسان فى ظل النظام الكنسى أو البابوى :

ومن العيوب والمآخذ التى سجلها وعى الزمن عن النظام البابوى الكنسى ما يعرف عند الدارسين والمفكرين بـ « ثنائية الإنسان » أو مثنوية الإنسان . والمراد من هذا التعبير هو انشطار الإنسان فى الولاء والتبعية والخضوع إلى سلطتين متنازعين لكل سلطة منهما ايديولجية خاصة بها .

وذلك لأن الكنيسه لم يدم استئثارها بالسلطة العامة على المجتمعات الأوروبية . بل نازعها رجال الحكم والسياسه من ملوك ورؤساء وأمراء ولأمر ما رضيت الكنيسة بأن يكون لها السلطان الدينى أو الروحى المعنوى ، وأن تترك للملوك والرؤساء والأمراء السلطة السياسية وتدبير شئون الحياة او رضيت الكنيسة بالسلطة « الروحية » وتركت السلطة « الزمنية » لغيرها من الحكام . وأصبح على الإنسان فى ظل هذا الانشطار أن تكون « روحه » للكنيسة ، و « جسده » لرجال الحكم من ملوك ورؤساء وأمراء .

وبهذا حدث أول انفصال بين الدين والسياسة . وللكنيسة عذرها فى هذا لأنها لم تكن تملك - وما تزال - دستورا أو نظاما تدير من خلاله شئون الحياة فى كل مظاهرها .

فالمسيحية التى اعتمدتها الكنيسة هى مسيحية بولس لا مسيحية السيد المسيح . ومسيحية بولس كما أوجزنا الحديث عنها ملفقة من عقائد وثنية هى قاصرة كل القصور عن التشريع الذى يقود أمة ، أو يحقق الأمن والاستقرار لشعب .

يقول برنتن : « ان المسيحية الظافرة فى مجلس نيقية (العقيدة الرسمية) فى أعظم امبراطورية فى العالم مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فى الجليل . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد (الأناجيل وأعمال الرسل) التعبير النهائى عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعا لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا[١٤] .

وقفة مع هذا النص :

انه يقارن بين المسيحية الأولى التى كان عليها المسيحيون فى الجليل وهو مهد رسالة عيسى ، وبين مسيحية القرن الرابع الذى انتهى إليها مجمع نيقية مستقاة من أقوال بولس .

وانتهى المؤلف ، وهو مسيحى ، إلى أن المقارنة لا تسفر عن وقوع اختلاف بين المسيحية فى عهدها الأول ، وبين مسيحية القرن الرابع فقط بل تسفر المقارنة عن أن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بأى وجه من الوجوه . وبهذا يظهر فشل الكنيسة من عدة وجوه :

- فشلها فى مجال صحة النصوص .
- وفشلها فى مجال الاقناع وعجزها التام عن تفسير أسرار الطقوس الدينية
- وفشلها فى التغلب على ما فى مصادرها الدينية من تنافرات وتناقضات .
- فشلها فى كف أطماعها وفى كسب ولاء الناس .

(١٤) أفكار ورجال (٢٠٧)

ويضاف إلى هذه الأنماط فشل آخر كان واحداً من أهم وأبرز العوامل في التمرد عليها وإسقاطها وذلك هو :

• تصورات الكنيسة عن بعض الظواهر الكونية والاجتماعية :

كان للكنيسة مواقف مخزية ومؤسفة في فهم ظواهر الكون وبعض الأوضاع الحياتية .

• فقد كان رجال الدين يعتقدون أن الأرض مركز الكون وتعلل هذا بأن الأرض عاش عليها السيد المسيح فهي أولى بأن تكون مركز الكون دون غيرها ؟

• وكانوا يعتقدون أن الأرض أو الكون كله وجد عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد ؟

• وكانوا يعتقدون أن العناصر الأولية أربعة : الماء والنار والهواء والتراب ؟

• وكانوا يعتقدون أن الأمراض أرجاس من أرجاس الشياطين وأن علاجها يكون بإقامة القداس وإحراق الأبخرة ؟ !

• وكانوا يرون في نظام العبودية والرق عقوبة من الله على الخطيئة الموروثة . وأن الرقيق يجب أن يظل رقيقاً ومن يدعو إلى الحرية والعتق فهو متمرد على حكم الله ؟ !

هذه هي المسيحية التي عرفتها أوربا وتولت زمام الحكم والتوجيه فيها ردحاً من الزمن ، وكان رجال الدين يزعمون أن الكنيسة بما تملكه من نصوص مقدسة ومباركة من السيد المسيح هي — وحدها — دون سواها مصدر المعرفة الصحيح ، وكل خارج عليها إنما هو مهرطق محروم من الملكوت السماوي[١٥] ؟

هذه هي الكنيسة وتعاليمها ومقوماتها وتصوراتها . تولت زمام التوجيه

---

(١٥) سيأتي لهذا تفصيل آخر عند الحديث عن أسباب نشأة العلمانية والصراع بين رجال الكنيسة والعلماء .

وما هى له بأهل ، وما كانت الكنيسة لتتاح لها فرص القيادة والتوجيه مطلقا أو مقيدا إلا فى عصور الجهالة والانحطاط . وهذا هو الذى وقع بالفعل . وهذا هو الذى كانت تدركه الكنيسة نفسها . فحدت من تعليم القراءة والكتابة ، واستأثرت بالكتاب المقدس وتعاليمه وتفسيره لأن فى بقاء الجهل بقاء لها . فإذا حل العلم محل الجهل آذنت شمسها - إن كانت لها شمس - بالأفول :. ؟

وانحطاط أوروبا فى العصور الوسطى تحت ظل الكنيسة ، وفى كنف التوجيه الدينى المنحرف ، حقيقة لا ينازع فيها عاقل .

لقد ناءت أروبا بالأثقال من جراء الجهالة التى فرضتها عليها الكنيسة والظلم الذى وقع عليها من ملوك الضياع والإقطاع ، وفقدت أروبا نور الهداية وصدق التوجيه فخيم عليها الظلام من كل جهة ، وقبل أن نعرض لموقف الإسلام من هذه التصورات الكنسية ، نذكر فيما يأتى نص خطاب من أحد ملوك غرب أوروبا إلى أحد خلفاء المسلمين لما فى ذلك الخطاب من شهادة صادقة على تخلف اوروبا فى أوج سلطان الكنيسة ، ورقى الشرق الإسلامى بفضل الإسلام ، وإليكم نص الخطاب حرفيا :

الخطاب :

« من جورج الثانى ملك إنجلترا والغال (فرنسا) والنرويج ، إلى الخليفة هشام الثالث : بعد التعظيم والتوقير . سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم فى بلادكم العامرة ، فأردنا لبلدنا اقتباس هذه الفضائل لنشر أضواء العلم فى بلادنا التى يحيطها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز » .

خادمكم المطيع جورج »[١٦] .

(١٦) كان هذا فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى : انظر القرآن والمنهج العلمى المعاصر للمستشار عبد الحليم الجندى ١٧٦

هذا الخطاب يصور حالة أوروبا فى القرن الحادى عشر ، وهو أحد القرون الوسطى التى كانت الكنيسه تسيطر خلالها على مقاليد الأوضاع الروحية والثقافية هناك ، وتذكر بعض المصادر أن هذا الخطاب كان مصحوبا بهدايا قيمة منها شمعدانات من الذهب الخالص طول الواحدة ذراعان ، وإثنتان وعشرون قطعة ذهبية من أوانى المائدة هدية خالصة للخليفة المسلم على أن أبرز عبرة تؤخذ من هذا الخطاب هى توقيع الملك جورج عليه بعبارة : خادمكم المطيع » ؟ .

فانظر إلى أى مدى رفع الإسلام خلفاء المسلمين وقتذاك ؟ وهل فى الواقع المعاصر الآن من يخاطب أحدا من ولاة أمور المسلمين بمثل هذه العبارة من رؤساء الغرب وزعمائهم .

وبم تسمى هذه الواقعة ؟ ! أليست هذه بعثة من بعوث العلم نزحت من أوروبا إلى الأندلس حين كان الإسلام شامخ الهامة فيها ؟ ثم انعكس الوضع لما بعد المسلمون عن الإسلام فأخذنا نرسل طلابنا لتحصيل العلم والمعرفة من معاهد الغرب وجامعاته . وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

موقف الإسلام من التصورات الكنسية

لم تستند الكنيسة فى تصوراتها التى أوجزنا الحديث عنها فيما تقدم إلى دليل صحيح من النقل، ولا إلى برهان مقنع من العقل؟! وبذلك فقدت كل مقومات الصدق فيما صدر عنها فتصوراتها باطلة أمام النقل والعقل على حد سواء. والنقل والعقل هما المرجع فى معرفة الصحيح والباطل من العقائد والأفكار. وقد ووجهت تصورات الكنيسة من الجهتين معا :

. من جهة النقل، والعمدة فيه النصوص الإسلامية من الكتاب ومن السنة، وقد نضيف إليهما نصوص أهل الكتاب (النصارى) أنفسهم على ماهى عليه الآن.

. ومن جهة العقل، وهـــذا المجال شركة بين علماء الإسلام والمعتدلين المستنيرين من مفكرى الغرب من المسيحيين وغيرهم، بل ومن بعض رجال الدين منهم.

ونقدم ـ هنا ـ مواجهة الإسلام للتصورات « البابوية الكاثوليكية » أما دور مفكرى الغرب ومستنيريه فسيأتى فى فصل الصراع بين الكنيسة وخصومها فيما عرف بـ « عصر التنوير » فى أوروبا خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

وفى مواجهة الإسلام لتلك التصورات نقتصر على إسس التصورات التى إذا انهارت ـــ ولابد أن تنهار ـ إنهار تبعا لها مابنوه عليها من فروع وتشعيبات.

ونحدد منذ الآن موضوعات المواجهة فى التصورات الآتية :

تأليه المسيح - الثالوث - الصلب والخطيئة الموروثة - عصمة البابوات - الرهبانية - العشاء الربانى - الاعتراف .

• تأليه المسيح عليه عليه السلام :

إن أول فرية الصقت بالمسيحية وكانت إيذانا بظهور فريات أخرى، هى فرية تأليه المسيح عليه السلام . وهذه الفرية هى التى كدرت صفو مسيحية المسيح وكانت أولى الخطوات فى طريق الشيطان .

فعيسى عليه السلام ليس بدعاً من الرسل والرسل كلهم من البشر وهذه سنة الله فى الرسالات .

وقد حملهم على القول بتألية عيسى عدة عوامل هى فى الواقع أوهام فى أوهـــام .

- حملهم عليه ماورد فى رسائل بولس من أكاذيب . وبولس لم يكن من حوارى المسيح ولا هو رآه وكان من ألد أعداء المسيحيين قبل التحريف .

ولو كانت هذه المسألة (مسألة تاليه المسيح) صحيحة لنقلها عنه حواريوه الحقيقيون أو نقلها عنه بعضهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن .

. وحملهم على القول بالتأليه عبارات وردت فى الأناجيل تفيد أن الله - سبحانه عما يقولون - أبو المسيح ، من مثل قول المسيح حسب الروايات الانجيلية : « أبى الذى فى السماء » ، ومثـــل قوله فى الصلاة التى علمهم إياها : « يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك » .

هذه العبارات على فرض صحتها لا دلالة لهم فيها على أن عيسى ابن الله حتى يكون مثله إلهاً ؟ !

وقد نقض العالم السنى المسلم محمد بن مسلم بن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن هذا الفهم الباطل الذى فهمه رجال الدين المسيحى من أن كلمة « أب » تعنى الأبوة الحقيقية :

وخلاصة قول ابن قتيبة : إن القوم ضلوا حين فهموا من هذه العبارات المعنى الحرفى لها : وهى أبوة الصلب والنسب بينما المعنى المراد إنما هو : أبوة الرعاية والحفظ والتأييد ويزيد هذا المعنى رسوخا وقوة : أن المسيح فيما تروى عنه أناجيل النصارى قال عن الماء . إنه أبى ، وقال عن الخبز : إنه أبى وكم خاطب المسيح فى الأناجيل الحواريين قائلا لهم : أبوكم أو أبيكم ، أو أباكم الذى فى السماء ؟ !

ومعنى هذا : أنه لو كان المراد من كلمة « أب » فى أقوال المسيح أبوة الصلب لزم من ذلك :

أن يكون الماء أبا حقيقيا للمسيح ؟ !

وأن يكون الخبز أبا حقيقيا له كذلك ؟ !

بل وأن يكون الله - تعالى عما يقولون - أبا حقيقيا لحواريى المسيح الاثنى عشر ؟ !

بل ولكان أبا لكل من يقول : « يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك .. ؟ !

وهذه « اللازميات » لم يقل بها أحد حتى من النصارى أنفسهم .

إذا فالأبوة - على فرض صحة ورودها فى كلام السيد المسيح - إنما هى أبوة مجازية لا حقيقية .

---

(١٧) أنظر تأويل مشكل القرآن (٩٠) .

• وحملهم على القول بالتأليه ولادة المسيح من أم بلا أب . وهذه شبهة مردودة . ولو جاز أن يأخذها عاقل دليلا على التأليه فإن آدم أحق بها من عيسى عليهما السلام . ؟!

عيسى ولد من أم وليس له أب . وآدم خلق من لا أب ولا أم فخلق الله آدم أعجب وأدخل فى باب الإعجاز من خلق عيسى ولم يقل أحد من النصارى بأن آدم إله فكيف ساغ لهم بناء على هذه الشبهة أن يؤلهوا عيسى عليه السلام ؟!

• وحملهم على التأليه بعض معجزات عيسى عليه السلام ، من إحياء الموتى وإبراء المرضى . . !!

وليس فى هذا دليل - كذلك . فالمعجزات فاعلها الله وليس الرسل، وإنما يجريها الله على أيدى الرسل تصديقا لهم فى دعوى النبوة ومعجزات عيسى عليه السلام من جنس معجزات سائر الرسل فى كونها أمرا خارقا لما جرت به عادات البشر وقدراتهم . وإذا صح أن المعجزات تتفاوت فى القوة فإن فى معجزات غير عيسى من رسل الله ماهو أدخل فى باب الإعجاز منها ، وأكثر دهشه وغرابة فعرش بلقيس الذى نقل كما هو من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى أقصى شمالها فى أقل من طرفة عين ادخل فى باب الإعجاز من معجزة إحياء الميت . إذ قد يقال : إنه لم يمت بل أغمى عليه — مثلا — أما نقل قصر من قصور الملوك فى أقل من طرفة عين (لاحظ أن عنصر الزمن هنا يكاد يكون معدوما) . فهو قاطع لمادة النزاع والجدل . وإن تكنولوجيات العالم اليوم جمعاء لعاجزة كل العجز عن أن تأتى بمثل معجزة سليمان عليه السلام. ولو كان بعضها لبعض ظهيرا . ؟! (١٨)

---

(١٨) انظر ـ أن شئت تفصيلات أكثر فى كتابنا « مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه ـ دار الأنصار — القاهرة ١٩٨٠ م .

القرآن الكريم يدحض هذه الفرية :

ما أكثر النصوص القرآنية التى فندت شبهات النصارى ودحضت فرية التأليه هذه . ومن ذلك قوله سبحانه :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؟! قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد ان يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق مايشاء . والله على كل شىء قدير »(١٩) .

وقـــوله :

« وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيراً »(٢٠) .

وقـــوله :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون »(٢١) .

وفى أسلوب قوى عنيف يصور القرآن شناعة هذه الجريمة ، التى تدرك قبحها الجمادات فيقول :

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولداً . ومايبنغى

(١٩) المائدة (١٧)
(٢٠) الاسراء (١١١)
(٢١) مريم (٣٤-٣٥)

للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »(٢٢) .

وهكذا يكر القرآن فى قوة ووضوح على فرية النصارى ويقطع كل شبهه تؤدى إلى هذا الفهم العقيم .

ويقـــول :

«قل هو الله أحد. الله الصمد لم يلد.ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» .

وتدور النصوص القرآنية حول توحيد الله توحيدا خالصا من شائبة الصاحبة ، والولد ، والشريك ، والمثل . وذلك هو التوحيد المنجى ، وتلك هى العقيدة الصحيحة . وبما ذكره القرآن فى هذا الصدد استقامت رسالات الرسل جميعها . ونقيت مما أضافتها إليها الأهواء الفاسدة .

فليس لله أصل هو متفرع عنه ، وليس هو أصلا لأحد هو متفرع عنه « لم يلد . ولم يولد . وليس له فى الوجود مثل أو مكافىء : ولم يكن له كفوا أحد .

• أما شبهة الولادة - ولادة عيسى من غير أب ، فقد أزاحها القرآن عن مجال الاستشهاد بها على التأليه فقال :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن : فيكون »(٢٣) .

القرآن الأمين أخلص فى النصح لمؤلهى المسيح عليه السلام ، وأزال عنهم الشبهة التى استندوا إليها - شبهة الولادة من غير أب - فى أسلوب برهانى واضح كل الوضوح .

---

(٢٢) مريم (٨٨ — ٩٥) .
(٢٣) الأعراف (٥٩) .

إن مثل خلق عيسى كمثل خلق آدم . فآدم مخلوق من تراب لا أبا ولا أم له ولم يقل أحد إنه « إله » وعيسى مخلوق من أم ولا أبا له . فكيف ساغ لكم أن تؤلهوه ؟ ! إن آدم أحق منه بهذا ـ لو كان ما استندتم عليه داخلا فى الإعتبار . فهل يصح هذا فى عقل عاقل ؟ !

ومعلوم أن القرار بتأليه المسيح عليه السلام لم يصدر إلا بعد ثلاثة قرون من بعثته فى مجمع نيقية عام ٣٢٥م بتشجيع من قسطنطين أمبراطور روما الوثنية وكان أعضاء المجمع ٢٠٤٨ قال بالتأليه منهم ٣١٨ ضد ١٧٣٠ رفضوا التأليه .

أى أن نسبة الرافضين إلى المجيزين كانت ٨٤٫٤٧ ٪ مقابل ١٥٫٥٣ ٪ ؟ !

ومن أبلغ ماقيل ـ حديثا ـ فى إبطال قضية تألية عيسى عليه السلام ماقاله أحد شيوخ الأزهر ، وهو حجاج برهانى خطابى وجدانى وهذا قوله :(٢٤)

عباد المسيح لنا عندكم	سؤال عجيب ، فهل من جواب ؟!
إذا كان عيسى على زعمكم	الاها ، قويا ، عزيزاً يهاب ؟ !
فكيف اعتقدتم بأن اليهود	أذاقوه بالصلب مر العذاب ؟ !
وكيف اعتقدتم بأن الإلاه	يموت ، ويدفن تحت التراب ؟ !

إن الالوهية معناها : العظمة والعزة والقهر والسلطان والتفرد والتعالى والسمو والخلود والغلبة ، فكيف يتصور عقل عاقل أن « الاله » يولد ويكون طفلا وينمو ويأكل ويشرب ويتألم ويضحك ويقتل وهو لاحول له ولاقوة ؟!

أن معنى الالوهية قد انحط فى كثير من عقائد الأمم ، ومن أكثرها انحطاطا ماذهب إليه مجمع نيقية الذى تسبب فى إضلال كثير من البشر . فقالوا بأن عيسى الاه وهو قول صدر ممن لايملك لمن لايستحق . وقول هذا شأنه هو أضعف الأقوال . !

---

(٢٤) هو الشيخ زاهد الكوثرى فيما أرجح . وقد اطلعت عليه فى مجلة الإسلام منذ عهد بعيد . وسطرته الأن من الذاكرة .

• **التثليث :**

كان القول بالوهية المسيح غريباً منكراً ، والوهية المسيح بصفة خاصة والوهية غير « الله » بصفة عامة لا أرى وصفا دقيقا لها إلا أن نستعير عبارة شاع أمرها بين الفلاسفة حينا ، كانوا يطلقونها على كل أمر مستحيل وقد أصابوا فى الوصف عن طريق تلك العبارة ، وهى :

« كمن يبحث عن قبعة ، سوداء فى حجرة مظلمة لاوجود لها ، ؟ !

هذا هو وصف المستحيل مع مدعيه كما صوره الفلاسفة . وكذلك الوهية المسيح عليه السلام ؛ لأنها ضرب من ضروب المستحيل . فمن أقرها والتمس لها دليلا يقويها فهو كمن يبحث – فعلا – عن قبعة سوداء فى غرفة مظلمة لا وجود لها .

أى أن القبعة ، المبحوث عنها لا وجود لها إلا فى ذهن أو خيال أو وهم من يبحث عنها .

ولا بد أن تكون القبعة سوداء ليكون لونها من لون الغرفة التى يظن أن القبعة موجودة فيها وهذا رمز للحيرة والجهل والضلال عند الباحث عن القبعة ، لأنه لايرى بوضوح ولا بغير وضوح « جو الغرفة » ، فهو دائم البحث بلا طائل .

ومثل الوهية المسيح فى الغرابة والنكارة والتوهيم القول بالتثليث الإلهى .

فبعد أن قرر مجمع نيقية عام ٣٢٥ الوهية المسيح انعقد مجمع آخر عام ٣٨١م فى قسطنطينية . وقرر المؤتمرون وعددهم مائة وخمسون اسقفا أن الروح القدس هو بدوره « إله » ، ولعنوا كل من يعتقد أن الروح القدس ليس باله . وفى مقدمة الملعونين مقدنيوس وأتباعه الذين كانوا يرون أن الروح القدس

ليس بإله ، بل هو مخلوق مصنوع لله ؟!(٢٦) .

وبهذا أكتملت عقيدة التثليث المقدس :

الآب — الابن — الروح القدس .. ؟!

وبهذا — كذلك — دخل الاشراك فى العقيدة المسيحيه من أوسع طريق :

فالله — الحق — لم يعد وحده مالك الملك عنـــدهم . وإنما صار له فى هذا الاعتقاد شريكان : الإبن ، وروح القدس تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

وبعضهم — قبل نزول القرآن — أدعى أن مريم « إله ، لإنها أم « إله » ؟!

وقد حكى القرآن عنهم هذا القول :

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس أتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟!

قال : سبحانك ، ما كان لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته . تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك . إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت على كل شىء شهيد »(٢٧) .

بيد أن تأليه مريم قد رجع عنه المسيحيون الآن . ولست أدرى إن كان هذا صدقا أم موقفا مفتعلا أتخذوه أمام الناس لحسب ؟!

وأيا كان الأمر فإن عقيدة التثليث قد أحرجت رجال الكنيسة أحراجا شديدا . لأن الاشراك لازم لها . وأزاء هذا الإحراج راح بعضهم يضيف جملة أخرى بعد سرد الاقانيم الثلاثة ، فيقولون :

(٢٦) انظر : محاضرات فى النصرانية (١٣١) .

(٢٧) المائدة (١١٦ — ١١٧) .

باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد ؟!!

وعبارة « إله واحد » المضافة أرادوا منها نفى الشرك عن عقيدتهم وقد صارت هذه العبارة « المضافة » مشكلة أخرى من مشكلات الاعتقاد الكنسى، فهى لم تستطع أن تحل المشكلة التى وردت من أجلها بقدر ماصارت هى مشكلة أخرى من أعقد المشكلات .. إذ كيف تكون ثلاث ذوات متغايرة منفصل بعضها عن بعض ؟ فكيف تكون ذاتا واحدة

أنا الآن أكتب وفى يدى قلم ، وأمامى ورقـــة بيضاء . موضوعة على « منضدة » فكيف يسوغ فى العقل أن ذات القلم،وذات الورقةوذات المنضدة تكون : ذاتا واحدة ؟!!

أهناك عقل فى الوجود تنطلى عليه هذه الدعوى الأشد من الوهم ضعفا ونكارة .. ؟!!

وأنت الآن تقرأ ، وفى يدك كتاب ، وتجلس على مقعد . فهل من السائغ عقلا وواقعا أن تصبح يدك ، والكتاب الذى تمسك هى به ، والمقعد الذى تجلس أنت عليه : شيئا واحداً أو ذاتا واحدة .

لقد حوصرت قضية التثليث مع التوحيد المزعوم فيها بالآلاف من مثل هذه الأسئلة ، التى أثارها العقلاء فى كل زمان ومكان . ولم تهتد الكنيسة إلى الآن ، ولن تهتدى إلى الأبد — إلى جواب يقنع السائلين والمتسائلين لأن هذه القضية لم تستند إلى شىء من الحق قط . فصارت عسرة الهضم جداً وأنكرها كثيرون ولم تجد الكنيسة فى القرون الوسطى من وسيلة الاقناع إلا أن تنشىء محاكم التفتيش ، وتلقى - بالظنة من غير دليل - كل مخالف لها فى الجحيم المستعر[٢٨] .

---

(٢٨) انظر تفصيل القول فى محاكم التفتيش : قصة الحضارة (ج ١٦) والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى والمسيحية للدكتور أحمد شلبى .

اضطراب وتخبط :

والبابا شنودة بابا الإسكندرية الثالث ممن استشعر هذا الحرج، وقد كتب مقالا فى مجلة الهلال المصرية فى ديسمبر عام ١٩٧٠ م وناقش فيه فيما ناقش فكرة التثليث ، وأراد أن ينفى عنها وصمة الشرك بحيلة لاتنهض دليلا على ماقال ، فماذا قال ؟ !

قال : إن التثليث ليس تعدد ذوات ، وإنما تشعب ذات . وضرب لذلك مثلا بالنار لها حرارة ولها ضوء . ثم قال : إن النار والحرارة المنبعثة عنها والضوء شىء واحد ؟ !

وقد ظن البابا أنه أتى بما لم يأت به الأوائل من آباء الكنيسة ، وأنه أوصد الباب أمام المعارضين والنقاد . وظن أن مثله الذى ساقه قد أنطلى على النفوس وجمد نشاط العقول ، وخرست أمامه الألسنة وجفت الأقلام .

ولو كان البابا قد فكر وقدر فأحسن التفكير وأحكم التقدير لظهر له فساد استدلاله قبل غيره ، لأن فيما قاله مقالا ومقالا . فالنار وحرارتها وضوؤها ليست شيئاً واحداً . وإنما هى شىء تولد عنه شيئان :

الحرارة ، ثم الضوء . والنار هى مركز الدائرة وقطب المثلث إن كان المثلث مركز وقطب . الحرارة والضوء أثران للنـــار وحرارة النار يمكن انفصالها عنها ، بل ذلك كثير الوقوع . لأن الإناء النحاسى - مثلا - حين يوضع على النار لفترة طويلة نسبياً تشتد حرارته ، وتظل مشتدة حتى بعد إطفاء النار فتكون الحرارة ولا نار حينئذ .

والسوائل التى تسخن بالنار وتوضع فى « الترمسات » تظل ساخنة لمدة طويلة . فأين عملية الاتحاد التام بين النار وآثارها ياترى ؟! كان ينبغى على البابا أن يدرك هذه الحقائق قبل أن ينخدع بمثله الذى ساقه .

وحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذا المثل ، فإن صحته وقف عليه وحده لا تتعداه إلى « التثليث » الكنسى . ذلك لأن المسيح عليه السلام وهو ثانى الأقانيم الثلاثة حملت به أم ، وولدته . وعاش على الأرض حينا من الدهر . فهو منفصل تماما ، ومغاير تماما للأقنوم الأول : « الآب » ، وللاقنوم الثالث : « روح القدس » أما انفصاله عن الآب فبديهة من البداته . وأما انفصاله عن « الروح » فلان الروح كما يعتقد آباء الكنيسة الكاثوليكية قد بشر به المسيح قبل نهايته وقال للحواريين : أن روح القدس ستظل فيهم إلى الأبد .

إذن فالاقانيم الثلاثة مفصولة بعضها عن بعض . وكل اقنوم مستقل تماما عن الآخر .

ونرتب على هذا سؤالين :

. كيف تكون ثلاث ذوات كل منها مستقل عن الأخرى شيئا واحداً؟!

. وكيف ساغ للبابا أن يقيس التثليث الكنسى على التثليث النارى الذى ضربه مثلا للإقناع . ولا تطابق ولا تناسب بين المثل المضروب وما أراد قياسه عليه .

البابا يريد أن يقول : إن تولد المسيح عن الله تولد معنوى لا حقيقى وهذا القول مردود عليه من كاتب مسيحى مصرى هو الأستاذ يسى منصور و يطلق عليه البابا ورجال الكنيسة المصرية أنه - أى يسى منصور - كاتب قدير ويسى منصور هذا ، أو الكاتب القدير كما يطلق عليه رجال الكنيسة ينسف فى كتاب له ماقاله البابا نسفا لا يبقى له على أثر . وإليك ماقاله الكاتب القدير يسى منصور[٢٩] .

---

(٢٩) ناقشنا هذه القضية باتساع وموضوعية فى كتاب « مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه » مرجع سبق ذكره : كما ناقشناها بأسلوب جديد فى كتاب « الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى » - دار الوفاء .

« الروح القدس هو الاقنوم الثالث فى اللاهوت ، وليس مجرد تأثير أو صفة أو قوة . بل هو ذات حقيقى ، وأقنوم متميز . . . وهو وحدة أقنومية غير أقنوم الآب ، وغير اقنوم الإبن ، ومساوٍلهما فى السلطان والمقام» (٣٠) .

هذا هو الروح القدس : ذات مغايرة لذات الآب ، ولذات الإبن . إذن فالتغاير بين الأقانيم الثلاثة تغاير ذوات لاتغاير آثار ولا صفات .. ؟ !

وهذا الذى يقرره الكاتب القدير يختلف مع ماقرره البابا تماما ، لأن البابا قدر التغاير معنويا لاذاتيا .

والروح القدس مساو للآب والإبن فى السلطان والمقام ، إذن هم ثلاثة آلهة لا إله واحد كما يزعم البابا . فالتثليث — إذن — شرك ، ووثنية لأن فيه الوهية بشر ، وهو عيسى عليه السلام . فماذا يقول البابا إلا أن القـــوم يتخبطون ويخلطون

فإذا كان ماقاله البابا هو الصحيح — عندهم — فيسى منصور ليس كاتبا ولا قديراً . ؟ !

وإن كان ماقاله يسى منصور هو المعتقد — عندهم — فيجب أن يكون هو البابا والرئيس الأعلى للكرازة المرقسية ؟ !

مع أن هذا الكاتب القدير قد وقع فى خلط مع نفسه . فقد نقلنا عنه تحديده لماهية روح القدس آنفا . ومعناه أن روح القدس مغاير لأقنوم الآب وهو « الله » .

ثم يعود فيقرر أن الروح القدس هو « الله » فيقول :

(إن الروح القدس هو الله الأزلى . فهو الكائن منذ البدء قبل الخليقة ، وهو الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء ، والحاضر فى كل مكان وهو السرمدى غير المحدود) .

---

(٣٠) انظر : الله واحد أم ثالوث (١١٦) مجدى مرجان .

إن هذا الكلام الذى قاله الكاتب القدير كان ينبغى ـ لو كان القوم على وعى بما يقولون ـ أن يكون ضبطاً وتحديدا للأقنوم الأول : (الأب أو الله) لا أن يكون وصفا للروح القدس . وبناء على ماقرره الكاتب القدير من أن الروح القدس هو الله الأزلى والسرمدى والخالق لكل شىء ؟ فمن هو الله الأب إذن ؟ !

ومادام الروح القدس هو خالق كل شىء ، وكان الأب شيئا من الأشياء فهو إذن مخلوق للروح القدس ، وكذلك الابن ؟

فماذا بقى لله (الأب) ياترى ؟ وماقيمته فى الوجود ؟ إن الروح القدس وقد علمنا من كلامهم أنه مغاير لله (الأب) أو الأقنوم الأول ، هو وحده كاف لتسيير الكون (فما الحاجة إلى الأقنوم الأول بله الثانى ؟

وإذا كان الأقنوم الثالث (الروح القدس) هو الخالق المدبر الأزلى الأبدى السرمدى فلماذا يبقى ترتيبه فى المثلث اللاهوتى هو (الثالث) إن فى هذا ظلما له وأى ظلم . والعدالة تقتضى أن يكون هو : الأقنوم الأول لاالثانى ولا الثالث . . ؟ !

أما الأقنوم الأول (الأب) فمادام هو مخلوقا للروح القدس فلا يستحق أن يكون هو (الأول) بل لا يستحق أن يكون على الإطلاق .

ومن العجيب والمدهش أن القوم قد قسموا الكون إلى ثلاث وحدات إدارية ، وجعلوا لكل أقنوم وحدة خاصة به .

- جعلوا لله الأب وحدة العدل فهو مصدر العدل . ؟ ! !
- وجعلوا لله الابن وحدة الرحمة فهو مصدر الرحمة . ؟ ! !
- وجعلوا لله الروح وحدة النعمة فهو مصدر النعمة . ؟ ! !

وهذا هو الاشراك بعينه . والواقع أن هذا الثالوث مركب غريب كل

الغرابة من أية جهة نظرت إليه، وقد حذت فيه الكنيسة حذو الرومان وحذو الأفلوطنية الحديثة . وصار من المتعارف لدراسى المسيحية الحديثة وتطورها أن بابا كنيسة الإسكندرية كان وراء تأليه روح القدس عام ٣٨١م كما كان قسطنطين وراء تأليه المسيح عام ٣٢٥م . إذن: الرومان والأفلوطونية الحديثة وراء هذا كله .

ولما كان التثليث لامستند له من نقل ولا عقل ولا واقع اضطرب فيه القوم على النحو الذى رأينا ، وهبطت قيمة الألوهية فى الاعتقاد الكاثوليكى إلى درجة فقدت فيها كل جلالها وبهائها وقهرها .

القرآن يدحض وينذر :

وقد وقف القرآن العظيم موقفا حاسما من فكرة التأليه البشرى ومن خرافة التثليث . وأقام أوضح الأدلة على وحدانية الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك ، وإليك بعضا مما قال :

دليل نفى التعدد والشريك :

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون »[٣١] .

فى الآية الكريمة دعوى ودليل صدقها :

- الدعوى : نفى الولد والشريك عن الله .
- ودليلها . إحكام النظام فى الكون وجريه على سنن لم يتخلف : السماء

(٣١) المؤمنون (٩١) وحرف الجر « من » الداخلة على « ولد » وعلى « إله » لاستغراق النفى وعمومه . أى ما اتخذ الله قط من ولد أيا كان الولد أو الاتخاذ من جنس البشر أو من غيره . اتخاذا حقيقيا أو مجازيا . وأصل الكلام : مااتخذ الله ولداً وما كان معه إله فدخلت من على المفعول لإفادة شمول النفى .

فوق والأرض تحت . والأفلاك تسير ، ولم يقع خلل فى ملكه - سبحانه - ولو كان معه شريك : ولد أو غير ولد لاختل نظام الكون واستبد كل شريك بحصته شأن كل الشركاء . فهذه الدعوى صادقة كل الصدق يدرك صدقها العالم والجاهل . ومن أدلة التوحيد قوله تعالى :

(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون)[٣٢] .

تعدد الآلهة كما تصور هذه الآية - يترتب عليه فساد السموات والأرض والقرآن يتخذ من عدم فسادهما دليلا على نفى التعدد وثبوت التوحيد .

وهذا الدليل خطابى برهانى معا[٣٣] - فهو خطابى لأنه يلفت نظر الناس جميعاً إلى حقيقة كونية مشاهدة ، وهى إحكام نظام الكون وسيره بتدبير الله دون أن يحدث فيه خلل أو فساد . .

وهذه الحقيقة يستوى الناس جميعاً - حسب الفطرة - فى إدراكها . دون إعمال للعقل وترتيب النتائج على مقدماتها بعـــد سلامة المقدمات وصحتها .

وهو دليل برهانى مقنع فى وضوح . ومقدماته صحيحة ، وصحتها مطردة حتى فى الواقع الحياتى للناس .

فلم نر دولة من الدول ، ولا نظاما من النظم يتولاه رئيسان متساويان فى السلطة والإدارة ، ولو حدث هذا - أعنى تعدد الرؤساء فى البلد الواحد - لترتب على ذلك الشقاق والنزاع والتدمير ، حين تتعارض الرغبات وتختلف المقاصد .

---

(٣٢) الأنبياء (٢٠ — ٢١) .

(٣٣) انظر المسامرة بشرح المسايرة لابن شرف القدسى ص ٤٤ وما بعدها : تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد .

وكذلك نظام الكون لو تعددت فيه الآلهة لاختل وفسد . وعدم فساده هو المشاهد . ويترتب على هذا نفى للتعدد . وبالتالى يثبت التوحيد بكل معانيه : توحيد فى الذات ، وتوحيد فى الصفات ، وتوحيد فى الأفعال . فالله واحد أحد فرد صمد لا صاحبة له ولا شريك ولا ولد .

ولما كانت عقيدة التثليث بهذه المثابة من القبح والشناعة ، فإن القرآن الكريم يقضى فى القائلين قضاءه الذى لا يرد . فبعد أن أقام أدلة التوحيد وبراهينه ، وشنع على فرية القائلين بأن لله — سبحانه — صاحبة وولداً . توجه إلى قائليها بهذا النهى القاطع عساهم يثوبون إلى رشدهم :

« يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، إنتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض . وكفى بالله وكيلا » (٣٤) .

فإذا إستمر الذين قالوا بالتثليث ، ولم ينتهوا فيكون الإنتهاء خيرا لهم . فإن الحكم العادل فيهم :

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؟ وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم . أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار »

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ؟ وما من إله إلا إله واحد . وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلايتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . أنظر كيف نبين

(٣٤) النساء (١٧١)

لهم الآيات . ثم أنظر أنى يؤفكون ، ؟ ! (١)

أجل : ثم ، أنظر أنى يؤفكون ؟ ! وهل بعد هذا الأفك من إفك ؟ !

الصلب والخطيئة الموروثة :

اعتقدت الكنيسة أن المسيح عليه السلام قد صلب ومات ثم قام بعد موته ؟! ويفلفسون واقعة صلبه بأنه كفارة لبنى الإنسان عن الخطيئة الموروثة التى ورثها بنو آدم عن أبيهم آدم الذى خالف أمر ربه وأكل من الشجرة المحرمة « شجرة المعرفة » .

وفى هذا الفرع عدة تصورات :

• أن أبا البشر آدم حين أخطأ ظلت خطيئته فى عنقه وفى أعناق ذريته إلى أن وقع التكفير بصلب المسيح فعلا ؟ !

• أن المسيح عليه السلام قد صلب فعلا وهو ابن الله ؟ ! !

• إن الله قدم إبنه الوحيد (سبحانه) للصلب محبة منه لعباده وليكفر عنهم خطيئتهم الموروثة ؟ ! !

وللإسلام موقف محدد من هذه التصورات يمحوها من الوجود بشكل قاطع . وإليك البيان :

• أولا : خطيئة آدم .

لا نزاع أن آدم عليه السلام قد وقع منه ما أخذه الله عليه وعده معصية فقد جاء بهذا صريح القرآن فى أكثر من موضع .

فقد صدر أمر لآدم وحواء من الله تعالى بالنهى عن الأكل من الشجرة التى عينها وحددها لهما عن طريق الإشارة الحسية الواضحة :

---

(١) المائدة (٧٢ – ٧٥)

«... ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»[٣٦]

ثم احتال الشيطان فزين لهما الأكل منها. ويحكي القرآن الأمين طريقة هذا التزيين فيقول:

«فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»[٣٧].

وانطلت هذه الحيلة على آدم فوقع في المحظور:

«فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى»[٣٨]

حقيقة هذه المعصية:

هذه هي معصية آدم عليه السلام، والمعاصي أنماط ودرجات، فليست هي على درجة واحدة، ولكنها متفاوتة، منها الصغيرة، ومنها الكبيرة، ومنها ما يقع عن قصد ووعي تام وتعمد وعزم. ومنها ما يقع على سبيل السهو والنسيان، ومنها ما يقع عن طريق الإكراه أو التأويل فمن أي نوع كانت معصية آدم عليه السلام؟!

يجيب على هذا السؤال القرآن الأمين نفسه:

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما»[٣٩]

وبهذا حدد القرآن الحكيم نوع معصية آدم ربه تحديدا دقيقا كل الدقة واضحا كل الوضوح.

إنها معصية وقعت بسبب النسيان والسهو والغفلة، فليست هي مقصودة قصدا، ولا متعمدة تعمدا. إن آدم نسي عهد ربه فأكل من الشجرة المحرمة

---

(٣٦) البقرة (٣٥)
(٣٧) طه (١٢٠)
(٣٨) طه (١٢١)
(٣٩) طه (١١٥)

ولو كان على ذكر لقاوم إغراء الشيطان . إذن معصية آدم كانت محصورة في النسيان . وهذا يشفع أو هو كان شفيعاً بالفعل له عند ربه .

معصية ليست مؤبدة :

ومع هذا . فإن تلك المعصية لم تتأبد على آدم ، بل لم تصاحبه حين أنجب باكوره بنيه ، فقد غفرها الله له وتاب عليه وهداه وبرأه منها بمنه وفضله وكرمه . وفي هذا جاء صريح القرآن الكريم :

« ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (٤٠)

اجتباه : اختاره واصطفاه . وتاب عليه : غفر له وعفا عنه ، وهداه أرشده ووفقه للعمل الصالح فيما يستقبل من حياته ولهذا لم يتحدث القرآن عن أية معصية وقعت من آدم بعد هبوطه إلى الأرض ، وبعد أن اجتباه ربه وتاب عليه وهداه .

وحين أنجب آدم كان طاهرا مطهرا متوبا عليه مهديا للعمل الصالح .

إذن ، فكيف يورث آدم بنيه خطيئة كان هو قد برىء منها ؟ ! وإذا كان قد غفر لآدم ، وهو الجاني الحقيقي للمعصية . فكيف يؤاخذ عليها بنوه وهم لم يجنوا تلك المعصية ولا كانوا موجودين ساعة وقوعها . وإنما كانوا ذرية من بعده ؟ !

وعقيدة الخطيئة الموروثة كانت أكبر معول هدم في صرح الكنيسة إبان عصر التنوير في أوربا (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) وصار منفذا واسعا للطعن في سلطان الكنيسة والتمرد عليها وانصراف الناس عنها .

وما أكثر الذين علقوا على هذه العقيدة تعليقات لاذعة وصادقة كل الصدق ومن هؤلاء فولتير الفرنسي الذي كان يعتبر عقيدة الخطيئة الموروثة :

---

(٤٠) طه (١٢٢)

« إهانة لله واتهاما له بالبربرية والتناقض ويتساءل : كيف يعاقب الله أجيالا (أبرياء) لأن أباهم الأول كان قد أكل فاكهة من حديقة ؟ » (٤١)

ويقول الدكتور كيرلس النتجون وهو من فقهاء أهل الكتاب : « إن الله أجيال قبل أن تولد من جراء خطيئة آدم عسير ان توصف بالعدل ؟ وإن كانت هذه هى العقيدة المسيحية فعسير علينا أن ننظر فى تزكيتها أمام ضمير الأمة » .

دحض هذه الفرية :

ولهذا فإن القرآن الأمين ، ينكر على هذه الفرية ويقرر الحق الذى ينسجم ويتسق مع العدل والعقل والفطرة ، وهى سنة الله التى لم تجد ولن تجد لها تبديلا ولا تحويلا .

والحق الذى يقرره القرآن الحكيم هو .

- « قل أغير الله أبغيكم ربا وهو رب كل شىء . ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ... (٤٢)
- « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم .. » (٤٣)
- « كل نفس بما كسبت رهينة » (٤٤)
- « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » (٤٥)
- « من عمل صالحا فلنفسه .ومن أساء فعليها. وما ربك بظلام للعبيد »(٤٦)

دلالة هذه الآيات :

هذه الآيات الحكيمات تدل على مبادىء تشريعية محددة . وتحسم كل خلاف حول أصول التكليف والمسئولية .

(٤١) العلمانية (١٦٣) نصر عبد الرحمن الحوالى – مكة المكرمة .
(٤٢) الأنعام ( ) (٤٣) النور (١١)
(٤٤) المدثر (٣٨) (٤٥) النجم (٣٩)
(٤٦) فصلت (٤٦)

« فالذي يعمل عملا صالحا فثمرة عمله له هو دون غيره .

والذي يقترف اثما أو جريمة فعلى عاتقه هو تقع المسئولية فلن تفيد طاعة امرىء شخصا آخر عاصيا .

ولن يسأل برىء عن ذنب عاص أو مجرم .

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (٤٧) .

« واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » (٤٨) .

هذا هو العدل والحق والإنصاف . وهذا المبدأ الإسلامي العادل هو الذي تأخذ به كل نظم العالم مسلمين وغير مسلمين فإذا أجرم أب فلا يعاقب معه بنوه . بهذا تقضى كل محاكم العالم وتطلق نظم العالم وقوانينه على اختلاف منازعها وأصولها على هذا المبدأ الإسلامي مصطلح :

شخصية الجريمة :

ويقصد به أن كل إنسان مسئول هو - وحده - عن عمله الصادر عنه باختياره إذا لم يكن له شركاء فيه حرضوه عليه ، أو عاونوه ، أو استخدموه .

ووثيقة حقوق الإنسان أخذت - فيما أخذت - بهذا المبدأ وجعلت من حق الإنسان ألا يساء إليه بسبب عمل ارتكبه غيره . وإذا حدث وأضير إنسان بذنب لم يجنه هو بل جناه غيره عد هذا خروجا عن العدالة ، واعتداء على برىء . ؟!

وهذا واحد من المبادىء والقيم التى صار الإسلام بها عالميا صالحا لقيادة كل البشر وإظلالهم بظله الوارف .

وبهذا تصبح عقيدة الخطيئة الموروثة واقعة نادرة كل الندور ، وشاذة كل الشذوذ .

---

(٤٧) البقرة (١٤١)   (٤٨) لقمان (٣٣)

فليس لها سند من صريح النقول . . ؟ !

وليس سند من صحيح العقول . . ؟ !

وليس لها سند من الفطرة ولا من الواقع . . ؟ !

ولم تستطع الكنيسة أن تواجه خصومها من أبناء الملة التى ادعت حق احتكارها ، وتفسير أسرارها ، فجنت على نفسها لما استضاء الناس بنور العلم ، واستبصروا معالم الطريق وأعملوا عقولهم فيما بين أيديهم من معارف وعقائد وسلوكيات . . ! !

وصفوة القول فى هذه الفكرة .

« أن قبل القول بالخطيئة الموروثة لم تكن فى الوجود خطيئة موروثة وإن بعد القول بالخطيئة الموروثة وقعت فعلا خطيئة موروثة ولكنها خطيئة من نوع آخر لم يخطئها آدم، وإنما أخطأها بعض بنيه، فهم يتوارثونها جيلا عن جيل . وهذه الخطيئة الموروثة الجديدة : هى بدعة القول بالخطيئة الموروثة » ؟ !

عصمة البابوات .

ومن الأخطاء الشنيعة التى وقعت فيها الكنيسة بدعة الزعم أن البابا معصوم ، وعصمة البابا دعامة بارزة فى الاعتقاد الكنسى ، وركن ركين فى تكوين الكثلكة التى تقوم على عقائد عصمة البابا ، واحتكار تفسيره للنصوص المقدسة ، وجعل أقوال القساوسة ورجال الإكليروس « الدين » مساوية لنصوص الكتاب المقدس فى الدرجة ووجوب العمل بها ، بالإضافة إلى « التثليث » والأسرار اللاهوتية ، وكون البابا أى بابا - يستمد سلطانه من « الرب » مباشرة . ثم الاعتراف أمام الكاهن وغفران الذنوب وبيع الجنة بعقود مدنية فى المزاد العلنى وإيصاد الباب أمام العباد بينهم وبين الله إلا عن طريق الكهان وتقديم القرابين لهم . . ؟ !

وبهذه العقيدة ـ عصمة البابا كان الناس يعتقدون أن البابا قادر على منح البركات ، وإنزال اللعنات ، وتعطيل القوانين الطبيعية إذا شاء وإحـــداث الظواهر الكونية إذا أراد ، فهو قادر ـ ومن حقه ـ إدخال من يريد فى الرحمة ، وطرد من يستحق منها . قادر على إنزال المطر من غير سحاب ، وعلى تفريق العواصف المدمرة وتعطيل مفعولها كما يفعل خبراء المفرقعات فى إبطال مفعولها ؟ ! !

واحتل البابا ومساعدوه من الطبقة العليا فى البناء الكنسى منزلة رفيعة ، فى قلوب الناس وسيطروا على مشاعرهم ووجداناتهم وكعادة العقائد الكنسية فى الانتحال والاستعارة والترقيع فإن بدعة عصمة البابا انتحلت من عقائد الأمم الوثنية ، كما فى عقيدة الفرس قبل الإسلام حيث كانوا يعتقدون فى « ملوكهم » عقائد عمياء ويقدسونهم كأنهم آلهة .

بيد أن خداع البابوات وحاشيتهم لرعاياهم قد تعرض لفضائح خطيرة فيما يتعلق ببعض المطالب .

فقد وقع فى جزيرة صقلية جفاف كاد يهلك النسل والضرع . وذهب الناس إلى القساوسة يطلبون منهم إنزال الأمطار فعجزوا ـ بالطبع ـ فانهال الناس على القساوسة والقديسين ، ورموهم بأقذع الشتائم والسباب ، وجلدوا بعضهم بالسياط . وربطوا بعضهم فى العراء تحت حر الشمس ، وأخـــذوا يهتفون فى وجوههم : « إما المطر ، وإما حبل المشنقة »(٤٦) .

---

(٤٦) قذائف الحق (٤٨) الشيخ محمد الغزالى .

الإسلام يزيل هذا الوهم :

الإسلام حرر الإنسان من كل أشكال الرق والعبودية والتبعية وجعل الناس سواء أمام الله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وحرر عقولهم من الجمود والتحجر ، وسما بالإنسان إلى أعلى عليين لحارب الكهانة ، وشنع على مدعيها والمنخرطين فى سلكها ، فالنافع والضار هو الله وحده ، هو القائم على كل نفس بما كسبت يعلم سرها ونجواها . فإذا أراد بأحد خيراً فلا راد له ، وإن أراد بأحد ضراً فلا كاشف له إلا هو .

ونصوص القرآن العظيم تنحو فى هذا المجال منحيين :

أولهما : يتحدث عن الأنبياء والرسل ، وهم أعرف الناس بالله ، وأخشاهم له ، وأقربهم إليه ، وأعلاهم منزلة ، وهم معصومون من المعاصى كبيرها وصغيرها بعد البعثة باتفاق ، وقبل البعثة على الأرجح ومع هذا فإن القرآن يتحدث عن كثير منهم بأنهم كانوا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، وقد يؤمر فريق منهم بالاستغفار ، وهم قط لم يذنبوا ، وإنما يعتبرون جهادهم وعملهم فى مجال الدعوة قاصراً عن بلوغ رتبة الكمال الأسمى بالنسبة لجلال مرسلهم وعظمة شأنه ، أو يعتبرون بعض ما فعلوه باجتهادهم ظانين أنه فى خدمة الدعوة قد خالف الأنسب والأولى إما بأخبار من الوحى ، أو بعد التطبيق العملى فيتوبون ويستغفرون .

فموسى عليه السلام يطلب المغفرة له ولأخيه : «رب اغفر لى ولأخى»[٥٠] وداود يخبر عنه القرآن الأمين أنه : «فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب»[٥١] وسليمان يحكى عنه القرآن أنه قال : «رب اغفر لى وهب ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى[٥٢]» .

(٥٠) الأعراف (١٥١) . (٥١) ص (٣٥) .
(٥٢) ص (٢٤) .

وخاتم المرسلين — صلى الله عليه وسلم — يقول له القرآن الكريم « فسبح بحمد ربك واستغفره »(٥٣).

ويقول : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »(٥٤).

ومعنى هذا كله أن صفوة خلقه وهم الرسل يستغفرون ربهم ويقرون بأن لهم ذنوبا خاصة بهم ، وهم معصومون ، ولم تمنعهم عصمتهم من أن يستشعروا القصور أمام الخالق . هذا هو شأن الرسل المصطفين الأخيار فما بالك بعامة الناس من بعد الرسل ؟! ولن يكون في خلق الله من هو أكرم عند الله من رسل الله . فكيف يمنح البابوات أنفسهم والمقربين منهم حقا يجعلهم أسمى من رسل الله .

هذا هو المنحى الأول للقرآن الكريم في مواجهة هذه البدعة بدعة عصمة البابوات وقداستهم وإطلاق يدهم في ملكوت الله يدخلون الجنة من يشاءون ويطردون منها من يشاءون ؟ !

التنديد بموقف البابوات وحاشيتهم :

ندد القرآن بموقف البابوات والأحبار والرهبان كما ندد بموقف من صدق بما يقولون افتراء على الله وعلى رسله .

ندد بالأولين فقال : « إن كثيراً من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل . . »(٥٥).

ويدخل في المال المأكول بالباطل : القرابين وأثمان صكوك الغفران والعشور ، والوصايا . وكلها موارد كانت تدر على رجال الدين ربحا فاحشا.

---

(٥٣) النصر (٣) . (٥٤) الفتح (١-٢) . (٥٥) التوبة (٣٤) .

وندد بمن يصدقهم ويطيعهم فقال :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »(٥٦) .

وهذه الآية تكاد تكون نصا فيما عليه عقيدة النصارى الذين أمروا ليعبدوا الله فبدلوا دينهم ، واتخذوا عيسى رباً كما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً . وهذا ضلال ما بعده ضلال .

ويعود القرآن فيضع مبدأ للتصالح مع أهل الكتاب ، وأساساً صالحاً لتحقيق الاستقامة ، وإطراح البدع وإزالة الواسطة بين العبد وربه ، وتنقية العقيدة من كل صور الإشراك والوثنية :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .

ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً .

ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . . »(٥٧) .

ذلك هو الحق الذي طمسوه بالباطل : فدعوا عيسى ربا وهو عبد لله ورسول موحى إليه .

ودعوا الكهان أربابا من دون الله ، بيدهم النفع والضر ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

وبقيت آية لها بهذا المقام صلة . فدعوى الكهنوت أنهم وحدهم لهم الحق في تفسير نصوص الوحي ، وأنهم لهم الحق في إضافة نصوص من عندهم إلى نصوص الوحي تكون لها من القداسة ما لنصوص الوحي . هذه المزالق الخطرة يحذر منها القرآن أيما تحذير :

(٥٦) التوبة (٣١) .

(٥٧) آل عمران (٦٤) .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحى إلى ولم يوح إليه شيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله . . . »(٥٨) .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد أبطل هذه الأوهام ، ووضع الحق فى نصابه ، ونبه على الضلال الذى وقعت فيه الكنيسة ، فحرفت نصوص الوحى ولم تكن أمينة على كلمات الله . وادعت لنفسها من الحقوق مالا يصح ثبوته إلا لله - سبحانه - وحرفت العقائد وأحلت محلها أموراً مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

ولولا هذه المواقف التى وقفها القرآن من تحريفات أهل الكتاب لضاع الحق ، ولما عرف أحد ما هو الطريق إلى الله . . !

الرهبانيـة :

لم تكن الرهبانية من الشعائر أو السلوكيات المألوفة فى المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى من الميلاد ، وإنما هى بدعة ، عرفت خلال القرن الرابع الميلادى ، وسيطرت على مشاعر أتباع الكنيسة حقبة من الدهر . وكان لنشأتها أسباب دعت إليها أول الأمر ، ثم تفشى أمرها بين الناس وساء استعمالها حتى صارت مصدراً للأضرار والشرور . وتجاوزت حد الاعتدال إلى الغلو الفاحش .

أجل لم تكن شعيرة من شعائر الدين . وإنما كانت رد فعل لحياة الروم بعد تنصرهم فى أوائل القرن الرابع الهجرى . وبعد أن صار المجتمع المسيحى يتشكون من تركيبة قوامها عنصران :

• العنصر المسيحى أصالة ، وكانت المسيحية حتى آنذاك لها صلة وثيقة برسالة السيد المسيح ، إذ لم تكن الانحرافات قد تفشت فيها على النحو الذى حدث فيما بعد .

---

(٥٨) الأنعام (٩٣) .

« العنصر الروماني الحديث الصلة بالمسيحية . وكان للروم فلسفة في الحياة تصورها في المبادىء الآتية :

١ — الإيمان بالمحسوس ، وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس أو الميتافيزيقا .

٢ — قلة التدين والخشوع .

٣ — شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

٤ — النزعة الوطنية(٥٩) .

وقد ورث الروم هذه الفلسفة عن الفلسفة الإغريقية القديمة . فزادوا ضعفاً على ضعف في الأخلاق والسلوك . وتسابقوا في إحتساء الملذات ووقفوا عليها كل جهودهم . ولم يكن لهم إيمان يغرس في نفوسهم حب العفاف والفضيلة . ولم يعرفوا القناعة ولا الزهد وإنما عبدوا الشهوات وأغرقوا فيها .

وحين امتزاجهم بالمسيحيين بعد تنصر الروم كان هناك واحد من إحتمالين :

إما أن يحمل المسيحيون الروم على حياة الطهارة و العفاف والإيمان بالحياة الآخرة ونعيمها .

وإما أن يحرف الروم المسيحيين إلى حياة اللذة الفانية وعدم الاهتمام بما عند الله .

وللأسف فإن الذي حدث هو أن غلبت النزعة الرومية على السلوك المسيحي فأصبحوا جميعاً أصحاب لذة ومتعة عاجلة . متأثرين في ذلك بمذهب أو فلسفة أبيقور (٢٧٠ ق م) التي ورثها الروم عن اليونان ، وكان أبيقور

---

(٥٩) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (١٧٦) .

يقضى فى الأخلاق والسلوك بمذهب « اللذة » ، وإزاء هذا كله نحا فريق من المسيحيين إلى الرهبانية والزهد فى الدنيا كرد فعل لما رأوه عن الروم من تردى وانحطاط وانهماك فى ملذات الدنيا . وكأنهم أرادوا ـ بذلك ـ أن يضربوا المثل للشعب المسيحى ويذكروه بالعفة والطهارة والتنزه عن الدنايا التى بشر بها السيد المسيح عليه السلام .

وكانت الرهبانية فى أول أمرها معتدلة ، ثم غالوا فيها وصارت تقوم على الدعائم الآتية :

١ — العزوبة : ويعنون بها الإعراض كلية عن النساء والإضراب عن الزواج . واستندوا فى هذا السلوك على عدة أسباب :

الأول : الاقتداء بالمسيح لأنه لم يتزوج ، وقد حث على العزوبة فعلا[٦٠].

الثانى : اعتقادهم أن المرأة شيطان : وفى ذلك يقول سان يونا فنتور : « إذا رأيتم إمرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا حيا وحشيا ؟ ! . وإنما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان »[٦١] .

الثالث : اختصاص الله بالولاء : أى أن الإنسان ، وبخاصة رجل الدين أو الكاهن يجب أن يكون ولاؤه الكامل لله . والذى يتزوج يكون ولاؤه لزوجته ولأولاده أكثر من إخلاصه للكنيسة ؟ ! .

---

(٦٠) انظر إن شئت إنجيل متى (١٩ : ١٣) حيث يزعمون أن عيسى عليه السلام قال : « يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل » .

(٦١) أشعة خاصة بنور الإسلام (٢٩) نقلا عن « الهداية » مرجع سبق ذكره ومن العجيب أن احتقارهم للمرأة كان يشمل الأمهات والبنات فضلا عن الزوجات . فاحتقار الرجل لأمه وبناته عبادة وتقوى ؟ ! .

وحين طرأت فكرة الرهبانية فى مجال السلوك الكنسى طبقتها الكنيسة بأثر رجعى فطلقت على رجال الدين زوجاتهم وأوجبت عليهم التبتل والانقطاع للعبادة ؟ ! .

٢ — التجرد الكامل عن الدنيا : وبذلك حببوا إلى الأتباع العزلة التامة عن الحياة، وقتل كل أمل فيها ، والعزوف عنها حتى النظافة والملابس . وكان بعضهم يرقد فى المستنقعات وهو عار ليعرض جسده للأمراض ، ومنهم من فر إلى الصحراء .

٣ — العبادة المتواصلة : كان آباء الكنيسة يحملون أتباعهم على أن يكونوا فى حالة عبادة مستمرة مهما كان الشقاء والعناء فى مزاولتها من الصلوات والصيام والطقوس والترانيم . ومن خالف عرض نفسه لأشد أنواع العقاب ؟ ! .

٤ — التعذيب الشاق : كالعزلة وأكل الحشائش والتعرض لحرارة الشمس ، وتحمل آلام الجوع والعطش .

بل كانوا يرون أن نجاسة الجسم والثياب والأعضاء من العبادة والتقوى . لأن الجسم فان وهو مصدر الشهوات فيجب احتقاره والاهتمام بالروح ؟ ! .

هذه هى الرهبانية فى أوجز تصوير لها . فما هو موقف الإسلام منها ؟ .

الإسلام يدعوا إلى التسامى والتعادل :

الرهبانية على النحو الذى قدمناه مرفوضة فى الإسلام ، بل هى نوع من المغالاة والتنطع الله غنى عنها . فقد خلق الله الكون وسخر ما فيه من نعم لخدمة الإنسان . والاستمتاع بملذات الدنيا وطيباتها أمر مباح بل مرغب فيه . وحسبك ذانك النصان الكريمان :

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »(٦٢) .

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون »(٦٣) .

فى الآية الأولى كان النداء للناس جميعا ، وقد رغب إليهم التمتع من الحلال الطيب بشرط البعد عن إغراءات الشيطان .

وفى الآية الثانية كان النداء للذين آمنوا خاصة . ورغب إليهم التمتع بالطيبات من الرزق ، بشرط أن يكون الشكر الخالص عليها لله المعبود بحق ، وهو مولى النعم .

وهناك آية لا إخالها إلا تصديا واضحا لدعوة الرهبانيه ومروجيها وهى تواجههم فى عنف وشـــدة واستنكار بالغ حيث حرموا ما أحل الله من الطيبات والملذات :

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ !
، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ... »(٦٤) .

فهذه الدنيا وما فيها مائدة غنية لعباد الله ، خلق لهم فيها كل ما لذ وطاب . وأمدهم فيها بنعم لاتعد ولاتحصى وليس فيها محرم إلا ما حرم الله ، وما حرم إلا الخبائث وما أحل إلا الطيبات . والمنهج الجامع الذى وصفه الله للانتفاع بما فى الدنيا من ملذات طيبات هو الاعتدال والتوسط . فلا يحرم الإنسان نفسه كل الحرمان ، ولا يفرط فى التمتع بها كل الإفراط :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » .

---

(٦٢) البقرة (١٦٨) . (٦٣) البقرة (١٧٢) . (٦٤) الأعراف (٣٢) .

وتطبيقا على هـذا المنهج امتدح القرآن فريقا من عباد الله كان منهجهم الاعتدال فى الإنفاق فقال :

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا، ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما »[٦٥].

هذا هو منهج الإسلام فى التمتع بالطيبات فى الدنيا على وجه عام . فلا إعراض ولا حرمان ، ولا إغراق ولا إفراط . وقد أحسن شاعر مسلم حين أفصح عن هذا المنهج الإسلامى المعتدل فقال :

زاهد الهند نعى الدنيا وصام	أنا أنعاها ، ولكن لا أصوم[٦٦]
طامع الغرب رعى الدنيا وهام	أنا أرعاها ، ولكن لا أهيم
ولنا فى كل ذا حـد قوام	فليلمنا بعد هـذا من يلوم

أما ما قامت عليه الرهبانية من حياة العزوبة والإنقطاع للعبادة ، والتعذيب الشاق فإن الإسلام موقفا واضحا من كل بدعة منها .

فبالنسبة إلى حياة العزوبة واحتقار المرأة ووصفها بأنها شيطان نجد الاسلام يجعل النساء شقائق الرجال . فتأمل - مثلا - قوله تعالى :

« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما » الفتح (٥).

وقوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ... » آل عمران (١٩٥) .

وقوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »[٦٧] .

---

(٦٥) الفرقان (٦٧) .

(٦٦) الصوم المنفى هنا المراد به الحرمان والإعراض عن متع الحياة وليس المراد نفى الصوم الشرعى مفروضاً أو مندوباً .

(٦٧) البقرة (٢٢٨) .

فالإسلام يضع المرأة موضعا كريما ، ويسوى بينها وبين الرجال فى الفضل اللهم إلا فى ما يتفق مع طبيعة كل منهما من أن لكل منهما مجالا خاصا به يؤدى فيه رسالته .

إما أن يكون للرجل فضل من حيث إنه رجل ، وتحتقر المرأة من حيث أنها إمرأة فذلك ما يحظره الإسلام .

وحسب المرأة من الكرامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى الرجال بها وهو على فراش الموت فقال : « استوصوا بالنساء خيراً » .

وكرم الأمهات منهن فقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وجعل برها على الولد مضاعفا ، فقد قال لمن جاء يسأله : من أحق الناس بحسن صحابتى : قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك . وفى الرابعة قال : ثم أبوك .

إذن فاحتقار المرأة الذى تقرره الرهبانية العابثة إنحراف خطير لم تأت به شريعة ، ولا يستحسنه عقل .

الترغب فى الزواج :

فى هذا المقام يطالعنا قوله تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء»(٦٨) .

والأمر هنا ـ وإن كان للإباحة ـ فإنه يتضمن معنى الترغيب فى الزواج بدليل قوله تعالى : « ما طاب » .

ويأتى فى معرض الإمتنان على الخلق قوله تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٦٩) .

ويشير القرآن المعجز ـ هنا ـ إلى معان تستثير جهود كل علماء النفس فى البحث عن معنى : السكن ، ومعنى المودة والرحمة ، التى جعلها الله بين الأزواج ،

---

(٦٨) النساء (٣) .

(٦٩) الروم (٣١) .

والآثار الطيبة من النواحي الخلقية والسلوكية والتربوية التي تترتب على اقتران الأزواج ، والقرار النفسي ، والأجواء المبهجة التي تشيع في الأسر السعيدة التي تحكم علاقاتها توجيهات الاسلام .

وإذا كانت هذه الآية ترغيبا وتحبيبا في التسامي بالغرائز من حيث أمر الله فإن لها نظائر في القرآن الكريم تتحدث عن القرار النفسي وما يعود على الزوجين من ذلك الرباط الفطري الوثيق ، تأمل قوله تعالى في بيان ما يعود على الأزواج من زوجاتهم ، وما يعود على الزوجات من أزواجهن :

« هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن »(٧٠) تأمل معنى اللباس حيث يوحي بالمماسة والستر واكتمال الشخصية والوقاية من الأضرار وهكذا يستر كل من الزوجين الآخر وتتحد مشاعر الوفاء والألفة بينهما ويعف كل منهما صاحبه ويقيه من الأضرار . ومما هو معلوم عند علماء النفس أن الكبت الغرزي (الجنس) يؤدي إلى الإصابة بالتوتر العصبي والأمراض النفسية والخواء الخلقي القاتل . لذلك فإن في تعبير القرآن عن الآثار الطيبة الجولة الناتجة عن الرباط الزوجي باللباس دلالات معجزة - بحق - فقد أجمل في إيجاز حكيم فيضا من المعاني والمقاصد السامية .

وإذا كان ذلك كل ذلك في محيط الأسرة فإن نصيب الإنسانية الواعدة وإمداد الحياة بعناصر بقائها واستمرارها تكفلت به آية أخرى جاء فيها :

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات . أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون »(٧١)

---

(٧٠) البقرة (٢٢٣) .

(٧١) النحل (٧٢) البنون : أبناء الرجل المباشرون والحفدة : أبناء أبنائه .

أن أبخل البخلاء فى الحياة هو الذى يأخذ من الحياة أكثر مما يعطيها . والعازف عن الزواج هو من أبخل البخلاء فقد أخذ منها أكثر مما أعطته :

أعطته الحياة أبا وأما ، وأعطاه أبوه وأمه حنانا وعطفا وتربية وهذا دين عليه إذا لم يف به فيتزوج وينجب ويعطف ويربى فهو من أبخل البخلاء حقا .

أنه رعديد جبان يخشى تحمل المسئولية ويكره تجشم المشقات . أو هو لص يختلس من الحياة حراما ما كان ينبغى أن يطلبه من جهة الحلال .

والسنة الشريفة :

إن موقف السنة الشريفة يتسق مع موقف القرآن تماما . فقد ورد أنه عليه السلام نصح صحابيا توفيت زوجته أن يتزوج بعد ثلاثة أيام من وفاتها . وبين الحكمة من الإسراع بالزواج بأن الرجل الأعزب يبيت معه الشيطان؟!.

ورغب الشباب ـ إذا ملكوا القدرة على الإنفاق ـ فى الزواج فقال : « يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. »(٧٢) .

وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة .... » .

ولما جاء نفر من صحابته يسألون عن سنته فى العبادة بدا لهم لما أخبروا بها أنها قليلة ، فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ؟ وقال بعضهم : لا آكل اللحم ؟ وقال بعضهم : لا أنام على فراش .. فلما بلغت مقالتهم هذه رسول الله عليه السلام ، قام خطيبا فى الناس فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا .. ولكنى أصلى وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(٧٣) .

---

(٧٢) أخرجه مسلم فى كتاب « النكاح » .

التشدد فى العبادة :

السعى من أجل الدنيا ، وطلب الآخرة مقصدان ساميان فى الإسلام والمنهج السوى هو الجمع بين هذين المقصدين بحيث لا يطغى جانب منهما على الآخر .

فالإقبال على الدنيا وترك الآخرة مذموم . والإنقطاع للعبادة وطلب الآخرة ـ كذلك ـ إنحراف غير محمود فى التوجيه الإسلامى ، وفى القرآن الكريم وردت تلك الإشارة الحكيمة فى الأخذ بالأسباب الموصلة للرزق الحلال :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٧٤] .

وقد ورد فى السنة الشريفة كثير من التوجيهات التى تحذر من الإنقطاع للعبادة والمغالاة فيها :

روى أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى حبلا مشدودا بين ساريتى المسجد فقال : ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب . فإذا فترت تعلقت به فقال صلى الله عليه وسلم : لا حلوه ؟ ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد »[٧٥] .

شدت زينب ـ رضى الله عنها ـ حبلا بعمودين من أعمدة المسجد، وربطته بعنقها وهى تصلى تطوعا بالليل . وأرادت من الحبل أن يمنعها من الرقاد إذا غالبها النعاس . ورأى صاحب الدعوة أن هذا العمل مغالاة فى العبادة . فأمر بفك الحبل ثم أرشد الأمة إلى الإعتدال والتوسط والقصد فليتطوع من كان قادرا على التطوع . فاذا مالت نفسه للراحة فليعطها حظها من الراحة ، ولا يتمادى فى العبادة .

---

(٧٤) القصص (٧٧) . (٧٥) البخارى .

ولهذا الحديث نظائر وأشباه . منها أنه دخل المسجد فرأى رجلا فيه في غير وقت صلاة . وتكررت هذه الرؤية فسأل عنه فأخبروه بأنه عابد لله . فقال : ومن ينفق عليه ؟ . فسألوه : أخوه . قال : أخوه أعبد منه ، ورأى رجلا يمشي متوكئا على ولديه ، فسأل عن أمره : فقالوا إنه نذر أن يصوم لله، ضاحيا لا يستظل ؟ قائما لا يقعد . فقال : ما اغنى الله عن تعذيب هذا نفسه . ثم أمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام والوقوف تحت حرارة الشمس .

ورأى رجلا آخر قد ظللوه من حر الشمس في شهر رمضان، لأن الصيام قد أجهده . فلما علم عليه السلام أنه على سفر وليس له مأوى يؤويه . قال : « ليس من البر الصيام في السفر »(٧٦) .

وهكذا يأخذ الإسلام بالإعتدال وينهى عن الإفراط والتفريط معاً جاء بشريعة لم تصادم فطرة ، ولم تحمل الناس ما فيه عنت ومشقة قاتلة .

وما من شيء ابتدعته الكنيسة في رهبانيتها إلا جاء الإسلام بتعديله وتهذيبه . ودعا الإسلام عباد الله جميعا للتمتع بما في الكون من طيبات ولذائذ. وأحاط ذلك كله بضمانات فيها الإنسانيه سمو ورقة ويسر :

- ألا نتبع خطوات الشيطان .
- ان نشكر لله نعمه وفضائله .
- أن لانسرف في الملذات ، ولا نشق على أنفسنا في الحرمان .

وهذا هو المنهج السديد ، والطريق القويم ؛ لأنه وحي صادق وأمين من عند الله ، تلتقي فيه الإنسانية فتلتقي على الخير . ولا خير بعد ذلك يتطلبه متطلب ذو عقل واع وفطرة سليمة ، ونسأل في ختام هذه الجولة :

أي المنهجين أحق بالإتباع : الرهبانية المدمرة ؟ أم المنهج الاسلامي المثمر ؟ ! .

---

(٧٦) أخرجه مسلم في كتاب الصيام

الإعتراف :

بدعة الإعتراف من أكذب البدع الكنسية، وإن كانت كل بدع الكنيسة كاذبة . وقد نشأت هذه البدعة فى ظل طغيان الكنيسة المادى والروحى .

فمن حيث الطغيان المادى أرادت الكنيسة أن يظل الإعتراف موردا غنيا من مواردها المالية .

ومن حيث الطغيان الروحى أرادت الكنيسة أن يظل سلطانها الروحى والدينى مسيطرا على مشاعر الناس . فاستخفت عقولهم، وقالت لهم أن المرور إلى الجنة لابد أن يكون طريقها أنها عصابة من أخطر عصابات الإبتزاز فى تاريخ البشرية جمعاء ، وقد سخر منهم فلوتير فى أحد أعماله الفنية حيث طالب « الكاهن » الذى جرى بين يديه الإعتراف أن يجلس الكاهن أمام « المعترف » ليتعترف الكاهن بدوره عما ارتكبه من جرائم ؟! (٧٧) .

وكم بلغ السخف مداه حين عرضت الكنيسة وقصور الجنة وغرفها فى المزاد العلنى . وأصبح ثمن الجنة « المال » بدلا من التقوى والعمل الصالح ؟! .

وهذا الإعتراف الذى أعدته الكنيسة مظهرا من مظاهر الصلاح والتقوى والحصول على غفران الذنوب وتكفير الخطايا ، هذا الإعتراف ينهى عنه الإسلام . فالإعتراف بالذنب إذاعة للذنب ونشر بعد أن ستر الله المذنب فإذا بالمذنب يفضح نفسه بنفسه وقد جاء فى القرآن الكريم .

« إن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول . . » وإذاعة الذنب نوع من أنواع الجهر بالسوء . والسنة الشريفة تجعل التحدث بالذنوب - التى سترها الله - مانعا من غفران تلك الذنوب وفى ذلك ورد :

---

(٧٧) قصة الفلسفة (٣٢٥) مرجع سبق ذكره .

«كل ذنوب أمتى عسى أن تغفر إلا المجاهرين ...» وفسر المجاهرين بأن الرجل يذنب ذنبا بالليل فيستره الله ثم يصبح هو يحدث الناس به ؟!.

فالذنب الذى يذيعه صاحبه ذنبان : هو ذنب فى حقيقته وذنب آخر حين يذاع.

وعلى المجاهر إذا أراد أن يتوب أن يستغفر الله من ذنوبه ، ثم من المجاهرة بها.

هذا هو الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها. لا يقيم واسطة بين الله وبين عباده. فلا كهانة ولا استخفاف بالعقول ورجل الدين أو عالم الدين فى الإسلام : يعلم المسلم كيف يعبد ربه أما الكاهن فى المسيحية فيدعى أنه بواسطته هو يعبد العابد ربه. والفرق بين النظريتين كالفرق بين النور والظلام. وبين السماء والأرض.

لأن الإسلام شريعة الله الحقة ، جاء بها وحيه الأمين ، وبينها للناس رسوله الكريم.

أما الكنيسة فقد أضاعت وحى الله. ووضعت للناس دينا من صنعها هى. ولذلك باءت بالفشل حتى فى المجتمعات المسيحية الخالصة. وكان لابد أن تبوء بالفشل، لأنها واجهت الناس بما ألغى عقول الناس، وصدم مشاعر الناس..!!.

القـــرار أو المصير

قدمنا لك تصويراً أميناً لمعتقدات المسيحية التي أفرزتها الكنيسة على مر العصور الغابرة . ولم يبق إلا أن نقف أمام القرار النهائي فيها ، أو المصير الذي صارت إليه . ونقدم بين يدي هذا القرار كلمة حكيمة لأستاذنا عباس محمود العقاد رحمه الله حيث يقول :

« لن يهبط دين وعقيدته في « الله » عالية ولن يعلو دين وعقيدته في الله هابطة ، والدين الذي قدمته الكنيسة للناس قد مني بحظ وفير من هبوط العقيدة في « الله » فقد جعلت « الله » مركبا تركيبا غريبا من عناصر غير متآلفة ، صارت فيه كمن يحاول أن يخدع الناس بأن هناك « عمودا » مستويا مكونا من « الماء » السائل . والماء السائل غير متماسك فكيف يقوم منه عمود من غير حواجز تمسكه وتكفه عن السيلان ؟ ! ولما هبطت العقيدة في « الله » في دين الكنيسة هبطت كل الطقوس ومراسم العبادة فيها . فقـــد عجزت الكنيسة عن أن تقدم تفسيرات مقنعة لا لحقيقة الدين الذي قدمته للناس ، ولا لأسرار الكون وظواهر الحياة . وعجزت - بعد ذلك - أن تحتفظ بزمام القيادة والتوجيه لما واجهها عدوان لدودان :

العـدو الأول :

زعماء الإمبراطوريات وملوك الشعوب ورؤسائهم . .

وقد خضعت الكنيسة أمامهم ورضيت بفصل الدين عن السياسة . ونتج عن هذا « مثنوية الإنسان » فروحه للكنيسة . وجسده للسلطان ؟ !

العدو الثاني :

العلماء والعقليون . وهؤلاء صمدوا حتى أشعلوا نار الثورة المسلحة ضد الكنيسة — كما سيأتي قريبا بإذن الله — وبذلك توارت الكنيسة ورضيت من الغنيمة بالإياب ، لأنها لم يعد فيها شيء يغري . وقد برهنت — بكل وضوح — أنها غير صالحة للريادة وقيادة الحياة .. ! ! ؟

العلمانية

العلمانية مثال خضراء الدمن التي فسرت في الأثر المشهور بأنها المرأة الحسناء في المنبت السوء . أي أن لها ظاهراً براقاً خداعاً ، وباطناً معتماً منفراً . ظاهرها البراق الخداع أنها منسوبة إلى العلم والعلم من أجمل وأطيب المواهب والملكات الإنسانية .

وباطنها المعتم المنفر أنها تسعى جاهدة لحرمان الإنسان من أكبر نعمة وأجلها وأخلدها في الوجود ، وهي : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أن العلم ينتشل الإنسان من لجج الظلمات إلى ساحات النور الرحيبة .

أما العلمانية فتبدأ رحلتها مع الإنسان من العلم لتضعه في بحر من الظلمات ؟ ! .

ونسبة العلمانية إلى العلم أكذوبة الأكاذيب في حضارة أوربا الحديثة وكم في الحضارة الأوروبية الحديثة من افتراءات وأكاذيب ؟ !

وللعلمانية ضوابط وتعاريف في معاجم الغرب العامة والخاصة سنرجىء الحديث عنها إلى موضعه من هذه الدراسة . أما الآن فنقدم تصويراً موجزاً لها ليكون حديثنا عنها عن شيء معلوم ؛ لأن الحديث عن المجهول لايفيد .

المراد من العلمانية :

إن المراد من العلمانية في أوجز تصور لها هو المعارف والعلوم المضادة لأفكار الكنيسة وتصوراتها في أوروبا في القرون الوسطى . أو قل هي

المعارف والعلوم المضادة للأفكار والمعارف الدينية التى قدمتها الكنيسة للناس آنذاك .

فالعلمانية كانت تقف فى الجانب المضاد للدين . ويجب أن يتذكر القارىء أن المراد بالدين الذى ناوأته العلمانية وقتذاك إنما هو دين الكنيسة لا كل دين .

ويدخل فى معارف العلمانية — بهذا التحديد — كل اكتشاف علمى جديد عن الكون ومظاهره فى الجو والبحر والبر ، فى الفلك وفى الطبيعة، وفى علوم الإنسان ، فى الأرض وفى النبات والأحياء ، فى الكيمياء وفى الاجتماع وفى علم النفس ، وفى التاريخ وفى الآثار .

كما يدخل فيه المباحث العقلية والقيم الفلسفية فى شتى قضايا الفكر ومشكلات الحياة .

وتتجلى مظاهر العلمانية بكل دقة فى الفلسفات المادية الحسية البحتة ، التى تكون روافدها ومكوناتها الحواس الخمس :

البصر ، السمع ، اللمس ، الذوق ، الشم .

فقد حصرت المادية الحسية مصادر المعرفة الإنسانية فيما يدرك عن واحدة من هذه الحواس ، وأنكرت وجود مالا يدرك بواحدة منها وأطلقت عليه عالم ما وراء الطبيعة أو الميتافزيقا .

ولكل من هذه المذاهب والاتجاهات والأيديولجيات رواد وأنصار ، وخصوم ومعارضون .

ولهذا العلمانية أسباب دعت إلى ظهورها . ثم شيوعها وانتشارها وغلوها .

أسباب ظهور العلمانية :

من اليسير جداً حصر أسباب ظهور العلمانية فى قائمتين كبيرتين ، ثم انقسام إحدى القائمتين إلى مجموعتين بينهما صلات وافتراق :

القائمة الأولى : فقدان الثقة فى الكنيسة فى كونها مصدراً للمعرفة ، وسلطة للتوجيه .

القائمة الثانية : نمو البحث العلمى المضاد للفكر الكنسى الدينى ، وانبهار الناس بنتائجه القريبة من الفهم والإدراك . وصدق كثير من معطيات هذا البحث العلمى الحديث .

وهذه القائمة نوعان :

الأول : مباحث علمية أسفرت عنها ملاحظات وتجارب صحيحة فكانت نتائجها مقبولة ، ولم يعقبها نقد يزعزع فى صحتها أو يفقد الثقة فيها .

والثانى : فروض علمية بنيت على غير اساس ، أو على شبهات واهية فلم تسلم من النقود والطعون التى هزت كيانها ، وأطرحتها من الحقائق العلمية الثابتة . ولكنها — مع هذا — أسهمت إسهاما كبيراً فى ظهور العلمانية كمصدر وحيد — عند أصحابها — للمعرفة دون ما سواهـــا من مصادر وإيديولجيات . ؟!

وإليك الحديث مفصلا عن كل ما أوجزناه فى هذه المقدمة . وبالله التوفيق ومنه السداد .

فقدان الثقة فى الكنيسة كمصدر للمعرفة :

لا أرانا فى حاجة إلى كلام طويل فى هذا الصدد ، فقد وقفنا مع الفكر الدينى الكنسى وقفات ناقدة فاحصة فيما تقدم ، واعتمدنا فى نقدنا على أسس سليمة تاريخية ودينية وعقلية وواقعية وعلمية . واستشهدنا بنقود لأصحاب الفكر الحر من علماء مسيحيين ونقاد موضوعيين منهم . والنقد الذى وجهوه إلى الفكر الكنسى شمل :

١ ـ مصادر المسيحية ونصوصها المقدسة .

٢ — العقائد التى انتهت إليها الكنيسة وحاولت فرضها على الناس .

٣ — الأسرار الكنسية وطقوس العبادة .

٤ — منزلة رجال الدين « الاكليروس » فى البناء الكنسى .

٥ — استخفاف الكنيسة بعقول الناس .

٦ — تفسيراتها الغريبة لحقائق الأشياء .

٧ — عجزها التام عن امتناع معارضيها وأتباعها على حد سواء .

أول تمرد على الكنيسة - أو حركة الإصلاح الدينى :

ظلت الكنيسة تتمتع بالسلطان الكامل والسيادة العليا فى أوروبا، وبخاصة بعد أن هادنت عدوها اللدود المتمثل فى الملوك والرؤساء ، ووافقت على مبدأ « فصل الدين عن السياسة » وبذلك ضمنت الكنيسة بقاء سلطانها الروحى واحتكاروها للمعرفة ، باعتبارها المصدر الوحيد لها .

ولما تفاقم خطر الكنيسة ، واستفحل داؤها ظهرت حركة عرفت بحركة الإصلاح الدينى ، وهى فى الواقع أول تمرد عنيف على فكر الكنيسة ومعتقداتها وتصوراتها الهزيلة فى كل ماقالت به .

لوثر والإصلاح الدينى :

تنسب حركة الإصلاح فى أوربا إلى مارتن لوثر . وإلى كلفن من بعده . والواقع أن لوثر قام بعبء ضخم فى هذا المجال ، ولكنه لم يسر فى الطريق إلى النهاية المرجوة من رجل مثله كافح كفاحا مرآ من أجل الإصلاح التى رآه .

وتتلخص حركة الإصلاح الذى قام به كل من لوثر وكلفن فى الخطوات الآتيـــة :

• إبطال الأحكام التى صدرت من البابوات ولم يكن لها أصل فى الكتاب المقدس .

• محاربة صكوك الغفران ، وحق الغفران الذى زعمه البابوات لأنفسهم .

• إبطال القول بالعشاء الرباني واستحالة الخبز والخمر فيـــه إلى لحم المسيح ودمه .

• نادت بضرورة تزويج الكهنة والقضاء على حياة العزوبة .

• إنكار عبادة الصور والتماثيل وبطلان السجود لها .

• إنكار استئثار البابوات بتفسير وفهم الكتاب المقدس [١] .

وإذا كان لوثر قد خرج على الكنيسة وعقائدها الموروثة . فإنه ظل مهما فى خطأ جسيم وهو أن مسائل الإيمان منحة من عند الله فلا يجوز أن يكون للعقل حكم فيها .

وعلى أية حال فإن لوثر وكلفن قد نزعا ثوب المهابة عن الكنيسة وفتحا بابا خطيراً فى التمرد عليها وافتقادها سيطرتها على العامة والخاصة على حد سواء .

ويصور ولز هذا الانحدار الذى وصلت إليه الكنيسة بعد حركة الإصلاح فيقول :

« كادت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمـــائر الأمراء وذوى اليسار والاقتدار من الناس . كذلك بدأت تفقد إيمان عامة الناس بها ، وثقتهم فيها . وكان من نتائج انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن بدأوا ينكرون عليها تدخلها فى شئونهم ، وقيودها الخلقية عليهم ، ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق فى فرض الضرائب . و . . و . . »[٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصلحين وغيرهم ممن تمردوا على الكنيسة كانو يوجهون جل جهودهم إلى محاربة الكنيسة وحدها . ولم تتعرض لكثير من القضايا المهمة كعقيدة التثليث ، وتحريف إنجيل المسيح عليه السلام

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢١٠) ومابعدها .

(٢) معالم تاريخ الإنسانية (٣ : ٩٨٩) وما بعدها .

والخطيئة الموروثة. ولذلك فإن حركة الإصلاح وقفت دون أن تحقق أسمى غاية كان من الممكن أن تصل إليها.

معاداة الكنيسة للعلم :

إذا عددنا حركة الإصلاح الديني أول سبب فتح للناس باب التمرد والخروج عليها فإن هناك سببا ثانيا أزكى روح الكراهية في الكنيسة وتعاليمها، وهو معاداة الكنيسة للعلم واضطهادها للعلماء، واعتبار كل كشف علمي وإن كان صحيحاً هرطقة وكفراً.

ومما يذكر من الحوادث الصغيرة في هذا المجال أن مهندس بلدية في ألمانيا كان قد اكتشف أو اخترع مصباحاً يضاء بالزيت ليلا، فاعتبرته الكنيسة مهرطقا وقضت عليه بالحرمان. وعللت حكمها بأن الله أراد الليل ظلاما وأراد النهار ضياء. وأن أية محاولة لإضاءة الليل إنما هي تمرد على إرادة الله..؟! (٣).

ولسنا ندري ماذا كانت سترى الكنيسة لو حدث اكتشاف الكهرباء في عهدها الذهبي وفي أوج سلطانها ؟!

الكشوف العلمية الحديثه :

من العوامل التي كانت مختبراً صعبا للكنيسة البحوث العلمية التي أسفرت عن حقائق كونية بالغة الأهمية، وكان لها نصيب من الصحة.

وفي مقدمة هذه الكشوف نظرية كوبرنيق (١٥٤٣م) الفلكية، والتي تقضي بأن الشمس هي مركز الكون، وأن الأرض تدور حولها، وكذلك بقية الكواكب كانت هذه النظرية بمثابة قذيفة تفجرت في هيكل الكنيسة ووضعتها أمام أعقد مشكلة في تاريخها الوسيط.

(٣) العلمانية (١٥٧) مرجع سابق.

فقد كانت الكنيسة تعتقد أن الأرض هي مركز الكون ، وأن الشمس هي التي تدور حولها قاطعة المسافة ما بين شرقها وغربها في نظام محكم . وقد ورثت الكنيسة هذه العقيدة عن نظرية بطليميوس ، وأخذت بها وجعلتها حقيقة من حقائق الدين .

ولم تفتح الكنيسة صدرها فتقارن بين النظريتين وتأخذ بالصحيح منها وإنما سارعت بإلقاء القبض على كوبرنيق وقدمته لمحاكم التفتيش وهو في سن الشيخوخة . وقبل إصدار الحكم عليه عاجلته المنية وفوتت على الكنيسة فرصة الانتقام والتأديب والتشفي .

وصادرت الكنيسة كتاب كوبرنيق (حركات الأجرام السماوية) وقالت ان ما فيه إنما هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل .. ؟!

وظنت الكنيسة أنها أحكمت قبضتها على الأمر ، وأنها وأدت نظرية كوبرنيق في مهدها .

وبعد قليل من الزمن قيض الله رجلا آخر يبعث نظرية كوبر من جديد، وهو جردانو برونو . وإذا بالكنيسة تهب من جديد وتلقى به في السجن ويظل الرجل مسجونا ست سنوات ثابتا على رأيه . فاضطرت الكنيسة إلى أن تحرقه وتسحق عظامه وتذريها وهي رماد في الهواء ، ليكون عبرة لمن سواه من العلماء والباحثين .. ؟!!

من النظر إلى العمل :

لم توقف إجراءات الكنيسة تدفق العلوم ، ولم تخف قلوب العلماء . فقد استمر البحث العلمي في التقدم ، وتبنى العالم الفلكي جاليليو النظرية الفلكية السابقة ، وخطا بها خطوة واسعة إلى الأمام .

اخترع جاليليو هذا جهازه الخطير « المرقب » أو « التلسكوب » وأيد به

عملياً وتجريبياً ما نادى به كوبر وبرونو نظريا من قبل . فأسرعت الكنيسة بإلقاء القبض عليه ، وتقديمه للمحاكمة .

وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن ، وأمروه بتلاوة مزامير الندم السبعة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات (٤) .

وخشى الرجل ، وهو شيخ مسن ، أن تفعل به الكنيسة مثلما فعلت ببرونو من قبل فأعلن ارتداده — ظاهريا — عن رأيه ، أعلنه وهو منحن على ركبتيه أمام رئيس المحكمة ، وهو يقول :

« أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى . راكع أمام فخامتك ؟! والكتاب المقـــدس أمامى ألمسه بيدى : أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادى الخاطىء « بدوران الأرض » وأتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل » (٥) .

وبهذا الأسلوب القمعى كانت تتعقب الكنيسة كل عالم يكتشف ظاهرة جديدة من ظواهر الكون . ومن الملاحظ أن الكنيسة لم تكن تسمح بمناقشة الكشف العلمى على الإطلاق ، بل كانت تستخدم سلطتها العاتية فى مصادرة كل ماتراه خارجا على فكرها وتعاليمها .

ومن الطريف أن جاليليو — كما تذكر المصادر — أخذ يردد فى صوت خافت وهو خارج من المحكمة هذه العبارة :

« ومع ذلك فإن الأرض هى التى تدور »(٦) ؟!

نيوتن والجاذبية :

كانت وفاة جاليليو هى ١٦٤٢ م وفى هذه السنة نفسها ولد إسحق نيوتن .

---

(٤) تاريخ معالم الإنسانية (١٠٠٨/١) مرجع سبق ذكره .

(٥) النزاع بين الدين والفلسفة (٢٠٥) د/ توفيق الطويل .

(٦) عظماء الإنسانية مائة (   )

وكأن القدر قد جاء به تعويضا عن جاليليو ليكون امتداداً له فى الكشف عن معارف جديدة مما أودعه الله من أسرار فى كونه الفسيح إذ على يد نيوتن هذا ظهر قانون الجاذبية الذى ذاع صيته وكان له وقع قوى انبهر له رجال الدين وغير رجال الدين من الطبقات التى نالت حظا وفيرا من الثقافة .

وفى هذا الوقت الذى أعلن فيه نيوتن عن نظرية الجاذبية كانت البحوث قد وصلت بنظرية كوبرنيق وبرونو وجاليليو إلى درجة اليقين . لذلك كان انتصار نيوتن انتصاراً مضاعفا ، وزادت ثقة الناس فى كشوفات العلماء . وازداد تدهور الكنيسة وتداعت معارفها واحدة بعد الأخرى ومع أن نيوتن كان مؤمنا بالله فإن رجال الكنيسة حاربوه واضطهدوه وقالوا : إن نظريته تؤدى إلى إنكار عناية الله . وكانت الكنيسة صادقة فى هذا التوقع – كما سيأتى – إلا أن صدقها لن يشفع لها أزاء قصورها وجحودها فى هذا المجال .

فلو أن الكنيسة استغلت هذه الكشوف فى الدعوة إلى الإيمان ، واستطاعت أن تربط بين هذه القوانين وبين القدرة والحكمة الإلهية لتغير مجرى التاريخ الدينى فى أوروبا . ولكنها لجأت إلى مصادرة الفكرة ولم تجد هذه المصادرة شيئاً أمام صدق الكشوف وظهور آثارها .

وإلى هنا كان فقدان الثقة فى الكنيسة قد بلغ مداه ، واتجه الناس بعامة والمثقفون بخاصة إلى مصادر جديدة للمعرفة ، وأداروا ظهورهم للكنيسة وأذنت شمسها بالغروب .

وفى القرن السابع عشر اكتملت النظرية العلمية المعادية للكنيسة ، وراجت فى جميع الأوساط . وأسفرت عن نتائج واتجاهات بالغة الأهمية والخطورة . وقد لخصها برتراند رسل فى الحقائق الآتية :

١ - إن تقرير الحقائق يجب أن يقوم على الملاحظة والتجربة ، لا على الرواية غير المؤيدة (يعنى النصوص الدينية) .

٢ - إن العالم غير الحيوانى - الجمادات - متفاعل فى نفسه مستبق لنفسه ، وتنطبق كل التغيرات التى فيه مع قوانين الطبيعة .

٣ - إن الأرض ليست هى مركز الكون . وأن الإنسان قد لا يكون الهدف من وجودها إذا كان لوجودها أى هدف . وفوق ذلك فإن فكرة الهدف فكرة لا فائدة منها من الناحية العلمية(٧) .

ولم تقف الكنيسة مكتوفة الأيدى أمام هذه التطورات الخطيرة ، بل قاومتها من محورين :

أحدهما : ظهرت - ولأول مرة - القوائم البابوية التى ذكرت فيها أسماء الكتب المحرمة قراءتها واقتناؤها ، وكان من يعثر عنده على كتاب منها يقدم لمحاكم التفتيش بلا رحمة . ؟ !

والثانى : متابعة العلماء والمبالغة فى اضطهادهم وتعذيبهم بكل ألوان التعذيب .

وأسفرت هذه التحديات عن نتائج لم تكن فى صالح الكنيسة ، بل زادت من الفجوة بينها وبين الناس عامتهم وخاصتهم ، وارتفعت الأصوات فى كل مكان تندد بالطغيان الكنسى .

وأسهمت الكشوف العلمية فى إيجاد فكر لا دينى ، بدأ ضعيفا فى أول الأمر ، ثم قوى واشتد بمرور الأيام . ونتج عن ذلك إتجاهان كبيران كل منهما يدعى أنه المصدر الوحيد للمعرفة بعد سقوط الكنيسة من هذا المجال . والإتجاهان الجديدان هما :

---

(٧) أثر العلم فى المجتمع (٦) برتراند رسل : ترجمة د. تمام حسان .

الأول ـ الإتجاه العقلى أو القول بسيادة العقل .

الثانى ـ الإتجاه الوضعى أو القول بسيادة الحس .

سيادة العقل أو عصر التنوير :

كان ظهور هذا الإتجاه رد فعل مباشر لفقدان الثقة ، فى الكنيسة باعتبارها مصدرا وحيدا للمعرفة ، وقد سميت الفترة التى ظهر فيها الإتجاه العقلى فى تاريخ الفلسفة الأوربية بـ « عصر التنوير » وتحديده الزمنى هو النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ويغلب على الفكر العقلى فى تلك الفترة المضادة للدين ومناوآته بعد الفشل الذريع الذى منيت به الكنيسة أمام التغيرات المفاجئة التى ظهرت على ساحة الفكر آنذاك .

والمحور الذى تقوم عليه الفلسفة العقلية ، او المثالية كما يطلق عليها هو : أن العقل ـ وحده ـ هو مصدر المعرفة اليقينية الصحيحة ، وأن له الحق فى الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون وأخلاق ودين .

وأن الإنسانية هى هدف الحياة للجميع ، وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة ،

وقد يطلق على هذه الفلسفة : « عصر الإيمان الفلسفى بإله ليس له وحى وليس بخالق للعالم » وهو العقل . أى أنه يؤله العقل وفى نفس الوقت لايدعى أن للعقل ـ الإله الجديد ـ وحيا ، ولا هو خالق للعالم[٨] .

رواد هذا الإتجاه :

وكان لهذا الإتجاه رواد وأنصار : فولتير فى فرنسا ، وبيلى ولا مترى . وولف فى ألمانيا ولسنج . ولوك فى انجلترا . وغيرهم كثيرون .

(٨) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٥٢) د / محمد البهى .

الإفراط فى سلطان العقل :

اتسم عصر التنوير فى الإسراف فى سلطان العقل ، ورأوا فيه مصدراً وحيداً كافيا لحل كل ألغاز الحياة وأسرار الكون ، ومن أعدى أعداء الكنيسة فى عصر التنوير الفيلسوف الفرنسى فلوتير، فقد نقد واقع المسيحية التقليدية إذ ذاك نقداً مراً . وضم إلى النقد الأسلوب الساخر اللاذع الذى تطاول به حتى على الذات العلية « الله » ولكن يمكن للاعتذار عنه بأنه إنما كان يعنى « الله » الذى تتصوره الكنيسة ، وليس « الله الذى له الكمال المطلق . وقد دعا فلوتير إلى دين جديد وإله جديد غير دين الكنيسة وغير إله الكنيسة . . ؟ !

ذلك الدين هو الدين الطبيعى ، أما الإله فهو الطبيعة نفسها . وكانوا يصفون الطبيعة « الإله » بأنها « إله جذاب » لا رجال دين فيه يأتون بالعقائد الطلسمية والأسرار الملغزة ، الذين يستعبدون الناس لحسابهم .

وفولتير كان يوجه نقداً لاذعا للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وهو فى الواقع نقد موضوعى مدعوم بأجلى الأدلة .

فتراه يعلق على معلومات التوراة الجغرافية المغلوطة فيقول :

« من الواضح أن الله لم يكن قويا فى الجغرافيا »[٩] .

ولم يكن فولتير كافراً ملحداً . بل كان ممن يرون ضرورة الإيمان بالله . أما الوحى فأنكره مع من أنكره من مثل : بوب وآخرين . ولكن هذا الإيمان لم يكن كاملا فمثلا أنكروا الوحى، والسبب فى ذلك أنهم لو أقروا به للزم من الإقرار به صحة مدعيات الكنيسة .

وكذلك كانوا يؤمنون بأن « الله » شبيه بصانع الساعة الذى لم يكن له تدبير فيها بعد خروجها من يده ؟ !

---

(٩) قصة النزاع (١٩٠) مرجع سبق ذكره .

وهكذا نرى الإفراط فى سلطة العقل قد قاد بعض العقليين إلى ما يقرب من الكفر والإلحاد، أو قاد بعضهم إلى الكفر والإلحاد فعلا. وبعض العقليين على الرغم من جعله العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة دونما سواه فإنه أخرج قضايا الإيمان وفى مقدمتها «الله» من سلطان العقل. ومن أشهر من قال بهذا الفيلسوف الألمانى «ديكارت»، ولكنه لم يخرج «الله» وحده من سلطان العقل، بل أخرج كل العقائد الكنسية والنصوص المقدسة وكان يرى أن لا مضايقة بين العلم والدين، ولا سلطان لأحدهما على الآخر ويخالفه تماما الفيلسوف جون لوك. فقد أخضع الدين للعقل عند التعارض فقال: «من استبعد العقل ليفسح للوحى مجالا فقد نور كليهما..»(١٠).

وعلى كل فإن الإتجاه العقلى المثالى فى عصر التنوير لم يقف موقفا محمودا أمام قضايا الإيمان والدين. والسبب فى ذلك كله فشل الكنيسة فى عرض الدين كما أنزله الله. فقد واجهت الناس مواجهة هزيلة ببضاعة أكثرها فاسد، فهى وحدها المسئولة عن هذا التردى ومما تجب الإشارة إليه أن النزعة الإلحادية أو الشبيهة بالإلحاد لم تكن ذائعة ولا منتشرة بين عامة الشعب، فقد ظل الشعب مؤمنا فى عصر التنوير وإن فقدوا بعض الثقة أو كل الثقة فى الكنيسة.

ومعاداة العقل للدين المسيحى فى ذلك الوقت كان لها الأسباب المعقولة التى أشرنا إليها مع ملاحظة أن المراد من الدين الذى عاداه العقل هو الدين الذى كانت تمثله الكنيسة وليس كل دين. ومن المعروف أن الدين الذى كانت تقدمه الكنيسة للناس ليس له من خصائص الدين الصحيح إلا مجرد التسمية. أما هو فى الواقع فإنه «توليفة» قد صنعها البشر من عناصر غير متجانسة. والعقيدة لا تصنع وإنما هى تتلقى عن الوحى الصادق الأمين. وهذا مالم يكن له وجود قط فى الواقع الكنسى..؟!

(١٠) قصة النزاع (٢١٤) مرجع سبق ذكره.

سيادة الحس :

انتهى عصر التنوير العقلي بانتهاء القرن الثامن عشر تقريباً بعد أن دام نصف قرن ، وكان موقفه من الدين (المسيحية الكاثوليكية) مزدوجا . منهم من أعتدل فى الخصومة معه كديكارت ، ومنهم من بالغ كفولتير . وأياً كان الأمر فإن عصر التنوير العقلي كان قد انتزع القيادة والتوجيه من الدين ، وادعى أن العقل - وحده - هو مصدر المعرفة الحقة ، ولا شيء سواه .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر ظهر على الساحة منافس خطير للدين وللعقل معاً . وهذا المنافس كان له وجود قبل القرن التاسع عشر ولكنه لم يظهر كمذهب له فلسفة خاصة به بين المذاهب الفلسفية فى أوربا إلا فى أوائل القرن التاسع عشر . الا هو « سيادة الحس » أو « الوضعية » كما أطلق عليه واشتهر به .

وأصحاب هذا المذهب يقولون : لا الدين ، ولا العقل يمكن عن طريق واحد منهما الوصول إلى المعرفة اليقينية . وإنما المصدر الوحيد للمعرفة هو : الملاحظة والتجربة الى موضوعها المادة وخواصها المختلفة ، وطريقها أو أدواتها الحواس الخمس . فما يدرك بالحواس هو الموجود ، ومالا يدرك بالحواس فغير موجود . وإنما هو خداع ووهم من الأوهام . ؟!

دعاة الوضعية المادية .

ينسب هذا المذهب إلى الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت فى القرن التاسع عشر (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) وكان لهذا المذهب نواة منذ القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوف الأسكتلندى هيوم (١١ ١٧ - ١٨٨٦ م) ولكنه لم يستقر إلا على يد أوجست كونت ، وكان يعرف قبله بالمذهب التجريبى أما فى

عهده فعرف بمذهب الوضعية ، وإليها تنسب النزعات المادية التي جاءت فيما بعد كالمادية الجدلية أو الشيوعية — كما سيأتي .

الأساس الذي استخلص منه كونت هذا المذهب أنه نظر إلى تاريخ المعرفة كما يقول فندلبند في تعليقه على فلسفة كونت . وقد فهم من النظر في تاريخ المعرفة الإنسانية أنها مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان مصدر المعرفة فيها هو الدين أو الوحي الإلهي .

والمرحلة الثانية : كان مصدر المعرفة فيها الميتافيزيقا أو العقل أو الفلسفة المثالية .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة : فإن مصدر المعرفة فيها هو « الواقعية » .

وهذه « الثلاثية » وضعها كونت لتكون بمثابة القانون الذي يؤيد مذهبه الوضعي الذي يقضي بأن مادة الطبيعة وأعمال الملاحظة والتجربة فيها هي وحدها الموصلة للمعرفة الصحيحة ، وليس الدين ولا العقل .

وقد تشبث ماركس بعد كونت بهذا الفرض التطوري وطبقه في مجال الاقتصاد كما طبقه كونت في مجال المعرفة .

ويقدم الوضعيون أسبابا وتعليلات لفرضهم مذهب الوضعية كمصدر وحيد للمعرفة ومن تلك الأسباب والتعليلات :

١ — فشل الكنيسة في تقديم تفسير صحيح للمعرفة وانحطاط المعرفة التي كانت تتبناها طوال فترة سيادتها .

٢ — فشل الفلسفة العقلية المثالية بدورها وإفلاسها فيما دعت إليه . فقد كانت الفلسفة العقلية المثالية تسعى لإبعاد الدين — الكنيسة — عن توجيه الإنسان ولكنها عادت على يد بعض أقطابها مثل « هيجل » إلى تأييد الوحي والدين من جديد [11]

(١١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (٢٦٦) مرجع سبق ذكره .

وانتهت الفلسلفة الوضعية إلى نتائج جد خطيرة ، فقد أنكرت الوحى — جملة — كما أنكرت وجود الخالق « الله » ودعت إلى إحلال العلم الوضعى (الحسى) محل « اللاهوت » وأن يكون هدف الإنسان هو « الإنسانية » بدلا من « الله » .

وقد رأيت أن كل من كتب عن فلسفة أوجست كونت قد أجمعوا على أنه وإن هدم دينا هو دين الكنيسة (المصنوع بمعرفة آبائها) فإنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة الدين مطلقا ، بل اخترع دينا بدل الدين الذى عاداه . وجعل الإنسانية هى الإله الجديد بعد أن أنكر « إله »[١٢] الكنيسة . ومؤدى هذا أن الدين والتدين ضرورة فطرية عند الإنسان لا يستطيع — وإن حاول — الإنفكاك عنها .

الثورة الفرنسية :

رأينا أن كلا من الفلسفة العقلية المثالية ، والفلسفة الوضعية المادية كانتا رد فعل نظارى على سلوك الكنيسة وإحكام قبضتها على مقاليد الأمور ، وأن كلا منهما : الفلسفة العقلية والفلسفة الوضعية كانت تعمل جاهدة على إزاحة السلطان البابوى عن القيادة والتوجيه . الفلسفة العقلية فى عصرها إدعت سيادة العقل على ما عداه ، والفلسفة الوضعية فى عهدها إدعت سيادة الحس أو الواقعية على ما عداها وفى كلا العصرين : العقلى والواقعى المادى كانت المعركة هادئة من جانب ، وعنيفة من جانب آخر : هادئة من جانب خصوم الكنيسة فما كانوا يشهرون فى وجهها إلا سلاح الفكر والبرهان والجدل .

وعنيفة من جانب الكنيسة فإنها لم تكن تحاور وإنما تضطهد . ولم تكن تسمع وإنما تسجن أو تقتل أو تصدر أحكام الحرمان والطرد من ملكوت السموات ؟ !

(١٢) ينظر : تاريخ الفلسفة الحديث للأستاذ يوسف كرم (٣١٤)

والخط الفكرى لم يتوقف رغم الاضطهاد والتعذيب . والكنيسة لم تهادن المفكرين « المهرطقين » ومحاكم التفتيش كان أكثر عمرانا بنزلائها من الدور والمنازل .

وفى أواخر القرن الثامن عشر لم يكتف خصوم الكنيسة بلغة الفكر والعلم والبحث فحولوا الصراع إلى صدام مسلح ، وكانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م تعلن غضبتها العارمة على أساليب القمع والإضطهاد والتنكيل ، وعلى سحب الجهل التى خيمت على ربوع البلاد ، وعلى الطغيان الكنسى بكل صوره : الدينى والروحى والسياسى والمالى والاجتماعى . ولم يكن المستهدف من قيام الثورة القضاء على سلطان الكنيسة وحدها ، بل كان ملوك الإقطاع وأئمة الإستبداد السياسى من الأهداف التى قامت الثورة من أجلها . ولعل الشعار الذى كان ينادى به الثوار لأبلغ وأوجز إعلام بالأهداف الكبرى التى كانت تريد تحقيقها : يقول الشعار :

« أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

وقد حققت الثورة أهدافها ، ودخلت أوروبا فى عصر النهضة بعد طول ظلام وأزاحت الكابوس الذى كان جاثما على صدرها . وسقط سلطان الكنيسة إلى الأبد ، وانكمش سدنتها داخل جدرانها وانحسر المد الذى كان يتدفق نحوها . وحدث ذلك التحول الخطير فى حياة أوروبا فى كل مجال من مجالات الحياة ..

النتائج الخطيرة التى أسفرت عنها الثورة :

الثورات — دائما — من أبرز أسبابها الكبت والتبرم النفسى ، وحين يجد صاحب الكبت متنفسا وفرصة على مضطهديه فإن رد الفعل يقع عفويا ، والعفوية تؤدى إلى الاشتطاط وعدم الروية والإتزان ، وهذا هو ما تتسم به الثورة الفرنسية فيما نرى .

فقد كانت ثورة باطشة عارمة غشوما ، لم تفرق فى ماذا ينبغى عمله وماذا ينبغى تركه . ولذلك ارتكبت كثيراً من الأخطاء أو التجاوزات بجانب ما عملته من صواب .

وكانت النتيجة السريعة لها : أن حصدت المقصلة معظم رؤوس أعدائها من الفئات المترفة فى النعيم ، والمتحكمة فى المصائر . وقامت بأعمال غريبة هوجاء فقد حلت الجمعيات الدينية ، وسرحت الرهبان والراهبات ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها ، وحاربت العقائد الدينية علنا وعلى رؤوس الاشهاد وأصبح رجال الدين موظفين مدنيين لدى الحكومة .

أما النتائج التى جاءت بعد ذلك متأنية فهى :

١ - ولدت عنها دولة جمهورية لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب بدلا من « باسم الله » ؟ !

٢ - دعت إلى حرية التدين بدلا من ضرورة التدين ولو على وجه صحيح .

٣ - دعت إلى الحرية الشخصية فى العمل والسلوك بدلا من التحلى بمكارم الأخلاق .

٤ - أصدرت دستوراً وضعيا ليكون أساساً للحكم بدلا من التوجيهات الدينية .

وصفوة القول : إن الثورة عالجت خطأ وباطلا بخطأ وباطل آخر .

وأزاحت دينا وضعيا وأحلت محله دينا وضعيا آخر . وأن الحضارة التى قامت فى أوروبا بعد الثورة إنما هى حضارة مادية أو نفعية . ولم تخط أوروبا خطوة واحدة إلى الأمام فى سلم الرقى الحقيق . فكانت لادينية قبل الثورة . وظلت لا دينية بعد الثورة وإلى الآن .

وقفة إسلامية ناقدة :

علمت مما تقدم أن الصراع المدمر فى أوربا دار حول ثلاثة مناهج مختلفة كل الاختلاف حسبما صوره لنا الواقع المؤلم وقتذاك :

فالدين ، وهو المنهج الأول نظر إليه على أنه عدو لدود لكل من العقل والعلم ..؟!

والعقل ، وهو المنهج الثانى ، تصوروه على أنه عدو لدود للدين..؟!

والعلم ، وهو المنهج الثالث ، فهموه على أنه عدو لدود الدين والعقل معاً ..؟!

هذه الفجوات التى امتدت بين المناهج الثلاثة فجوات مفتعلة ، صنعها قصور النظر وسوء التقدير وتحريف الحقائق .

والعقليون معذورون فى عدائهم للفكر الدينى إذ ذاك ، لأنه لم يكن فكراً دينياً بالمعنى الصحيح للدين ، لأن إطلاق اسم الدين على الفكر الكنسى حينذاك كان إسما منتحلا مستعاراً دون أن تكون هناك علاقة بين المستعار، وهو إسم الدين ، وبين المستعار له ، وهو الفكر الكنسى .

وسبب الصراع الذى دار فى القرون الثلاثة الوسيطة : الخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر ، واشتد أواره فى القرن الثامن عشر الميلادية ، إن هذا الصراع غلطة شنيعة وقعت منذ القرن الأول الميلادى .

إضاعة الإنجيل :

تلك الغلطة هى إضاعة الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام . وانتحال أناجيل أخرى نسبت إليه . وبإضاعة الإنجيل الحقيقى ضاعت من يد القوم ، أمانة الوحى ، ففقدوا العاصم من الخطأ ، والمنقذ من الضلال . ولو قدر أن إنجيل السيد المسيح كان موجوداً بيـــد القوم ، مصوناً من

التحريف ، لتغير وجه التاريخ ولما وقعت الكنيسة فى تلك الأخطاء الجسيمة المتوارثة التى حملتها الأجيال إلى القرن السابع عشر وما تلاه من عصور القلق والإضطرابات .

ولما وقع الشقاق بينها وبين العقليين والوضعيين . ولكن لما أضاع القوم أمانة الوحى وصنعوا عقائدهم بأهوائهم ، لما كان الأمر كذلك حق للعقل أن يتمرد ، وحق للعلم أن يثور ؛ لأن كلا من العقل والعلم لم يواجها دينا ، وإنما واجها تصورات بشرية ، سميت - ظلما وعدوانا - باسم الدين . وفى الواقع أن المناهج الثلاثة المتصارعة فى ذلك الوقت كانت مناهج بشرية وليس من بينها واحد اسمه دين ؟ !

ومن الذى أضاع الإنجيل ؟

سؤال له دوره فى تصوير الواقع فى هذا المجال . وعلى كثرة ما طالعت لم أر من وقف أمام هذا السؤال .

وليس لدينا إجابة يقينية عليه ، وإن كنا نملك أن نقول فيه كلمة مقنعة . فمن الذى أضاع الإنجيل ياترى ؟ !

لدينا ثلاثة فروض :

الأول : هل الذى أضاع الإنجيل هم أتباع السيد المسيح عليه السلام قبل وقوع التحريف ؟

والجواب : هذا مستبعد ؛ لأنهم ليس لهم مصلحة فى إضاعته . بل مصلحتهم كانت فى وجوده بأيديهم ليشهروه كأمضى سلاح فى وجوه مضطهديهم وجلاديهم من دعاة التحريف .

الثانى : هل الذى أضاع الإنجيل هم اليهود ؟

والجواب : هذا ممكن ، بل وممكن جداً . ولهذا الوجه أسباب وجيهة جداً ومعقولة جداً .

« فاليهود من أول يوم في حياة المسيح عليه السلام ناصبوه العداء، ورموه وأمه البتول الطاهرة بالإثم والعدوان . وبذلك جاء القرآن الكريم . « فأتت به قومها تحمله . قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا » (١٣) .

ولم يقتنع اليهود بالآيات العظيمة التي أظهرها الله على يد عيسى . فأصروا على مقولتهم الشنيعة وقالوا : إن أبا عيسى هو يوسف النجار — خطيبها — أتت به منه سفاحا ؟ !

ويسجل عليهم القرآن الأمين إصرارهم على موقفهم، ويسلك ذلك الموقف في سلسلة جرائمهم الشنيعة التي ارتكبوها مع الله ومع رسله .

« فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما »(١٤) .

« واليهود ضاقوا ذرعا برسالة المسيح عليه السلام ، وأذاقوه مر العذاب وسعوا بالنكاية القاتلة بينه وبين الروم حتى أعدوا له خشبة الصليب وصلبوه عليها — فيما تراءى لهم — فجريمة الصلب والقتل وقعت منهم قطعا بالتسبب ، ومن الروم بالمباشرة — بحسب النية والقصد — وإن نجاه الله من كيدهم .

« واليهود — كما يقول ولفنسن أحد مؤرخيهم — حرصوا على تطهير كتبهم الدينية المتداولة من ذكر أي إشارة تفيد وجود السيد المسيح ؟ إنهم يحاولون بكل جهد طمس حقائقه ليداروا جريمتهم معه .

هذه أسباب ومبررات مقبولة ومعقولة ، تؤيد رأي من يقول : إن اليهود

---

(١٣) مريم (٢٧ — ٢٨) .

(١٤) النساء (١٥٥ — ١٥٦) .

هم الذين أضاعوا الإنجيل، لأن فى إضاعته استمراراً لموقفهم منه ، وقوم سعوا جاهدين لإزالة المسيح نفسه من الوجود من اليسير عليهم إضاعة الإنجيل الدستور الذى جاء به من عند ربه .

الثالث : هل الذى أضاع الإنجيل هو بولس أو شاول كما يسمى فى المصادر الدينية الكتابية ؟

والجواب : جائز . بل جائز جوازا مؤكدا . والدليل : أن بولس كما تقدم وكما يرجح بل ويعتقد كل من كتب بموضوعية ونزاهة ـ فى تطور المسيحية على مدى التاريخ ـ أن بولس هو الذى وقع منه أول تحريف لرسالة السيد المسيح عليه السلام : ورسائله الملحقة بالعهد الجديد كانت أسبق تدوينا من وضع الأناجيل الأربعة . وقد أجمع النقاد والغربيون على أن مسيحية بولس تختلف تماما مع مسيحية المسيح عليه السلام . وهذا دليل كاف جدا على إدانة بولس بإضاعة الإنجيل الصحيح ؛ لأن فى وجوده وتداوله بين الناس فضحا لأكاذيبه ، وكشفا لزيفه الذى ألصقه برسالة السيد المسيح ـ عليه السلام ـ ولو قدر أن الإنجيل الصحيح كان موجودا ومتداولا فى حياة بولس لما وجد بولس طريقا إلى فرض نفسه على التاريخ الكنسى ولانتهى أمره ولم يسمع به أحد . . ؟ ! ولكن قدر الله وما شاء فعل . وفى كل تقدير له حكمة .

ضاع الإنجيل فضاعت بضياعه أمانة الوحى . وصنعت الكنيسة عقيدتها . . ؟ ووضعت دينها فأتى ذلك الدين بما ينكره العقل والعلم معا . فكانت المضادة بينه وبين عدويه اللدودين : العقل والعلم مضادة حقيقية لها أسبابها وأصولها التى لا تنكر .

ولو كان الدين الذى ساد أوروبا فى تلك العصور غير دين الكنيسة لما وقع صدام بينه وبين العقل والعلم . لأن بين الدين الصحيح وبين العقل والعلم ألفة وتآخيا وانسجاما ، لا تنافر وتضاد وافتراق . ولو فرضنا أن الإسلام هو الذى

كان يسود أروبا فى تلك العصور لما حدث ذلك الإنشطار الخطير فى الفكر والعقيدة معا .

ماذا كان سيحدث لو كان السائد هو الإسلام ؟ :

الذى كان سيحدث لو كان الإسلام هو الدين الذى كان يسود أروبا فى عصر الصراع المرير الذى مرت به ، أن شيئا مما حدث كان لن يكون ، لأن الإسلام يضع العقل والعلم موضعهما اللائق بهما .

فالعقل فى الإسلام هو مناط المسئولية والتكليف ، وهو أداة الفهم والإدراك والتأمل . ومصدر التفكير والتدبر ، ومصدر الموازنات والمقارنات والإستدلال وهو « القارىء » للآيات الكونية . والكون كله أمام العقل كتاب مفتوح . وقد استحث القرآن الملكات والمواهب العقلية، ودعاها للتبصر والتفكر ، ولم يأت الإسلام بشىء يصدم العقل فيما للعقل فيه مجال . ويكفى أن نشير إلى منزلة العقل فى الإسلام بالنصوص القرآنية الآتية :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون »[١٥] إن هاهنا موقفا معيبا . فالناصح بالخير إذا لم يكن يعمل بذلك الخير فقد أساء إلى نفسه ، وأساء إلى غيره ، لأن القدوة الحسنة التى يرجى قبول نصحها هى التى تلتزم بما تقول . لذلك فإن القرآن يسجل على اليهود هذا الموقف وينبههم إلى الخطأ الذى وقعوا فيه ، مشيرا إلى أن الوقوع فى هذا الخطأ لا يصدر إلا عمن لا عقل له فقال « أفلا تعقلون » ؟ ! وهذا تنويه بفضل العقل وعلو منزلته وفى واحد من مواقف يوم القيامة يبين الكتاب العزيز أن قوما ندموا على ما فرطوا منهم فى الدنيا ، وتبين لهم سبب هلاكهم ، وهو أنهم لم يعملوا عقولهم فيما دعوا إليه ، وبلغوا به .

---

(١٥) البقرة (٤٤) .

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير »[١٦] .

وهكذا يسوق القرآن الكريم مادة (ع ق ل) متصرفا فيها بين الماضى والمضارع وهى فى كل موضع وردت فيــه فى صيغة المضارع تدل إما على ندم وحسرة لعدم إعمال العقل فى التفكير والتدبر ، وإما للتهييج والإثارة للنظر فيما يذكر من آيات وأدلة ليقودهم التفكير السليم الموجه بالعقل الواعى إلى التى هى أحسن . ومثال الندم قد تقدم ، أما أمثلة التهييج والإثارة فنها :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »[١٧] .

« إنا أنزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[١٨] .

وكذلك يحصر فهم الأمثال المضروبة على من كان له عقل يعى . فيقــول :

« وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون »[١٩] .

كما يحصر تفصيل الآيات الكونية ويقصر فهمها على ذوى العقول فيقول :

« كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون »[٢٠] .

وإجالة النظر فى الكون ، والتدبر فى نظامه المحكم وتصريف الأمور فيه إنما هو وقف على العقلاء :

« إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين

---

(١٦) الملك (١٠) .
(١٧) البقرة (٢٤٢) .
(١٨) يوسف (٢) .
(١٩) العنكبوت (٤٣) .
(٢٠) الروم (٢٨) .

السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(٢١) .

أما نفي العقل عن فريق من الناس فمعناه أن ذلك الفريق سادر في الضلال صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، عمى لا يبصرون :

« صم بكم عمى فهم لا يعقلون »(٢٢) .

« ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »(٢٣) .

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »(٢٤) .

فانظر إلى أي مدى يستحث القرآن العقل ويستثيره ليقوم بدوره في الفهم والإدراك والتوجيه . وذلك لأن الإسلام لا يخشى العقل ، لأن العقل إنما ينكر الباطل والزيف ، وليس في الإسلام باطل ولا زيف .

والعقل رب أسرة من الملكات والمواهب منها : التفكر والتدبر والتذكر والتبصر ، وما من ملكة من هذه الملكات إلا وقد أثارها القرآن وألح عليها في الإثارة وهاجها وأيقظها من سباتها ، ودعاها وكرر دعواتها للنظر والتأمل في حقيقة الإيمان ودلائله .

ولذلك أصبح مألوفا بل وسمة من سمات البيان القرآني أن تكون فواصل آياته يتفكرون أو تتفكرون ، ويتذكرون أو تذكرون ، ومن التدبر ورد :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٢٥) .

فالإسلام هو دين العقل والملكات والمواهب العقلية والفكرية والنفسية . وهو أحيانا يتدخل في صميم « العملية التفكيرية » فيرسم طريقتها ومنهجها ترى ذلك واضحا في قوله تعالى :

---

(٢١) البقرة (١٦٤) . (٢٢) البقرة (١٧١) . (٢٣) يونس (١٠٠) .
(٢٤) الأنفال (١٢) . (٢٥) محمد (٢٤) .

«قل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا..»(٢٦).

هذا هو منهج الإسلام فى إثارة ملكات الإدراك والتمييز فكيف كان سيكون صراع بينه وبين العقل لو كان الإســـلام هو الذى ساد أوربا فى عصورها الوسطى إن الإسلام يحتضن العقل ويجعله مناط التكليف والمسئولية. فبينه وبين العقل والتفكير ألفة وانسجام . ورأى العقل فى الإسـلام - مصدر من مصادر المعرفة ، وليس هو مصدر المعرفة الوحيد ، وهـــذا هو الخطأ الذى وقع فيه العقليون فى عصر التنوير ، حيث جعلوا العقل هو مصدر المعرفة الوحيد ولكنهم معذورون، لأنهم لم يجدوا فى دين الكنيسة دينا صحيحاً يعترف بدور العقل ، فقابلوا غلوا بغلو ، وكلاهما : رجال الكنيسة والعقليون كانوا بعيدين عن الصواب .

الحياة العقلية فى الإسلام :

صورة الحياة الإسلامية ، ما تزال ولن تزال ، صورة عملية حية لمبادىء الإسلام النظرية . يدلك على ذلك أن علماء العقيدة أوجبوا النظر العقلى والتفكير المفضى إلى الإيمان على كل مكلف كان من أهل النظر والفكر ، حتى يحقق الإيمان عن أدلته وبراهينه ، فإذا ترك النظر والتفكر مكلف قادر على النظر والتفكر كان إيمانه باطلا عند علماء الأمة ، حتى ولو قلد غيره من أهل النظر فيما اهتدوا إليه ؛ لأن التقليد فى أصول الإيمان مع القدرة على البحث والتأمل باطل .

وهذا الإتجاه مأخوذ من القرآن الكريم فإنه عند كل مطلب إيمانى من أصول الإيمان يدعو ويلح ويثير ويستحث على النظر فى ملكوت الله . فى مثل قوله تعالى :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق

---

(٢٦) سبأ (٤٦) .

السموات والأرض ربنا ما خلقت هـــذا باطلا ـ سبحانك ـ فقنا عذاب النار »[٢٧] .

والقرآن الحكيم هو الذى حمل المسلمين على التفكير العقلى ، ووجههم به توجيها فى مواطن كثيرة . ودعاهم إلى الاعتبار والسبر وتقصى الحقائق. خذ إليك مثلا قوله تعالى :

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[٢٨] .

والمجالات التى استحث الإسلام العقل لإجالة الفكر فيها كثيرة . منها :

(ا) مجالات العقيدة للتوصل إلى درجة اليقين فيها .

(ب) مظاهر الكون العلوية والسفلية لانتزاع أدلة الإيمان والتوحيد منها.

(حـ) الزروع والنبات للتأمل فى حالها ونشأتها وتطورها واختلاف منافعها .

(د) النفس ومكوناتها وأسرار الخلقة فيها .

(هـ) التاريخ العام والخاص للإعتبار بحال الأمم والتعرف على أسباب قوتها وضعفها وزوالها وتبدل أحوالها .

(و) السياحة فى الأرض للوقوف على مافيها من آيات بينات ودلائل ناطقات .

(ز) المذاهب والإتجاهات التى تحاول كل منها ـ على حدة ـ الإستئثار بالإنسان وإغرائه باتباعها .

ولذلك نشأ التفكير العقلى فى الحياة الإسلامية منذ عصر نزول القرآن

---

(٢٧) سورة آل عمران (١٩٠ – ١٩١) .

(٢٨) الحج (٤٦) .

وكان أولى القضايا التى أثارها أمامهم القرآن مسألة التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، والدعوة إلى الإستقلال الفكرى والإستدلال وتحقيق قيمة الفرد داخل الجماعة .

هذا وقد مد القرآن الفكر العقلى الإنسانى بالمنهج السديد ليستعين به المسلم فى التمييز بين النافع والضار ، والحق والباطل ، والصحيح والفاسد .

وكان استجابة لتنويه الإسلام بالعقل أن قامت المذاهب الفلسفة العقلية ونظرت فى كل شىء ينبغى النظر فيــــه . وتعددت تلك المذاهب وتشعب المذهب الواحد - أحيانا — إلى عدة شعب . وأنتجت الحركة العقلية تراثا هائلا من المعارف الإسلامية كمباحث المتكلمين وعلوم أصول الفقه، وعلماء الفقه ، واستعملوا النظر والقياس حتى فى العلوم العربية من نحو وصرف وبيان وفقه لغة وأصول لغة . وواجهوا ثقافات الأمم المتحضرة وتعاملوا معها بحذر شديد فأخذوا منها النافع المفيد ، وأعرضوا عن الضار ، وقد أسهموا فى إرساء صرح الحضارة الإنسانية بنصيب وافر . ومن أعلام فلاسفة الإسلام وعلمائه العقليين .

الإمام الشافعى ، البيرونى ، الغزالى . الفارابى ، ابن رشد . الخوارزمى ابن النفيس ، الإمام الأشعرى ، الإمام أبو منصور الماتريدى ، ابن طفيل ، الشيخ الرئيس بن سينا ، وجابر بن حيان ، والكندى ، وأبو بكر الرازى ، والمسعودى ، والحسن بن الهيثم ، وابن النفيس ، وابن خلدون ، وغيرهم مما يتعذر عده .

وصفوة القول: إن بين الإسلام وبين العقل رحما كاشجة، وألفة أليفة فلا يتنظر أن يحدث بين الإسلام وبين العقل صدام . كيف والإسلام لا يخاطب إلا عقلاء ولا يكلف إلا العقلاء ؛ لأن العقل من نور الله كما يقول الإمام الغزالى أو هو الدليل على الله فى الأرض كما يقول الجاحظ . ونذكر فيما يلى مناظرة عقلية

دارت بين عالم مسلم كان من فلاسفة الكلام، وبين ممثل مذهب هندى إلحادى.
لننظر كيف استخدم الفيلسوف المسلم النظر العقلى، وماذا كانت النتيجة :

روى الإمام أحمد رضى الله عنه، أن الجهم بن صفوان لقى بعض السمنية - مذهب هندى فلسفى - فقالوا له :

نكلمك فى دينك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت فى ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا فى دينك . فوافق على ما قالوا فبدأوا يسألونه ويجيب :

« ألست تزعم أن لك إلاها ؟ قال : بلى . قالوا : فهل رأيت إلاهك ؟ قال : لا . قالوا : هل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : أشممت رائحة ؟ قال : لا قالوا : هل وجدت له حساً ؟ قال : لا . قالوا : هل وجدت له مجسا ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ !

فقال لهم جهم : ألستم تزعمون أن فيكم روحا ؟ قالوا : بلى . قال : هل رأيتموه ؟ قالوا : لا . قال : هل سمعتم كلامه ؟ قالوا : لا . قال : هل وجدتم له حساً أو مجسا ؟ قالو : لا .

قال فكذلك الله، لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا تشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون فى مكان دون مكان »[٢٩] .

كيف انتصر عليهم جهم ؟

جهم فى هذه المناظرة هو المنتصر . ولكن ما المنهج الذى استخدمه معهم ؟

واضح أن منهجه الإستدلالى - هنا - عقلى . وطرق العقل فى الإستدلال والمناظرة كثيرة . منها ما يسمى بـ : الإستدلال القياسى، أو القياس الإستدلالى، وهو الذى استخدمه جهم مع مناظريه الهنود

---

(٢٩) الشهرستانى (١٣٧) ط : بدر

وقبل أن نصل إلى ما نريد قوله - هنا - نقول إن عملية عقلية فكرية دارت خيوطها فى عقل جهم قبل أن يتسلم زمام المناظرة منهم .

• فجهم علم أن القوم ينكرون وجود الله .

• وأن سبب الإنكار - عندهم - أن الله سبحانه - لم يقع تحت حاسة من الحواس الخمس كما وضح هذا من سؤالاتهم .

• فرتب جهم على هذا أن يبحث - وفى سرعة - عن شىء لم يقع تحت الحس والقوم به مؤمنون .

• فوقع عقله على « الروح » التى بها القوم وغير القوم أحياء .

• وأدرك أن « الروح » لا ترى ولا تشم لها رائحة ،ولا يسمع لها صوت، ولا تجس ، ولا تذاق .

• وما دام الروح بهذه المثابة والمناظرون مؤمنون بها فهى إذن طريق إلزام الخصم بوجود الله .

ولا يقدح فى وجوده أنه لم يقع تحت حاسة ، كما لم يقدح فى وجود الروح أنها لم تقع تحت حاسة .

هذه هى خيوط العملية الفكرية العقلية التى جرت فى صمت فى نفس جهم . فلما فرغ القوم مما عندهم وما رتبوه على مقدمات استدلالا لهم، بدأ جهم يحاورهم على نفس المنهج والطريقة . فلما أقروا له بما أراد قال لهم : فكذلك الله ... إنه موجود ولا يقدح فى وجوده ما ذكروه من قضايا سلبية .

هذا هو القياس الإستدلالى ، فقد قاس جهم فيه منكراً على معترف به مع اشتراك الأمرين فى الخصائص : المعترف به هو الروح ، والمنكر هو « الله » والمناظرون ماداموا مؤمنين بالروح مع أن ما يقال عن الله من حيث عدم وقوعه تحت الحس ، يقال فيه : فلا عذر لهم فى عدم الإيمان بالله ، وهذا هو المطلوب . فرحم الله جهما ورحم معه أصحاب العقول المستنيرة .

العقل الذي يقدره الإسلام :

ومع أن الإسلام قد رفع من شأن العقل ، وجعله مناط المسئولية والتكليف ودعا لإعماله في عويصات المعاني ، وحوالك المشكلات ، فإنه يحيط هذا العقل بضمانات وضوابط ، لأن للعقل جموحات وشطحات قد تؤدي إلى المهالك . ولذلك فإن الإسلام يقدر العقل المهذب ، لا كل عقل . والعقل المهذب هو العقل الذي يعتصم بالوحي . ويسترشد بما أنزل الله ، وبما قرره رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وبالنظر إلى هذه القضية انقسم مفكرو الأمة قسمين كبيرين : أحدهما يقدم دلالة النصوص على دلالة العقول إذا حدث تعارض في الظاهر ، وهم أهل السنة والجماعة . وأشد منهم تمسكا بالنصوص أهل الظاهر أو الظاهرية .

والثاني : يقدم دلالة العقل على دلالة النص . ولكنه لا يهمل النص كل الإهمال بل يلجأ إلى التأويل ليوفق بينهما . وهؤلاء هم المعتزلة . وما أكثر القضايا التي تباينت فيها آراء الفريقين تبعا لاختلاف النهج . فالمعتزلة - مثلا - يذهبون إلى أن العقل - وحده - بدون معونة الوحي كاف في معرفة الله . وهذه مبالغة منهم في تقدير العقل وسمو منزلته .

ولما حجهم أهل السنة والجماعة بأن الله يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، لم يقف المعتزلة مكتوفي الأيدي أمام هذا الاحتجاج القوي بل لجأوا إلى صرف اللفظ عن ظاهره وقالوا : إن المراد بالرسول - هنا - هو « العقل » ؟ ! .

وأهل السنة لم يلغوا العقل تماما ، بل هم يقدرون العقل كل التقدير ومباحثهم العقلية تجل عن الوصف ، وتستعصي على التصوير ، ولهم مثل المعتزلة تأويلات عقلية في كثير من النصوص ، ولكن دون الحد الذي بلغه المعتزلة في هذا المجال .

وقد وضعوا مناهج فى البحث العقلى كان لها أكبر الأثر فى تطوير البحث الفلسفى العقلى فى أروبا وفى غيرها. وقد سبقوا بمناهجهم العقلية عباقرة أوروبا، وأثروا فى اتجاهاتهم وتكوين ملكاتهم العقليه بما لا يدع مجالا للشك (٣٠).

إن العقل الذى يقدره الإسلام هو العقل المهذب الذى يعترف بقدرته المحدودة على المعرفة. لا كما يرى رواد عصر التنوير الأوربى أن العقل يستقل بالقدرة المطلقة على المعرفة.

والصحيح من هذين المذهبين، والذى يؤيده الواقع المحسوس هو المذهب الإسلامى. إذ لو كان العقل مستقلا بالمعرفة لما اختلف ذوو العقول فى كثير من القضايا، فيقول عقل برأى. ويقول عقل آخر برأى يضاده أو يناقضه والسر فى اختلاف المذاهب الفلسفية وتعددها إنما هو قصور العقل عن الإحاطة التامة بحقائق الأشياء.

فمثلا اختلف العقلاء حول الإلزام الخلقى ما هو مصدره؟ فالناس فى أى مجتمع يلتزمون بأخلاق معينة. كارتداء الملابس مثلا، والتستر عند قضاء الحاجة. والإستئذان عند دخول الأماكن الخاصة، وعند الإنصراف منها.

تساءل العقلاء ما هو مصدر هذا الإلزام؟

- فريق قال: إن مصدره هو الدين؟
- وفريق قال: إن مصدره هو القانون؟
- وفريق قال: إن مصدره هو العرف والعادة والتقليد؟
- وفريق قال: إن مصدره هو «الضمير»؟

---

(٣٠) انظر البحث القيم: «منهج البحث العلمى عند العرب» للدكتور جلال محمد موسى.

وفريق قال : إن مصدره هو العقل »؟

فهذه مصادر خمسة قال بكل مصدر منها فريق من ذوى العقول من قديم الزمن ، وما تزال المشكلة خاضعة للبحث ولاختلاف الرأى حولها إلى الآن . فلو كان للعقل القدرة المطلقة على تحصيل المعرفة لأجمع العقلاء على رأى واحد ، ولكن هيهات هيهات .

ونخلص من هذا كله إلى :

أولا : الإسلام لا يعادى العقل وإنما يقدر شأنه ويدعو إلى إعماله ويجعله مناط المسئولية والتكليف .

ثانياً : ليس للعقل القدرة المطلقة على المعرفة . وعليه — ليأمن الخطأ — أن يعتصم بالوحى .

ثالثا : أن الكنيسة أخطأت حين اعتدت على حرمة العقل وصادرت سلطانه وحرمته من أداء رسالة . وأن عقلاء عصر التنوير أخطأوا عندما غالوا فى قيمة العقل ، وهما خطآن متكافئان كل منهما أوقـــع صاحبه فى المحظور .

ولو كانت الكنيسة فى إبان محنتها تلك انتهجت منهج الإسلام إزاء العقل لأصلحت نفسها من داخلها ، ولا ستأثرت بولاء الناس لها ولاء يقوم على الوعى وحسن الإدراك . ولما تمرد عليها العقليون ولا غير العقليين . ولكنها جمدت على فكرها وعقائدها فتحركت كل القوى ضدها . وكان ما كان وما أبشع ما كان .

موقف الإسلام من العلم ووسائل المعرفة :

فى الوقفة الإسلامية الناقدة أوضحنا أن الإسلام لا يعادى العقل ، بل يقدره ويرفع من شأنه ، فالإسلام دين العقل ، ولا يخاطب إلا العقلاء ، ويوم يفقد إنسان ما عقله فإن الإسلام يرفع عنه التكليف كلية ، لأن الله

إذا أخذ ماوهب رفع ما أوجب كما يقول الأصوليون . والعقل هبـة الله للإنسان وبه ، وبمزايا أخرى فضله على كثير ممن خلق .

ومنزلة العلم فى الإسلام كمنزلة العقل فيه ، فلا يضيق الإسلام بالعلم ولا بالعلماء كما لم يضق بالعقل ولا بالعقلاء . ومن يتصور أن الإسلام يضيق بالعقل أو العلم ، أو يعادى واحداً منهما فقد جهل حقيقة الإسلام ، وأفتى بغير علم .

ولا فرق فى الإسلام بين علم وعلم ، فكل المعارف والعلوم يتلقاها الإسلام بسعة صدر ، ورحابة أفق . وليست هذه وحدها هى علاقة الإسلام بالعلم والعلماء . بل إن الإسلام يستنهض كل همم العلماء ويلفت أنظارهم نحو ملكوت الله أرضا وسماء وفضاء وما يتصل بكل مظاهر الكون وأسراره وأعاجيبـــه .

وليس فى الوجود كتاب دعا إلى العلوم والمعارف ، وأشاد بفضل العلم والعلماء كما دعا القرآن الحكيم وأشاد .

ومما يجب لفت الأنظار إليه أن أول جملة ابتدأ بها القرآن نزوله هى دعوة صريحة إلى تحصيل العلوم والمعارف ، وهى قوله تعالى :

« إقرأ . . » والقراءة مفتاح العلوم فى كل عصر و مصر، ولم تخل أمة من الحضارة قديما ولا حديثاً الا ولها نظام فى فن الكتابة والقراءة . وعن طريق تسجيل تلك الحضارات وقفت الأمم اللاحقة على حضارات الأمم الغابرة .

وإن كانت القراءة هى أهم مفاتيح العلوم فإن قوله تعالى : باسم ربك الأعلى » بعد قوله : « إقرأ » يعتبر تقييداً ووصفاً للعلم الذى يحث عليه الإسلام ويفضله ويفضل المحققين له . فالقراءة التى تكون باسم الله هى القراءة المثمرة النافعة ، لبنى الإنسان ولكل كائن . وكذلك العلوم المرموز لها بالأمر بالقراءة .

أى أن الإسلام يوظف العلم لخدمة الحياة لا لتدمير الحياة ، لسعادة الأحياء لا لشقائهم ، للإضافات الحسنة لا لبث المخاوف والقلاقل .

ودعوة القرآن إلى العلم لا يحصرهـــا المقام هنا ، ولـكننا نكتفى منها بما يوضح المراد .

وأسمى قيمة ، وأغلى غاية فى هذه الحياة أن يخشى الإنسان ربه وخالقه وهذه الغاية النبيلة يجعلها الله وقفا على العلماء فيقول :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء . »(٣١) .

وفى نفى المساواة بين العلماء والجهلاء يقول :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٣٢).

ومن الأدعية التى علمناها القرآن قول الحق سبحانه :

« وقل رب زدنى علما »(٣٣) .

وينص على أن ما فى الـكون من أسرار لا يقف على كنهها إلا ذوو العلم فيقـــول :

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتـكم وألوانـكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »(٣٤) .

هذا . وإنى لأكاد أجزم بأن فى القرآن العظيم دعوات لـكل نوع من أنواع العلوم النظرية والعملية .

فمثلا هذه الآيات المذكورة قبل هذا مباشرة فيها إشارات إلى نوعين من أنواع العلوم وهما :

---

(٣١) فاطر (٢٨) .
(٣٢) الزمر (٩) .
(٣٣) طه (١١٤) .
(٣٤) الروم (٢٢) .

الجيولوجيا . ثم الدراسات الإنسانية :

وقوله تعالى : سنريهم آياتنا فى الآفاق ... فيه إشارة إلى علوم الفضاء والتكوين .

وقوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٣٥].

فيه إشارة إلى علمى الاجتماع والنفس :

وقوله تعالى : « وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[٣٦].

فيه إشارة إلى علوم الفلك .

وقوله تعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ... »[٣٧] .

فية إشارة إلى علوم البحار .

وقوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم »[٣٨] .

فيه إشارات قوية إلى علم الأحياء والنبات.

---

(٣٥) الروم (٢١) .
(٣٦) النحل (١٢) .
(٣٧) النحل (١٤) .
(٣٨) عبس (٢٤–٣٢) .

وقوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب »(٣٩) .

فيه إشارة إلى علوم الرياضة .

وقوله تعالى : « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى »(٤٠) .

فيه إشارة إلى علم الأجنة .

وقوله تعالى : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٤١) .

فيه إشارة على علمى التاريخ الانسانى والآثار الحضارية .

وقوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا »(٤٢) .

فيه إشارة إلى علم المناظرة والجدل الإقناعى :

وهكذا لو تتبعت آيات القرآن الكريم لاستخرجت منه إشارات ذكية إلى أصول العلوم والمعارف وفروعها ، وما من آية سقناها دليلا على علم من العلوم إلا ولها نظائر يتعذر رصدها — هنا — فالإسلام هو دين العلم كما كان دين العقل .

وإذا كان الإسلام يقدر العقل المهذب المعصوم بالوحى ، دون العقل

---

(٣٩) الإسراء (١٢) . (٤٠) الحج (٥) .
(٤١) الروم (٩) . (٤٢) الزمر (٣٠) .

الجامح المشتط . فإنه كذلك يقدر العلم المهذب الذى يسخر لخدمة الحياة ويضيف إليها إضافات حسنة ، دون العلم الذى يغتر به صاحبه ويوجهه وجهة منحرفة .

فالفرق بين الإسلام فى نظرته إلى العلم وبين الكنيسة فى عدائها للعلم فرق كبير . ولو كان الإسلام هو الذى واجه ما واجهته الكنيسة فى الغرب فى أيام محنتها لما حدث شىء مما حدث أمام الكنيسة ، لأن الإسلام يحتضن العلم ، وينمى موارده ولا يضيق به كما ضاقت به الكنيسة . والكنيسة إنما ضاقت بالعقل ، وضاقت بالعلم ؛ لأنها كان لديها . أوكل ما كان لديها كانت تخشى عليه من العقل والعلم معاً . .

كان لديها من العقائد ورسوم العبادات ما تخشى عليه من العقل فعادت العقل .

وكان لديها من المعارف عن بعض ظواهر الكون ما تخشى عليه من العلم فعادت العلم .

أما الإسلام فلم يكن لديه ولا يكون لديه من العقائد والمعارف ما يخشى عليه من العقل والعلم .

ولذلك كان الإسلام سينتصر على ما انهزمت أمامه الكنيسة فى أيام محنتها المؤسفة .

فالنظريات العلمية التى توصل إليها برونو وجاليليو ،ونيوتن وهزت كيان الكنيسة ، وزلزلت عرشها لمجيئها مخالفة للفكر والإعتقاد الكنسى ، تلك النظريات يرحب بها الإسلام ويستقبلها فاتحا لها ذراعيه ولسان حاله يقول : مرحى مرحى بالعلم الصحيح لدى الدين الصحيح .

ومما يسجل لعلماء الإسلام بحروف من ذهب على رق من الفضة أن

ما أنكرته الكنيسة من كروية الأرض ودورانها حول الشمس قد قال به علماء المسلمين منذ عهد بعيد .

فهذا هو أبو الريحان البيروني (٣٥١ - ٤٤٠ هـ) - (٩٦٠-١٠٤٨ م) يقرر في وضوح .

١ - أن الأرض كروية وليست مستوية السطح .

٢ - أن الأرض متحركة ، وليست ثابتة .

٣ - أن الجاذبية التي في الأرض هي التي تمسك من عليها .

ويستدل البيروني على كروية الأرض بدليلين :

الأول : أن أعالي الجبال تظهر للعين إذا سار الناظر نحوها ، ثم تظهر أسافلها شيئا فشيئا كلما اقترب منها الناظر . ومثل الجبال سواري السفن والمراكب .

الثاني : أن القائم في محل منكشف الأفق ليس فيه شيء يمنع النظر إلى جميع الجهات يرى الأرض دائما على شكل مستدير الحدود . ومن المعلوم أن الكرة هي الجسم الذي يرى على شكل مستدير من أي جهة نظرت إليه »[٤٣].

أما إشارة البيروني لقانون حركة الأرض فيقول فيه : « إن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها »[٤٤] .

وهذا كلام علمي - كما ترى - يسبق به البيروني علماء أوروبا بأكثر من خمسة قرون .

• ويشير البيروني إلى قانون الجاذبية الذي اكتشفه إسحق نيوتن في القرن السابع عشر فيقول :

(٤٣) انظر : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (١٤٨) .
(٤٤) نفس المصدر والموضع .

« لا محالة أن الخلاء الذى فى بطن الأرض هو الذى يمسك النـــاس حواليها »(٤٥) .

قف مليا أمام قوله : «لا محالة » تجده يعطيك مدلوله وزنه وهو أن البيرونى لم يقل ما قال على سبيل الظن وإنما قاله متيقنا .

والبيرونى انتهى إلى هذه الحقائق المثيرة فى القرن الرابع الهجرى قبل عصر العلم الحديث بزمن طويل .

وأعجب من ذلك أن فيلسوف العرب والإسلام الكندى (١٧٥ - ٢٥٢ هـ) قام قبل البيرونى بعمل تجارب على جاذبية الأرض ولئن لم يصل فيها إلى رأى محدد ، ولكنها محاولة مبكرة جاءت نتيجة لدعوة القرآن إلى التأمل والتفكر فى حقائق الكون وسبر مافيه من ظواهر .

تذكرة لازمة :

والآن يحسن بنا أن نتذكر أن أول امتحان علمى وقع للكنيسة على أيدى العلماء هو :

١ — القول بكروية الأرض ودورانها حول الشمس . وكانت الكنيسة تعتقد دوران الشمس حول الأرض .

٢ — قانون الجاذبية . ولم يكن للكنيسة فيه معتقد ولكن لما قال به نيوتن رفضته الكنيسة واعتبرته نوعا من الهرطقة ولسنا ندرى لماذا .

وهذان القانونان قد سبق لعلماء الإسلام القول بهما ، ولم ينكرهما أحد من علماء الدين ولا من الولاة والسلاطين ، لأن الإسلام ربى عقل المسلم لقبول كل علم صحيح ، كما أن عقيدة المسلم ترى فى مثل هذه الحقائق غذاء روحيا يعمق الإيمان بالله ويكشف عما فى الكون من دقائق وأسرار تدل على الخالق ، وتجلى مظاهر قدرته ، وبدائع صنعته ، لأن العلم - فى الإسلام - دعامة من أقوى دعائم الإيمان .

---

(٤٥) المرجع السابق .

الملاحظة والتجربة :

رأينا - فيما تقدم - أن الوضعية التى أرسى قواعدها أو جست كونت كانت تقوم فلسفتها على مدركات الحواس ، والحواس تعطى ثمارها فى الحصول على المعرفة بالملاحظة والتجربة .

وهذا ما كانت ترفضه الكنيسة وتنفر منه ، وكان موقفها هذا واحداً من أهم العوامل التي تضافرت على عزلها وتقليص ظلها وتمرد الناس عليها .

ونسأل الآن سؤالاً :

ما هو موقف الإسلام من الوضعية وملاحظاتها وتجاربها ؟ أيرفضها كما رفضت الكنيسة ؟ أم له تقدير آخر فيها ؟

والجواب : إن الإسلام لا يرفض الملاحظة والتجربة باعتبارهما وسيلة من وسائل المعرفة . وإنما يرفض ما انتهى إليه الوضعيون من أن الملاحظة والتجربة الحسية هى طريق المعرفة الوحيد ؟

كما يرفض ما انتهى إليه الوضعيون من إنكار ما ليس مدركا عن طريق واحدة من الحواس الخمس .

هذا هو ما يرفضه الإسلام . أما التجارب والملاحظات باعتبارهما منهجاً من مناهج تحصيل المعارف والعلوم . فهذا مقبول فى الإسلام ، ومقرر فى مصادره الأولى ، وفى مباحث علمائه منذ بدء تدوين العلوم والفنون وإلى الآن

ورود الملاحظة والتجربة فى القرآن الكريم .

فمن أمثلة استخدام الملاحظة والتجربة كوسيلة علمية فى القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى :

« الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .

فارجع البصر : هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »(٤٦) .

فى الآية الأولى ملاحظة كاملة التكوين :

ففيها الباعث على إجرائها ، وهو تبين هل فى خلق الرحمن فطور أو عيب .

وفيها التوجيه إلى كيفية إجرائها : فارجع البصر .

وفيها التوجيه بكيفية رصد النتيجة : فهل ترى من فطور ؟

وفى الآية الثانية كيفية تمحيص العلم : ثم ارجع البصر كرتين .

هذا هو منهج تصميم الملاحظة على المنهج الاستقرائى الذى يحدد فيه الفرض أولا ثم يستقرأ . موضوعه ، لإثبات صحة الفرض أو تخلفه . ولكن الفرض - دمنا - مثبت كما ترى .

وفى الآيات الآتية :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » ؟

« وإلى السماء كيف رفعت » ؟

« وإلى الجبال كيف نصبت » ؟

« وإلى الأرض كيف سطحت » ؟

أربع ملاحظات جاءت على منهج استدلالى غير المنهج الاستقرائى الذى جاءت عليه الملاحظة الفطرية السابقة .

ففى الآية الأولى : دعوة لملاحظة كيفية خلق الإبل .

وفى الثانية : دعوة لملاحظة كيفية رفع السماء .

وفى الثالثة : دعوة لملاحظة نصب الجبال .

وفى الرابعة : دعوة لملاحظة تسطيح الأرض .

---

(٤٦) الملك (٣ - ٤) .

وكم فى الآيات الأربع من المواعظ والعبر التى لا تنكشف إلا مع التأمل والتدبر ، والقرآن يدعو إلى هذه الملاحظات لأنها دليل صدق على ماقله من قدرة لا تعجز ، وحكمة لا تخطىء ، وإرادة لا تقهر .

ومنهج البحث - هنا - إستدلالى استنباطى . لأن العقل ينتهى من التأمل والنظر إلى نتيجة من نتائج الإيمان ، هى أن وراء هذه المقدورات قادراً ، ووراء هذه المحكمات حكيما ، ووراء هذه المرادات مريداً .

آثرنا أن نطلق على النماذج السابقة : ملاحظات ؛ لأن ظاهر القرآن فى السياق والصياغة يتبادر منه أن المراد الملاحظة الفكرية العقلية التى يكفى فيها النظر المتأمل فى ظواهر المادة الملفوت النظر إليها . ولم نسمها تجارب ؛ لأننا أردنا أن نفرق بين الملاحظة والتجربة :

بأن الملاحظة هى المراقبة والتأمل الفكرى العقلى :

أما التجربة فهى ما اقترن فيها العمل بالتفكر والتأمل : فهى أخص من الملاحظة فكل تجربة فيها ملاحظة . وليس كل ملاحظة فيها تجربة .

وفى القرآن من التجارب - بهذا المعنى - مالا ينازعنا فيه منازع . ومن أبرز التجارب فى القرآن الحكيم . ما وقع لإبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى .

فأمره الله أن يأخذ أربعة أنواع من الطير ، ويذبحهن ويقطعهن قطعاً قطعاً . ثم يوزع كل قطعة على جبل ، ثم يدعوهن ، ففعل إبراهيم عليه السلام . ثم دعاهن فرآهن قد أتين نحوه سعيا ، وكأنهن لم يذبحن ولم يقطعن . فهذه تجربة من أروع التجارب ففيها عمل : وهو ذبح إبراهيم الطير وتقطيعهن وتوزيعهن على الجبال ودعوتهن إليه وفيها : ملاحظة . وهى تأمل إبراهيم - عليه السلام - بعد القيام بالتجربة ، وقد عاين عليه السلام كيفية الأحياء .

وقد انتهى به هذا التأمل (الملاحظة فى أعقاب التجربة) إلى الإيمان اليقينى العملى بعد الإيمان الخبرى النظرى .

إقرأ معى قول الحق :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك . ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً . ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم »(٤٧) .

هذه التجربة التامة التصميم ، القرآن هو الذى فتل خيوطها . ثم نسجها هذا النسيج المحكم المرتب العناصر تركيبا بديعاً . وإحكام تصميمها هو الذى أحكم مطلوبها فاطمأن قلب إبراهيم . لأن الخبر ليس كالعيان . .

قياس العلة :

إستخدم القرآن الحكيم الملاحظة والتجربة ؛ لأنهما وسيلتان من وسائل حصول العلم والمعرفة . ولها فى مناهج البحث والإستدلال دور عظيم .

واستخدم — كذلك — ما يسمى عند علماء النظر والبحث — فلاسفة وغير فلاسفة — بقياس العلة : وهو أن يعطى مجهول حكم معلوم لاشتراكهما فى علة الحكم . ومن ذلك إفحام القرآن لمنكرى البعث بعد الموت والبلى . فقد جاء أحدهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ومعه رماد عظام بالية كان قد حرقها ، ثم ذرها فى الهواء فصارت هباء منثوراً ، ثم قال لصاحب الدعوة — صلى الله عليه وسلم — :

« أتحيي هذه الله بعد موتها » ؟ ! يريد أن يحقق بهذه المقولة انتصاراً للكفر على الإيمان .

---

(٤٧) البقرة (٢٦٠) .

فساق القرآن هذه الدعوى مع الرد عليها :

« وضرب لنا مثلا ـ ونسى خلقه ـ قال : من يحيي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم »(٤٨) .

الكافر استبعد أن يكون لإحياء العظام بعد بلاها فاعل، مريداً بهذا نفى قدرة الله على الإحياء . هـــذه شبهته يصورها القرآن بكل أمانة ثم يبطلها باستخدام قياس العلة .

والعلة ـ هنا ـ أن الله هو الذى أنشأها أول مرة ولم يكن لها وجود على أية صورة من الصور . فكيف يعجز عن إعادة إنشائها مرة ثانية وقد كان لها وجود على صورة من الصور ؟! .

إن العقل لا ينازع فى الإعادة بعد ثبوت الإنشاء السابق ، ولو أن مهندسا شاد قصراً كان آية فى فن العمارة . ثم تهدم القصر فلن ينكر عليه عقل عاقل إذا قال : إنى سأعيد بناءه على ما كان عليه قبل التهدم ولله ـ سبحانه ـ المثل الأعلى .

ولاستخدام قياس العلة صور أخرى فى القرآن لا نستطيع ـ هنا ـ استقراءها . وفيما ذكرناه دليل على مالم نذكره .

وقياس الشبه :

قياس الشبه قسيم قياس العلة فى أن كلا منهما يؤدى إلى الاقناع ، ويقطع بذور الشك ، ويمهد لليقين .

وقد استخدم القرآن قياس الشبه كما استخدم قياس العلة فى معرض الجدل مع منكرى حقائق الإيمان . وبخاصة مع منكرى البعث والمشركين مع الله آلهة أخرى .

---

(٤٨) يس (٧٨ ـ ٧٩) .

وقياس الشبه أن يحمل المناظر أمراً مشكوكا فيه أو منكراً على آخر مسلم به عند الخصم لشبه واقع بينهما .

ومن ذلك فى القرآن العظيم فى الرد على منكرى البعث :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير »(٤٩) .

قال الإمام جار الله الزمخشرى : « إلا كخلقها وبعثها . أى سواء فى قدرته القليل والكثير والواحد والجمع لا يتفاوت .. »(٥٠) .

ومؤدى هذا القياس كما نفهمه :

ه تشبيه خلق جميع الخلق وبعثهم بالإمكان العقلى وإن كان واجبا من حيث ورود الخبر به .

ه تشبيه خلق الكثرة وبعثها بخلق القلة وبعثها فى اليسر والسهولة .

ومؤدى هذا كله تصوير إمكان البعث ويسره وسهولته بقياس ما تعلق بالكثرة على ما تعلق بالقلة .

وهذا هو قياس الشبه . ومنه قوله تعالى :

« كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين »(٥١) .

شبه الإعادة المتنازع فيها بالبدء المتقين به ليخرج المتنازع فيه مخرج المتقين به ، وهو المطلوب .

يقول صاحب الكشاف : « والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للإعادة بالإبتداء »(٥٢) .

أى نعيد الخلق الأول لكل من كان حيا فمات خلقا ثانيا . يعنى : البعث ..

---

(٤٩) لقمان (٢٨)
(٥٠) النمل (١٠٤) .
(٥١) الكشاف .
(٥٢) الكشاف .

إن القرآن الحكيم حين استخدم وسائل المعرفة والإقناع أخرجها فى صور فطرية بديعة ، يسرى معناها إلى النفس فى يسر وسهولة ويخاطب العامة بخطاب الخاصة فلا يرى العامى أن القصد مستغلق عليه ، ولا يرى الخاصى أن البيان ليس مسوقا إليه . وتلك سمة ، من سمات الإعجاز فى القرآن ، وخاصة فريدة من خواصه البيانية . يغلف المعانى ، وإن كانت أحكاما تقريرية ، بما يمتع المشاعر ، ويهز الوجدانات ، ويقنع العقول .

والحواس التى وجد الوضعيون عندها طلبتهم ، وانتهى إليها مسعاهم يستثمرها القرآن، ويجلى أمامها الحقائق ، فتلمسها عن قرب ، ثم ترسل أشعتها أو إشارتها إلى العقل فيؤلف بينها ويصقلها، ويخرج منها زبدتها فيحصل العلم، وتتمثل المعرفة . فالعقل لايقبل تلك الأشعة على صورتها الفجة؟ وإنما يحللها ويهذبها ويصل إلى المقصود منها . وبعد أن ينتهى من التصفية والتنقية ، ويصوغ القرار والحكم يكون الإيمان ويكون التصديق .

فالعقل ، والعلم ، والإيمان أسرة مؤتلفة فى الإسلام . لايعادى واحد منها الآخر .

فليس الإسلام مع العقلاء فى قصر المعرفة على العقل، وليس معهم فى اعتقاد المجافاة بين العقل والإيمان.

وليس القرآن مع الوضعيين الماديين فى قصرهم المعرفة على الحواس ، وليس معهم فيما رتبوه على هذه النظرة المخدوعة الخادعة من إنكار ماوراء الحس من حقائق ، ووضع جفوة بين العلم والإيمان .

وإنما القرآن مع منهجه الكامل المتكامل الذى يستثمر كل وسائل الإدراك فى الوصول إلى الإيمان بالخالق ، والتصديق بما جاء عن لسان رسله ، مصونا عن التحريف ، بعيدا عن التبديل .

ولما كان هذا هو موقف الإسلام من العقل ، والعلم والربط بينهما وبين حقائق الإيمان كان تاريخ علماء الإسلام حافلا - فى مجال البحث العلمى والعقلى - بكل عجيب وكانوا - بحق خير أمة أخرجت للناس .

العلم : أو الملاحظة والتجربة والاستقراء عن العلماء الإسلاميين :

استنهض الإسلام همم العلماء ، ورفع شأن العلم ، ووجه الأنظار إليه فنبغ من المسلمين أعلام فى مجال العلم التجريبى ، وصار بعضهم أساتذة لرواد النهضة فى أوروبا ، وسبقوهم فى هذا الميدان ، ومهدوا لهم الطريق فيما وصلوا إليه .

ومن طريف ما يروى فى هذا المجال أن حملة لواء العلم التجريبى الأوائل من المسلمين كانوا إذا أرادوا إنشاء مصحة (مستشفى) أجروا تجارب على الأماكن التى يريدون إنشاء المصحة فيها . فكانوا يأخذون شرائح من اللحم النيء ، ويضعون فى كل مكان مقترح قطعة من اللحم معلقة على حامل .

ثم يعودون بعد مدة يقدرونها لينظروا فى شرائح اللحم المعلقة . فإذا وجدوا نسبة التعفن فى مكان أعلى من نسبته فى مكان آخر ، اختاروا المكان الذى تقل نسبة التعفن فيه ، لأنه أصلح الأماكن للإستشفاء لقلة الميكروبات فيه (٥٣) .

فهذه تجربة وملاحظة ذات قيمة فى الاختبار وتحصيل المعرفة كانت ثمرة طيبة للعقل المستنير الذى صقله الإسلام .

ومما يروى كذلك أن أول عملية جراحية دقيقة أجراها علماء الأندلس المسلمين ، كانت فتح مثانة لإخراج حصاة منها (٥٤) .

---

(٥٣) انظر : أثر الإسلام فى الحضارة الأوربية للأستاذ العقاد ، ط دار المعارف .
(٥٤) نفس المصدر .

نماذج من بحوثهم :

جابر بن حيان : (١٦١هـ - ٧٧٨م) فى هذا الزمن المبكر نبغ جابر بن حيان فى علوم البحث والإستدلال حتى عد « إمام التجريبين ، والأوروبيون وصفوه بأنه « أول كيميائى فى التاريخ » .

ومما يؤثر عنه أنه كان يرى أن « فى التجربة كال العلم » ويريك دقته فى البحث قوله فى وصف كتبه :

« إنا نثبت فى هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط . دون ماسمعناه أو قيل لنا أو قرأناه ، بعد أن إمتحناه وجربناه » .

فهو لايعتمد المعارف السائدة أو التى يقرأها أو تقال له إلا بعد التجربة والاختبار .

والعالم عنده هو الدرب المجرب ، وفى ذلك يقول : « من كان دربا كان عالما ومن لم يكن دربا لم يكن عالما » .

وهو أول من أعلن أن لكل تجربة « تصميم متكامل » يبدأ بتحديد الغرض منها ، واتخاذ الأساليب الموصلة إليه مع تجنب المستحيل عقلا ، واختيار الوقت المناسب لإجرائها مع التحلى بالصبر والتحفظ وعدم الاغترار بالظواهر (٥٥) .

* الخوارزمى : (٢٣٥ هـ = ٨٥٠ م) من مؤلفاته « العالمية » : كتاب الجبر والمقابلة وقد ترجم إلى عدة لغات ، وعن طريقة عرفت أوربا علم « الجبر » وقد أجاد المؤرخ درايبر حين نسب اكتشاف علم الجبر إلى المنهج الإسلامى فى المشاهدة والتجربة .

والخوارزمى هو واضع « اللوغاريتم » وإليه يرجع الفضل فى شهرة الكسور العشرية وموضع الصفر فى الجمل الحسابية .

---

(٥٥) القرآن والمنهج العلمى المعاصر (١٣٠) مصدر سبق ذكره .

• الكندي فيلسوف العرب : (١٧٥ هـ = ٨٠١ م) ولادة . من علماء الإسلام نبغ في الهندسة والطبيعة، واستخدم الفرجار في رسم الزوايا الهندسية، وأجرى تجارب على جاذبية الأرض . وله مؤلفات في الفلك وعلم الهيئة وتأثير الكواكب على الأرض ، وكان يرى أن كل ما في العالم من الأجرام كروي الشكل . وله مؤلفات في الكيمياء والموسيقى . ويصفه العالم الإيطالي كاردانو (١٥٧٦) أنه واحد من اثني عشر عبقرياً ظهروا في العالم .

• أبو بكر الرازي : (٢٤٠هـ = ٨٦٤م) ولادة : اشتغل بالكيمياء والطب وكان له اهتمام بتشريح الجسم لمعرفة أسراره . وكان يفحص المرضى فحصاً دقيقاً وهم على أسرة المرض . وقد أحصى له بعض المستشرقين ٣٠ تجربة سريرية وكان أول من استعمل الخيوط المصنوعة من جلود الحيوانات في خياطة الجروح .

• المسعودي : (٣٤٦هـ = ٩٥٦م) وفاة . عالم فلكي وجيولوجي ومؤرخ وجغرافي أخذ يجوب الممالك يؤرخ لها ويطلع ويدون مشاهداته ، ومن أبرز مؤلفاته « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ثلاثة أجزاء فيه علم غزير وعطاء وفير وله كتاب في علم الفلك : « التنبيه والإشراف » .

وهو أول من أثبت العلاقة بين البيئة والإنسان والاقتصاد . ومما يفخر به المسلم المعاصر أن المسعودي أثبت علاقة بين ظاهرة المد والجزر وضوء القمر .

وقد حدثني بعض أهل العلم وكنا على شاطيء البحر الأبيض ونحن نشاهد تلاطم أمواجه العالية ، والجو خال من الرياح تماما فدهشت لهياج البحر دون أن تثيره الرياح العاتية . فقال لي صاحبي العالم : لاتعجب . فإن هناك علاقة وطيدة بين هذه الظاهرة وبين أشعة القمر حتى ولو لم يكن مرئيا

لنا الآن (كانت الساعة الثانية بعد الظهر) فتذكرت ملاحظة المسعودي هذه وكانت تجربة عملية أشهدها .

لهذا فإن بعض علماء الفرنجة يرفضون أن يقارن المسعودي بغيره من العلماء الأقدمين .

• الحسن بن الهيثم : (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ) القرن الحادي عشر الميلادي من المعلوم أن الحسن بن الهيثم هو أول من أشار بعمل خزان على النيل عند أسوان ، ولكنه لم يتم لصعوبة تكاليفه كما يرى بعض الكاتبين . وقد اشتهر الحسن بأنه مكتشف علم الضوء ، ويقول المستشار عبد الحليم الجندي : « أن أوروبا بايعت الحسن بن الهيثم على أنه مكتشف علم الضوء . وخطأت نظريات إقليدس وبطليموس[٥٦] من أن العين ترسل أشعة بصرية نحو الجسم المرئي . وأخذت بالقول أن الجسم هو الذي يرسل أشعته إلى العين » وهذا قول الحسن بن الهيثم . وللحسن هذا (٤٧) كتابا في الرياضيات و (٥٨) كتابا في الهندسة . انتفع بها علماء أوروبا ، وفي مقدمتهم روجير بيكون .

• ابن سيناء : الشيخ الرئيس (٣٧٠ - ٤٣٨ هـ) الحديث عن أبي سينا متشعب كثير الفروع وهو من أنجب من ولدتهم العبقرية الإسلامية . وتقدير الإسلام للبحث العلمي وتحصيل المعارف الكونية .

ومن مؤلفاته القيمة كتاب « القانون في الطب » الذي يقول فيه وليم أوسلر إنه « الإنجيل الطبي في أوروبا لأطول مدة من الزمان » ١٧٠٠ م بعد أن ترجم إلى اللاتينية بمعرفة جيرار الكريموني ، وطبع باللغات الأوروبية أكثر من خمس عشرة مرة في المدة من ١٤٨٣ إلى ١٥٠٠ م بعد أن اخترع جوتنبرج المطبعة عام ١٤٥٠ م .

(٥٦) أقليدس مهندس إغريقي قديم (قبل الميلاد وبطليموس عالم مصري اشتغل بعلم الرياضة وله مؤلف في الفلك وكان يرى الأرض هي مركز الكون حتى ظهرت نظرية كوبرنيق في القرن السادس عشر الميلادي .

رصد ابن سينا فى كتاب « القانون » ٧٦٠ عقاراً وزعت على علمى النبات والصيدلة فى جامعات أوروبا . ومن كتابه « القانون » عرفت أوروبا أسباب السكتة ، وانتشار الحصبة ، وحصى المثانة . كما أوحى كتابه بما هو معروف الآن فى المستشفيات بكيس الثلج ، واستخدام التخدير فى الجراحات ، وحقن المرضى تحت الجلد . وعلم الأمراض النفسية .

وله كتيب صغير فى نشأة : الحروف الهجائية . قام فيه برسم دقيق للحنجرة وأعضاء النطق مبيناً عليه مخرج كل حرف من الحروف كما تحدث عن سبب تكوين الحروف حال النطق بها .

كما أشار فى تآليفه لعلم الطبقات وعلم الرسوبيات فى الجيولوجيا ..!

هذا هو بعض تأثير الإسلام فى بعض أبنائه من حب العلم والتعمق فيه . وما ذكرناه لا يعد شيئاً بالنسبة لما لم نذكره . مع ملاحظة أننا وقفنا هنا عند رصد الحركة العلمية عند علماء المسلمين عند القرن الخامس الهجرى بل عند نصفه الأول .

وأردنا أن نستدل بوضوح على منزلة العلم والعلماء فى الإسلام . كما دللنا على منزلة العقل والعقلاء فيه .

وفى هذه الفترة التى رصدنا آثارها العلمية لم تنجب الكنيسة عالماً واحداً يماثل أحد العلماء المسلمين .

ولذلك إذا قلنا إن الإسلام لو كان هو السائد فى أوروبا بدل الكنيسة فى أيام محنتها لما وقع صدام بينه وبين العقل . ولا بينه وبين العلم من أى نوع كان إذا قلنا هذا كنا صادقين بل أكثر من صادقين .

الإسلام من أسباب النهضة :

ومما يدرج الإسلام فى تصوير موقفه مما حدث فى أوروبا فى القرون الوسيطة من انحراف وانشقاق أن مبادىء الإسلام وآثاره العملية فى الشرق الإسلامى كانت واحداً من أبرز الأسباب الإيجابية فى قيام النهضة الأوروبية وامتدادها إلى العصر الحديث .

فقد كانت أوروبا تعيش فى ظلام حالك ، وجهل مطبق فى تلك العصور قبل صلتها بالشرق الإسلامى . فلما وقعت تلك الصلة فى أشكال مختلفة أخذت روح العلم والمعرفة والتبصر بقيم الحياة تدب فى أوصال أوروبا التى كانت قد جفت عروقها ، وضعف نبضها ، وتبلدت فيها المشاعر والأحاسيس(٥٧) .

وليست هذه دعوى بلا دليل . وإنما حق قد أدرك بعض أبناء أوروبا المعتدلين أثره فأفصحوا عنه .

ومن مظاهر العلاقات والصلات التى امتدت بين أوروبا وبلاد الاسلام ما يأتى :

١ — الحروب الصليبية التى أتاحت لأوروبا أكرم الفرص للتعرف على الحضارة الإسلامية ومحاولة الاقتباس منها عن كثب ومعايشة .

٢ — ترجمة مؤلفات العلماء المسلمين فى العلوم النظرية والعملية مثل الخوارزمى وابن النفيس والحسن بن الهيثم وابن سينا والفارابى والرازى وغيرهم .

٣ — البعوث العلمية التى نزحت إلى معاهد العلم الإسلامية فى الأندلس والاحتكاك الحضارى والثقافى بينها وبين جنوب غرب أوروبا وبخاصة فرنسا وانجلترا .

---

(٥٧) عد مرة أخرى لقراءة خطاب جورج الثانى إلى الخليفة هشام الثالث فى القرن الرابع الهجرى من هذا الكتاب .

٤ — السياحة المتبادلة بين الشرق والغرب والقوافل التجارية بينهما .

وقد اقتبست أوروبا كثيراً من العلوم والفنون التي ازدهرت أو بدأت تباشيرها على أيدي العلماء والمفكرين والفلاسفة الإسلاميين . وقد أصاب العقاد حين قال ما معناه في هذا الصدد :

« إن ما تأخذه من أوروبا بعد ازدهار نهضتها الحديثة إنما هو من باب سداد الديون التي للعرب والمسلمين عليها بما نهلته من المعارف والعلوم الإسلامية قبل أن تعرف أوروبا ما تعرفه الآن » .

فأوروبا - إذن - مدينة للمعارف والعلوم الإسلامية . وما ثارت أوروبا على الأوضاع الكنسية والاقطاعية فيها إلا بعد أن عرفت حلاوة الحرية والمساواة والعدل والمعرفة التي كانت تظل الشرق الإسلامي بفضل الإسلام ومبادئه التي تآخى فيها الدين والعلم والعقل ، واتسقت مع الفطرة الإنسانية السليمة أيما اتساق .

ومن المستحسن - الآن - أن نوجز مظاهر موقف الإسلام من الأيديولجية الصليبية والتي تحلم بأنها قادرة على سياسة العالم وتوجيهه بعد عزل ما عداها ، وفي المقدمة الإسلام ، في الآتي :

أولا : أن الإسلام يرفض كل التصورات الكنسية التي أدت إلى الثورة عليها في الغرب ، لأن تصوراتها فاسدة بكل مقياس ، وبشهادة المنصفين منهم .

ثانياً : إن الإسلام لا يعادي العقل « العاقل » ولا يعادي العلم « العالم » ، وإنما يرفض اشتطاط العقل كما يرفض انحراف العلم ، ويوجه كلا من العقل إذا اشتط ، والعلم إذا انحرف إلى ما فيه خير الإنسانية في الدنيا والآخرة .

ثالثا : إن مبادىء الإسلام كونت لدى المسلمين ثروات زاخرة من نتاج العقل ، وثمار العلم ، وحرر الإنسانية من الأوهام ومنحها منزلة رفيعة

فى الحياة وسوى بين الناس فى الحقوق والواجبات فرقت حياتهم فى ظله . وتعلم منهم الغرب ، واقتبس من حضارتهم وثار لكرامته . ولكنه سرعان ما تنكب الصراط السوى .

قائمة : الأخطاء التى مهدت الطريق للعلمانية :

حفظت ذاكرة التاريخ قائمة من أبرز الأخطاء التى ذاعت فى الناس عن الكنيسة ، وأدت إلى الثورة ضدها . وإلى تمهيد الطريق لقيام العلمانية التى كثر الحديث عنها فى الربع الأخير من هذا القرن العشرين .

وقائمة الأخطاء البارزة نوجزها كل الإيجاز فى الآتى :

١ - بنوة عيسى عليه السلام لله - سبحانه عما يقولون علواً كبيراً .

٢ - التثليث : الآب والإبن والروح القدس .

٣ - الزعم بأن الثلاثة = واحد . والعلم يقول : ١ + ١ + ١ = ثلاثة؟!

٤ - الإستحالة فى العشاء الربانى بصيرورة الخبز لحما والخمر دما مع أن العلم والعقل يمنعان أن يتحول نوع ما إلى نوع آخر مختلف عنه تماما فى الخصائص والكيفيات .. ؟!

٥ - إدعاء الكنيسة أن الأرض مركز الكون ، وأثبت العلم أن الشمس هى مركز الكون ، وخطأ الكنيسة فيما تعتقد .

٦ - الخطيئة الموروثة . وقال العقل : ماذنب أجيال لم تخطىء تعاقب على خطيئة جناها غيرها ولم تكن لها وجود حين أخطأ المخطىء .

٧ - عصمة البابوات واحتكارهم لمسائل الدين ومساواة تفسيراتهم وأقوالهم بنصوص الوحى ومنحهم أنفسهم حق الخروج على تعاليم الكتاب المقدس .

٨ - استخفاف البابوات والكهنة بعقول الناس وإدعائهم أنهم يملكون غفران خطاياهم وبيعهم الجنة ، وهم لا يملكونها - بعقود فى المزاد العلنى .

٩ - قول الكنيسة أن بدء حياة الخليقة كانت عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد وقال العلم أن عمر الكون يقاس بملايين السنين .

١٠ - ادعاء الكنيسة أن الأناجيل الأربعة هى كلام السيد المسيح تلقاه وحيا عن الله ، وقال النقاد والعلماء أنها أعمال بشرية بدليل ما فيها من أخطاء علمية وعقلية وتاريخية ، والوحى منزه عن الخطأ .. !

١١ - اعتقاد الكنيسة بأن الأمراض من خبائث الشياطين ، ويكفى فى علاجها إقامة القداس والمذابح وإحراق البخور . وأثبت العلم أن أسباب الأمراض ميكروبات وكائنات حية بالغة الدقة والتعقيد وعلاجها يكون عن بعض المستحضرات الكيماوية ! ؟ .

١٢ - ادعاء الكنيسة أن الموت جاء نتيجة للخطيئة الموروثة . ولولا هذه الخطيئة لما مات الإنسان ولكان من الخالدين ؟ !

١٣ - ادعاء الكنيسة أن « الرق والعبودية » عقاب من الله على الخطيئة الموروثة . ومن يدعو إلى تحرير العبيد يكون متمرداً على إرادة الله ؟ .

١٤ - جعل الكنيسة الإعتراف بالخطايا للكاهن شرطا من شروط الطهارة وتنصيب « الكاهن » واسطة بين « المخلوق » و « الخالق » .

١٥ - محاربة الكنيسة للكشوف العلمية الصحيحة لأنها تخالف عقيدتها الباطلة . واضطهاد العلماء والتنكيل بهم مع أنهم محقون وهى مخطئة ؟ ! .

١٦ - الإتاوة المالية المجحفة التى كانت تتقاضاها الكنيسة من الناس ممثلة فى العشور والوصايا عند الموت وإقامة القرابين بدون وجه حق لها على الرعايا ؟ ! .

١٧ - تفشي الرذائل بين الرهبان والراهبات في الأديرة وهم يتظاهرون بين الناس بالطهارة والعفاف ؟ !

١٨ - بشاعة محاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة لمحاكمة مخالفيها في الرأي جرد الظنة، وصرامة الأحكام التي كانت تصدرها وشناعة تنفيذ العقوبات كإحراق المخالفين وهم أحياء وإخراج الموتى من قبورهم لتنفيذ العقوبات فيهم.

١٩ - تحالف الكنيسة مع الأشراف والسلطة الزمنية على تسخير الإنسان فاستأثرت الكنيسة بروحه، ورضي السلطان بجسده وصار الإنسان موزع الولاء بين شركاء متشاكسين ؟ !

وبهذا - وغيره - مهدت الكنيسة للعلمانية الجاهلة.

العلمانية هي الوريث :

عرفنا فيما تقدم أن فكرين مضادين لفكر الكنيسة قاما في وجهها كمنافسين خطيرين :

أولهما : المذهب العقلي الذي ساد طوال عصر التنوير حركة التمرد المعاكسة للخط الديني الكنسي.

وثانيهما : المذهب الوضعي العنيف الذي رفض الفكر الديني الكنسي ورفض الفكر العقلي كذلك، واتهمهما بالإفلاس في مجال المعرفة والريادة والتوجيه.

هذا من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية فقد كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) هي الضربة القاضية والقاصمة لظهر البعير وأزاحت سلطان الكنيسة والإقطاع وأفسحت المجال لرائد جديد يكون هو الرائد والموجه والسيد المطاع.

وقد كانت الفرصة مهيأة عقيب قيام الثورة لأن تتجه أوروبا اتجاهاً مستقيماً يخلصها من ربق التبعية لحضارات وثنية كانت تغذيها وتسيطر عليها طوال

المدة من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن عشر الذى حدثت فى أواخره الثورة ، وهى حضارات الإغريق ، وحضارات الروم .

وتخلصها كذلك من الجمود والتحجر البابوى ، ثم تضع قدمها على بداية الطريق الصحيح . وكان ذلك ممكنا لو حدثت أوروبا نفسها بالتغيير المحمود . وقد كان ذلك ممكنا وقريبا منها فى بلاد الأندلس وصقلية والشرق الإسلامى . فلو كانت أوروبا قد ولت وجهها شطر الإسلام ، وأقبلت عليه بصدق وإخلاص لارتفعت هامتها إلى السماء ولجت حضارتها المادية الهائلة بمنهج الإسلام فى الإرشاد والتوجيه والدعوة إلى ما هو أقوم .

ولكن من سوء حظ أوروبا أن أضاعت تلك الفرصة العظيمة وخرجت من ردة إلى ردة . ومن انتكاسة إلى انتكاسة .. ؟!

أضاعت أوروبا الفرصة وارتمت فى أحضان العلمانية الجاهلة وكانت العلمانية هى الوريث الوحيد أو المستبد بأطيب ما فى التركة . ولم تترك منها إلا الفتات وما ليس فيه غناء .

كان البديل الذى نصب نفسه وليا ووصيا على عروش البلاد هو العلمانية . وكانت الظروف مهيأة لاتجاه مثل العلمانية أن يجد لنفسه مكانا فى كل القلوب و المشاعر .

فقد جرب الناس ـ هناك ـ الحياة تحت ظل الدين فكرهوا الدين وفروا منه ؛ كرهوه وفروا منه لأنه لم يكن دينا بالمعنى الصحيح ، وإنما أطلق عليه اسم « الدين » ، وما هو بدين .

وقد أصبحت تلك التجربة المرة لأوروبا مع الدين الكنسى المزور المحرف المصنوع سببا كرهت أوروبا من أجله الدين ، أى دين ، وإن كان دينا قويما حوفظ فيه على أمانة الوحى ، وسلمت مبادئه من التحريف والتبديل . وصاحبت تشريعاته لإظلال الحيـــاة كلها بالسعادة والرقى وتضمن منهجه

حلولا لكل ما فى الحياة من مشكلات ، ورسم الطريق الصحيح لربط الخلق بخالقهم ، وإفراده بالولاء . وتحقيق الخير فى الدنيا الزائلة والآخرة الباقية الخالدة .

لم تعط أوروبا نفسها فرصة للمراجعة والتبصر عقيب الثورة ، ولم تحسن الاختيار . فانتقلت من مضار إلى مضار أشد وأفظع ، وخرجت من فتن إلى فتن أخطر وأشنع ، حتى ليصدق عليها قول شاعرنا الحكيم :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

أجل : لقد خرجت أوروبا من الرمضاء ، ثم خاضت بقدميها — وهما عاريتان — فى نار الجحيم . ولا يخدعنك ما تراه الآن من حضارات مادية تنعم بها أوروبا ، وتصدر فائضها إلى خارج حدودها لأن رقى الأمم لا يقاس بما فيها من حضارات مادية ، ولو بلغت عنان السماء وغاصت أعماق البحار .. وملكت أقطار الأرض .. ؟

العلمانية .. ما هى ؟!

ولكن ما هى العلمانية ؟ ومن أحق الناس ببيان المراد منها ؟ أهم منتجوها ومصدروها ؟ أم مستهلكوها ومستوردوها .. ؟!

العلمانية عملة أو سلعة أوروبية خالصة . على ربوعها ولدت ، وفى كنفها نشأت وترعرعت . فهم — أعنى الأوروبيين — أحق الناس ببيان المراد منها ، أعنى وضع التعاريف التى تحدد معناها الجامع المانع كما يقول المناطقة فى تعريف التعريف الصحيح .

ولكن فريقا منا — نحن العرب المسلمين — يحاول أن يزج بأنفه فى الموضوع ، ويدعى — وهو يعلم — أنه أعرف بالعلمانية من « المنتج » و « المخترع » ، وسنعود لهذا الفريق بعد قليل . والذى يهمنا الآن أن نعرض

تعاريف العلمانية عند مفكرى أوروبا ، وفى مصادرها المعجمية العامة والخاصة وإليك البيان :

تعريفات العلمانية عند الغربيين :

• تقول دائرة المعارف البريطانية : « العلمانية هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الإهتمام بالآخرة إلى الإهتمام بهذه الدنيا وحدها ، هذا ، وقد أخذ الإتجاه يتطور خلال التاريخ الحديث نحو العلمانية باعتبارها حركة مضادة للدين وللمسيحية .

• ويعرفها قاموس العالم الجديد : بأنها « الروح الدنيوية أو الإتجاهات الدنيوية . . وعلى الخصوص هى نظام من المبادىء والتطبيقات يرفض أى شكل من أشكال الإيمان والعبادة » .

• ويشرح معجم أكسفورد معنى العلمانية فيقول :

دنيوى أو مادى : ليس دينيا ولا روحيا ، مثل : التربية اللادينية الفن أو الموسيقى اللادينية ، السلطة اللادينية ، الحكومة المناقضة للكنيسة ، الرأى القائل أنه لا ينبغى أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية .

• ويقول المعجم الدولى الثالث الجديد : العلمانية مذهب أو اتجاه فى الحياة أو فى أى شىء خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تدخل فى الحكومة ، أو استبعاد هذه الإعتبارات استبعادا مقصودا . فهى تعنى : « اللا دينية البحتة فى الحكومة » .

« وهى نظام اجتماعى فى الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على إعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعى دون النظر إلى الدين » (٥٨) .

---

(٥٨) انظر العلمانية (٣٥) وما بعدها مرجع سابق ذكره .

هذه هى العلمانية وشروحاتها حسب ما أوردته معاجم الغرب . وتتلخص معانى هذه التعريفات فى الآتى :

أولا : رفض الإيمان بالله ثم رفض مراسم العبادة على أية صورة كانت.

ثانيا : إبعاد الدين عن التوجيه فى مجالات : الفن ـ التربية ـ الأخلاق .

ثالثا : قيام حكومات على فلسفات تستمد أصولها من نظم الحياة المعاصرة دون التقيد بالدين ؟ !

رابعا : الإيمان بالمادة المحسوسة ورفض الإيمان بما لا يدرك بواسطة حاسة من الحواس الخمس ؟! .

خامسا : المحاولة الجادة لصرف الناس عن العمل للآخرة ، وقصر كل اهتمامهم بملذات الحياة الدنيا وحدها .

ويضيف المستشرق آربرى أن كلا من : المادية ، والإنسانية ، والمذهب الطبيعى ، والوضعية أشكال وصور مختلفة للعلمانية وإن اختلفت التسمية .

وصفوة القول : إن العلمانية تعنى الإلحاد وهى لا تكتفى بفصل الدين عن الحياة ، كما يفهم أو يروج بعض الكاتبين عندنا هنا فى مصر وفى غير مصر من البلاد العربية والإسلاميه . وإنما هى حركة تقوم على انكار الدين وجعله ضربا من ضروب الخرافة والهذيان ؟ .

أهو دفاع عن العلمانية ؟ !

وقفنا على حقيقة العلمانية كما يراها منشئوها ومنتجوها فى الغرب على المستوى العام والمستوى الخاص ، وشرحوا ـ لنا ـ مجالات تطبيقها وبان لنا ما قدمناه أنها « شىء » لا يكتفى بعزل الدين عن الحياة (فصـــل الدين عن الدولة) وإنما هى تعادى الدين ـ أى دين ـ وتعمل جاهدة على دحره ومحوه .

ولو كانت العلمانية قد وقفت عند مهاداتها وتمردها على الدين الذي اخترعته الكنيسة لما لامها أحد ، ولكن انتصارها على الفكر الكنسي أغراها على التمرد على كل دين .

ومع هذا التحديد الواضح للعلمانية ومقاصدها ومجالات عملها فإننا نرى كثيرا منا - نحن المسلمين - ننظر إلى العلمانية نظرة دفاع ورحمة . ونحاول جادين أن نبرئها مما ثبت لها ، ونجرى فى وجهها الكالح القبيح عملية جراحية لتجميلها وتمريرها .

ولن أعرض للعلمانيين العرب الذين عرفوا بأنهم علمانيون وجهروا هم بهذه التسمية ، هؤلاء لن نعرض لهم فأمرهم معروف ، وحالهم مكشوف ومواقفهم مفضوحة .

وإنما نعرض لأناس لم يقولوا إنهم علمانيون ولبعضهم نتاج غزير وفير متتابع فى الكتابة والنشر والتأليف .

من هؤلاء الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - سابقا - وكاتب الأهرام الآن .

فقد كتب الدكتور زكى مقالا فى الأهرام بتاريخ ١٢/٧/١٩٨٥ م عرض فيه العلمانية على القراء عرضا مخالفا لما عليه العلمانية فى الواقع ، وكما وصفها أبناء الغرب أنفسهم وهم منتجوها ومصدروها .

كان عنوان المقال : « عين فتحة عين » وهدف الكاتب أن يقول : ان العلمانية مفتوحة العين وليست عينها مكسورة وهى مع كسر العين تكون نسبة إلى « العلم » أما بفتح العين فهى نسبة إلى « العالم » يقصد كل الشعوب وكانت النسبة حسب القواعد الصرفية أن تكون « العالمية » لا « العلمانية » ولكن دخلها إبدال وقلب مكانى فصارت « العلمانية » نسبة إلى العالم شرقه

وغربه شماله وجنوبه . وبعد تقرير هذه الفكرة يدلف الكاتب إلى محاولة غريبة بين «العلمانية» وبين الإسلام ، فيقول : إن الإسلام علماني ، لأن القرآن اهتم بشئون العالم من جوانب مختلفة . وأخذ يذكر بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن مقاصد عالية من سياسة وتشريع . الخ .

وقبل مقال الأستاذ الدكتور زكي نجيب قرأت مقالا مشابها نشرته جريدة الجمهورية للأستاذ مصطفى مرعي - شيخ المحامين - قال فيه : إن العلمانية بفتح العين لا بكسرها وشرح معناها بمثل ما شرح الدكتور زكي ، ولكنه لم يتوسع مثله في تقرير المعاني وسوق الشواهد عليها .

ولنا هنا مع الشيخين وقفات :

الأولى : إن النسبة الصحيحة إلى « العالم » هي « العالمية » وليست هناك ضرورة لغوية أو حتى أدنى مسوغ لغوي لأن تحل « العلمانية » بفتح العين — كما يدعيان — محل « العالمية » . فالعالمية نسبة مألوفة ، وهي أخف من « العلمانية » فلماذا حلت تلك النسبة « الغريبة الثقيلة » محل النسبة المألوفة الخفيفة .. ؟ !

الثانية : إن أحق الناس بوضع .. الحدود والتعاريف وشرح المراد من مخترع ما هم الذين اخترعوه وابتدعوه ؛ لأنهم أدرى به من غيرهم فإذا قالوا فيه قولا وجب على « المستهلك » أن يقف عندما قالوه وليس له أن يتفلسف ليضع « للمخترع » إسما غير الذي وصفوه هم . وبخاصة إذا كان التبديل في التسمية يخرج « المسمى » عن حقيقته ومعناه . وهذا هو ما اقترفه الشيخان وإن تفاوتت نسبة الاقتراف بينهما .

الثالثة : لم يقل أحد من الغربيين ، ولم ينص معجم من معاجمهم على أن « العلمانية » مشتقة من « العالم » ومنسوبة إليه .. وإنما قالوا إنها مشتقة من « العلم » بكسر العين ومنسوبة إليه على غير قياس ، إلا إن أرادوا

من زيادة الألف بعد الميم : المبالغة ولو أن الشيخين كانا قد قالا : إنها منسوبة إلى « العلم » المثمر الذى تقوم عليه نهضات الأمم لا نحصر الخلاف معهما حول المراد من العلمانية أهو العلم المهذب المؤمن ؟ أم هو العلم الملحد . ولكنهما وسعا دائرة الخلاف فأرجعا المعنى إلى غير مرجعه . ومثلهما مثل محام تطوع للدفاع عن مجرم مقر أمام القضاء بإجرامه ، معترف بخطيئته داعما اتهام نفسه بالأدلة والبراهين القاطعة . فإذا بالمحامى يترافع عنه — رغم اعترافه ، والإعتراف ـ مع الرشد ـ سيد الأدلة ، ويقول ، أى المحامى — أن المتهم برىء .

أو مثلهما مثل من يسأل آخر عن إسمه ، ثم يقول له : لاليس إسمك كذا وإنما إسمك كذا ؟ !

إن المتهم أدرى بما فعل ، واعترافه الحر الراشد ، يقطع كل جدل ؟ ! .

وإن المسمى أدرى الناس باسمه ، وليس لأحد أن يقول له : ليس هذا إسمك وإنما إسمك فلان ؟ !

أو مثل الشيخين مثل من يحذف « الياء » من كلمة « شيطان » لتصبح بعد الحذف « شطان » مشددة الطاء . فيزيل بهـــذا قبحا ؛ لأن الشيطان رمز الشرور والفتن ، ويثبت حسنا ، لأن « شطان » تثنية : شط أوشاطىء وشط النخل أو شاطىء الماء ومعناهما يبثان البهجة ، والسرور عند السامع بخلاف معنى « شيطان » المقبض الكئيب .

ولست أدرى : أهـذا دفاع من الشيخين عن العلمانية ؟ أم عدم وقوف منهما على معناها المنصوص عليه فى دوائر معارف الغرب ، ومعاجمه العامة والخاصة ؟ ! .

لا أستطيع أن أجيب ، وإن كنت لا أستطيع أن أكف عن التساؤل ؟ !

ومهما يكن من دفاع عن العلمانية فإن تاريخها العملى فى كثير من البلدان يؤكد أنها — كما شرحها الغربيون — أيديولجية مدمرة ، وبدعة من بدع العصر إن أفادت فى جانب دمرت وأفسدت فى جوانب . وإن الشقاء الذى يخيم على العالم — الآن — من أخطر أسبابه العلمانية الجاهلة .

عوامل مساعدة على نشأة العلمانية وتطورها :

عرفنا أن الوضعية التى أرسى اصولها أوجست كونت كانت أحد ردود الفعل على التعصب البابوى وجمود الكنيسة على قوالب جافة من العقائد وأشكال باهته من رسوم العبادة ، ومعارف بالية من خداع الفكر . كما عرفنا أن وضعية كونت قصدت فيما قصدت تقليص الفلسفة العقلية ، وإثبات فشلها فى القيادة والتوجيه ، وإفلاسها فى أحداث أنماط جديدة من الحياة تلائم معارف العصر وثقافاته وتصوراته الطموحة .

وقد استطاعت الوضعية أن تنحى كلا من الفكر الكنسى والفلسفة العقلية المثالية ، وأن تستأثر بعقول المثقفين وتكتسب صداقتهم لها ، حتى افتتنوا بها وعدوها مثلهم الأعلى فى الحياة .

بيد أن العلمانية — مع هذا كله — وقد حلت محل الوضعية المادية — كانت ماتزال فى حاجة إلى وقائع «علمية أخرى» تبسط نفوذها من خلالها ، وتثبت أقدامها فى الميدان فأبرز الكشوف كان :

* نظرية كوبرنيق حول مركزية الشمس للكون ، وكروية الأرض ودورانها حول الشمس .

* نظرية إسحق نيوتن للجاذبية ، وكان لها تأثير كبير فى توطيد أقدام الوضعية الممهدة للعلمانية فيما بعد .

هذان الكشفان لم يكونا كافيين لاستكمال التصور الوضعى العلمانى لذلك فإن الحاجة كانت ماسة لدعائم جديدة من جنس نظريتى كوبر ونيوتن ليتم الإنتقال الحاسم من عصر الكثلكة والفلسفة العقلية المثالية .

وقد كان ذلك المدد المنتظر ممثلا فى أربع دعائم وجدت فيها العلمانية أكبر عون لفرض نفسها كأيديولجية بديلة جـــديرة بالتقدير . والدعائم الأربع هى :

- نظرية داروين فى التطور وأصل الأنواع .
- نظرية فرويد فى التحليل النفسى . وقد أحيت هاتان النظريتان كلا من :
- نظرية مكيافللى فى الحكم .
- نظرية جان جاك روسو فى أصل السلطة . وفيما يلى بيان لكل واحدة منها وأثرها فى تطور الفكر الوضعى العلمانى :

الداروينية :

ولد تشارلز داروين فى انجلترا يوم ١٢ فبراير ١٨٠٩ م ، وتوفى عام ١٨٨٢ م فهو من مفكرى القرن التاسع عشر الذى كان له أثر بعيد المدى فى تطور الفكر العلمانى فى القارة الأوروبية وقتذاك .

وقد أصدر داروين كتابه « أصل الأنواع » عام ١٨٥٩ م ، وذهب فيه إلى أن أنواع الأحياء ـ جميعا ـ وهى النبات والحيوان والإنسان ، لم يخلق كل نوع منها خلقا مستقلا . بل كان لها أصل واحد هو الخلية البسيطة (البروتبلازم) ثم ظهر الحيوان الدودى ، ثم الشوكيات ثم القشريات . ثم ظهرت صور جديدة من الحيوان ، دل وجودها على وقوع انقلاب خطير فى سير الحياة . وأصبح لهذه الصورة حبل متين تدرج بواسطة التطور إلى تكوين الفقار ، فوجدت الفقاريات واللافقاريات . ثم نشأت البرمائيات كالضفادع ، ثم تدرج سلم التطور من البرمائيات إلى الزواحف كالحيات . ومنها نشأت الطيور ، وذوات الثدى . ومن ذوات الثدى نشأت القردة . ومن القردة . ومن القردة نشأت البشريات أو الإنسان[59] ؟

---

(٥٩) أصل الأنواع بتصرف . نقلا عن : (موقف الإسلام من نظرية ماركس ٠٠) ١٦٤٢ .

ويمضى داروين فى شرح نظريته فيرى أن الأنواع وجدت على الطبيعة متأثرة بالظروف الخارجية المحيطة بها ، وأنها - أى الأنواع - أخذت تتطور عن طريق الصراع وطلبا للبقاء . وأن الطبيعة كانت تبقى الأصلح وتؤدى غير الأصل ، وهذا هو مايسمى فى مذهب النشوء والإرتقاء بـ : « الانتخاب الطبيعى » أى اختيار الطبيعة لبقاء الأصلح وانقراض غيره من الدنايا .

وأنت ترى أن التطور عند داروين بدأ من نقطة هى « البروتوبلازم » وهو الصورة البدائية للحياة . وانتهى عند نقطة هى : « البشريات أو الإنسان » وانتهى داروين إلى أن الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت فى زمن مديد بمقتضى قانون : « الانتخاب الطبيعى » أو « بقاء الأصلح » ، وهو القانون اللازم من « تنازع البقاء »[٦٠] ؟ !

وداروين لم يكن أول من ذهب إلى هذه الفكرة فقد قال بها قبله كثيرون ومنهم من عمم فكرة التطور هذه حتى شملت نوعى الكون وهما : المادة غير العضوية . والمادة العضوية بأنواعها الثلاثة : النبات والحيوان والإنسان ومن ذهب هذا المذهب [التطور العام فى العضويات وغير العضويات] هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) وهو من معاصرى داروين . ومن قبل سبنسر هاملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦ م) وعمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) .

فالفكرة كانت مطروحة قبل داروين وفى أيام حياته ، ولكن داروين تحاش القول بالتطور العام واقتصر على أحد شقيه ، وهو تطور الكائنات العضوية . ولهذا الاختيار عند داروين سبب أحسن أستاذنا العقاد فى الحديث عنه أو قل : الكشف عنه ، وخلاصة ما ذكره العقاد يفهم منه أن داروين صرف عن القول بالتطور العام خشية الوقوع فيما وقع فيه سبنسر والقائلون به ؛

---

(٦٠) الإسلام والفكر المادى (٧٦) د . أحمد الشاعر .

لأنهم صدموا بعـــدم معرفة الأصول الأولى المؤثرة فى تطوير الـكون .
فلم يجرؤوا على تفسيرها ، ولم يجرؤوا على إنـكارها .. !

ولذلك ارتضى سبنسر أن يقف التطوريون العامون بالمعرفة الإنسانية عند الآثار الظاهرة التى يدركونها ، وإن يحجموا عما وراءها مما لا يدرك لا بالعقل ولا بالحواس . فالمعرفة الإنسانية عند التطوريين العامين نوعان : نوع مدرك لأنه ظاهر ونملك وسائل إدراكه .

ونوع غير مدرك، مع أنه موجود، ولـكننا لا نملك الوسيلة الموصلة إليه .. ؟!

النوع الظاهر هو المؤثرات الطبيعية فى الـكائنات العضوية، وهو ما اقتصر عليه داروين .

أما النوع غير الظاهر فهو يتلخص فى هذا السؤال المزدوج :

« ماذا خارج الـكون كله يرجع إليه تطور الـكون منذ البداية الأولى . وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التى لا أول لها ولا آخر إذا قيل أن الـكون موجود بلا ابتداء ولا ختام »(٦١) ؟ !

وهذه وقفة ناقدة وذكية تمدح للأستاذ العقاد . وأرجو من القارىء أن يحتفظ بها ريثما نعود إليها بعد قليل .

ومن المستحسن بعد أن بينا فى إيجاز محور نظرية داروين أن نعرض لصلتها بالفـكر العلمانى وتطوره من خلال آثارها عـــلى العقل والثقافة فى أوروبا بعد ذيوعها .

أثر الداروينية فى القارة الأوروبية :

أولا : عند العلماء :

إنساق فريق من علماء الغرب وراء بهرج هـــذه النظرية وتعصب لها أيما تعصب فهذا جيمس جنز يقول عنها :

(٦١) الإنسان فى القرآن الـكريم (٧٢) ط : دار الهلال .

« إن فى عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادى للحقائق »(٦٢) .

ويقول سير آرثر كيث : « إن نظرية النشوء والإرتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد - بعد ذلك - هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر ؟ . وهذا مالا يمكن حتى [مجرد] التفكير فيه »(٦٣) ؟ !

فتأمل - عزيزى القارىء - هذا القول المتعسف . فآرثر كيث يعترف بكل وضوح أن نظرية داروين لا يمكن إثباتها علميا . وأن إثباتها عن طريق البرهان أيا كان مصدره علميا أو عقلياً - مستحيل .

وهذا الإعتراف كاف فى إسقاط النظرية لو كان السير كيث ممن يعقلون ؟ !

ولكنه يصرح بضرورة الإيمان بها اضطراراً . ولأى سبب - يا ترى - ؟!

إن السبب أفصح عنه الكاتب : إنه الفرار من الإيمان بالخلق الخاص المباشر . وهذا الإيمان - يقود إلى الإيمان بالله العظيم خالق كل شىء . ولذلك فر منه السير كيث وارتمى فى أوهام الداروينية كما ترى ؟ !

إلى هذا الحد الزرى ألغى السير كيث عقله ؟ ومن أجل أى شىء ؟ من أجل اختيار الكفر والإلحاد ، فراراً من الإيمان بالخالق العظيم المدبر .

ثانيا : عند عامة الناس :

تركت نظرية داروين فى المحيط العام الأوروبى آثاراً سيئـــة للغاية ، وما تزال أوروبا غارقة إلى الأذقان فى آثار الداروينية فى الإعتقاد والسلوك حتى ولو كانت غير ملاحظة عند التطبيق ، ومن أبرز آثارها السيئة ما يأتى :

---

(٦٢) عالم الأسرار لجيمس جنز (١٨٩) انظر الإسلام يتحدى (٣٩) .
(٦٣) مذهب النشوء والارتقاء (٦) نقلا عن الإسلام يتحدى (٤٠)

١ - خلق موجة من الإلحاد وبلبلة الأذهان والكفر بما ورد فى الكتاب المقدس عن قصة آدم وحواء ، واعتقاد أن الجنة التى كانا فيها وهم من الأوهام .

٢ - نفى الغاية والقصد : كانت التعاليم الدينية تعد الناس بحياة أخرى يجازى فيها المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته . فجاءت الداروينية تقول لهم : إنهم ثمرة من ثمار تطور الطبيعة ، ولم يخلقهم إله لعبادته فيجازى المحسن بالإحسان والمسىء بالإساءة . وأصبح من العبث الإيمان بأن الإنسان مخلوق لغاية وقصد فالطبيعة هى الخالقة ، وهى لا تريد أن تعبد وليس عندها ثواب ولا عقاب .

وقد زاد من هذه النكسة أقوال العلماء المرجحة للنظرية . فهـــذا جوليان هلكسلى يقول :

« من المسلم به أن الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ، ولكن قد تحل محله [فى السيادة] القطة أو الفأر »(٦٤) ؟ !

ونتج عن هذا كله أن فقد كثير من الناس الثقة فى الحياة وأصيبوا بذهول قاتل لأن الإنسان إنما يعيش بالأمل ويحيا من أجل غاية أسمى ومقصد حسن يثير لديه كل الطاقات .

٣ - تولد شعور عند الناس بأن « الإنسان » حيوان لا غاية له ولاهدف يسعى إليه . فماذا يفعل - إذن - وقد اهتز إيمانه بفكرة الخالق المدبر المطلع على السراء . وقيل له : إن خالقه هو المادة ، وقوانينها هى النافذة فيه . . وهو لا يرى فى المادة إلا الصمت المطلق والعجز المطلق .

٤ - وتولد عن الداروينية فكرة التطور المطلق غير المقيد بأية ضوابط عدا تحكم الطبيعة غير العاقلة ، التى تخبط - كما يقول داروين نفسه - خبط عشواء .

(٦٤) معركة التقاليد (١٥٩) .

فعملية الخلق الطبيعى عملية حتمية لا تدبير فيها ، والتطور نفسه قلق مضطرب، فليس ببعيد أن يعود الإنسان قرداً ، أو ضفدعة أو ماشئت من الكائنات الدنيا ، ؟!

ولذلك ظهرت الإباحية والتفسخ الخلقى وعبادة الملذات قبل فوات الأوان ما دام الإنسان لا يرى فى الكون حقيقة ثابتة . بل الأشياء رهينة التطور المزعوم .

الدفاع عن الإلحاد :

وقد تطوع كثير من المفكرين الحالمين بزوال الإيمان بالله ، بالدفاع عن العلمانية والإلحاد ممثلا فى نظرية داروين . يقول لوبون :

« إن الزمان إله ، لأنه هو الذى يولد المعتقدات ، فينميها ثم يميتها ... إن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا . وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شىء يتحول ويتبدل »[٦٥] ؟!.

ويقول جون لويس : « نظرية التطور والإرتقاء لا تستبعد قوى مافوق الطبيعة من عملية الخلق فحسب . بل تضع بدل هذه القوى تطور الحياة الطبيعى وقد كان هذا تجديداً مدهشا »[٦٦] ؟!

جون لويس - سعيد جداً - لأن نظرية داروين لم تكتف بإبعاد قوى مافوق الطبيعة (الله سبحانه) من عملية الخلق فحسب ، ولكنها جاءت بالبديل عنها وهو تطور الحياة الطبيعى المستغنى عن قوة أخرى تؤثر فيه ؟!! .

ويرجع جوته عوامل استقاء النظرية إلى أسباب علمية مادية بحتة فيقول: « إن الدلائل فى تأييد المذهب المادى قد أتت فى الغالب من ثلاثة مصادر : علم الأحياء ، وعلم النفس ، والفيزياء » .

---

(٦٥) روح الجماعات (١٠٣ - ١٠٤) .
(٦٦) نظرية التطور وأصل الإنسان (١١) .

هذه النظرية قوت الصلة بين النظار القاصر، والتفكير الفطير وبين الإغترار بالعلمانية، وأنها كافية فى تفسير ظواهر الكون وأسراره فلا حاجة إذن إلى الإيمان بالله ؟ ! . إذ لم تدع إلى هذا الإيمان ضرورة فيما بدا لهم وقتذاك .

دور اليهود فى ذيوع النظرية :

لذيوع نظرية داروين عدة عوامل كالصراع بين الدين والعلم، وتقلص الفكر الكنسى، وعنف الثورة الصناعية التى مسخت صورة الحياة فى أوروبا وشيوع الإباحية، وزعزعت القيم الفاضلة .

ولكن عاملا آخر خطيراً أخذ على عاتقه مهمة الترويج لهذه النظرية بكل وسيلة ممكنة .

يفصح لك عن هذا قول اليهود :

« لاتتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا — هنا — أن نجاح داروين، وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل . والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى سيكون واضحا لنا على التأكيد [٦٦] .

اليهود ليسوا وراء نظرية داروين فحسب، بل وراء كل فكر مادى مدمر فهم وراء ماركس وماديته الجدلية (الشيوعية) ووراء نيتشه فى تمرده على حقائق الإيمان [٦٧]. ووراء فرويد فى تقديس الجنس . ووراء كل فكر ملحد .

واليهود لهم هدف خطير فى مثل هذه المذاهب ؛ لأنهم يحلمون بالسيطرة على العالم . وهى غير ممكنة إلا بعد وقوع انتكاسات فى العالم فى مقدمتها تدمير

---

(٦٦) بروتوكولات حكماء صهيون (١٠٦) .

(٦٧) انظر فى نيتشه : قصة الفلسفة (٥٠٧) وكانت له آراء جريئة طائشة فى الدين والأخلاق ونظام الحكم . ثم أصيب بالجنون والعمى فى آخر حياته ومات سنة ١٩٠٠م وهو مجنون ؟ !

العقائد الدينية ، ونشر الإباحية وترويج الدعايات للجنس والملذات الرخيصة وتفكيك النظم الاجتماعية والسياسية والأسرية ، وعلمنة الثقافة والفن والأخلاق والأمميون : كلمة ، يطلقها اليهود على من ليس يهودياً . مسلمين ونصارى وغيرهم من شعوب الأرض .

وخلاصة القول فى نظرية داروين :

• إنها نظرية وإن بناها على قواعد علمية - فهى ظنية لاتؤدى إلى يقين. وداروين نفسه لم يجزم بصحة مدعياته ، ولذلك تردد كثيراً فى إعلانها تحسبا لما سيكون لها من ردود فعل عنيفة .

• إن داروين كان ماديا صرفا ، ووقع فيما وقع فيه الحسيون من بين يديه ومن خلفه ؟ .

• إن الإيمان بالله ، والتصديق بنظرية داروين لايجتمعان فى قلب رجل واحد أبدا لأن مدعيات داروين فيها تكذيب صارخ بالخبر الصادق الذى جاء به وحى الله الأمين .

هذا وبعرض نظرية داروين على الإسلام يظهر للقارىء بطلانها وزيفها من أقصر طريق .

موقف الإسلام من نظرية التطور :

التطور ثلاثة أنواع :

• تطور فى طبيعة الخلق وتولد الأنواع والكون من القلة إلى الكثرة . ومن البساطة إلى التركيب ، وتولد أنواع من أنواع ، وهو التطور العام فى غير العضويات وفى العضويات . على مذهب هاربرت سبنسر وأصحابه .

• تطور بالمعنى المذكور ولكنه مقصور على الكائنات العضوية الثلاثة : النبات والحيوان والإنسان ، كما يرى تشارلز داروين ومشايعوه .

« تطور من البدائية إلى التحضر ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفردية إلى الاجتماع ومن السذاجة إلى الذكاء والفطنة مع أن كل نوع من أنواع المخلوقات مخلوق خلقا مستقلا مباشراً ، بقدرة الله وإرادته وتدبيره .

هذه أنواع ثلاثة من صور التطور . الإسلام يقر بواحد منها ، وهو الثالث ، ويرفض الأول والثاني ؛ لأنهما يسعيان إلى إضفاء صفة الإستقلال الطبيعي في الخلق والتكوين . فالطبيعة فيهما تحل - أرادوا أم لم يريدوا - محل « الله » ؟ ! ! !

والتطور الذي ذهب إليه داروين قد حط فيه من قدر الإنسان . فالإنسان في الإسلام مخلوق كريم قد فضله الله على كثير من خلقه .

وآدم أبو البشر قد جاء صريح القرآن ببيان قصة خلقه من تراب خلقا مستقلا لم يكن نتيجة لتطور أنواع كما زعم داروين .

أما حواء أم البشر فقد خلقها الله من نفس آدم عليه السلام . وبث منهما لا من غيرهما رجالا كثيراً ونساء . وأرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين . والله قد خلق آدم يوم خلقه على الصورة التي نرى ذريته عليها ، صورة « في أحسن تقديم » كما جاء في القرآن الكريم ويقول الله تعالى مخاطبا الإنسان :

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟ الذي خلقك فسواك فعدلك » .

ويقول سبحانه : « وصوركم فأحسن صوركم » .

وفي الحديث الشريف : « إن الله خلق آدم على صورته » . ولهذا الحديث معنيان عند العلماء كلاهما يعليان من قدر الإنسان . أحدهما ، وهو الذي نميل إليه : أن الله خلق آدم يوم خلقه على نفس الصورة التي وجد بها وتوارثها عنه بنوه ومعنى هذا أن آدم أو الإنسان عموما لم يمر بمراحل في الخلقه طوراً

بعد طور على النحو الذى لهج به داروين ومتابعوه . ويكون - على هـذا - هذا الحديث كأنه رد موجه قصدا إلى مدعيات داروين . وهو - كذلك - لمحة من الإعجاز النبوى الذى كان فيه - عليه السلام - لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وكم من الغيبيات التى ألمح إليها عليه السلام بإلهام من ربه فجاءت كفلق الصبح .

فالمسلم لايحتاج إلى عقيدة فى الإنسان غير العقيدة التى جاء بها القرآن هذه العقيدة القرآنية تجىء العقائد ثم تذهب أشبه ما تكون بموديلات الموضة وهى ثابتة لاتزول ولا تتبدل ولا تخضع للطوارىء والتغيرات ؛ لأنها خبر صادق حكى الواقع فى أمانة وصدق . بينما كل عقيدة بديله تقوم على الأوهام حينا والتخمينات حينا آخر . والخبر الصادق لايقبل النفى . وكل من حاول نفيه ركب متن الشطط . وتاه فى ضلال الأوهام .

ويكفى فى مذهبى التطور العام والخاص أنهما أحيطا بأخطر المشكلات التى قد استعصت على الحلول ، ولن يزال ذلك شأنها إلى الأبد .

فقد رأينا أن هاربرت سبنسر وهيوم وهما من القائلين بالتطور الطبيعى العام قد صدما بالأصول الأولى التى حدث عنها التطور . واكتفى سبنسر أن يقسم المعارف الإنسانية قسمين كبيرين كما مر . أحدهما ما يتعلق بالأصول الأولى واعتذر سبنسر بأنها تدرك ولا تعرف ؛ لأننا لم نزود بوسائل تمكننا من معرفتها وما أكثر الأشياء التى يحس بها الإنسان ثم لا يعرف كنهها .

والأصول الأولى هذه كثيراً ما يطلق عليها أصحاب مذهب التطور العام : القوى التى هى فوق الطبيعة . وبعضهم يطلق عليها « القوة الحيوية » هكذا على الإبهام . وكانت الحقيقة على طرف الثمام منهم لو طلبوها . فالمجهول الذى أطلقوا عليه : القوى التى فوق الطبيعة ، أو « القوة الحيوية » إنما هو « الله » لو كانوا يعقلون ؟ !

وهروب داروين نفسه من القول بالتطور الطبيعى العام كان مبعثه

ـ كما تقدم ـ فراره من أن يجد نفسه وجها لوجه أمام قوى ما فوق الطبيعة أو القوة الحيوية التى تقود التطوريين جميعا لحتمية الإيمان بالله خالق الكائنات .

وهروب داروين إلى القول بالتطور الخاص فى العضويات دون التطور العام لم ينجه من الوقوف أمام نفس المشكلة ، التى صدم بها سبنسر ؛ لأن قسيم داروين فى القول بالتطور العضوى أفصح فى وضوح أن وراء هذا التطور قوة مدبرة . وكان هذا الإفصاح سببا فى أن يختفى الفريد رسل والاس قسيم داروين من التاريخ ، وأن ينسب مذهب التطور إلى داروين وحده . لأن ذلك يوافق مذهب اليهود والعلمانيين حيث انتهى إلى الإلحاد ، وهو المطلوب عندهم .

أما ما انتهى إليه الفريد رسل والاس فإنه يمهد الطريق ـ بحق ـ إلى الإيمان بالله . والإيمان بالله أعدى أعداء اليهود والعلمانيين على حد سواء وأرجو أن يستحضر القارىء الكريم ما نقلناه ـ قبلا ـ عن السير أرثر كيث حيث جزم بأن نظرية داروين لاتثبت علميا ولا عن طريق برهان . وهذا حق وصواب ولكن أرثر كيث مع هذا الفهم يفرض على نفسه قبول نظرية داروين . لا لأنها صحيحة أو ممكنة الوقوع . ولكن لأنها البديل عن الإيمان بالله .

ونختم جولتنا مع الداروينية بكلام لداروين نفسه حول نظريته هذه . ولنا عليه تعقيب قصير :

فقد وجه مستر فوردايس مؤلف كتاب « ملامح من الشكوكية » سؤالا إلى داروين عام ١٨٧٩ م أى قبل وفاته بثلاث سنوات يستوضحه فيه عقيدته الدينية . فأجاب داروين بالآتى :

« إن آرائى الخاصة لاخطر فيها ولا تعنى أحداً غيرى . ولكنك سألتنى فأسمح لنفسى أن أقول : إننى متردد ، ولكننى فى أقصى خطرات هذا التردد لم أكن قط

ملحداً بالمعنى الذى يفهم منه الإلحاد على معنى أنه إنكار لوجود الله. وأحسب أن وصف اللا أدرى يصدق على فى أكثر الأوقات - لا فى جميعها - كلما تقدمت بى الأيام »(٧٠) .

تعقيب :

يفهم من هذا الكلام أن داروين لم يكن يجزم بمدعيات نظريته ، وأنه لم يقصد بما قال إنكار وجود الله . كما يفهم منه أنه كلما تقدم به السن علا عنده جانب التردد على جانب الإعتقاد . أنه يفضل أن يصف نفسه بـ « اللاأدرية » إذن فقد كان الرجل - فى آخر حياته كما يفهم من كلامه أنه « لا أدرى » .

وهذا ما حمل العقاد على أن يقول فى مواضع متعددة من كتبه أن داروين لم يكن ملحداً .

ويرى الأستاذ يوسف كرم أن داروين إنما تظاهر بنفى الإلحاد عن نفسه مجاراة للرأى العام - وإنه انتهى فى آخر حياته إلى القول بأن المسألة التى خاض فيها تسمو فوق مستوى العقول (٧١) .

ومعنى هذا أن داروين خرج من الحياة غير واثق كل الثقة بمدعيات نظريته . واعترافه بأن المسألة فوق مستوى العقول اعتراف منه بالقوى التى هى فوق الطبيعة أو القوة الحيوية . ومعنى هذا - مرة أخرى - أن الحلقة المفقودة فى مباحث التطوريين ، وهو دليل الإيمان الصادق بالله قهرت أنصار التطور الطبيعى المادى ، فما كان منهم من أحد إلا ووجد الطريق أمامه مغلقاً . وكان مفتاحه فى أيديهم لو أرادوا أن يفتحوه وليس ذلك المفتاح شيئا غير

---

(٧٠) عقائد المفكرين فى القرن العشرين (٥٦) الأستاذ عباس العقاد - ط الأنجلو .

(٧١) تاريخ الفلسفة الحديثة (٢٤١)

الإعتراف بالخالق العظيم الذى يسجد له من فى السموات ، ومن فى الأرض طوعا أو كرها .

ومصير داروين هو مصير كل العلمانيين الذين يزعمون أن العلم المادى قادر على الشرح والإيضاح وكشف العلل والأسباب التى وراء هذا الكون . خيبة الآمال ، وانغلاق الطريق هو عاقبة كل عالم جاهل وكل عاقل متمرد .

ورحم الله أستاذنا العقاد إذ يقول :

« إن القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء . وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء . موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم . وبالإيمان فيما خفى عليه . وموضعه بين بنى آدم وحواء أنهم إخوة من عشيرة واحدة أكرمها من كرم بما يعمل ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ، ولا ينجو من وزره بغير عمله » (٧٢).

ثم ختم الأستاذ العقاد كلامه هذا بكلام رب العالمين :

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

الفرويدية :

الفرويدية نسبة إلى سيجموند فرويد الذى ولد عام ١٨٥٦ م وتوفى عام ١٩٣٩ م وهو نمساوى الأصل يهودى العقيدة . وقد برز إسمه فى دراسات علم النفس الحديث وله فيها عدة مؤلفات . ونشاطه فى هذا المجال غزير ومتعدد .

---

(٧٢) الإنسان فى القرآن الكريم (١٧٧) .

ولا نعرض للفرويدية هنا إلا من ناحية إسهامه في « العلمانية المادية » باعتباره حلقة تالية للداروينية، وتطويراً لها. كما نركز على بيان موقف فرويد من الدين بوجه عام. ومن بعض صور الإلزام الخلقي، وهو إحدى القضايا التي شاع أمرها بين فلاسفة العصر الحديث وإن كان لها تاريخ ضارب في القدم يرجع إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام (٧٣).

ومن يقارن بين الداروينية والفرويدية يتبين له بوضوح أن فرويد بدأ من حيث انتهى داروين.

فداروين حين بدأ في سلسلة التطور من الخلية الأولى « البروتوبلازم » انتهى في سلم التطور بالبشريات كما تقدم ومنها — عنده — الإنسان. وهو آخر نقطة في رحلة التطور كما تقدم.

ثم جاء فرويد وبدأ بالإنسان من حيث انتهى إليه داروين وقاده في مرحلة لاحقة حيث أخذ يقنن سلوكيات الإنسان، ويفلسف تصرفاته على نحو مادي صرف ؟!

مطرحاً من منهجه كل المؤثرات إلا المؤثرات المادية التي تدفع بالإنسان كفعل منعكس لمؤثر آخر خارجي. ويفسر فرويد — هذا — بعض الأخلاق على أنها تدبير بشري لجأ إليها البشر في المراحل الأولى من وجوده على الأرض ليدفعوا عن أنفسهم بعض أخطار أنفسهم عند تعارض الرغبات ونشوء الصراع بينهم.

وفرويد يركز كثيراً على مقولة « اللاشعور » وهو بمثابة مخزن تختزن فيه

---

(٧٣) من أهم المصادر التي حللت قضية الإلزام الخلقي ومصادره كتاب مشكلات فلسفية لنخبة من العلماء كان يدرس لطلبة الثانوية العامة في الخمسينات.

الانفعالات التي لم تجد فرصة لإشباعها ، وبواسطة « اللاشعور » تصدر عن الإنسان كثير من التصرفات .

ويكاد فرويد يرجع كل نشاطات الإنسان إلى « الغريزة الجنسية » ويرى فرويد أن الإحساس الجنسى يظهر عند الإنسان مبكراً جداً منذ مرحلة الطفولة الباكرة يتخيلها الطفل ويسعى لإشباعها . فى صور متعددة ، منها : إلتذاذه بالتقام ندى أمه وامتصاص لبنها ، ومنها إلتذاذه بضم أمه إليه واحتضانها ؟ !

بل إن إخراج الفضلات من الطعام والشراب (قضاء الحاجة اليومية) يعتبره فرويد تعبيراً عن الإحساس الجنسى وإشباعا له ؟ ! .

ومن أوهام فرويد المؤسسه على دور الإحساس الجنسى فى تكوين سلوكيات الإنسان أن تحريم الزواج بالمحارم (القريبات جدا) يرجع إلى هذا الإحساس ؟ ! .

ويفسر فرويد هذا بأن الأولاد - قديما عند بدائية الإنسان - كانوا يميلون إلى أمهاتهم ، ميلا جنسيا ، وكل منهم كان يرغب فى الاستئثار بالأم دون بقية إخوته . وهذا سبب عندهم نوعا من الصراع يقع بين الإخوة فى التنافس على الاستئثار بالأم والزواج بها .

ومن ناحية أخرى كانوا يرون أباهم يحول بينهم وبين الاستئثار بالأم ، وليس لديهم وسيلة لإبعاد الأب من طريقهم إلا بقتله . . ؟ !

وقد كون عندهم هذا الصراع فيما بينهم ، وكراهية أبيهم مشكلة تتطلب حلا فلجأوا إلى تحريم الزواج من الأم ليتفادوا الصراع الذى يدور بين الإخوة بعضهم ضد بعض ، ويتفادوا كذلك كراهية أبيهم التى تدفعهم إلى قتله . . ؟ !

وهذا الاتفاق بين الإخوة كان ثمرة لتجربة مرة فى زعم فرويد ، لأنه

يزعم أن الأولاد فى بدء الخليقة كانوا يقتلون أباهم من أجل إفساح الطريق أمامهم إلى الأم ليعاشروها جنسيا . ولكنهم كانوا يندمون بعد قتل الآباء . وأنهم كانوا يقدسون ذكرى الأب « المقتول » وهذا التقديس نشأت عنه أو « عبادة » فى البشر ومنها نشأت فكرة الدين . . ؟ !

أما تحريم الزواج من الأم على النحو الذى عرفنا أسبابه عند فرويد فقد سرى بعد ذلك إلى تحريم الزواج من كل المحارم .

ثم سرى التحريم من المحارم إلى كل المحرمات والمحظورات(٧٤) . . ؟ !

الدين حالة مرضية :

ويذهب فرويد مع أوهامه حين يفسر لك سبب نشأة الدين والتدين عند الإنسان . ولا يخرج فرويد الدين عن أنه حالة أو ظاهرة مرضية عند الإنسان فيقول :

« إننا إذا حاولنا أن نحدد للدين مكانه فى تاريخ تطور الإنسانية لم يبد إنه كسب خالد بقدر ما يبدو أنه نظير للمرض النفسى الذى لابد أن يجتازه الإنسان المتحضر وهو يتطور من سن الطفولة إلى سن النضج » .

تعقيب :

هذا عرض سريع جداً للجانب الذى يهمنا فى نظرية فرويد . ومع هذا الإيجاز نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية :

١ - إن فرويد ينظر إلى الإنسان على أنه « حيوان » تتحكم فيه العوامل المادية الصرفة ؟ !

٢ - إنه يقطع الصلة بين الإنسان وما وراء الطبيعة « أى بخالقه ومولاه ؟ ! .

(٧٤) انظر : التطور والثبات فى حياة البشر (٢٨ — ٤٩) ، محمد قطب .

٣ - يفسر سلوكيات الإنسان ونشاطاته على أنها نتاج الغرائز الجنسية باعتبارها أحد فصائل الحيوانية البهيمية ؟ .

٤ - يزعم أن التحليل والتحريم من صنع البشر لجأوا إليه لتفادى نزاعات وصراعات كانت تحتدم بينهم . وأن أول محرم كان زواج الأم ثم عم جميع المحرمات .

٥ - يفسر الدين والعبادة تفسيراً بشريا فأصل العبادة والدين هو تقديس الأب « المقتول » فى ذكراه .. ؟ !

٦ - إنه يرى أن نشأة «هذا الدين» إنما هو ظاهرة مرضية شبيهه بالمرض النفسى وأن الدين - فى نفسه - ليس كسبا خالدا ، أن على الإنسان المتحضر أن يحتازه ويبرأ منه عند الاكتمال والنضج كما يبدأ الطفل حين يكبر من أشياء كان يحترمها فى حال الطفولة ، ثم يظهر له بطلانها فى سن الرشد وكمال الوعى .. ؟ !

وبهذا ترى أن فرويد قد أسهم فى بناء صرح العلمانية المعاصرة ، وأمدها بكثير من الأوهام التى تذرعت بها العلمانية المادية عند ماركس فيما بعد .

موقف الإسلام من نظرية فرويد :

إن أول ما يواجه به المسلم مدعيات فرويد هى أنها فروض لم يقم عليها دليلا واحداً مقنعا .

ومباحث علم النفس حتى هذه اللحظة ماتزال فى جوانب كثيرة منها مهزوزة ...

ومدعيات فرويد مبناها الخيال ومبعثها محاربة الدين والتدين ليفسح المجال - وهو يهودى - لتحقيق الحلم الكبير الذى تحلم به الصهيونية العالمية، وهو سيطرة اليهود على العالم .. ؟ !

فمثلا هل يستطيع فرويد ومشايعوه أن يثبت علميا أو تاريخيا حالة واحدة من مدعياته ؟ ! من هم الأولاد الذين قتلوا أباهم ليفسحوا لأنفسهم المجال فى التمتع بأمهم ؟ ! وفى أى عصر كان هذا ؟ ! وفى أى مصدر من مصادر الراوية الصادقة اطلع عليه . . ؟ !

هل لديه إثارة من علم فيخرجه لنا . . ؟ !

وامتصاص الطفل لثدى أمه ليس إشباعا لغريزة الجنس المبكرة كما يدعى هذا اليهودى المأفون . وعلم النفس الطاهر العفيف يملك تفسيراً وحيداً صحيحا لهذه الظاهرة :

إنه الإحساس بالجوع والخواء . ولذلك فإنه حين يشعر بالشبع سرعان ما يترك ثدى أمه ويروح فى نوم عميق . .

أما ضمه لأمه فله تفسيره المعقول عند العقلاء . إن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها . ولذلك فإن الطفل لا يحتضن أمه إلا فى مرحلة لاحقة لمرحلة طفولته الباكرة . وهو فى هذه الحالة يحتضنها الشعور بالحنان والعطف نحوها . إنها وطنه الأول والنفوس مفطورة على حب الأوطان . ومشاعر الأمومة الحانية الراحمة كفيلة بأن تستقطب كل مشاعر الطفل .

ولو كان ما ذكره فرويد صحيحا لكان الأطفال بعد سن العاشرة أكثر ميلا لها ، ولكن المشاهد فى حياة كل طفل أنه كلما تقدم فى السن أظهر استقلالا عن كنف أمه ، فينام وحده وحتى لو نام معها فإنه يمل أن يلتصق بها . ومع هذا فإن تقديره لها كأم يزداد نضجا واكتمالا .

وقد استشعر هذا فرويد نفسه ، ولكنه ليغلق باب الاعتراض عليه قال : إن الإحساس الجنسى المبكر يصاب بعد التكوين بلين فى مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ ؟ !

ونشأة التدين عند الإنسان البدائى لم يكن سببها تقديس ذكرى الأب

المقتول الذى ندم على قتله أبناؤه القاتلون . هذا السبب لم يقل به إلا فرويد وحده . والذين فلسفوا وبحثوا عن هذه الظاهرة كلهم أرجعوها إلى سبب واحد وإن اختلفت عباراتهم عنه :

أرجعوها إلى أن الإنسان اهتدى بفطرته إلى أن وراء هذا الكون قوة جبارة مديرة لأوضاعه ، وهى قوة ما وراء الطبيعة كما يعبر عنها العلماء فى عصور التقدم العلمى .

أحس الإنسان بهذه القوة الجبارة المدركة بآثارها دون ماهيتها وحقيقتها ولم يرض الإنسان بأن يقف موقفا سلبيا أمام هذه القوة الخارقة « الله » وهو وإن لم يدرك كنهها فقد تخيلها بعضهم فى الكواكب ، وتخيلها بعضهم فى النار وتخيلها بعضهم فى الرياح وبعض الظواهر الكونية .

واختلافهم فى التخيل لم يحل بينهم وبين تقديس تلك القوة وتعظيمها . تخيلوها قوة خارقة نخافوها ورجوها فى آن واحد . وتفننوا فى رسوم عبادتها ولكن فرويد شذ عن القاعدة . وراح بخياله المريض يدجل ويشعوز وقد قصر فرويد تحليله الجنسى على الأولاد الذكور ، ونسى شعور البنات نحو الأب فلماذا لم يقل : إن البنات كن يتنافسن على أبيهن ولما رأين أن أمهن تحول بينهن وبين الاستئثار بأبيهن قمن بقتل أمهن ثم تندمن على قتلها وعظمن ذكراها فنشأ عن ذلك العبادة والتدين . ثم اتفقن – البنات – على عدم الزواج من الأب تفاديا للصراع بينهن وتفاديا لقتل أمهن ثم سرى التحريم من الأب إلى جميع المحارم من الرجال ، ثم إلى جميع المحرمات والمحظورات .. ؟!

مبلغ ظنى أن فرويد كان يبحث عن سبب وهمى يفسر به ظاهر التدين والدين ليقطع صلته بالوحى الإلهى . فلما وجد ضالته فى حب الأولاد الجنسى لأمهم لم يفكر فيما عداه .

بقيت مسألة تحريم المحارم من النساء والرجال . إن مرجعها الوحيد

التشريع الإلهي لحكمة أو لحكم جليلة لايطمسها دجل فرويد ومشايعيه أن لحكمة التشريعية من حظر نكاح المحارم من النساء والرجال لها عدة مظاهر :

منها : الاستجابة للفطرة السليمة ؛ فإنها تنفر كل النفور من المعاشرة الجنسية بين الأولاد والأمهات ، وبين الآباء والبنـــات ، وبين الإخوة والأخوات ، وهكذا سائر المحارم .

ومنها : الوقاية من الأمراض التي تلحق بالنسل ، وقد أكدت البحوث العلمية الحديثة أن زواج الأقارب حتى فيما هو مباح كزواج الرجل من ابنة عمه قد يصيب أولادهما بالأضرار كالبكم والخرس والكساح . وأسباب هذه الآفات قد فطن إليها الطب الحديث . فقد يكون في الأسرة أمراض غير ظاهرة في الآباء والأمهات ؛ لأنها ضعيفة فيهم فإذا تزوج رجل بابنة عمه مثلا فإن نسبة المرض غير الظاهر الذي فيه ، وهي ضعيفة تؤازرها وتقويها نسبة المرض هذا غير الظاهر في ابنة عمه التي صارت زوجة له . فيظهر أثرهما في الجنين وتقع الكارثة . وقد عرضت وسائل الإعلام صورا متعددة في هذا المجال .

وهذا ما ورد التحذير منه في تعاليم الإسلام : « لاتتزوجوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا ، أي نحيفا هزيلا .

وقد نشرت الصحف عجائب عن زواج المحارم في أمريكا منذ عام ولايقدح في هذا أن حالات كثيرة من زواج الأقرباء تخلو ذرياتها من الأمراض . لأن هذا الإرشاد إنما جاء للاحتياط ووقوع حالة من مائة يسوغ هذا النصح .

ومنها : أن كمال المتعة فى العلاقات الزوجية يكون عند الإحساس بأن كلا من الزوجين كان غريبا عن الآخر ولم تجمعهما إلا هذه العلاقة الطاهرة الكريمة . وإرجاع هذا إلى أسبابه من علم النفس ميسور ومقبول .

ومنها : إفساح المجال بين أفراد الأمة وأسرها لتكوين علاقات ودية وثيقة بينهم ، وإشاعة جو من الترابط تزيد به الأمة قوة لما ينعقد بين الأسرتين اللتين يتصاهران بزواج أبنائهما من ألفة واتحاد وتعارف . وقد روى عن بعض السلف أنه قال : كان بنو فلان من أبغض خلق الله إلى . فلما تزوجت منهم صاروا من أحب خلق الله إلى .

ومنها : تفادى اختلاط النسب : فمثلا إذا تزوج الرجل أمه فإن ولده منها يكون ابنا لها وتكون هى جدته فى نفس الوقت . ويكون ابنا له وأخا فى نفس الوقت ويكون بالنسبة لأخى أبيه أخاه من أمه وهو عمه بالنسبة لأبيه ؟!

وإذا كبر هذا الولد وولد له ولد ، فإن أباه يكون عمه بالنسبة لأنه أخو أبيه لأمه ؟! .

وأما أبو أبيه فيكون جده وعمه فى آن واحد، لأنه أخو أبيه من أمه ؟!

وهكذا سلسلة من الفروض لا حد لها . ويظهر أثرها السىء فى توزيع التركة وهو نظام لابد منه فى حياة الأفراد والجماعات .

من أجل هذه المقاصد السامية كان تحريم «المحارم» وهى مقاصد لا يدركها العقل البشرى وبخاصة فى الحالة «البدائية» التى يتحدث عنها فرويد زوراً واختلاقا .

وبعد هذا كله ، فإن لفرويد اعترافا حمله عليه جلال الحق يجعله أكبر معول فى هدم هذه الأوهام التى لهج بها حيناً من حياته :

« ولا شك أن ذلك كله فرض . فلا أنا ولا غيرى يملك التعيين فى مثل

هذه الأمور ؟ ولكنه فرض (معقول) توحى به طبائع الأشياء . وليس هناك يقين قاطع بنفيه ويطيب لنا ـ الآن ـ أن نردد قول الشاعر :

والدعاوى مالم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء !

وصدق الله العظيم :

« إن الظن لا يغنى من الحق شيئا . . . »

أثر الفرويدية فى الفكر العلمانى :

العلمانية ـ كما عرفت ـ تحاول جاهدة أن تنفى كل مالا يقع تحت الحس . وقد أمدها فرويد بما يزيدها ضلالا . فكما أن داروين من قبل قد نفى الخالق سبحانه وجعل خلق الكائنات أثراً من آثار تطور الطبيعة فى الكائنات العضوية فإن فرويد ـ ينفى هنا ـ القيم الروحية والدينية فى سلوكيات الإنسان . فكل مافى المجتمعات الإنسانية من أخلاق وسلوكيات وتدين مرجعه إلى الغريزة الحيوانية البهيمية فى الإنسان باعتبار الإنسان فى أصله فصيلة حيوانية لا تأثير عليها إلا من الناحية المادية فلا وحى ولا دين ولا قيم روحية خارج المادة تصرف الإنسان وتحكم تصرفاته . وهذا هو بعينه ما تنادى به العلمانية الجاهلة . . ؟!

البراجماتية :

فى نظرية داروين رأينا من يقول للناس : ليس لكم خالق غير الطبيعة . وأنكم من سلسلة الحيوان البهيمى ، وأنتم والقرود شقيقان ، وقد اختارتكم الطبيعة عن طريق الانتخاب الطبيعى نتيجة للصراع الذى دار بينكم وبين منافسين لكم هم أدنى منكم بدليل أنكم باقون ، والبقاء فى قانون الطبيعة لايكون إلا للأصلح ، فأنتم أصلح من منافسكم بدليل أنكم باقون ، وباقون لأنكم أصلح وأنتم الآن أصحاب السيادة فى الحياة ومع هذا فلا تأمنوا مكر

الطبيعة فقد تتبدل الأحوال وتكون « السيادة » لقطة أو لفأر . فليس فى الطبيعة حقيقة ثابتة . وأنتم قد وجدتم بفعل التطور الطبيعى وليس للطبيعة قصد من وجودكم ، وليس لكم غاية تسعون إليها ؟ ! .

وفى نظرية فرويد وجدنا من يقول للناس : ليس لكم مصدر للإلزام الخلقى والسلوكى إذن ليس لكم مجاز بالخير خيراً ، ولا معاقب على الشر شراً . سلوكياتكم مبعثها الغرائز الحيوانية وعلى الأخص الغريزة الجنسية . والدين من اختراعكم أنتم أحللتم ما أحللتم ، وحرمتم ما حرمتم ودينكم هذا ظاهرة مرضية أشبه ما يكون بالمرض العصبى والنفسى ولا بد من اجتياز الدين وتركه عندما تبلغون كمال النضج ثم جاءت البرجمانية أو الفلسفة العملية النفعية على يدو وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠ م) ولها رواد من قبله ومن معاصريه ومن جاء بعده مثل فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) وبرجسون (١٨٥٩ - ١٩٠٣ م) وجون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٣) وتقوم البراجماتية على أن الحقيقة غير ثابتة وليس لها مصدر علوى بل هى من اختراع البشر . وليس فى الوجود خير بذاته ولا شر بذاته ، ولا حق ولا باطل . فما هو خير فى حالة هو شر فى حالة أخرى . وما هو شر فى ظرف هو خير فى ظرف آخر ، وكذلك ما هو حق قد يكون باطلا وما هو باطل قد يصير حقا بحسب الأحوال والظروف . والكون فى البراجماتزم غير متناه ولا هو زائل ؟ ! .

فليست الحقائق مبادىء ضرورية يلتزم بها الإنسان كما يقول العقليون ، ولا هى ناشئة عن تأثير البيئة فى الكائن الحى كما يقول التطوريون ، ولكنها من اختراع الإنسان نفسه .

والكون إذا كان فيه « إله » فهو إله محدود متناه هو جزء من البشر والبشر جزء منه . يقول هنرى برجسون أحد البراجماتيين :

« الحقيقة اختراع شىء جديد لا اكتشاف شىء سبق وجوده ... ونحن

تخترع الحقائق لنستفيد من الوجود ، كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم قوى الطبيعة » .

« ولا بد أن يكون فى أجزاء الوجود . . قوة كامنة متشابهة فى الجميع هى الحياة ، وهذه الحياة تخلق فيما تحل فيه ميلا خاصا وتوجيهاً معيناً يؤثران فى كل جزئى من جزئياته . . . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور . . . » .

« لقد فكرنا أولا أن هناك إرادة شبيهة بالإنسانية تحرك الأشياء وتستخدمها فى لعبة الكون . . . هناك تصميم وقصد للأشياء ، ولكنه فى داخلها وليس خارجها »(٧٥) .

هذه الأقوال تريك فى وضوح أن هنرى برجسون يحل الحياة محل « الإله » والحياة عنده هى المحرك للكون . وهى قادرة ـ عنده ـ على استرداد نفسها ولعله يريد بهذه العبارة أن يفسر أسباب ظاهرة الموت ليسد الطريق أمام الإيمان بما وراء الطبيعة أو القوة الحيوية التى أحس بها الإنسان منذ أقدم عصور التاريخ فما دامت الحياة هى التى تأتى وتعود فليس وراءها خالق إذن ، ولا متصرف فيها باعتبارها مظهراً من مظاهر الوجود .

وهذا الذى يقوله برجسون ترجمة حية لفلسفة وليم جيمس . وخلاصتها أن الخير والشر يقاس بنتائج الفكر والعمل ، لا بالمصدر الذى نتج عنه . فكل فكر أو عمل يحكم عليه بعد وقوعه ، فإن حقق منفعة فهو خير ، وإن ترتب عليه شر فهو شر وهذه النظرة شديدة الشبه بما قاله ميكيا فيللى من قبل « إن الغاية تبرر الوسيلة » ؟ !

حتى صفات « الله » على فرض وجوده ووجدانيته عند وليم جيمس فنها ـ عنده ـ صفات ميتة (؟ ! !) لأنها لا تحقق نفعا للناس ؟ ! .

---

(٧٥) قصة الفلسفة (٥٦٤) ول ديورانت .

وفي مقدمة الصفات الميتة - عند جيمس - وحدانية الله ؟! استمع إلى ول ديورانت وهو يروي عن جيمس قوله :

« من العبث أن يقال : إن هذه الفوضى التي نعيش فيها من صنع إرادة واحدة .. والكون يقدم لنا أكبر دليل على التناقض والتعارض .. قد يكون الأقدمون أعقل منا وأحكم ، وقد يكون تعدد الآلهة أصدق وأحق من وجود إله واحد .. لقد كان الاعتقاد بتعدد الآلهة هو الدين الحقيقي بالنسبة إلى عامة الناس دائماً ولا يزال كذلك ؟! والناس على صواب والفلاسفة على خطأ .. »[٧٦] .

ويروي عنه - كذلك - تعليقا على أن الله موصوف بالكمال والقدرة والأبدية عند الفلاسفة والمتدينين ، يقول فيه :

« هي صفات عظيمة جليلة ، ولكن ما معنى هذا ؟ وما هي النتائج بالنسبة لنا نحن الناس ؟! »

وبعد سلسلة من التساؤلات ينتهي إلى هذا القرار :

« ولكننا طبعا لا نقبل مثل هذه الفلسفات الكئيبة القاتمة ... إن الحياة تتجاهلها وتغمرها وتتجاوزها »[٧٧] .

ورجل هذه عقيدته في الله لا يرجى منه أي فكر مؤمن أو عمل محمود .

وقد طبق البراجماتيون مذهبهم هذا في علم النفس كما طبقوه في العقائد والأخلاق ، وضابط العقيدة والخلق عندهم أن كل عقيدة أو خلق حقق لصاحبه نفعا فهو مقبول وخير وحق ، ولو كانت الحقيقة تخالف ذلك .

---

(٧٦) نفس المصدر (٦٢٠) وإنما كان الفلاسفة على خطأ عنده ؛ لأنهم يؤمنون بإله واحد والإيمان بإله واحد نوع من الأمراض عند وليم جيمس ؟!

(٧٧) نفس المصدر (٦١٨ - ٦١٩) .

وكل عقيدة أو خلق جر على صاحبه ضرراً فهو مرفوض وباطل ولو كانت الحقيقة على خلاف ذلك فالذى يموت فى سبيل الدفاع عن عرضه – مثلا – مخطىء وشجاعته وغيرته باطل وشر لأنه أدى به إلى الموت . أما بالنسبة لقاتله فهو خير وحق لأنه أزاح خصمه من طريقه وأفسح لنفسه – بقتله – مجالا للمنفعة ؟ !

وحين طبقوه فى مجال علم النفس ذهبوا إلى العكس من الواقع . فجيمس يقول : إذا رأيت ذئبا فهربت منه تولد عن هروبك منه خوفك من الذئب . وبأدنى تأمل ترى أن جيمس قد عكس الحقائق هنا ، وجعل السبب مسببا والمسبب سببا . فإن الخوف هو سبب الهروب ولو لم تخف من الذئب فإنك لم تهرب . وجيمس يقول لك : إن هروبك من الذئب نتج عنه خوفك منه ؟ !

إن المذهب العملى الذى نادى به جيمس يجعل الحقائق نسبية على حد القول : مصائب قوم عند قوم فوائد . وقيمة العمل تقاس بعد ظهور نتيجته . فمقياس الخير هو الثمرة أو النتيجة الناتجة عن العمل . وليس مقياسها العقل أو الدين والوحى .. ؟ !

لذلك فإن القوة والبطش عند البراجمانيين هما دعامتا الإيمان الصحيح الذى يواجه به الناس الحياة . ويروون فى هذا عبارة عن رائد البراجمانية الأول فرنسيس بيكون إذ يقول : « إن المعرفة هى القوة »(٧٨) ؟ !

تعقيب :

إن البراجماتية على الصورة التى عرفناها ترجع بالبشرية إلى شريعة الغاب كما يقولون أو إلى مجتمع حيوانى لا يعرف إلى الفردية وإشباع الرغبات . القوى فيه يبطش بالضعيف ، والسيد هو الغالب فى حلبة الصراع .. ؟ !

وكأن البراجمانى يقول لك : إفعل ما شئت إذا كان فى الفعل خير لك . ولا تتقيد بأية قيود تفرض عليك نمطا معينا من الأخلاق ؟!

---

(٧٨) وما دامت المعرفة هى القوة فإن الجاهل القوى هو سيد العلماء ؟ !

وأين يكون هذا التخريف من منهج الإسلام الحكيم القائم على الإيمان بالله وما جاءت به رسله وعلى الإيمان بالثواب والعقاب الأخرويين .

العمل فى الإسلام :

أن العمل فى الإسلام ثلاثة أنواع :

١ — مباح : وهو كل عمل حقق لعامله نفعا ولم يترتب عليه إضرار بالآخرين .

٢ — واجب : وهو كل عمل توقف عليه صلاح الفرد والجماعة .

٣ — محظور : وهو كل عمل ترتب عليه ضرر لعامله أو للآخرين .

ولنأخذ لذلك - مثلا - رجل يقود سيارته ليذهب إلى عمله « البعيد » فى وقت معين ورأى الطريق مزدحما بالناس، فإن أسرع كان الإسراع فى مصلحته، وإن أبطأ كان الإبطاء فى مصلحة المارة .

هب أن هذا الرجل أخذ يوازن أى الأمرين يسلك : تقديم مصلحته على مصلحة المارة أم تقديم مصلحة المارة على مصلحته ؟ !

البراجماتية تقول له : سر مسرعا فإن فى الإسراع منفعة لك ولو حطمت المارة تحت عجلات سيارتك ؟ !

والإسلام يقول له : لا تسرع حتى لا يكون فى إسراعك إزهاق لأرواح المارة فإن الضرر الناجم عن الإسراع أضعاف أضعاف ما سوف يحققه لك من منفعة ؟ فأى المنهجين أولى بالتقدير والاحترام .

وهب أنك تمر فى الطريق - راجلا - لإدراك منفعة خاصة بك . وأبصرت من بعيد رجلا أعمى يقدم على بئر فإن الإسلام يوجب عليك التوقف لإنقاذه ولو أضر ذلك بك . والبراجماتية تدعوك إلى إدراك منفعتك ولو تردى الأعمى فى البئر ؟ ! فأى المنهجين ألزم بالإتباع يا ترى ؟ !

إن الإسلام يرسم خريطة العمل اليومى للإنسان الراقى، ويضع أمامه النور الأخضر إيذانا بسلامة السير . كما يضع أمامه النور الأحمر إذا كان فى استمرار السير خطر . . ؟ !

العمل فى الإسلام « مقدس » ولكنه العمل المهذب لا العمل الحيوانى الباطش المدمر والإيمان بالثواب والعقاب الأخرويين ، وبالله قدير مطلع على ما يفعل عباده هو الطريقة المثلى لإصلاح الفرد والجماعة بل والأمم . وهذا ما كفله الإسلام على أبدع صورة ، وأحكم منهج .

وشعور الإنسان بالحرية المطلقة فيما يعمل وما يترك شعور مدمر لحياته ولحيات بنى جنسه . معطل للطاقات الخلاقة فيه .. ! ! قاتل للإحساس بالمسئولية التى هى أخص خصائص الإنسان فى الوجود .

نموذج من التوجيهات الإسلامية الراقية :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » .

إن هذه التوجيهات ـ وهى قل من كل ـ حين يرعاها مجتمع فلن يكون فى الوجود مجتمع أرقى منه ، وأنفع منه وأجدى لبنى الإنسان . وعلى هذا المنوال ترقى الإنسانية وتسعد لا بما يقوله الجهلاء وإن ظنوا أنهم من أهل العلم والريادة والتوجيه .

دور البراجمانية فى قيام العلمانية الجاهلة :

لسنا فى حاجة إلى تذكير القارىء بحقيقة العلمانية بعد ما تقدم من أمرها . ولسنا فى حاجة إلى تبصيره بعلاقة البراجماتزم بالعلمانزم . فيكفى أن يدرك

القارىء أن البراجماتزم لا يقوم على وجود الله ، ولا تسمح له في تصوراتها المريضة بأي نوع من السلطان على الإنسان فهو حر طليق يفعل ما يحلو له ، وقد حطمت البراجماتزم فكرة الخير والشر في نفسه . وهذا ما تريده العلمانية . وبالبراجماتزم والداروينزم والفرويدتزم إكتملت للعلمانيزم ثلاثة خيوط متهرئة تهيأت هي لنسيج بيتها العنكبوتي منها ومن خيوط متهرئة مثلها سيأتي ذكرها بعد قليل .

العقد الإجتماعي :

العلمانية — كما سيأتي — نظام متفكك متهرىء قام إما على حقائق علمية صحيحة ، ولكنه أخطأ فهمها وانحرف بها إلى غير الجهة التي تهدي إليها ، وإما على فروض علمية واهية أو تخيلات تاريخية تلقفها بدون تبصر فأسهمت حين — وضعها لبنة في بنائه المتداعي — في تهدمه .

وقد سبق أن العلمانية تذرعت بالكشوف العلمية التي توصل إليها كل من كوبرنيق وبرونو ، وجاليليو ، وإسحق نيوتن ، وهي كشوف صحيحة . ولكن العلمانيين انحرفوا بها عن الجادة .

كما تمسك العلمانيون بنظريات داروين وفرويد ووليم جيمس ، وهي أوهام منسوبة إلى العلم . ومن سوء حظ العلمانيين أن ما يعتمدون عليه من هذه النظريات ليس له سند علمي يقوم عليه . وإن كان في بعض هذه النظريات لقطات يمكن إسنادها إلى العلم . وقد مر بك الحديث عن كل أولئك .

أما الأوهام التاريخية فهي التي كونت « نظرية العقد الاجتماعي » في نظام الحكم وهذه النظرية ألصقت بالمفكر الفرنسي : جان جاك روسو المتوفى عام ١٧٧٨ م ، وصارت تنسب إليه عند الإطلاق . علما بأنه لم يكن أول من قال بها . وقد سبقه إلى القول بها ثلاثة معروفون وهم :

١ — هوبرت لانجيه فى أواخر القرن السادس عشر . فقد ذهب إلى أن كل حكومة تستند إلى عقد بين الله وبين الخلق جميعا . وينشأ عنه عقد آخر بين الراعى وبين الرعية على العمل بأوامر الله ونواهيه . وأن العقد الذى بين الراعى ورعيته غير ملزم لهم . ولهم أن ينسخوه .

٢ — توماس هوبز الانجليزى (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) ويرى أن السيادة مستمدة من تعاقد بين الناس على اختيار حاكم يتولى أمورهم لأنهم يخشون بعضهم بعضا لغلبة الشر والعدوان على طباع البشر . ولا يحق لهم بعد أن يولوه أمرهم أن يخرجوا عليه لأن التعاقد عند هوبز يلزمهم ولا يلزمه . ؟ ! ؛ لأنه ليس طرفا فيه ، بل منفذ له ؟ ! .

٣ - جون لوك الإنجليزى (١٦٠٣ - ١٧٠٤ م) يقرر أن العقد ملزم للحاكم لأنه طرف فيه — على عكس ما رأى توماس هوبز — ويدخل جون لوك تعديلا على السبب الذى رآه هوبز فى إنشاء العقد، وهو غلبة الشر على الناس وأن ذلك فطرة فيهم . كما يرى أن الرعية لم تتنزل عن كل حقوقها للحاكم بل عن بعض الحقوق ليحفظوا سائر الحقوق .

جان جاك روسو : (١٧٧٩ م) :

جاء روسو بعد ثلاثة مهدوا الطريق لفكرة العقد الاجتماعى بينهم اتفاق واختلاف . فهوبرت لانجيه يجعل العقد الاجتماعى ناشئا عن عقد إلهى بين الله وجميع الناس . ويرى خروج الرعية على الحاكم إذا انحرف عن الأوامر والنواهى الإلهية أما هوبز فيرى عدم الخروج عليه ؛ لأنه مجرد منفذ وليس طرفا فى العقد ، كما يضيف هوبز أن الإنسان كان فى الحالة البدائية ذئبا على أخيه مطبوعا على الشر . والعقد الاجتماعى عنده عقد مستقل وليس ناشئا عن عقد إلهى كما يرى لانجيه .

ويتفق لوك مع هوبز فى استقلالية العقد ، ولكنه يختلف معه فى أن الإنسان « البدائى » كان ذئبا شريراً .

أما جان جاك روسو فقد ذهب إلى النقيض من قول هوبز . فادعى أن الإنسان فى « بدائيته » كان ملائكيا . وأن تلك الفترة كانت المرحلة الذهبية فى حياة البشر .

ولكن الإنسان انحرف عن ملائكيته . أضاع عصره الذهبى (البدائى) متأثراً بعاملين بارزين :

الأول : إنقياده للأطماع والأنانية التى أعقبت المرحلة البدائية ..؟

الثانى : الدين ؟! يرى روسو أن الدين كان له دور خطير فى نقل الإنسان من الصفاء الطبيعى إلى حالة من الفوضوية اقتضت وجود عقد اجتماعى لتنظيم حياة الناس ، ومحاولة العودة بهم إلى الحالة الطبيعية ..؟!!

ظهر روسو فى الوقت الذى كان الصراع فيه بين الكنيسة وخصومها قد بلغ مداه ولذلك كان لنظريته هذه صدى كبير فى نفوس المتمردين على الكنيسة حتى صار من أقوى الأسباب الممهدة لقيام الثورة الفرنسية ١٧٠٩ م .

وقد وصفت مؤلفاته بأنها « أناجيل الثورة » وهذا وصف صادق فيما نرى ؛ لأن أوروبا بعد قيام الثورة الفرنسية لم تكتف بفصل الدين عن الحياة استجابة لأحلام روسو ، بل اعتبرت الدين وباء فتاكا أخذت تحاربه بكل الوسائل ، وانتهجت نهجا « علمانيا » صرفا . وبفضل نظرية روسو عرفت أوروبا نظام « الوطنية » و « القومية » وإحلالها على التدين . ثم وضعت هدفها الأعلى الحرص على المصالح الدنيوية المادية التى كانت نظرية العقد من أجلها . وأعرضت عن طلب « ملكوت السماء » أو الحياة الأخروية ؛ لأن هذا « المنكرت » هو بضاعة الكنيسة « الكاسدة » والعقد الاجتماعى لم يبرم من أجله ، وإنما أبرم من أجل الحياة الدنيا ؟! .

هذه هي الآثار السيئة التي نجمت عن «كفريات روسو وإلحادياته» وحلا للناس أن يقولوا :

إن الشعب أو الأمة هي مصدر السلطات، والسيادة للشعب . وصارت ديباجة المراسيم والأحكام هي «باسم الشعب» وقالوا : «إن هذه هي الديمقراطية» وهي كما عرفها لنكولن :

«حكم الشعب ، بواسطة الشعب ، من أجل الشعب» .

وقد أسيء فهم هذه الشعارات حتى صارت حاجزاً سميكا بين الخلق والخالق .

ووجد فيها العلمانيون سنداً قويا للتخلص من سلطة الكنيسة أولا . ثم للتخلص من أي دين بعد التخلص الذي تم - لهم - بنجاح من الدين الذي كانت تدعو إليه الكنيسة .

وإن القارىء الفطن ليلحظ أن الخطوات متسقة تمام الاتساق بدءا من نظرية داروين ثم فرويد ، ثم وليم جيمس ، ثم روسو . وأن هذه النظريات وإن تقدم بعضها على بعض في الزمن فإنها مرتبة على حسب ما ذكرناه عند العلمانيين في مجال التطبيق العملي كما نرى .

موقف الإسلام من هذا العقد :

قلنا إن روسو مسبوق بثلاثة مهدوا له القول بنظرية العقد الاجتماعي . ثم نسبت إليه النظرية كما نسبت نظريات كثيرة غيرها إلى غير روادها المتقدمين، كنظرية التطور المنسوبة إلى داروين ، وهو مسبوق لسابق كما تقدم . وكما نسبت البراجماتزم إلى وليم جيمس ، وهو مسبوق كذلك لسابق .

وفي نظرية العقد الاجتماعي هذه، فإن السبق لا يقف عند هوبز لانجيه بل يتقدمه بزمن طويل .

والأفكار التى نستوضح رأى الإسلام أو حكم الإسلام فيها كما يأتى :

العقد ـ مصدر السلطات ـ الإلزام :

العقد : سبق علماء الإسلام مفكرى أوروبا فى إطلاق اسم « العقد » على تولى المسئولية العليا فى الدولة أو المجتمع .

فقد اتفق مجتهدو الفرق الإسلامية كلها ـ ما عدا الشيعة ـ على أن طريق ثبوت الإمامة هو الاختيار والاتفاق ، أى لا النص ولا التعيين . وليس لثبوت الإمامة إلا هذان الطريقان . فإذا بطل أحدهما لم يبق إلا الآخر»(٧٩)

والمراد بالنص والتعيين ، أى من قبل الله أو رسوله . وهذا الطريق باطل ، لأن الله لم ينص على أئمة المسلمين الذين يتولون الحكم فيهم ، وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم على الصحيح خلافا للشيعة .

لذلك أجمع علماء الأمة على أن اختيار الأمة واليا عاما عليهم واتفاقهم عليه إنما هو « عقد » وهو « عقد حقيق » لاخيالى كما فى نظرية روسو وزملائه فالعقد عند روسو مجرد افتراض وهمى لم يقم ، ولن يقوم عليه برهان . أما عند فقهاء الإسلام فهو عقد واقعى له طرفان :

الأول : جماعة المسلمين (الشعب أو الأمة) والثانى : الإمام أو الخليفة .

والعقد فى الشريعة الإسلامية درسه الفقهاء دراسة تحليلية رائعة . وقد صور علماء الشريعة الاتفاقات التى تنشئها الإرادات الإنسانية الحرة ، ويتم بها التعامل بين الناس فى أحوال خاصة وبشروط معينة على أنها « عقود » وأقاموا نظاما محكما يتألف من مجموعات هذه العقود . وتلك هى التى تكون القسم الأكبر من القانون الإسلامى ، الذى يسمى « المعاملات »(٨٠).

---

(٧٩) انظر الإرشاد لإمام الحرمين (٤٢٣) والرد على الباطنية للغزالى (٦٤) .

(٨٠) نظرية الإسلام السياسية (٢١٤) د/ ضياء الدين الريس .

ويقول ابن خلدون فى تصوير عقد الإمامة :

« وكانوا إذا بايعوا الأمير ، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيداً للعقد . فأشبه ذلك مثل البائع والمشترى (طرفى العقد) فسمى (أى عقد الإمامه) بيعة : مصدر باع »[٨١] .

هذا هو ما اهتدى إليه علماء الإسلام من قديم الزمان ، فسبقوا روسو الذى عرف بأنه « أبو الديمقراطية الحديثه »، كما سبقوا : لانجيه وهوبز ولوك وخلا منهجهم من كل النقائص التى أشرنا إليها عند لانجيه ومن بعـــده إلى روسو .

مصدر السلطات :

عرفنا أن أربعة من فقهاء القانون السياسى فى الغرب قالوا بنظرية العقد الاجتماعى . واحد منهم ـ فحسب ـ جعل العقد مستمداً من الله أولا، ثم من الرعية ثانيا . ولذلك نراه قد منح الرعية حق عزل « الحاكم » إذا انحرف عن أوامر الله ونواهيه .

أما الثلاثة الآخرون هوبز ولوك وروسو فقد أغفلوا الدور الإلهى فى العقد . بل إن روسو يذهب إلى أنه « عقد مدنى » خالص دعت الحاجة إليه للتخلص من الأثر السىء الذى لحق بالناس من الدين حيث نقلهم من الصفاء الطبيعى إلى حالة من الفوضوية فجاء العقد كمحاولة إلى عودة الناس إلى الصفاء الطبيعى . وكان لهذه النظرة فى الغرب مالها من انتكاسة لم تفق منها أروبا إلى الآن .

ولمصدر السيادة وضع خاص فى الفقة الإسلامى مما به فوق كل اعتبار وخلاصة مباحث الفقاء وعلماء الـكلام فى هذا المجال هى :

(٨١) المقدمة (١٧٤) .

(ا) إن العقد يقوم بناء على إرادة الأمة وبموجبها كوحدة متضامنة لها شخصية مستقلة . فالمسئولية مسئولية الأمة .

(ب) والأمة تراقب من تختاره إماما لها (حاكما عليها) فإذا ثبت فسقه عزلوه وولوا من هو أصلح منه . وإليكم نصهم فى هذا :

« إن الأمة هى صاحبة الرياسة العامة . . . ولها أن تعزل الإمام لفسقه »

(حـ) للأمة إذا انحرف الإمام انحرافا استحق به أن يعزل ، فلها الحق فى محاكمته بعد عزله ، وإنزال العقاب به .

ويحمل ما تقدم أن للأمة :

١ ـ تولية الإمام (الحاكم) إذا استوفى شروط الإمامة .

٢ ـ مراقبته حال ممارسة مهام منصبه .

٣ ـ تقديم النصح له وتوجيهه إذا اختلط عليه الأمر .

٤ ـ عزله إذا لم يستجب للنصح وأتى أعمالا جسيمة مخالفا بها منهج الله .

٥ ـ محاسبته على ما ارتكب من أخطاء إن لم تكن يسيرة .

إذن فالقول بأن الأمة هى مصدر السلطات قول مقبول فى الإسلام بهذا الاعتبار الذى قدمناه ، مع مراعاة التفرقة الدقيقة بين أمرين :

الأول : الأمة مصدر السلطات فى التولية والمراقبة والعزل .

الثانى : المنهج الذى يقوم عليه الحكم ، ويستند إليه الحاكم .

إن الخلط بين هذين الأمرين جد خطير . فمن ناحية نقول : إن الأمة مصدر السلطات فيكون هـذا فى نظر الإسلام صحيحا . ومرة نقوله فيكون باطلا ؟

يكون صحيحا إذا قصرنا سلطة الأمة على اختيار الحاكم ومراقبته ونصحه، ثم عزله ومحاكمته إذا ارتكب خطأ جسيما ولم يستجب للنصح وعلى هذا الأساس قال علماء الأمة إن الأمه هى صاحبة الرياسة العامة ولها تكون السيادة وهى مصدر السلطات . قالوا هذا لأنهم لم يخلطوا بين المنهج الذى يكون به الحكم . وبين دور الأمة المشار إليه .

أما إذا فهم أن الأمة هى التى تقرر منهج الحكم بعيدا عن منهج الله فإن القول بأن الأمه هى مصدر السلطات يكون باطلا . إذ ليس للأمة خيار فى تحكيم منهج الله . بل حكم الله هو الذى له السيادة بلا مزاحم ولا منازع .

وعلى هذا نصور المسألة فى الآتى :

١ — دستور الأمة فى الحكم هو شريعة الله لا نزاع فى ذلك .

٢ — الأمة تختار من بينها واحدا ترضاه لدينه وخلقه وشجاعته ليكون هو « الحاكم » والمنفذ لشريعة الله .

٣ — فالحاكمية — إذن — لله وحده . وتنفيذ أحكام الشريعة كما أنزلها الله هو عمل « الحاكم » الذى تختاره الأمة وتبايعه وتعاونه على أداء مسئوليته .

٤ — لا يفهم — قط — أن للأمة أن تختار دستورا أو قانونا غير منهج الله بناء على أنها مصدر السلطات . والفرق كبير بين « السلطة » وبين « التشريع » أو « الشريعة » فالشريعة « جاهزة » وهى « محل إجماع » بين الأمة لا تغيير ولا تبديل .

أما ما يناله التبديل والتغيير ويخضع لسلطة الأمة فهو أدوات الحكم البشرية .

فمن الذى يحكم ؟ على أم سعيد أم خالد هذا صحيح .

أما دستور الحكم فهو « شريعة الله » قولا واحداً . وهو المحور الذى تدار عليه عجلة ، العمل الإسلامى . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم : (الكافرون) - (الظالمون) - (الفاسقون) .

على أن عقد الإمامة فى الإسلام الهدف منه حماية الدين وسياسة الدنيا كما يقول الماوردى وليس — كما فهمت أوروبا من عقد روسو — لرعاية المصالح الدنيوية المادية . وهذا من أبرز الفروق بين العقد العام فى الإسلام وبين النظم الوضعية الشاحبة .

اللزوم والتحـــلل :

رأينا اضطراب مفكرى الغرب حول : هل العقد لازم أم غير لازم ، وإذا كان لازما فعلى من يقع الإلزام ولمن التحلل منه ؟ !

لكننا فى المنهج الإسلامى نرى المرونة التى تدور مع المصلحة وجودا وعدما فإذا التزم الإمام (الحاكم العام) بأداء الأمانة وحكم بما أنزل الله بالعدل ورعى مصالح الرعية ، ولم يفرط فى الحقوق ، ولم يضيع الواجبات فله على الأمة السمع والطاعة والنصرة ملتزمين أمامه بما له من حقوق كفلها له العقد الصادر عن إرادة الأمة الحرة .

فهاهنا إلتزام أوجب إلزاما : إلتزام صـــدر عن الإمام أنشأ إلتزام الأمة أمامه ، فهو ملزم بما أوجبه عليه العقد . وهم ملزمون أمامه بالسمع والطاعة ، وليس لهم أن يخرجوا عليه أو يعزلوه ما دام على الهـــدى يسير .

فإذا انحرف ونصح ولم يستجب ، وتمادى فى أخطاء جسيمة ، كان يحلل ماحرم الله أو يحرم ما حرم الله خلعته الأمة وولت غيره ، فعدم إلتزامه بمقتضى العقد حلل الأمة من طاعته .

وبهذا فإن الإسلام يقر مبدأ : الأمة مصدر السلطات أو السيادة لكن لا على الإعتبار الذى بنى عليه روسو نظريته فهو لم يفرق بين السلطة والدستور . ونظرية الإسلام السياسية تفرق بينهما . فالأمه «السلطة» وليس لها إصدار تشريع مخالف لشريعة الله . وعقد روسو مقصور على حماية المصالح المادية الدنيوية وعقد الإسلام شامل لكلتا المصلحتين ، وعقد روسو عقد وهمى لا دليل عليه ، وعقد الإسلام عقد حقيقى ، وعقد روسو مهدر للدين ، وعقد الإسلام قائم على إعلاء كلمة الدين ومستمد سلطانه منه . فكم ذا - ياترى بين العقدين من فروق وفروق ؟ !

الميكيا فيللية :

من الخيوط التى نسجت منها العلمانية ثوبها البالى الفاضح نظرية ميكيا فيللى فى الحكم وميكيا فيللى هو الفيلسوف السياسى الإيطالى نيكولو ميكيا فيللى (١٤٦٩ — ١٥٢٧ م) وقد تقلد مناصب ديبلوماسية رفيعة فى حكومة بلده « إيطاليا » فى ذلك الوقت ولما سقطت جمهورية إيطاليا وعادت أسرة مديتش التى كانت تحكم إيطاليا قبل قيام النظام الجمهورى فيها ، وتولت حكم إيطاليا من جديد عذبت ميكيا فيللى عذابا أليما ، واضطهدته ثم أفرجت عنه حيث لم تثبت إدانته . وكانت إيطاليا فى عصره ضعيفة سياسيا وعسكريا مع ما لها من حضارة رفيعة الشأن ، ومقسمة إلى ولايات زادت ضعفها ضعفا . هذه الأوضاع انعكست آثارها على ميكيا فيللى الذى كان يود أن يرى بلاده قوية بعيدة عن الفوضى والاضطراب السياسى والاجتماعى والعسكرى .

وقد أخرج ميكيا فيللى عدة مؤلفات الذى يعنينا منها هو كتاب «الأمير» وهو كتاب فى « فن الحكم » كما أراد منه مؤلفه . ولكن الرجل كما ساءت سريرته ساءت علانيته . ويتضح لك هذا من آراء ميكيا فيللى فى ما ينبغى أن يكون عليه الأمراء والحكام .

فهو يرى أن على الحاكم أو الأمير إذا أراد لنفسه النجاح أن :

١ — ينفصل تماما من القيم والمبادىء الأخلاقية .. ؟ !

٢ — يعتمد على القوة والبطش والخداع .. ؟ !

٣ — يفعل ما يغضب الشعب بقوة ولو مرة واحدة ليخافه الشعب ولا يجرأ على مخالفته ؟

٤ — يحمل الشعب على الخوف منـــه وعلى حبه إن أستطاع ، وإن كان لابد من واحدة منهما فليلجأ إلى تخويف الشعب لأن تخويفهم لا يكلفه شيئا أما حبهم إياه فإن ثمنه يكون باهظا .. ؟ !

٥ — لا يعتذر للشعب إذا وعدهم بخير ولم ينفذه .. ؟ !

٦ — لا يؤمن بشيء قط إذا كان الإيمان يعوقه عن تحقيق مطالبه .. ؟ !

٧ — يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، فإذا كانت الغاية مفيدة للحاكم فلا يعبأ بأضرار الوسيلة مهما عظمت ، لأنها تضر غيره — الشعب — ولا تضره هو ولا حاشيته المخلصة له(٨٢) ؟ !

هذه خلاصة أمينة وموجزة لآراء ميكيا فيللى فى « الحكم » ونصائحه للحكام فى كل زمان ومكان .

وكان لآرائه صدى كبير عند معاصريه ولاحقيه . وقد أطلق عليه « العقلاء » أنه « فيلسوف نصاب آفاق سافل لا أخلاق له » .

وسموا كتابه « الأمير » بأنه كتاب « الطغاة » .

موقف الإسلام من هذا التصور :

كان من المتوقع أن لا نعقب على آراء ميكيا فيللى هذه ببيان موقف للاسلام منها . لأن موقف الإسلام إنما يكون من شيء فيه صواب وخطأ ، أو يحتمل

(٨٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم (٣٤٧-٣٤٨) ت : مايكل هارت . تعريب أنيس منصور .

أنه كذلك . وآراء « ميكيا » ليس فيها ذرة من الصواب ، ولست أدرى لماذا اكتفى المؤرخون الناقدون بوصفه بالكذب والسفالة ؟ ! . ولو كانوا قد وصفوه بأنه « مذهوب العقل » لأغناهم عن كل ما ذكروه فيه وفى فكره إن جاز أن يسمى ما صدر عنه « فكراً » ، ؟ !

وكان أولى برفيقه على الطريق « فرويد » أن يحلل « ميكيا » تحليلا نفسيا ليطلع الناس على « المسخ » الذى أصاب عقله ولكن فرويد معذور ؛ لأنه نفسه محتاج إلى عالم من علماء النفس يكشف عن الرواسب الخبيثة التى افترست صفات الإنسانية السوية من كيانه الداخلى .

أما أن للإسلام موقفا مما قال « ميكيا » ، فإن الإسلام يشترط فى « الأمير » كل معان الطهر والعفاف والعدل والنزاهة وسلامة الفطرة . بينما « ميكيا » يحلل « أميره » بكل معانى السفالة .

أسس واهية وبناء منهار :

ها نحن قد فرغنا من عرض الأسس التى أقام عليها العلمانيون علمانيتهم الجاهلة وإن كنت - عزيزى القارىء - فى حاجة إلى إعادة مركزة لما تقدم فهاهى ذى أمام ناظريك :

أولا : العلمانيون يحصرون وسيلة المعرفة فيما يدرك بواحدة من الحواس الخمس : البصر ، السمع ، اللمس ، الذوق ، الشم . وبناء على هـذا التصور الضيق لوسائل المعرفة أنكروا كل مالا يرى ، ولا يسمع ، ولا يحس ، ولا يذاق ولا يشم .

فالجيفة - مثلا - قد استكملت كل مقومات المعرفة عندهم :

لأنها ترى ملقاة على الأرض . وإذا حملها أحد العلمانيين ثم أطلقها من بين يديه ، فهو إذن قد لمسها . وسمع صوت ارتطامها بالأرض حين ألقاها من بين يديه . ولوذاق طعمها لوجده متعفناً ، وهاهو ذا قد اشتم لها رائحة كريهة .

إذن فهذه الجيفة - عندهم - من أكمل صور المعرفة .

أما « الله » فهو - عندهم - غير موجود ؛ لأن وسائل معرفتهم لم تحققه ؟!

فلا هو مرئى بالبصر . ؟!!

ولا هو يجس بالإصبع مثلا . ؟!!

ولم يسمعوا له صوتا .. ؟!!

ولم يذوقوا له طعما ... ؟!!

ولم يشموا له رائحة ... ؟!!

فالعلمانيون - الجهلاء - يؤمنون بالجيفة المنتنة إيمانا تزول الجبال ولا يزول ويكفرون « بالله » كفراً راسخا متأصلا لو تحول كل من فى الأرض إلى أنبياء وحكماء ليحدثوا الإيمان بالله فى قلوب « العلمانيين » لما استطاعوا ؛ لأن دستورهم الخالد : مالا يدرك عن طريق الحواس فهو غير موجود ...؟! أى أنهم حصروا معرفتهم فى « المادة » وأنكروا مابعدها . وقد تمسكوا بهذا الاعتقاد وساعدهم على هذا التمسك ، وقل : الإلحاد نوعان من الشبهات :

الأول : كشوف علمية صحيحة أساء العلمانيون فهمها وعكسوا مدلولاتها أو نتائجها ومقتضياتها . ككشف كوبرنيق وبرونو وجاليليو من مركزية الشمس للكون ودوران الأفلاك حولها ومنها الأرض .

وككشف نيوتن لقانون الجاذبية . فوقف العلمانيون «الجهـلة» عند ظواهر هذه « الظواهر » ، وقالوا : إن قوانين الطبيعة كافية بتفسير ما فى الكون من أسرار ، ولاداعى لفرض قوة أعلى «الله» يقال: إنها خالقة الكون ومدبرة أمره .

وقد لخص هذا الزعم هودسن فقال : « كل ما فى الوجود من أول ذرة الهباء ، إلى عقل الإنسان محكوم بقوانين ثابتة لاتتغير وبناء على هذا فلا صانع للوجود »[٨٣] .. ؟!

(٨٣) العلم فى رحاب الله (٢١) طبيب : حسين عباس الأنصارى .

الثانى : نظريات مغلوطة علميا ، وتصورات تاريخية وهمية ، وفلسفات واقعية مريضة تضافرت حول شيء واحد هو إزاحة حقائق الدين الصحيح من الوجود ، أو تحييده وعزله عن الحياة . وقد مر بك كل أولئك وهى :

* تطور داروين المزعوم .. !
* فرويدية فرويد الخبيثة .. !
* براجماتزم جيمس ومشايعيه .. !
* عقد روسو الاجتماعى الواهم .. !
* طغيانية مكيا فيللى الوحشية .. !

ضف إلى هذين النوعين ما أسفرت عنه الثورة الفرنسية من ارتداد احل طغيانا محل طغيان ، وباطلا محل باطل ..

هذه هى الأسس التى بنى عليها الفكر العلمانى علمانيته الجاهلة وهى أسس واهية كما علمت من التعقيبات التى ذكرناها عقب كل واحد منها . ولذلك فإن البناء الذى شيد عليها انهار وتقوض ، أو وجد - هكذا - منهاراً متقوضا .

ومما يزيد فى « توهين » ما استند إليه الفكر العلمانى :

١ - أن مكتشفى الكشوف العلمية الصحيحة لم يكونوا ملحدين ولا قالوا: إن كشوفهم ونظرياتهم دليل على إنكار وجود الله . فبرونو آثر أن يحرق ويذرى رماده فى الهواء .

وجاليليو روى عنه أنه قال وهو خارج من المحكمة التى تظاهر أمامها بأن الأرض ثابتة - كما ترى الكنيسة - وأن الشمس هى التى تدور حولها فأصدرت المحكمة قراراً ببراءته - بناء على هذا التظاهر - قال جاليليو هذا فى صوت خفيض وهو خارج من المحكمة : ومع ذلك فإن الأرض هى التى تدور ..؟!

لماذا عادتهم الكنيسة .؟

ولا يقدح فى إيمان هؤلاء الرواد ، إذا لم يرو عنهم كلمة الكفر والإلحاد،

معاداة الكنيسة لهم ؛ لأن الكنيسة كانت تحمل الناس على الإيمان على مقتضى منهجها وتصوراتها المشوشة . وهؤلاء سلكوا طريقا آخر فى تحقيق الإيمان . لذلك حاربتهم الكنيسة . وما أكثر العلماء غيرهم الذين وقفوا على حقائق الكون ثم ربطوا ربطا قويا بين أسرار الكون التى أدركوها وبين الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى

ومثل هؤلاء العلماء الذين لم يقولوا كلمة الكفر ، مع العلمانيين الذين كفروا لما تعلموا من هؤلاء الرواد مثل سليمان - عليه السلام - مع الشياطين الذين يقول الحق فيهم :

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . . . . »

ونحن لا ننكر أن بعض العلماء الماديين قد انحرفوا لما وقفوا على بعض الأسرار ؛ لأنهم لم يخطوا الخطوة الأخيرة فى مسار العلم فانخدعوا بما وصلوا إليه من المعارف . ولو أنهم خطوا الخطوة الأخيرة لقادهم العلم إلى أروع وأنصع حقائق الإيمان .

ولكن العلمانيين لما وقفوا عندما يدرك بالحواس قسموا المعرفة الإنسانية قسمين كبيرين :

<u>الواقعية والميتافيزيقية :</u>

الواقعية : وهى كل معرفة تقع تحت الحس والمشاهدة ، والملاحظة ويمكن إجراء التجارب عليها . وهذا القسم هو المعترف به - عندهم - ومجاله المادة وخواصها الظاهرة الموزعة على فروع العلم المادى مثل : الطبيعة ، والكيمياء والجيولوجيا .

وبناء على هذا فإن الوجود كله محصور فى الكون المادى المحسوس . وصلتنا به تكون عن طريق الحواس لمعرفة خصائص المادة واستخراج قوانينها منها وبها وحدها تفسر أسرارها ؟! .

القسم الثاني : ماوراء الطبيعة من غيبيات لا تدرك بالحواس، وهذه الغيبيات أو « الميتافيزيقيات » نسبة إلى « الميتافيزيقا » وهي المرادف عندهم لما وراء الطبيعة أو الغيبيات ، هذه الغيبيات لا وجود لها لأنها لا تدرك بوسائل المعرفة عندهم .

وفي مقدمة الغيبيات :

فكرة « الله » و « الدين » و « الحياة الآخرة » و « الملائكة » و « الشياطين » وكل الأمور العقلية أو الروحية . ولذلك أجمع العلمانيون على أن « الميتافيزيقيا خرافة » هذا هو الصرح « العلماني » المتداعي بكل تصوراته وأوهامه وأغاليطه وشبهه الواهية التي قام عليها .

نقض على نقض :

النقد والنقض شقيقان يعملان في مجال واحد هو : الكشف عما في الشيء من صواب وخطأ أو خطأ فقط : ولكل منهما النقد والنقض . بعد هذا التعميم تخصيص :

فالنقد يختص بالعمل فيما فيه صواب وخطأ ليميز بين كل منها .

والنقض يختص بالكشف عن خطأ ماليس فيه صواب . والعلمانية مجموعة أخطاء ليس فيها صواب فهي ـ إذن ـ من اختصاص « النقض » لا « النقد » .

والنقض في اللغة هو : الإبطال . وهذا هو واقع العلمانية ومصيرها المحتوم ولهذا آثرنا أن نعنون هذا الفرع بـ « نقض على نقض » لأننا سنضيف فيه نقضا للعلمانية فوق « النقض » الذي تقدم لنا عقب كل تصور من تصوراتها الهزيلة . فليس في العلمانية شيء يغري على الإطلاق . فهي باطلة في أسبابها وفي تفسيراتها وفي تطبيقاتها . ولن يكون لها وزن مادام في الحياة عرق ينبض وعقل يفكر ، وحق يواجه باطلا .

نيوتن والدليل على وجود الله :

قلنا إن « النيوتنية » كان قد تزرع بها « العلمانيون » على تأصيل الإلحاد ولو كانت نظرية نيوتن سببا من أسباب الإلحاد لكان نيوتن أحق بهذا القول من العلمانيين الذين وجدوا النظرية «جاهزة» ولم يعانوا أدنى معاناة فى صنعها، ونيوتن نفسه يتخذ من نظريته أكبر دليل على الإيمان فقد قال حين سئل أن يقيم الدليل على وجود الله :

« لا تشكوا فى الخالق . فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قاعدة الوجود (٨٤)؛ لأن ضرورة عميا متجانسة فى كل زمان ومكان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة . بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلا عن كائن أعلى له قوة وإرادة . . . ومن الجهل الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى جهة واحدة ، وعلى مستوى واحد بدون حدوث أى تغيير يذكر ، فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه . . »(٨٥) .

أفلست معى فى صدق التمثيل الذى ذكرناه آنفا : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

لابلاس والدليل على وجود الله :

وينتهج العالم الفلكى المشهور « لابلاس » صاحب نظرية السديم نفس المنهج الذى انتهجه نيوتن فى إقامة الدليل القاطع على وجود الله فيقول :

« إن القدرة الفاطرة - أى الخالقة - قد عنيت جسامة الأجرام الموجودة فى المجموعة الشمسية ، ومسافاتها . وثبتت أقطار مدارتها ، ونظمت حركاتها

(٨٤) العلم فى رحاب الله (٥٢) طبيب : حسين الأنصارى : نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ فريد وجدى (١-٤٩٦) ومعنى الضرورة ى الخلق بلا إرادة .

(٨٥) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى نقلا عن : العلم فى رحاب الله (٥٤) .

بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة . وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بأدق حساب . إن هذا النظام المستمر إلى « ما شاء الله » ؟ ! لا يعروه خلل . هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادفات » .

فهذا عالم كابد مشاق العلم ينفي – في وضوح – أن يكون هذا الكون وليد الصدفة . كما يدعى العلمانيون الجهلاء .

اللورد فانسترت والدفاع من الميتافيزيقا :

اللورد فانسترت من كبار رجال السياسة الخارجية البريطانية ، كان يقدر الدين من ناحيته العملية . ولا يحصر مصدر المعرفة في المادة ، بل يؤمن كل الإيمان بما وراء الطبيعة من عالم رحب فسيح ، ويجعل فقدان الثقة بما وراء الطبيعة كفقدان الإنسان الثقة في نفسه أموجود هو أم غير موجود، فيقول :

« إن فقدان الثقة بما فوق الطبيعة على صلة بفقدان الثقة بأنفسنا . وكلاهما لم يسعدا أحـــدا . بل أعقب بعده خللا في ميزان الحياة لم تصلحه مذاهب الشك واللذة[٨٦] » .

صور فانسترت في عبارته الموجزة هذه ثلاث حقائق :

• ضرورة الإيمان بما وراء الطبيعة وتوسيع مصادر المعرفة حتى تشمل كل المعقولات .

• فقدان الثقة بما وراء الطبيعة يعادل شك الإنسان في وجود نفسه ؟ !

• إن الخلل الذي أصاب الحياة في أوربا مصدرة انعدام الإيمان بما وراء الطبيعة ، وأن البدائل التي حلت محل ذلك الايمان من مذاهب الشك واللذة ليس في قدرتها منهج للإصلاح .

(٨٦) عقائد المفكرين في القرن العشرين (٢٢ – ٢٣) .

وهكذا فإنك تجد علماء متخصصين فى كل فروع العلم التجريبى ينتهون بعد وقوفهم على الأسرار التى أودعها الله فى المادة الكونية وخصائصها ونظامها الدقيق إلى وجود الله وراء كل سر من الأسرار . وهذا ينشىء لدينا سؤالا ذا خطر :

إذا كان العلم بكل مظاهره يدعو إلى الإيمان بالخالق المدبر العظيم . فما الذى حمل العلمانيين على الكفر بالله وبما وراء الحواس من عالم زاخر بالأعاجيب؟

والجواب لا يخرج عن واحد من عدة إحتمالات :

* إن العلمانيين وقفوا عند دلالات الحواس ، ولم يستعملوا الملكات العقلية . فوقفوا عند الخطوة الأولى ، الهجة ، ولم يكملوا الخطوات الباقية فى مسار العلم .

والاعتماد على الحواس وحدها فيما هو من أخص خصائصها لا يؤدى إلى معرفة إلا بمعونة العقل . فالعقل يتلقى الإشارات الحسية من أى نوع ثم يفحصها وينسقها بعد أن تتمثل عنده على شكل مدركات حسية مؤقته . وهذه هى العملية الثانية فى تحصيل المعرفة عن طريق الحواس . ثم يؤلف منها العقل مدركات عقلية تختزن فى الذاكرة بعد زوال الإشارات الحسية التى كونتها والمدركات العقلية هى المعبر عنها بالأحكام المجردة أو القوانين العقليه الكلية .

هذه خلاصة أمينة لمذهب « كانت » فى تكوين المعرفة التى مصدرها الأول الحواس[٨٧] .

والوقوف عند الإشارات الحسية الأولية جهل بمنهج المعرفة الصحيحة . وهذا هو الذى جر العلمانيين إلى هاوية الضلال .

---

(٨٧) أنظر قصة الإيمان (٢٧٥) للأستاذ نديم الجسر .

وقد جهل العلمانيون ما وصل إليه بسطاء الناس من إنتقال دلالات الحواس إلى قوانين عقلية راسخة ، فهذا قس بن ساعدة الأيادى يصل إلى ماوراء الحواس ، وهو عربي لم يدرس علوما ولا فلسفة ولا تتلمذ على معلم يقول : « البعرة تدل على البعير ، والسير يدل على المسير ، وأرض ذات فجاج وبحر ذو أمواج ، وسماء ذات أبراج . . . أفلا يدل هذا على العليم الخبير » ؟

إن النظر الذى سلكه قس نظر ساذج ، والأدوات التى استخدمها فى القياس والإستدلال عادية مألوفة . إنه لم يحلل مادة فى معمل بواسطة أجهزة دقيقة الصنع . ومع ذلك وصل إلى أرقى ما تصل إليه أذهان وعقول الفلاسفة الحكماء . . ؟

ولو أن العلمانيين ـ لو كان هذا الاحتمال هو سبب ضلالهم ـ خطوا إلى نهاية الطريق لكانوا من أعظم المؤمنين .

• أو يكون السبب هو نقص فى عقولهم لم يمكنهم من إدراك الحقائق من مصادرها الأصيلة . وهذا فيما أرى مجرد احتمال ليس له أثر فى الواقع .

• أو يكون السبب وراء تمسك العلمانيين غاية رخيصة يسعون وراءها وعقد دفينة مسخت سرائرهم . والغالب عند الباحثين والمحللين أن الصهيونية العالمية وراء كل مذهب هدام ؛ لأنهم ـ أى اليهود ـ كما قلنا مرارا يحلمون بالسيطرة على العالم فى يوم ما . كما تعدهم التوراة التى حرفوها .

ودارس تاريخ اليهود والمحن التى مرت بهم يجد أن المناخ صالح جدا الآن يقوم اليهود بهذه « المدمرات » ؛ لأن تحقيق حلمهم لن يتم وفى العالم دين وعقيدة وخلق ونزاهة وعفة .

وبروتوكولات حكماء صهيون خير دليل على كشف نياتهم ، فهم يصنعون الخطط فيها لتدمير العالم معنويا قبل تدميره عسكريا وسلطانيا على أيديهم . ووسائل تدمير العالم معنويا كما ترسمها البروتوكولات هى :

١ — إفراغ القلوب من العقائد الدينية .

٢ — إثارة الفتن وتفرقة الجماعات .

٣ — إفشاء الرشوة بين الأفراد على جميع المستويات .

٤ — تزيين الشهوات الجنسية وكل مايؤدى إليها .

٥ — نشر الإباحية بكل وسيلة ممكنة .

٦ — محاربة الأخلاق الفاضلة .

٧ — خداع الناس بالتنظيمات التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب كالماسونية والروتارى والليونز . ؟!

٨ — توظيف الفنون والآداب لخدمة أطماعهم العالمية .

٩ — تسخير الصحافة ووسائل الإعلام فى الترويج لكل مايخالف الدين ويغرى على الفساد .

١٠ — ترويج النظريات العلمية والفلسفية « الملحدة » كالداروينية والفرويدية والميكيافيللية والجنسية والوجودية وكل مايقوض دعائم الإيمان. وهذا الاحتمال أقرب الاحتمالات فى ضلال العلمانيين وإضلالهم .. ؟!

الفلسفات الحكيمة والعلم المستنير والدليل على وجود الله :

الفلسفة الإلهية على اختلاف منازعها ، والعلم التجريبى على تنوع مجالاته كلاهما استقر فى النهاية على الجزم بأن « الله موجود » ، وجوداً يحيط بكل مظاهر الكون وتدبير أمره بقوة غير متناهية ، وإرادة كلها حكمة واتزان وعلم لايضرب عنه شىء ، والله هو : العظمة فى أكمل صورها .

الفيلسوف قرأ كتاب الكون فى صمت بغير صوت ، والعالم غاص وراء الأسرار فى ما أخضعه للتجربة والمشاهدة . وكانت النتيجه الحتمية لكل فلسفة حكيمة وعلم مستنير أن « الله موجود » وهى نتيجة قر عندها عقل

العقلاء . وركن إليها علم العلماء . وكل عقل لم يهتد إلى الحقيقة ، وكل علم حاد عن الجادة فليس هو بعلم ، بل الجهل بعينه . وكل عقل حاد الطريق فليس هو بعقل ولا صاحبه بعاقل

يقول بسكال : صنفان من الناس يصح أن نسميهما العقلاء : « الذين يخدمون الله ؛ لأنهم يعرفونه . والذين يجدون فى البحث عن الله ؛ لأنهم لا يعرفونه » أجل لقد صدق بسكال . لأن الجاد فى البحث عن الله هو لابد واصل .

وجملة ما لدى الفلاسفة الالهيين القدماء من أدلة عقلية على وجود الله ثلاثة أو أربعة على التفصيل :

* قانون الوجوب .
* وقانون الحدوث .
* وقانون النظام وهو من فلسفة ابن رشد وقد نوعه نوعين :

(أ) قانون العناية أو دليلها .

(ب) قانون الاختراع أو دليله .

فالله موجود واجب الوجود ؛ لأنه لو قدر غير موجود لزم من ذلك محال وهو زوال العالم . والعالم موجود فالله موجود واجب الوجود .

وهذا العالم حادث . وكل حادث لابد له من محدث قديم لا يتوقف وجوده على وجود غيره . ومحدث العالم هو الله سبحانه وتعالى .

ودليل النظام عند ابن رشد بفرعيه :

دليل العناية : وهو أن كل ما فى الكون من المخلوقات موافق لمصلحة الإنسان ودال على عناية الله الخالق به كما بين الله ذلك فى كتابه العزيز .

ودليل الاختراع : هو كل ما فى الكون من مخلوقات إنما هى مخلوقة لله

فهو الفاعل وخلقها بإرادة حرة . وكل المخلوقات موافقة لمصلحة الإنسان حتى تركيب الإنسان نفسه وصورته وأعضاؤه كل هذه مخلوقة مخترعة لله، وموافقه لمصلحة الإنسان دالة على عناية الله به .

هذه خلاصة موجزة لما وضعه الفلاسفة الأقدمون من أدلة حول وجود الله سقناها ملخصة ميسرة بعيداً عن الصياغة الفلسفية الدقيقة توخيا لسرعة فهمها.

وإليكم نموذجا من الصياغة الفلسفية لأحد طرق الإستدلال لتتأمل كيف عنى العقل الفلسفى بقضية وجود الله سبحانه .

يقول الفارابي :

« إن الموجودات على ضربين : أحدهما ممكن الوجود، والثانى : واجب الوجود . وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال .

وليس بغنى بوجوده عن علته[88] . وإذا وجد صار واجب الوجود بغيره[89] لا بذاته .

أما واجب الوجود — الله — فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال . ولا علة لوجوده . ولا يجوز كون وجوده بغيره ...[90] » .

وكان لفلسفة الفارابي هذه ، وابن سينا وابن رشد دور مهم فى الذب عن صحة العقيدة فأضافوا إلى الأدلة النقلية القطيعة الثبوت والدلالة على وجود الله وكماليات صفاته أدلة عقلية باهرة .

والأدلة النقلية التى جاء بها القرآن الكريم بنيت عليها الأدلة الفلسفية

---

(٨٨) أى أنه فى وجوده مفتقر إلى غيره ، وهو واجب الوجود . لأنه سبب وجوده .

(٨٩) أى، بالله خالقه .

(٩٠) هو زوال العالم . والعالم موجود فالله موجود . قصة الإيمان (٥٩) .

والعلمية قديما وفى عصر النهضة الأوروبية . فالتقت صفوة مباحث العقول والعلوم مع المنهج القرآنى الحكيم فى إقامة أقطع الأدلة على وجود الله وكماله المطلق . وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز العلمى العصرى فى القرآن الكريم . يقول أستاذنا العقاد فى هذا الصدد :

« أما فلسفة القرآن فى إثبات وجود الله فهى جماع الفلسفات التى تمخضت عنها أقوال الحكماء فى هذا الباب .

« وأشهر الحجج التى اعتمدت عليها الفلسفة الإلهية ثلاث ، وهى :

« برهان الخلق المعروف عند الأوروبيين بالبرهان الكونى . . وبرهان النظام المعروف عندهم ببرهان الغاية والقصد . . وبرهان الاستعلام والإستكمال المعروف عندهم ببرهان القديس انسلم »[٩١] .

ويلخص الأستاذ العقاد أو يشرح هذه البراهين الثلاثة بما لايخرج عن الفكرة التى اهتدى إليها الفلاسفة الإسلاميون من قبل . فيقول :

« وفحوى برهان الخلق أو البرهان الكونى أن المتحركات لابد لها من محرك لايجوز عليه الحركة . وأن الممكنات لابد لها من موجد واجب الوجود . . . وهذا الموجد هو الله .

« وفحوى برهان القصد أن نظام للعالم يدل على إرادة محيطة بما فيه من الأسباب والغايات .

وفحوى برهان المثل الأعلى أن العقل إذا تصور شيئا عظيما تصور ماهو أعظم منه . . . حتى ينتهى إلى العظمة التى لامزيد عليها . والعظمة التى لامزيد عليها لاتكون مجرد تصور يقع فى الوهم ولا يوجد فى الواقع . . . فالله إذن موجود لأنه أعظم الموجودات[٩٢] .

(٩١) الفلسفة القرآنية (٩٩) وما قبلها .

(٩٢) نفس المصدر بتصرف فى الحذف (٩٩) .

وذكر الأستاذ العقاد آيات من القرآن شاهداً على كل برهان من البراهين المتقدمة .

فشاهد برهان الخلق « خلق فسوى » .

وشاهد برهان القصد « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » شاهد برهان الإستعلاء والإستكمال « ليس كمثله شيء وهو السميع العليم » .

والواقع أن الأدلة القرآنية على وجود الله وكمالاته لا تقع صورها ومعانيها تحت حصر سريع . وهي أدلة سيقت للعامة كما سيقت للخاصة على حد سواء . خاطبت العقل واستثارت الهمم ، وحركت المشاعر وأنعشت الوجدان ووصفت كتاب الكون بكل ما فيه من مشاهد . فهي أدلة فطرية جمعت بين الإمتاع والإقناع . وسوف نقف عند باقة منها في فصل تال من هذا الكتاب . أما الآن فنزيل وقفتنا هذه مع العلمانية الجاهلة بسؤال نحسبه ضربة قاضية لكل أوهام العلمانية والأيديولجيات المشتقة منها :

السؤال : هل الموجود هو ما يدرك بالحواس فحسب ؟ وأن ما لا يدرك بالحواس غير موجود في أية صورة من الصور ؟ !

إجابة العلمانيين والحسيين أو الوضعيين الماديين على هذا السؤال معروفة وهي : لا وجود لما لا يدرك بالحواس . نعم هذه هي إجابتهم فإن أقروا لنا بها لزمهم أن يقبلوا نقضنا الآتي لمذهبهم .

• إن لم يقروا كان هذا هدما صريحا لمذهبهم . فهم مدانون أقروا أو لم لم يقروا فإذا قالوا — في حالة عدم الإقرار أن هناك موجودات لا تدرك عن طريق الحواس قلنا : حسنا ما قلتم . فمذهبكم — إذن — باطل ما دمتم قد وافقتمونا على أن الحواس ليست هي المصدر الوحيد للمعرفة .

وإذا قالوا : ليس هناك موجودات وراء الحواس قلنا : اسمعوا إذن ؟

ما هى الروح التى بها تكون الحياة أهى موجودة أم غير موجودة . فإن قالوا : غير موجودة لزمهم أن يفرقوا بين حالتين : حالة الحياة وحالة الموت . وليس إلى هذا سبيل قط .

وإن قالوا : موجودة قلنا لهم : هل أدركتموها بحاسة من الحواس . فإن قالوا : بلى أدركناها بحاسة كذبوا على أنفسهم .

وإن قالوا أدركناها بآثارها وهى الحياة . قلنا : حسنا إن من الموجودات مالا يدرك بالحواس وإنما يدرك بآثاره . وكذلك « الله » سبحانه لم يدرك بواحدة من الحواس . وإنما عرفناه واستدللنا على وجوده بآثاره وهى الخلق والتصرف فى الكون والتدبير .

ونقول للعلمانيين الجهلاء :

افرقوا لنا بين العاقل والمجنون فإن قالوا لافرق بينهما كذبوا على أنفسهم وإن قالوا إن العاقل من كان عقله موجوداً فيه . والمجنون من ذهب عقله قلنا لهم :

وهل العقل موجود وأنتم لم تدركوه بحاسة من الحواس فكيف أدركتموه فإن قالوا ـ ولابد أن يقولوا ـ أدركناه بآثاره وهى حسن التصرف . قلنا لهم : حسنا ما قلتم . وكذلك « الله » لم يدرك بحاسة وإنما عرفناه بآثاره وهى أعظم وأبهر وأخلد من آثار الروح ومن آثار العقل . فعلام إذن تنكرون الله وما وراء الطبيعة وها أنتم أقررتم أن من الموجودات مالا يدرك بالحس وإنما يدرك بالعقل .

وصفوة القول :

أن الموجودات نوعان :

• نوع يدرك بالحواس وهو ما كان متعلقا بخواص المادة جماداً ونباتا وحيوانا وإنسانا .

• ونوع لايدرك بالحواس وطريق إدراكه إما العقل ، وإما الوجدان وبذلك يبطل مذهب العلمانيين من أقصر طريق .

حكمة الحكيم :

فتأمل - معى - عزيزى القارىء كيف أن الله سلب عباده حقيقة العلم بالروح وبالعقل معاً . ليثبت حقه ويدحض باطل المبطلين من عباده وذلك من احتفاظه بحقيقة الروح وحقيقة العقل .

فأرقى مخلوقات الله الأرضية هو الإنسان .

والإنسان مكون من جسد (مادة) وروح ، وعقل .

والجسد بلا روح جيفة منتنة .

فبالروح يحيا الجسد ويرقى .

وبالعقل تحيا الروح وترقى . والروح بلا عقل نوع من السوائم البهيمية .

والروح والعقل أسمى نعم الحياة ، ومع هذا فإن واحدا منهما لا يقع تحت الحواس . وهما أظهر وأسمى مظاهر الوجود . ألا فتعساً لكل علمانى جاهل !!؟.

الشيـوعيـــة

الشيوعية : هذا المعنى يعبر عنه بعدة مصطلحات :

فهو حينا الشيوعية وحينا : الاشتراكية العلمية . وحينا آخر : المادية الجدلية ، ومرة : المادية التاريخية . ومرة : التفسير المادى للتاريخ .

وكل هذه التعبيرات ترجع ـ فى الأصل ـ إلى شىء واحد ، هو : المذهب الفلسفى الذى ينسب إلى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) . وكل مصطلح منها منظور فيه إلى معنى خاص فى نظرية ماركس هذا . بيد أن التعبير عنه بـ « الشيوعية » يمثل تلك المعانى كلها لأنه المصطلح السياسى العام الذى عرف به مذهب ماركس الفلسفى . وزاد من شهرته عندما صار لهذا المذهب دولة بعد الثورة الحمراء التى قامت سنة ١٩١٧ م وانضوى تحت الإتجاه الشيوعى مجموعة من الدول .

وبعض الكتاب يعبر عن الشيوعية بـ « الإلحاد » الأحمر أو « الإلحاد » العالمى ويمكن إرجاع هذه التعريفات إلى عدة اعتبارات :

* فالشيوعية منظور فيها إلى الطابع السياسى .
* والمادية الجدلية منظور فيها إلى المعنى الفلسفى .
* والمادية التاريخية أو التفسير المادى للتاريخ منظور فيها إلى التطور التاريخى الذى توهمه ماركس .
* والاشتراكية العلمية منظور فيها إلى المعنى الاقتصادى فى فلسفة ماركس .
* أما الإلحاد : فمنظور فيه إلى عقيدة ماركس واتباعه من حيث الإيمان

بالله وعدمه . وإذا وصف الإلحاد بالأحمر فالمراد الرمز إلى خطورة الشيوعية وسفكها الدماء في سبيل غايتها مهما كانت الوسائل الموصلة إليها وإذا وصف الإلحاد بالعالمي . فلأن الشيوعية تبشر بأن طبقة من الناس « الشيوعيون طبعاً » سوف تسيطر على « العالم » في يوم من الأيام في آخر مرحلة للصراع حسب « مبدأ » النقيض الذي سطا عليه ماركس من « هيجل » الفيلسوف الألماني . ثم مسخه بعد السطو عليه كما سيأتي بإذن الله .

وقبل أن نوجز الحديث عن مادية ماركس ، وكيف سطا على أصل المذهب من « هيجل » وعلى أي نحو مسخه بعد السطو عليه كما يمسخ كل سارق صورة « المسروق » قبل هذا كله نريد أن نلفت نظر القارىء إلى حقيقة بالغة الأهمية ، حتى يسير مع هذا « العرض » وهو على بصيرة بحقيقة المادة التي ندرسها - هنا - ويتبين الرباط الوثيق بين مراحل الأيديولجيات الأروبية في خط سيرها على مسار التاريخ البعيد والقريب .

فقد بدأنا هذه الدراسة بالحديث عن تاريخ الكنيسة في الغرب وعقائدها وتصوراتها العامة والخاصة وسلوكيات رجالها وآبائها ، وصراعها مع خصومها ثم سقوطها في النهاية وقد رضيت من الغنيمة بالإياب ، وقد كانت لها الغنيمة خالصة بلا شركاء .

وعرفنا أن «العلمانية» بما فيها من صواب وخطأ قبل إلحادها وكفرها كانت ثمرة طبيعية للإنتصار على الكنيسة . وأن قانون « السببية » واضح كل الوضوح بين تعنت الكنيسة وجهلها الذي أدى بها إلى « السقوط » وبين قيام « العلمانية » على النحو الذي مر بنا تصويره .

فوقف الكنيسة هو « السبب » وقيام « العلمانية » هو المسبب ما في ذلك من شك وهذه حقيقة يجمع عليها كل المنصفين ممن درسوا تاريخ أوروبا الفكري أو كتبوا حول سير المعرفة والأيديولجيات فيها .

ونفس الشيء يصدق على الصلة الوثيقة بين « العلمانية » و « الشيوعية » مع اختلاف مهم لأقصى غاية .

ذلك أن العلاقة بين الكنيسة والعلمانية كانت علاقة تضاد ونفور ، فقامت العلمانية على أنقاض الكنيسة . وبهذا ماتت فكرة وحييت فكرة هي نقيض لها أو تضاد وورث اللاحق منهما السابق .

أما العلاقة بين العلمانية والشيوعية فهي علاقة توافق وتآلف وانسجام إلى « أبعد حد » . فالعلمانية لم تمت في ظل الشيوعية كما ماتت الكنيسة في ظل العلمانية . بل كانت الشيوعية مظلة واقية أو حصنا أمينا للعلمانية وما قامت الشيوعية إلا لحماية العلمانية . وتحضرني - هنا - عدة تشبيهات لتوضيح العلاقة بين العلمانية والشيوعية اخترت منها الصورة الآتية :

إذا تصورنا العلمانية في صورة « ثعبان » نشأ بلا أنياب فإن الشيوعية هي التي ركبت للعلمانية « الأنياب » لتستطيع « العلمانية » أن تبث سمومها بواسطة تلك الأنياب السامة . فالعلمانية لم تكن ذات خطر قبل قيام الشيوعية بل كانت مجرد فلسفة فكرية تقاوم بالحجة والبرهان . ولما قامت الشيوعية صارت للعلمانية دولة أو دول مسلحة تحكم بالحديد والنار . هذا هو الواقع الذي يشهد كل المنصفين بصدقه .

وفي إيجاز شديد نقول :

إن الشيوعية إنما هي تقنين وتطور للعلمانية خرجت بها من مجرد تصورات واهية مقضى عليها بالفشل إلى « كتلة » بشرية عاملة بكل سلاح . ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الشيوعية - الآن - مقتولة عقليا وعلميا ونظريا .. ولكنها « عمليا » قوة ضاربة تخشى سطوتها كبريات الدول .

إذن فالعلاقة بين العلمانية والشيوعية تختلف كل الاختلاف عن العلاقة

بين الكنيسة والعلمانية ، وحسبنا هذا فى الحديث عن تصوير العلاقات بين المسميات الثلاثة .

بين هيجل وفيتشه :

قلنا إن ماركس استعار أصل مذهبه من فلسفة « هيجل » ثم مسخه وغير معالمه فما هى — إذن — فلسفة هيجل ؟ وكيف وقعت عملية السطو الماركسى عليها ؟ !

هذا ما نبينه — الآن — ومن الله التوفيق .

فلسفة هيجل :

لهيجل فلسفة ولكنه لم يبدأها من فراغ ، بل سبقه إلى أصولها فيلسوف ألمانى آخر فتيشه (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) وكلاهما: فيتشه وهيجل من أنصار العقل وتكاد أن تتحد نتائج فلسفتيهما إلا من وجوه وملاحظات يسيرة تفصل بين المتشابهين إلى حد ما .

فقد بدأ فيتشه : نوعان من الفلسفة العقلية المثالية انتهى منها إلى نتائج وغايات محددة . وجاء هيجل فبنى فلسفته العقلية المثالية على أسس فلسفة فيتشه ، ولكنه اختلف معه بعض النتائج كما سنرى .

فلسفة فتيشة التى نهج عليها هيجل :

يرى فيتشه : أن تصور الإنسان لنفسه هو بداية الطريق فى فهم العالم الخارجى إلى أبعد حدود المعرفة . وفى ذلك يقول فيتشه ما معناه :

إذا تصور الإنسان نفسه . . . أى إذا « أنا » تصورت : « أنا » فإن هذا المتصور ينتج عنه :

أولا : أن « أنا » هو « أنا » .

ثانيا : وأن « ما ليس أنا » هو غير « أنا »

إيضاح : هذا الكلام فى حاجة إلى إيضاح وكشف. ولإيضاحه نقول:

إن لكل كلمة أو جملة معنيين أحدهما يسمى بـ « المنطوق » والثانى يسمى بـ « المفهوم » ، فإذا سألت أحداً من أنت ؟ فقال لك : محمد . فإنك تفهم من هذه الإجابة أن المسئول هو « محمد » .

وأنه ليس شخصا « غير محمد » .

والمعنى الأول يسمى منطوق العبارة ، لأنه فهم من دلالة اللفظ المنطوق مباشرة ، أما المعنى الثانى فيسمى مفهوم العبارة ؛ لأنه فهم من عرض الكلام لا من لفظه .

وإذا قال لك ناصح : لا تسافر ليلا وحدك . كان المعنى المنطوق لهذه العبارة : النهى عن السفر ليلا وحدك .

أما المعنى المفهوم لها فهو : « جواز السفر ليلا فى صحبة جماعة » بهذا يتضح مراد فيتشه ، من أن « أنا » إذا تصورت « أنا » نتج عنه أن « أنا » هو « أنا » ، وهذه هى دلالة منطوق العبارة كما علمت .

أما المعنى الثانى الناتج عن تلك العبارة وهو « أن ماليس أنا. هو غير «أنا» فهذا المعنى هو مفهوم العبارة لا منطوقها كما علمت .

وماليس أنا عند فيتشه ، هو العالم الخارجى عن « أنا » فإذا تصورت أنت نفسك بـ « أنا » كان ماعداك وهو « ماليس أنا » هو العالم الخارجى كله . وهذا تصوير صادق كل الصدق كما ترى .

ويمضى فيتشه فيقول :

فهنا : « أنا » وهنا أيضا : « ليس أنا » وتصور : « أنا » يستلزم تصور : « ليس أنا » وهذا كما ترى إجمال المتقدم . وقد فرع عليه فيتشه قوله :

« وإذن « أنا » باعتبار أنه يطوى فى ذاته وجود « ليس أنا » هو جامع الشىء ومقابله » .

والمراد بالشىء هنا هو « أنا » أما مقابله فهو « ليس أنا » .

ويستطرد فيتشه فيرى أن العالم الخارجى المرموز له بـ « ليس أنا » لما كان « أنا » منطويا عليه ومستلزما له فهو – أى العالم الخارجى – من عمل « أنا » ومن خلقه وإنتاجه ؟!

وإذا جاز لنا أن نختصر الطريق فى الوصول إلى النتائج من فلسفة فيتشه فإننا نقول :

أن فيتشه استنتج من فلسفته تلك الحقائق الآتية :

ه إستقلال العقل فى الوجود عن الجسم وأى كائن آخر .

ه وأن العقل هو سيد نفسه ، وسيد غيره « العالم الخارجى » عنه .

ه وأن الإنسان حر فى عمله حرية تامة ليس عليه سلطان من خارجه لا من الدين ولا من غير الدين .

وقد خرج بفلسفته هذه من دائرة الفكر الفلسفى المجرد إلى عالم الواقع بما فيه من اتساع وامتداد على النحو الآتى :

١ – إن العقل هو وسيلة المعرفة دون ما سواه .

٢ – إن العقل هو سيد الطبيعة « العالم الخارجى » لأنها من خلقه وعمله ؟!

٣ – إستقلال الفرد فى المجتمع وصيانة حرماته .

٤ – إن أصحاب العقول الخلاقة يجب أن يسودوا « الجماهير » فى شكل حكومات يتولاها عظماء القوم . وتكون الغاية هى رقى « الإنسانية » وسعادتها .

وتقوم فلسفة فيتشه على (مبدأ النقيض) الذى سيتضح أمره بعد قليل فى عرضنا الموجز لمثالية هيجل .

هيجل على الطريق[1] :

ولد جورج ولهلم فريدريك هيجل عام (١٧٧٠ م) فى شتوجارت بألمانيا وتوفى عام (١٨٣١ م) وكان فى بدء حياته العقلية مؤمنا بعقائد اليونان منكراً لمعجزات المسيح وألوهيته ولكنه رجع عن هذا وألف الكتب التى تضمنت هذه المعانى . ثم بدأ يضع أسس فلسفته على غرار فلسفة فيتشه . ولكنه أكثر منه وضوحا وشهرة . وتتلخص فلسفته فى التصور الآتى :

العقول الثلاثة :

(إن هناك فكرة مطلقة لها وجود ذاتى أطلق عليها اسم (العقل المطلق) ووجوده ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة .. وهذا (العقل المطلق) هو (الله) ومنه انبثقت (الطبيعة) وهى تغايره تماما ؛ لأنها مقيدة ومحددة ومتفرقة أما العقل المطلق فهو واحد وحدة مطلقة عن كل قيد أيا كان . والطبيعة هى (العقل المقيد) .

وبعد ظهور الطبيعة ووجودها انتقلت الفكرة من (العقل المطلق) إلى (العقل المقيد المحدد) : الطبيعة أو الوجود الكونى المشاهد . فالطبيعة - إذن - هى خروج الفكرة من دائرتها الأولى ومن أجل ذلك كانت ضرورة - يعنى لم تصدر عن إرادة - وهذا مما يؤخذ على فلسفة هيجل . ولذلك تعتبر مقابلا ونقيضا للفكرة فى العقل المطلق ؟ ! فالفكرة - هنا - انتقلت من المطلق إلى المقيد أو من النقيض إلى النقيض ، فهى إذن - أى الطبيعة أو العقل المقيد مقابل للفكرة فى العقل المطلق . ؟ !

(١) انظر فى فلسفة هيجل : قصة الفلسفة (٣٧٥) والفكر الإسلامى الحديث (٢٠٩) .

ولكنها ـ أى الطبيعة أو العقل المقيد ـ أخذت تسعى من جديد لتكتسب الوحدة الأولى التى كانت لها فى العقل المطلق بعد أن افتقدتها فى التفرق فى الكائنات التى تكونت فى الطبيعة (أجزاء الكون)فوصلت إلى(العقل المجرد) والعقل المجرد يتمثل فى :

القانون ، والأخلاق ، والفن ، والدين ، والدولة ، والجماعة ، والفلسفة والنظام وهكذا .

وسمى هذا بالعقل المجرد ؛ لأنه ليس له وحدة المطلق ولاتقييد المقيد ، أو هو كما يرى هيجل : فيه تقييد بالنسبة للعقل المطلق ، وإطلاق بالنسبة للعقل المقيد (الطبيعة) .

ونلحظ ـ هنا ـ حسب فلسفة هيجل :

أن العقل المطلق احتوى على نقيضه أو مقابله ، وهو العقل المقيد .

وأن العقل المقيد احتوى على نقيضه أو مقابله وهو العقل المجرد .

إذن فالشىء (العقل المطلق) انتقل إلى نقيضه : (العقل المقيد)وهوبدوره انتقل إلى نقيضه (العقل المجرد) .

وبذلك أسفرت فلسفة هيجل عن المبادىء الثلاثة الآتية التى كان فيقشه قد قال بها مع الإختلاف فى التسمية . ومبادىء هيجل الثلاثة أسماها :

- الدعوى .
- مقابل الدعوى .
- الجامع بين الدعوى ومقابلها .

وتطبيق هذه المبادى عن مراحل الفكرة عند هيجل هو :

- العقل المطلق دعوى .
- والعقل المقيد هو مقابل الدعوى ؛ لأنه نقيض الدعوى وهى العقل المطلق .

• الجامع بين الدعوى ومقابلها وهو (العقل المجرد) لأنه مقيد بالنسبة للعقل المطلق ، ومطلق بالنسبة للعقل المقيد .

فإذا أخذنا مبدأ (النظام) مثلا فإنه يكون جامعاً للعقل المطلق (الله) وللعقل المقيد (الطبيعة) أى أن العقل المجرد إنما هو جامع الدعوى ومقابلها وقد طبقت هذه المبادىء على عناصر أخرى منها : الماء فقالوا :

إن المادة دعوى : ولاماء مقابل الدعوى . وتحول الماء إلى بخار جامع للدعوى ولما يقابلها . وهكذا فى كل شىء تتصوره فيكون دعوى . وتتصور نقيضه فيكون مقابلا لتلك الدعوى . ثم تتصور ما يشمل الحالتين فيكون جامعاً للدعوى ومقابلها .

وقد خص هوجل الفكر وحده بفلسفته فالعقلان الأول والثالث أمران فكريان وأن توسطهما (الطبيعة) فهى عنده فكرة لأن ما يتعلق بقوانين الطبيعة يسمى عند هيجل بـ (فلسفة الطبيعة) وما يتصل بجامع الدعوى ومقابلها يسمى :(فلسفة العقل) أما ما يتصل بالعقل المطلق وحده (الله) فيسمى عنده : علم المنطق ، أو علم الوجود أو علم الميتافيزيقا . أو ماوراء الطبيعة كما شاع ذلك عند جمهور المفكرين فهذه الفلسفات الثلاث :

• فلسفة الوجود أو الميتافيزيقا .
• وفلسفة الطبيعة .
• وفلسفة العقل .

هذه المظاهر الثلاثة يتعلق كل مظهر فلسفى منها بما يناسبه من مبادىء هيجل التى أخذها عن سلفه فيتشه . فهو إذن جار على منهجه بيد أن هيجل خالف فيتشه فى :

أن فيتشه يرى أن سيادة العقل سيادة مطلقة على كل شىء آخر سواء حتى على الدين والوحى . بينما هيجل يرى أن سيادته مقصورة على الطبيعة وحدها دون الدين والوحى . ثم يتفق الفيلسوفان فيما عدا ذلك .

والخلاصة :

* أن كلا من فيتشه وهيجل اعتمدا على مبدأ النقيض فى بناء مذهبيهما فالشىء يحتوى على نقيضه ثم يصيران : الشىء ونقيضه إلى ما يجمع بينهما وهكذا فى صور متعاقبة بين الكائن ونقيضه فى دورات متعاقبة لا حصر لها ، لأن جامع الدعوى ومقابلها ليس هو آخر مرحلة فى الوجود بل هو نفسه خاضع لقانون النقيض حيث يتحول نقيضه إلى منافس له ، ثم يجتمعان فى جامع جديد وهكذا .

* وأن كلا منهما أعمل مذهبه فى مجال الفكرة وانتهيا إلى سيادة العقل سيادة مطلقة عند فيتشه . وعلى الطبيعة وحدها عند هيجل .

وأن هيجل ، وهو الذى استعار ماركس فلسفته لم يهدر قيمة الدين بل كان مبالغا فى احترامه وتقديره لدرجة أن نحى العقل ولم يجعل له سلطانا على قيم الدين وتعاليمه . والآن قد جاءت المناسبة لمعرفة فلسفة ماركس وتصوراته

ماركس وفلسفته المستعارة :

ليس لماركس أصول فلسفية خاصة به . وإنما أصول فلسفته مستعارة من فلسفة هيجل التى استخدم فيها «مبدأ النقيض» على النحو الذى أوجزناه . وهذا بإجماع دارسى فلسفة هيجل وفلسفة ماركس ، ولن أجد بيانا أوضح للعلاقة بين فلسفتى هيجل وماركس من التمثيل الآتى :

لو تصورنا أن رجلا صاغ بمهارة نادرة ثلاثة إناءات . فأحكم صناعتها وصوغها ثم وضع الأوانى الثلاثة على شكل هندسى بديع أحكم فيه العلاقات بين الأوانى الثلاثة ، ثم وضع فى كل إناء منها سائلا معينا . وراعى أن يكون بين «السوائل الثلاثة» نسبا وعلاقات محددة . تشترك فى بعض الخصائص وتفترق فى بعض الخصائص . ثم غفل عنها وجاء رجل آخر فسطا على الآنية بما فيها من سوائل ومواد، محافظا على العلاقات الموجودة بين الآنية، ثم أفرغ

الآنية الثلاثة من محتوياتها ذات النسب والعلاقات الموضوعة وضعاً حكيماً متقناً . ووضع بدلها محتويات جد غريبة عن الأولى وهى فيما بينها متنافرة لاذوق فيها ولا بديع صنعه . إذا تصورنا هذه الواقعه فإن الرجل الأول هو «هيجل» والثانى هو «ماركس» ، والآنية الثلاثة هى مبادىء وقيم هيجل ، ومحتوياتها هى الأفكار المجردة أو المثالية التى كساها هيجل أصول فلسفته ، إذا تصورنا هذه الواقعة ظهرت لنا بوضوح انتحالية فلسفة ماركس . وأنه لافضل له إلا فى تفريغ الآنية من محتوياتها ، ثم ملؤها بمحتويات كلها غرابة وشذوذ كلما حاول صاحبها أن يؤلف فيها ظهرت له عيوب ومفارقات .

هذا هو ما صنعه ماركس ، فقد سطا على مبادى هيجل ومسخها وغير كل معالمها وأدعى أنه هو «صاحب مذهب فلسفى» لم يسبق إليه وهذا إجمال فى حاجه إلى تفصيل :

والتفصيل :

إن هيجل لايرى وجوداً لغير الفكرة ، وأنها سابقة على وجود الطبيعة ، وإن الطبيعة من خلق وإيجاد الفكرة المطلقة أو العقل المطلق الذى يرمز به هيجل عن «الله» ، وأن العقل المطلق الذى هو — عنده — الله قادر على كل شىء وعنه انبثقت كل الكائنات .

بينما يرى هيجل ذلك إذا بماركس وقد سطا على مبادىء هيجل وأساس فلسفته وهو استخدام «مبدأ النقيض» ، إذا به يعكس القضية المسطو عليها عكساً قبيحا ، فلا يرى فى الوجود وجوداً لغير «المادة» = الطبيعة ، وأنها سابقة على الفكرة ، وأن الفكرة أى فكرة دينا أو غير دين إنما هى من خلق وإيجاد المادة ، ويجعل المادة هى القادرة على كل شىء ، هى الخالقة والأزلية والأبدية أى أن كل ماقال به هيجل فى وصف العقل المجرد (الله) أخذه ماركس ووصف به الطبيعة وراح — بعد ذلك — يطبق مذهبه الممسوخ على أحداث

الكون وتطوره ويرجعها كلها إلى عامل واحد هو : «الاقتصاد» وهو عنصر مادى أقامه ماركس ليشرح على هداه تصوراته الفلسفية على شكل تطبيقات وهمية ليس له عليها دليل . لا فى ما مضى من الأحداث ، ولا فى تنبؤاته عن المستقبل البعيد والقريب على حد سواء .

وماركس لولا هيجل ليس شيئاً ، فقد وجد أصول منهج هيجل جاهزة ومبدأ النقيض هو مركز الدائرة فيها ، ولم يصنع ماركس إلا أن أفرغ مبادىء هيجل من محتواها وصب فيها « ماديته » وهى غريبة كل الغرابة عن مبادىء هيجل ولم يبد بينهما أى انسجام .

يقول لينين وهو واحد من أقطاب المذهب الشيوعى ، ومن كبار مؤسسيه فى بيان الصلة بين فلسفة ماركس ومبادىء هيجل التى سطا عليها ماركس :

« إن كتاب رأس المال لا معنى له بغير مذهب هيجل القائم على تطور النقائض أو الثنائية »[٢] .

هذا اعتراف خطير من لينين بتبعية فلسفة ماركس لفلسفة هيجل ، مع الفارق الكبير بين الفلسفتين : فلسفة هيجل مثالية تجريدية محضة . وفلسفة ماركس مادية خالصة وماركس نفسه يعترف بهذا الفارق الكبير بين فلسفته وفلسفة هيجل إذ يقول : « لا يختلف منهجى الجدلى فى الأساس عن منهج هيجل فقط ، بل هو نقيضه تماما ، إذ يعتقد هيجـــل أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة . أما أنا فأعتقد على العكس أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان » .

فى هذه الكلمة الموجزة أودع ماركس جماع الأمر كله فى فلسفته فبينما يرى هيجل أن الفكرة سابقة فى الوجود على المادة وأنها صانعة المادة بكل

(٢) الإنسانية والشيوعية (٩٩) عباس العقاد .

صورها وهيآتها وأركانها وأشكالها إذا بماركس يقول : إن المادة سابقة فى الوجود على الفكرة وأنها - أى المادة - صانعة الفكرة بكل صورها وهيآتها وأركانها وأشكالها .

وترتب على مقولة ماركس هذه ضلال كبير سوف نعرض لأبرز مظاهره عند الماديين الجدليين أو الشيوعيين .

معنى الجدلية :

نقف - هنا - وقفة قصيرة حول معنى: المادة ، ومعنى الجدلية لنكون على بينة من الموضوع الذى نحن بصدده .

ومعنى المادة فى أبسط صورة أنها ما يدرك عن طريق الحواس : لمس أو ذوق أو نظر ، أو شم ، أو سمع . وقد يعبر عنها بأنها ماله وجود خارج الذهن، فأنت مثلا تمسك الآن بهذا الكتاب : فيدك تلمسه ، وعينك تبصره . فهو إذن مادة مدركة بحاستى اللمس والنظر .

وفى نفس الوقت لهذا الكتاب وجود خارج الذهن ، أى ذهنك وذهنى وذهن كل من يتصور كتابا ، بدليل أنه يشغل حيز من الفراغ .

أما معنى جدل أو جدلية، فأصل الجدل هو فتل الحبل باليد ليقوى ويشتد ، ثم توسع فى هذا المدلول فصار الجدل يطلق على المناظرات والبحث والإستدلال بإبداء كل خصم ماعنده من أدلة وبراهين والإحتجاج بها على الخصم الآخر، ثم يبدأ الخصم الآخر بمناقشة ، أدلة خصمه ويكشف عما فيها من تناقضات ، وبهذه العملية الجدلية أو المناظرة ينكشف الحق ويندحض الباطل ، هذا هو معنى الجدل[٣] .

ويرادف كلمة الجدل مصطلح : الديالكتيك ، وهو كما يقول ستالين للزعيم الشيوعى المعروف :

(٣) انظر اللسان ج ١١ ص ١٠٣

« أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية : دياليغو . ومعناها المحادثة والمجادلة وكان الديالكتيك يعني في عهد الأولين : من الوصول إلى الحقيقة ، باكتشاف التناقضات التي يتضمنها إستدلال الخصم ، والتغلب عليها » .

وسميت المادية الجدلية - يعني الشيوعية - لأن الديالكتيك أو الجدل هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة . . . وقد استخدم الجدل أو الديالكتيك(٤) عند ماركس وأشياعه كمنهج فكري طبق على حوادث الطبيعة فصار الطريقة المألوفة عندهم لمعرفة الطبيعة .

ومعنى هذا في إيجاز : أن المادية تعني أمرين:

أولهما المادة المدركة بالحواس أو ماله وجود خارج الذهن .

وثانيهما : الحوار أو الجدل حول هذه المادة سعيا لمعرفة حقائق الطبيعة بواسطه القوانين الخاصة بها ، والتي أسفر عنها المنهج التجريبي المناوىء للمنهج العقلي و لوحي الديني

مجال استخدام هذا المنهج عند الماديين أو الشيوعيين :

لا بحث عند الماديين إلا حول المادة وفي المادة ؛ لأن المادة هي الأصل عندهم . والبحث المادي عند الشيوعيين له عدة مظاهر يجمعها - فيما أرى - إتجاهان كبيران :

أولهما : الإتجاه التاريخي ، وهو المرموز إليه بالمادية التاريخية .

وثانيهما : الإتجاه الواقعي ، وهو المرموز إليه بالمادية الجدلية وفي هذين الإطارين يقتصر حديثنا عن الشيوعية تصويرا ونقدا ونقضا ومناقشة . إذ ليس همنا في هذه المواجهة دراسة الشيوعية من حيث أنها مذهب فكري وسياسي .

---

(٤) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية بتصرف (١٤ — ١٥) .

وإنما همنا مواجهة أصولها ومبادئها على ضوء العقل والعلم والواقع وما قرره الإسلام من حقائق وعقائد .

والإسلام قد استخدم كلا من العقل والعلم والواقع مصادر حية في جدله الوجداني مع خصوم الحق . وكثيرا ما أدار معاركه الجدلية على هذه المصادر فغلب ولم يغلب ، وقهر ولم يقهر ولن يقهر إلى قيام الساعة .

المادية التاريخية :

هذا هو أحد الإتجاهين الكبيرين اللذين كانا مجالا لبحث الشيوعيين أو الماديين في المادة والطبيعة وحول المادة والطبيعة . والعنصر الأساسي فيه هو الاقتصاد، لأنه المحرك - عندهم - لكل أحداث التاريخ ، وهو أول رابطة ربطت بين البشر - عندهم - ولهم في تحقيق هذا فلسفة عجيبة لأنهم يقولون :

« لابد لأجل الحياة البشرية من أن يكون في مقدور البشر تلبية حاجاتهم الضرورية من المأكل والمشرب والملبس والمسكن ؛ لذلك فإن المطلب الأول هو إنتاج هذه الوسائط القمينة بسد هذه الحاجات » .

ويرتبون على هذه المقدمة هذا الفرض :

« فالرابطة المادية هي الأساس الأول الذي جمع البشر ، وهي قديمة وجدت منذ وجد الإنسان ، وسابقة على كل رابطة أخرى » .

وفي ذلك يقول ماركس نفسه :

« وهكذا فإنه من الجلي تماما منذ البداية أن ثمة رابطة مادية تجمع بين البشر بعضهم بعضا .. وهي قديمة قدم البشر أنفسهم .. وبذلك تمثل تاريخا حتى قبل أن يوجد أي هراء سياسي أو ديني » .

فالاقتصاد - إذن - هو الرابطة المادية الأولى والوحيدة - عند الشيوعيين - جمعت البشر وكونت منهم جماعة إنسانية قبل أن يكون هراء - هكذا - سياسي أو ديني ؟!

وليس هذا بغريب على تفكير ماركس والشيوعيين عند من يعرف أصول الفلسفة الماركسية التي تقوم على أن المادة سابقة في الوجود على الفكر. وسيأتي بيان هذا والرد عليه قريبا بإذن الله. ولما كان الاقتصاد هو المحرك لحوادث التاريخ فإن الشيوعيين يفترضون أن المجتمع مر بعدة مراحل تاريخية ممهدة لقيام النظام الشيوعي العالمي. وتلك المراحل عندهم هي:

* المشاعية البدائية، ثم انتقلت البشرية منها إلى:
* نظام الرق، ثم انتقلت من نظام الرق إلى:
* نظام الإقطاع، ثم تحولت من الإقطاع إلى:
* الرأسمالية. وتحولت من الرأسمالية إلى:
* الإشتراكية. أما الإشتراكية فهي المرحلة قبل الأخيرة التي سيأتي بعدها النظام العالمي الدائم، وهو الشيوعية.

ويفسرون المشاعية البدائية بأن الطعام كان مشتركا بين الناس جميعا ولم يكونوا يعرفون نظام الملكية الخاصة، وكان حصولهم على الغذاء ارتجاليا يوميا ولم يعرفوا نظام ادخار القوت. وحتى المسكن كان مشتركا بين عدة أسر، بل القبيلة كانت تسكن تحت سقف واحد، ولم يعرفوا «التوحيد» في الزواج فكان للزوج عدة زوجات، وللزوجة عدة أزواج ..؟!

يقول الشيوعيون:

«كان القطيع البدائي أول شكل انتقالي للمجتمع... ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الإنسان عن الحيوان ؟! .. وما زال باقيا حتى تكونت ملامح الإنسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء»[5] ؟!

هذا النص يدل دلالة واضحة على صلة المادية التاريخية - الشيوعية - بنظرية

---

(٥) المادية التاريخية (٣٢٥).

داروين التى سبق ذكرها وكانت إحدى دعائم العلمانية التى استمدت الشيوعية مقدمات وجودها منها .

وبانحلال المشاعية البدائية ، وبسبب انحلالها عندهم تقدم الفرد ووصل إلى اختراع أدوات الإنتاج ، عرف الأفراد طريق الملكية الخاصة التى نشأ عنها نظام الرقيق وهو التحول الأول بعد المشاعية البدائية . ثم نشأ عن هذا النظام نظام الإقطاع الذى ظهرت فيه المزارع الكبيرة والإقطاعيات . وعن نظام الإقطاع نشأت الرأسمالية . وعن الرأسمالية نشأت النظم الاشتراكية. وكل هذه النظم كانت خاضعة لقانون الصراع بين الطبقات، ومحكومة بقانون آخر يطلقون عليه :

قانون : نفى النفى أو سلب السلب . وسيأتى بيانه قريبا إن شاء الله .

أما النظام أو التحول العظيم عندهم الذى ليس بعده نظام يضارعه ويحل محله فهو النظام الشيوعى الذى سيسيطر فيه العمال أو البرولتاريا على أدوات الإنتاج . وبعدها تصبح الدنيا جنة بلا متاعب ولا شقاء ؟!

الوسائل والأهداف :

لما كان الاقتصاد عند الشيوعيين هو (الوقود المحرك لعجلة الحياة) وكانت الأوضاع الاقتصادية الآن تنتهى إلى نظامين كبيرين هما: الرأسمالية والاشتراكية فإن الشيوعيين يحملون الرأسمالية وهو النظام الاقتصادى المناوىء لنظامهم كل المتاعب والإنقسامات والشرور التى تمنى بها الآن المجتمعات البشرية . وأصبح للشيوعيين أهداف يحلمون بها ويعملون من أجل الوصول إليها ، وهى تعميم النظام الشيوعى فى العالم وسيادة الطبقة الكادحة « العمال » الذين يسخرهم أصحاب رءوس الأموال فى مصالحهم ويحرمونهم من ثمرة عملهم ، ويستأثرون هم بفائض القيمة من الإنتاج فيعيشون فى بذخ ورفاهية ، ولا يعطون العمال إلا القليل .

إذن لابد أن يسقط النظام الرأسمالى المتطرف وصولا للغاية المرجوة أو الأهداف الكبرى للشيوعية . والوصول إلى هذه الأهداف فإن الوسائل المرضية عند الشيوعيين هى :

• الصراع إلى النهاية مع النظام الراسمالى وعدم مهادنته فى أية صورة من الصور .

• القضاء على الملكية الخاصة قضاء تاما ، وتمكين المجتمع أو الدولة من الثروة القومية .

• محاربة كل العوامل التى تساند الرأسمالية وتساعد على بقائها .

هذا وقد انطلت أحلام الشيوعية على بعض الشعوب وبعض الأشخاص من المثقفين . وذلك يرجع إلى أسباب سلبية فى النظام الرأسمالى الغربى قد استغلتها الشيوعية وركزت عليها فى الدعاية والترويج لها . ومن أبرز تلك الأسباب :

١ - ظهور مشكلة البطالة والفقر فى دول الغرب بعد الحرب العالمية الثانية فى ظل النظام الرأسمالى .

٢ - سوء سيرة دول الغرب فى الشعوب المستعمرة ، وامتصاص خيراتها وحرمانها من كثير من حقوقها الطبيعية .

٣ - إظهار التحول من الرأسمالية إلى الشيوعية فى مظهر ضرورى حتمى سيقع نتيجة للتطور التاريخى المزعوم .

٤ - الترويج لمبدأ (عدم الثبات) نتيجة للتطور ، وإشاعة القول بأن القيم والمبادىء غير ثابتة كالدين والأخلاق والعادات والتقاليد .

٥ - إنخداع الشعوب الفقيرة بأن الشيوعية ستحل كل مشكلات وتقضى على متاعبها قضاء تاما .

تلك هى الأهداف ، وهذه هى الوسائل إلى وسائل أخرى يحذقها الرفاق، لمحاربة الدين ، وتلويث سمعة المفكرين ، وخلق الفتن والاضطرابات ، وشيوع الإباحية والإستهتار بقيمة المرأة ، وجعل وظيفتها خاضعة لخدمة الإنتاج من حيث إنها مصدر لقاح للرجال .

تطور من نوع آخر :

ولدى الشيوعيين تطور آخر غير تطور المجتمع من الزاوية الاقتصادية من المشاعية البدائية إلى نظام الرق ، إلى نظام الإقطاع ، إلى الرأسمالية إلى النظام الاشتراكى إلى النظام الشيوعى العالمى المرتقب .

فإذا كان هذا التطور الاقتصادى خاصا فإن التطور الثانى عاما ولكنه على ثلاث درجات لا خمس كما فى التطور الاقتصادى . والشيوعيون لما كانوا هم الوريث الشرعى للعلمانيين . فإن التطور ذا الدرجات الثلاث مستعار من تصورات العلمانية بالحرف والمعنى . وذلك إنهم يقسمون تاريخ المعرفة الإنسانية ثلاثة أقسام مرحلية ، أعنى أنه تقسيم زمنى لا نوعى . وقد تصوره على النحو الآتى :

١ — كانت وسيلة المعرفة الأولى فى عصور الإنسان البدائية هى الدين . كان الدين عندهم فى تلك المرحلة هو مصدر المعرفة .

٢ — ثم حل محل الدين الفلسفة العقليه ؛ وأقرب شاهد معروف على هذا — عندهم — الفلسفة الإغريقية ومن أقطابها سقراط وأفلاطون ، وأرسطو ، وغيرهم .

٣ — وانتهى دور الفلسفة العقليه كما انتهى دور الدين من قبل . وحلت الفلسفه الحسيه أو الوضعية القائمة على المادة المدركة بالحواس محل الفلسفة العقليه التى كانت — بدورها — قد حلت محل المعرفة الدينية . وكان أوجست كونت هو حامل لواء الفلسفة الوضعية .

وفلسفة كونت الوضعية الحسية من ملائمات الفلسفة المادية الجدلية التى قامت عليها النظم الشيوعية ، وذلك لأن كونت يرى :

« أن المعرفة الإنسانية تستند إلى علاقات الظواهر بعضها ببعض ، وأنه ليس هناك فى دائرة المعرفة مطلق يحمل أساسا لمجهول ؟!

والمبدأ المطلق الوحيد الذى له اعتبار عام هو أن كل شيء نسبي ؟!

وإذن ليس هناك فائدة من الحديث عن الأحوال والعلل الأولى للوجود ، ولا عن أهدافها الأخيرة وهى معرفة الميتافيزيقا والدين ، ؟ !(٦) .

ولعل القارىء الكريم قد فطن لماذا حدث الإنسجام التام بين تصورات الشيوعيين وفلسفة أرجست كونت . وأسباب الإنسجام هى :

١ — إن كونت يحصر مصادر المعرفة كلها فى المادة المدركة بالحواس ويدعو إلى سيادة العلم .

٢ — وينفى أن يكون فى الوجود (مطلق) يعنى (الله) تفسر بوجوده المعلوم الأمور المجهولة ويرى :

٣ — إن كل شيء فى الوجود نسبي وهـــذا هو المطلق الوحيد الذى له صفة العموم .

٤ — والمعرفه المادية التى تأتى من المادة عن الحواس (قوانين الطبيعة) كافية فى تفسير مظاهر الكون فلاداعى إذن لمعرفة ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقا) أو الدين .

هذا هو التقسيم ذو الدرجات الثلاث :

من الدين إلى العقل إلى الحواس والمادة .

وبعضهم يعبر عن المرحلة الأولى (الدين) بمرحلة السذاجة أو البدائية

---

(٦) الفكر الإسلامى الحديث ٣٤٣ — ٣٤٤

ومعلوم أن المرحلتين الأوليين قد انتهى دورهما فى سلم التطور والرقى فى تصورات العلمانيين والعلمانيين الشيوعيين ؟ !

ومعلوم ـ كذلك ـ أن الشيوعية تهدر قيمة الدين وتلغى وظيفة العقل ؟ !

قانون نفى النفى أو سلب السلب :

كنت قد حدثتك حديثا عابرا عن هذا القانون . والآن جاء دوره وبيان قيمته عند الشيوعيين .

هذا القانون هو من صنع العلمانيين الذين ورثهم الشيوعيون . ومعنى نفى النفى أو سلب السلب أن كل مرحلة من مراحل التطور اقتصاديا كان أو معرفيا تعقبها مرحلة أخرى هى أرقى منها وأسمى ، أى أن المرحلة السابقة تعتبر نفيا أو سلبا بالنسبة للمرحلة التى لحقتها . فالسابق أدنى وأحط ، واللاحق أعلى وأفضل . أى أن نفى النفى أو سلب السلب هو إحلال ظاهرة فاضلة ، رفيعة محل ظاهرة مفضولة منحطة ؟ !

وتطبيق هذا القانون على مراحل التطور الاقتصادى ينتج :

- أن نظام الرق أفضل من نظام المشاعية البدائية . . ؟ !
- وأن نظام الإقطاع أفضل من نظام الرق .
- وأن نظام الرأسمالية أفضل من نظام الإقطاع .
- وأن نظام الإشتراكية (المعتدلة) أفضل من نظام الرأسمالية .
- وأن نظام الشيوعية أفضل النظم المتقدمة ، ولذلك فلن يأتى نظام آخر ينفيه ؟ !

أما تطبيق قانون نفى النفى على المراحل المعرفية الثلاث فينتج .

- أن الفلسفة العقلية أفضل من الدين ؟ !

• وأن الفلسفة الوضعية أفضل من المعرفة العقلية ، ومن المعرفة الدينية . وأن الدين حسب هذا القانون هو أحط الدرجات الثلاث .. ؟!

ومن يدقق النظر في هذا يلحظ بوضوح استخدام نظرية داروين في التطور والإنتخاب الطبيعي : لأن الطبيعة عند داروين تختار الأصلح دائماً والأصلح في التطور الاقتصادي هو : الشيوعية العالمية ؟!

والأصلح في التطور المعرفي هو المعرفة الوضعية الحسية ... ؟!

ولذلك فلن ينفي الشيوعية نظام آخر ، لأنها أصلح النظم ؟!

ولن ينفي المعرفة الوضعية الحسية معرفة أخرى ، لأنها أصلح المعارف؟!

هذه خلاصة موجزة كل الإيجاز للجانب التاريخي من فلسفة ماركس ، وهـذا الجانب مقصور - كما ترى - على التطور الاجتماعي الاقتصادي وعلى التطور الاجتماعي المعرفي .

وهذان المظهران لم يسلم واحد منهما من النقد والنقض والإبطال لا من خصوم الشيوعية فحسب ، بل من الشيوعيين أنفسهم مما اضطرهم إلى الانتقال من وصف القداسة الذي كانوا يضفونه على قس الشيوعية الأول (ماركس) إلى موقف الدفاع عنه ومحاولة تنقية فلسفته من الأخطاء الجسيمة التي ظهرت في أثناء التطبيق وعلى أيدي ناقديه من غير الشيوعيين .

بين الماضي والمستقبل :

قد يهون الخطب إذا اقتصر النقد الموجه إلى فلسفة ماركس على الجانب التاريخي الاقتصادي منها لأن ماقاله هو فيه مجرد فروض وتخمينات ترجع إلى عصور لم يعها وعي التاريخ وعيا كاملا . ولكن ماركس ورط نفسه في تنبؤات عن المستقبل باءت كلها - تقريبا - بالفشل وما يزال الواقع حتى في أقوى المجتمعات الرأسمالية يضيف صور بعد صور من فشل التنبؤات الماركسية

عن الواقع الرأسمالي وصلته بالعمال . وبذلك ظهرت فلسفة ماركس وكأنها همهمات محموم غلبه الوجع وأفقده القدرة على ضبط لسانه فطفق يقول وهو لايدرى ما يقول .

مناقشة من وجهة نظر إسلامية :

لانريد أن نطيل في مواجهة ما تقدم من فلسفة ماركس من وجهة النظر الإسلامية لذلك لن نتعرض بتوسع لمراحل التطور الاقتصادى الخمس التى تصورها هو وأتباعه ، فالتاريخ الموغل فى القدم لا يملكه أحد ومن يدعى أنه يملك القول الفصل فيه فقد تنكب سواء الصراط .

أما أول نقطة نتناولها فى هذه المواجهة فهى :

١ — مأخذ علمى خطير :

نعم : مأخذ علمى خطير تورط فيه ماركس وأتباعه ظانين أن خصومهم لن ينتبهوا إليه أو لم يظنوا ولكنهم فى حالة يأس لم يكونوا يبالون فيها بما يسفر عنه النقد أو النقض من نتائج .

فماركس كما علمنا سطا على فلسفة هيجل القائمة على استخدام مبدأ النقيض أو الثنائية المادية . ومقتضى فلسفة هيجل عدم الوقوف عند مرحلة معينة من مراحل التطور .

فالدعوى ، ومقابل الدعوى ينتهيان عند الجامع بين الدعوى ومقابلها وبهذا تتم دورة واحدة من دورات استخدام مبدأ النقيض . ثم تبدأ دورة أخرى فيها :

دعوى ، ومقابل دعوى ، ثم جامع بين الدعوى ومقابلها . والجامع بين الدعوى ومقابلها يصبح بدوره — فى عملية جديدة — دعوى لها مقابل جديد وجامع بينها وبين مقابلها جديد كذلك .

أى أن النقيض يعمل على شكل مستمر بدون توقف مادامت الحياة لم تتوقف هذا هو عماد فلسفة هيجل . ولكن ماركس بعد أن سطا عليها أفرغها من محتواها الفكرى كما تقدم وصب فيها محتوى ماديا . وهذا قد أخذ على ماركس من كل ناقديه .

ثم أتبع هذا المسخ خطأ آخر حيث جمد مبدأ النقيض عند الوصول به إلى الشيوعية فى التطور الاقتصادى ذى المراحل الخمس ، وعند المعرفة الحسية الوضعية فى التطور المعرفى ذى الدرجات الثلاث. وهذا معناه أن ماركس ، ومعه كل الشيوعيين ، لم يكونوا موضوعيين ولا أمناء ولا صادقين فى فلسفتهم . بل إن الهوى هو الذى كان يسيطر عليهم حيث أعملوا المنهج فيما حقق لهم غرضهم . ثم جمدوه أو أبطلوا مفعوله فيما وراءه من ثنائيات وتطورات .

ولو كانوا صادقين فى فلسفتهم لأفسحوا المجال لتحول الشيوعية حين يصلون إليها من خلال استخدام مبدأ النقيض إلى نقيض لها تصبح معه الشيوعية دعوى ، ونقيضها مقابل لها . ثم يتحولان : الدعوى ومقابلها إلى جامع بينهما ، وهكذا فى سلسلة من الدعاوى ومقابلاتها والجوامع بينهما . ولكنهم لم يفعلوا ولن يعقلوا وهذا يلزمهم - جدلا ومناظرة - بواحدة من اثنتين لا ثالث لها :

أولاهما : أن يعترفوا بأنهم غير موضوعيين ولا أمناء فى البحث والإستنتاج .

وأخراهما : أن يفسحوا المجال لتحولات أخرى تأتى بعد الشيوعية إلى نهاية المطاف فإن أقروا بالأولى فهم الخاسرون .

وإن أقروا بالثانية فهم الخاسرون .

وإن لم يقروا بواحدة منهما فهم - أبداً - الخاسرون .

إن الخسران محالف لهم كمحالفة الظل لصاحبه . وذلك عقبى كل مبطل معاند .

٢ — الاقتصاد فى سلوكيات البشر :

من أبرز الدعائم التى قام عليها التفسير المادى للتاريخ عند ماركس اعتبار الاقتصاد مصدرا لتفسير أحداث التاريخ . وماركس بهذا القول يناقض سنن الحياة . ولم يستند فى تأصيل نظرته إلى أدلة علمية أو تاريخية صحيحة . فمن حيث الزمان استمد ماركس كما يقول الأستاذ العقاد ملاحظاته من خلال ثلاثين سنة سابقة على القول المنسوب إليه ، وثلاثون سنة ليست تمثل شيئا فى تاريخ الإنسانية السحيق الذى لا يستطيع أحد أن يحـــدد متى بدأ . وكيف بدأ ؟ !

ومن حيث المكان فإن ماركس لم يستمد ملاحظاته إلا من خلال المجتمع الغربى فى أوربا .

وأوربا ليست هى كل المجتمع الإنسانى .

والعامل المادى (الاقتصاد) مع ماله من أهمية فى حياة الأفراد والجماعات والأمم ؛ لأنه عصب الحياة ، ولا ينكر تأثيره أحد فإنه ليس المطلب الوحيد ولا العامل الوحيد فى حياة البشر أفراداً وجماعات وأمما . بل للإنسان مطالب هى أرقى وأبرز من المطلب المادى .

وقد أجمع علماء النفس على أن العوامل النفسية من الألفة والنفرة هى التى تكون الطبقات البشرية وليس المال الذى يحصر فيه الشيوعيون كل أثر فى تكوين الطبقات ونشوء الصراع .

إن مطالب الحرية الفردية والجماعيـــة ، ومطالب السيادة والاستقلال موضوعة بالدرجة الأولى فى حسابات الإنسان ، وهى مكاسب لا يفرط فيها فرد . ولا تفرط فيها جماعة . وقد تنشأ حرب عوان بين أمتين أو دولتين إذا

اعتدت إحداهما على حرية الأخرى وعلى سيادتها وسلطانها دون أن يكون للمال أدنى نصيب فى البواعث والغايات .

فقد شهد العالم قبل تصورات ماركس عدة ثورات قام بها الأرقاء ضد نظم عاتية وكان الباعث على تلك الثورات مطالب روحيـــة ونفسية واجتماعية :

ه حدثت ثورة عارمة فى مصر بعد الأسرة الرابعة قام بها الفلاحون ضد طلاب السلطان المتنازعين عليه ولم يقم بها عمال الصناعة الذين يعول عليهم ماركس فى هذا المجال كل التعويل !

ه وحدثت حركة الأرقاء فى اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون وقام بها الفلاحون ضد سلطان زمانهم ولم تخمد إلا بعد عشر سنوات ولم يقم بها عمال الصناعة كذلك لأن الصناعة لم تكن ذات خطر فى ذلك الزمان .

ه وحدثت حركة الأرقاء فى الدولة الرومانية القديمة فى القرن الأول قبل الميلاد .

ه وحدثت ثورة الأرقاء فى العصر الإسلامى بعد منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهى المعروفة بثورة الزنج .

حدثت كل تلك الحركات لأسباب اجتماعية ونفسية وروحية وأدبية . ولم يكن للعامل المادى فيها وجود . وحتى لو كان فإنه ليس العامل الفعال فى قيام تلك الحركات ولو كانت العوامل الأخرى قد انتفت لما صلح العامل الاقتصادى وحده فى قيام تلك الثورات .

وبم نفسر الحروب القديمة بين الفرس والروم مثلا ؟ هل كانت تقوم من

العامل الاقتصادى وحده؟ أم بسط النفوذ والسيادة ، وهما مطلبان أدبيان كان وراء قيامها ؟

وكذلك النزعات التى وقعت بين معسكرات العالم فى التاريخ القريب والمعاصر لم يكن العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد أو الملحوظ فيها بقدر ما نلاحظ عوامل أخرى لا ترجع إلى العامل الاقتصادى فى قيامها .

والثورات الداخلية التى تقوم فى دولة واحدة من بعض بنيها قد تكون - وقد للتكثير - لقضاء على فساد استشرى فى الدولة ، أو تبعية تقلل من حرية بنيها دون أن يكون للعامل الاقتصادى فيها أى دور يذكر .

إن عشرات الوقائع التاريخية فى القديم والحديث تكذب - بصراحة - مدعيات ماركس والشيوعيين وتسقط الفلسفة المادية من حساب الفلسفات الصحيحة والسبب الوحيد عند الشيوعيين فى الإصرار على أن العامل المادى هو السبب فى نشوء الصراعات بين الأمم والشعوب ، أن الشيوعيين لم ينظروا إلى الإنسان على أنه إنسان له بجانب مطالبه المادية مطالب روحية أدبية إذا افتقد شيئًا منها ثار من أجلها ثورة لم يثرها لجوع أصابه أو حرمان نزل به وحتى ثورته من أجل مطالب مادية سببها أنه يشعر بأنه قد هضم حقه واعتدى على كرامته .

نظر الشيوعيون إلى الإنسان على أنه « حيوان » يعيش ليأكل ويأكل ليعيش وقد حصر البيان الشيوعى مطالب الإنسان — كما هو معروف — فى ثلاثة : هى فى الواقع مطالب للحيوان الأعجم ، وهى :

المسكن ، والمأكل ، والجنس ، ولم يروا للإنسان مطلبا آخر سوى هذه المطالب الثلاثة .

وقد أخطأ الشيوعيون حين حصروا مطالب الإنسان فى هذه الماديات ولو كانت فعلا هى كل مطالبه فما الفرق - إذن - بين الإنسان وبين ذئب يطلب فريسة يملأ بها بطنه ومخبأ يأوى إليه . وصاحبة من بنات جنسه تكون له موضع لقاح ؟!

فالفشل لازم للتفسير المادى للتاريخ من الناحية الاقتصادية . فقد سقنا عدة أمثلة على فشله ، وعلمنا أن الفطرة الإنسانية لها مقدمات سوى المال قد تدفع المال ثمنا للحفاظ عليها . وقد أدرك هذا المعنى الفطرى شاعر عربى قديم حيث قال :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال

وعلى نفس المنهج يقول شاعر آخر :

ولم يحفظ مضاع المجد شىء من الأشياء كالمال المضاع

فحرية العقيدة ، وحرية الرأى والقول ، وحرية العمل ، وحرية التملك ، وحرية التصرف ، هذه كلها مطالب إنسانية خليقة أن تنشب من أجلها الحروب ، وتسيل الدماء ، ويرخص المال .

وما أصدق من قال :

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

٣ - حرية التملك :

ومن أقتل المقاتل التى منيت بها الفلسفة المادية الشيوعية من وجهة النظر الإسلامية أن الإسلام قد لبى مطالب الفطرة الإنسانية ، حين وضع الفرد موضعه اللائق به بين الجماعة الإنسانية . فأباح له فى حدود مناسبة جداً حرياته الشخصية ومن أبرزها حرية التملك والعمل . وإنه لا حجر عليه فى تصرف لم يؤد إلى الإضرار بالآخرين .

الشيوعية تلغى الملكية الخاصة إلغاء تاما ، وتنسب إليها كل صنوف الظلم وتمنح الدولة حق السيطرة على كل الموارد الفعالة على أن يكون الفرد أجيراً عندها يعمل بما تمكنه منه طاقاته ومواهبه ، ولا يعود عليه من ثمرة عمله إلا ما يسمح به نظام الدولة من ضروريات ، وتحظر عليه أن يمتلك شيئا ذا قيمة مؤثرة فى عجلة الإنتاج .

بينما أباح الإسلام الملكية الخاصة أو الفردية . وجعلها هى الأصل وما يخرج عنها هو الإستثناء .

ولم يكف الإسلام بإباحة الملكية الفردية بل شرع لها الضمانات الواجبة لحمايتها إذا اعتدى عليها معتد ، فشرع حد السرقة وضمان المال المتلف على من أتلفه .

والملكية الفردية فى الإسلام تمنح صاحبها عدة حقوق ترجع فى الأصل إلى أربعة حقوق هى :

١ — حق الدوام . فللمالك أن يحتفظ بملكيته طول حياته .

٢ — حق حرية النوع ، فله أن يمتلك ما يشاء أرضا أو زرعا أو عقارا أو نقوداً سائلة .

٣ — حق المقدار . فليس لما يملكه حدود يقف عندها ولو ملك مدينة بأسرها .

٤ — حق التصرف بالبيع والشراء والهبة والصدقة .

وكل ما يطلبه الإسلام فى هذا المجال أن يكون الكسب بطريق مشروع تجارة أو عمل أو غيرهما .

وأن يؤدى المالك الزكاة الواجبة عليه حسب ما عنده من ممتلكات بالغة ما بلغت . وأن لا يبخل به - بعد إخراج الزكاة - على مستحقيه . وأن لا ينفق ما يملك فى معصية الله .

وأن لا يحمله غناه على الكبر والطغيان .

وفى هذا الإطار الإنسانى المهذب أباح الإســـــلام الملكية الفردية أو الخاصة .

وبذلك فتح الإسلام بابا واسعا لاستثمار المواهب والطاقات أمام الناس . ولم يكبلهم بقيود من حديد كما تفعل الشيوعية التى حولت الأفراد إلى آلات صماء تعمل تحت السيطرة القاهرة لحساب الدولة وهى كارهة أو راضية - أعنى جماعة الأفراد - مع حرمانهم من ثمرة عملهم إلا من العيش الكفاف .

الملكية الفردية أمام المصلحة العامة :

ومع تقرير الإسلام لمبدأ الملكية الفردية ، وجعلها الأصل فى النظام الاقتصادى فإنه أباح تقييدها إذا دعت مصلحة عامة لذلك التقييد كأن تقع أرض فى مسار طريق رؤى انشاؤه أو بناء معهد للعلم أو مصحة للإستشفاء من كل ما يدخل تحت المصلحة العامة . فى هذه الحالات تنزع الملكيات الخاصة مقابل تعويض مناسب لأصحابها إذ لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام . ومصلحة الجماعة إذا تعارضت معها مصلحة الفرد رجحت مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، بذلك جاء التشريع الإسلامى الحكيم حيث أباح تقييد حريات المقدار والتصرف فى بعض الحالات .

وقد عرف الإسلام منذ العصر الأول الملكيات العامة حيث حمى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أرضاً بالربذة وجعل كلأها حقاً مشاعا لفقراء المسلمين يرعون فيها ماشيتهم ، وأمر أن يبعد عنها ماشية الأغنياء أمثال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان رضى الله عنهم أجمعين وبين عمر أسباب هذا القرار فقال : « أن تهلك ماشية الغنى رجع إلى ماله . وإن تهلك ماشية الفقير يأتى متضوراً (جائعا) بأولاده يقول يا أمير المؤمنين طالبا للذهب

والفضة وليس لى أن أركه فيذل العشب من الآن أيسر على من الذهب والفضة عندئذ » .

وصفوة القول : إن الإسلام أباح الملكية الخاصة وجعلها الأصل ، ثم أباح نزعها بلا ضرر إذا دعت إلى ذلك مصلحة عامة أولى بالاعتبار . وعمر لم يكن مبتدعا فيما فعل . بل له فى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة فقد حمى عليه السلام قبل عمر أرضاً فى منطقة النقيع ووقفها على خيل الجيش ترعى فيه ليجاهد عليها المجاهدون فى سبيل الله(٧) .

وبهذا جنب الإسلام الفرد من مساوىء الشيوعية التى يصير فيها آلة صماء لا تملك من أمرها شيئا .

ومن مساوىء الرأسمالية التى يكون المال فيها دولة بين فريق من الناس هم الأغنياء . والإسلام يحذر من هذا الاتجاه فيقول :

« لكيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فالإسلام ليس شيوعيا يحرم الأفراد من استثمار طاقاتهم ومواهبهم وثمرة أعمالهم .

وليس رأسماليا يجمع الثورة ومصادرها فى أيد قليلة يتحكمون فى مصائر الأمور ، ويشرعون لحماية ثرواتهم .

وإنما هو نظام وسط يرعى حقوق الأفراد ، ويصون حقوق الجماعة فلا يلحق الفرد ضرر من قبل الجماعة، ولا يلحق الجماعة ضرر من فرط حقوق الأفراد .

لأن الفرد لبنة فى بناء الجماعة فيجب أن لا يشعر بأى ظلم أو حرمان

---

(٧) حقوق الإنسان (٦٤ — ٦٥) د / على عبد الواحد وافى بتصرف .

والجماعة هي مظلة الفرد فيجب أن تحترم مقوماتها وترعى حقوقها وليس بعد هذا النظام من مزايا يحلم بها الإنسان ما دام يشعر أنه إنسان .

أيهما أصلح للإنتاج ؟ :

والنظام الشيوعي يقوم على السخرة والقهر وإلغاء المشاعر الذاتية للعامل . والعامل فيه يؤدي عمله تحت وطأة الخوف والجلد ، ولو خلي بينه وبين العمل لأدبر عنه غير مقبل عليه .

أما في النظام الإسلامي فإن العامل يعمل وهو يشعر أنه سيد نفسه وله حقوق مكفولة وواجبات محددة سواء كان يعمل في ميدان هو يملكه أو يعمل لحساب غيره بعقد منظم للواجبات والحقوق فإن جار أحد الطرفين على الاخر فساحة القضاء العادل كفيلة بإعادة التوازن الذي تختفي معه كل أسباب الشكاية والخصومة .

والفلاح الذي يسهر على رعاية حقله ويبذل أقصى ما عنده من طاقة في رعايته، لأنه يشعر بأن ثمرة عمله عائدة إليه هو دون غيره هل هو على استعداد نفسي لأن يبذل نفس الجهد لو كان يشعر أنه يعمل في مزرعة شيوعية تذهب حاصلاتها إلى سادته من الرفاق الكبار ؟ ! .

كلا . إن العامل النفسي — هنا — مفقود . والنفوس البشرية لا تسخو في العطاء تحت عوامل الرهبة بقدر ما تسخو بلا حدود تحت عوامل الرغبة .

وقل مثل هذا في العامل الذي يدير مصنعا لحسابه والعامل الذي يسخر لإدارة مصنع تدر ارباحه في « جيوب » سادة مبجلين لهم من ثمرة العمل كل ما لذ وطاب وليس للعامل المنتج إلا الفتات ؟ !

إن النظام الاقتصادي الشيوعي فيه قتل لمواهب البشر ، وحرمان من

ثمرة الجهد والعرق ، وهذا ضد طبائع البشرية ومصادرة كريهة لتطلعاتها المجبولة عليها سليقة وفطرة .

كذب التنبؤات :

ومن صور الفشل الذريع الذى منيت به نظرية ماركس الشيوعية فى مجال الاقتصاد كذب التنبؤات التى لهج بها واتخذ منها دعاية لترويج المذهب الشيوعى البغيض .

فقد تنبأ ماركس أن اضطهاد العمال وحرمانهم يزيد ويتفاقم كلما زادت الصناعة وازدهرت . (٦)

وجاء الواقع يكذب هذه الأنبوءة أفضح تكذيب حتى فى ظل اعتى النظم الرأسمالية . فبدلا من ضياع العمال وانتقاص حقوقهم زادت مكاسبهم فى ظل ازدياد الصناعات الكبرى وازدهارها .

• فأصبح للعامل نصيب من الربح بالإضافة إلى راتبه الذى يتقاضاه بانتظام وزيادة مطردة عاما بعد عام .

• وقد كفل قانون العمل حقوقا للعامل لم تكن معروفة من قبل .

١ — حدد له ساعات العمل الأسبوعية فإذا احتاج صاحب العمل إلى بذل وقت أطول فعليه أن يبذل أجراً إضافيا مناسبا للعمل الإضافى الذى يقوم به العامل . وليس لصاحب العمل إرغامه عليه بدون أجر .

٢ — منحه راحة أسبوعية يسترد فيها قواه ويستمتع بوقته فيها كيف شاء . بالإضافة إلى « إجازة » سنوية يتمتع بها العامل بأجر كامل .

٣ — أجاز له تقاضى حوافز دورية أو غير دورية علاوة عن نصيبه من الأرباح .

٤ — كفل له حق الرعاية الصحية والاجتماعية ، والتعويض عن إصابات العمل . وأمن مستقبله بعد بلوغه السن التى لا يصلح فيها الإستمرار فى العمل .

٥ — كفل له الحق إنشاء النقابات التى ترعى مصالحه وتكون وسيطا بين العامل وصاحب العمل ، بالإضافة إلى ماتقوم به هذه النقابات من خدمات ورعاية للعامل وأسرته مقابل اشتراك رمزى من المال .

٦ — إذا شعر العامل بظلم وقع عليه من صاحب العمل لجأ إلى القضاء العادل عماليا كان أو غير عمالى . وفى ساحته يسود التوازن وتستعاد الحقوق .

٧ — وبعض النظم تشرك العامل معها فى مجلس إدارة المؤسسة عن طريق الإنتخاب الحر ليمثل زملاءه من العاملين ويكون صوته حاضراً عند صدور القرار .

٨ — أتيح للعامل أن يكون شريكا فى بعض المؤسسات الصناعية أو الاستثمارية التى يتكون رأسمالها عن طريق الاكتتاب العام فى شكل أسهم أو سندات .

هذه المزايا وغيرها كثير اكتسبها العمال فى ظل زيادة الأنشطة الصناعية والتجارية والإستثمارية . وبذلك هوت أنبوءة ماركس بأن العمال يزداد ضياعهم واضطهادهم بازدياد الصناعات الكبرى . هوت تلك الأنبوءة إلى الحضيض .

الرأسمالية ليست أسوأ من الشيوعية :

ومن فشل التنبؤات التى تصورها ماركس أن النظام الشيوعى سوف يخلص العالم من مساوىء الرأسمالية . وعندما أتيح التطبيق للمبادىء الشيوعية ظهر كذب هذه الأنبوءة كما ظهر كذب غيرها من تنبؤات ماركس وأتباع

مذهبه من بعده . ووقعت الشيوعية — كما أسفرت التجربة — فيما كانت تأخذه على الرأسمالية من قبل .

فالثروة في النظام الرأسمالي محبوسة في أيدي قلة من البشر هم أصحاب رءوس الأموال والمؤسسات الصناعية الكبرى . هذا صحيح .

والثروة في النظام الشيوعي في يد قلة لا تتعداهم ، وهم رجال الحزب الشيوعي وسدنته الأعلون .

وإذا كان العمال مستذلين في النظام الرأسمالي فإن الأثرياء والمفكرين مستذلون في النظام الشيوعي .

فكلا النظامين له ضحايا ، وله سادة . ولم يسلم نظام منهما من اللمز والهمز ، والوصف بالمعايب والنقائص . ولذلك لم يستطع واحد منهما أن يكون جديراً بالريادة والتوجيه ، وليس في حساب أي منهما قضاء على الحقد الدفين وبواعث الثورة والإنتقام .

ولا مخرج من هذا وذاك إلا بنظام الإسلام الذي يزاوج بين مطالب الأفراد ومطالب الجماعة ، ويستثمر كل المواهب والطاقات الخلاقة في العمل المستمر المفيد . وتقوم أسس النظام الاقتصادي في الإسلام على أن المال كله « لله » .

وأن الناس جميعا عباد الله فهم شركاء في ماله وفضله . والملكية الخاصة لها اعتباران في الإسلام :

فهي ملكية فرد دون فرد بالنسبة لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض . ولها ضمانات في الإسلام تحميها من الإعتداء عن طريق السرقة ، أو الإختلاس أو الإغتصاب ، كفلتها الشريعة على نظام بديع منيع . فليس من حق فرد

أو جماعة أن تسطو على ملكية فرد أو جماعة . وليس له ولا لها حق الانتفاع بها إلا بإذن صاحبه عن طريق الإعارة أو الهبة أو الصدقة أو الإهداء .

أما بالنسبة لعلاقة الفرد بربه فلا ملكية للفرد بهذا الإعتبار بل المالك هو الله ، ومن بيده المـــال إنما هو مستخلف فيه ، وغير مأذون له فيه بالتصرف إلا فى الحدود التى أذن بها المالك الأعلى « الله » ، ونصوص القرآن صريحة فى ذلك :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم . . . » .

وفى الحديث : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال » ، وذكر منها : « وعن ماله مم اكتسبه ؟ وفيم أنفقه » ؟ !

فلو كانت ملكية العبد للمال خالصة لكان حر التصرف فيه من كل الوجوه والواقع فى الإسلام غير ذلك .

حكمة هذا التشريع

والحكمة فى جعل الملكية فى الإسلام ملكية خالصة بالنسبة لعلاقات العباد بعضهم ببعض ، ومن جعلها ملكية نسبية مؤقته بالنســـبة لعلاقة العبد بربه :

أنه فى الأولى كان الهدف حماية المال من العبث لو اعتقد الناس أنهم شركاء مع المالك فيما يملك . وهذا يحقق الأمن والإستقرار وصون الحقوق فى المجتمع .

وفى الثانية كان الهدف الحد من استبداد الملاك لو شعروا أن ملكيتهم للمال ملكية خالصة ، وحملا لهم على حسن التصرف فيه بما يعود على المجتمع

وعلى الفرد نفسه بالنفع والخير . ولذلك فإن المالك فى الإسلام يعمل تحت رقابة الله المالك الحقيق للمال ورب المال . فله الأجر إن أحسن التصرف فيه وعليه الوزر إذا أساء .

فللمال - فى الإسلام - وظيفة اجتماعية ليس لها مثيل فى أى نظام إلا إذا كان نظام الإسلام مستعاراً فيه ، كنظم الاشتراكيات المعتدلة التى تكتفى ببعض التدخل فى نظم التمليك فلا هى إلى الأفراط . كما فى النظام الشيوعى الماركسى - الليفينى . ولا هى إلى التفريط كما فى النظام الرأسمالى الغربى وخلو النظامين : الشيوعى والرأسمالى من مزايا النظام الاقتصادى الإسلامى هو الفارق بين :

• نظام قائم على هدى الوحى الإلهى المعصوم من الخطأ والإفراط والتفريط .

• ونظام مصدر وضعه اجتهاد البشر وهو عرضة للخطأ والإفراط فى جانب والتفريط فى جانب آخر .

وينفرد النظام الاقتصادى الإسلامى بمزايا أخرى لم تعرف لنظام سواه عالج من خلالها ما يعرض للمجتمع من عقبات . إذ لا يخلو مجتمع ما من الفقراء والمساكين وغير القادرين على الكسب من ذوى الآفات والعاهات . هذه الفئات لامكان لها فى النظام الشيوعى الذى يسير حسب القاعدة الحديدية « من كل بحسب ما يعمل إلى كل بحسب ما يحتاج » فغير العامل فى المجتمع الشيوعى مقضى عليه بالحرمان والموت البطىء .

وكذلك المجتمع الرأسمالى الذى لا يجود بأدنى مقدار من المال إلا للعاملين فى المؤسسات والمصانع والحقول نظير ما يؤدونه من خدمات لأصحاب العمل أما فى النظام الإسلامى فإن هذه الفئات وغيرها لها فيه نصيب كريم وحق واجب .

ومن أجلهم شرع الإسلام الزكاة وجعلها ركنا من أركان الدين لا شعيرة ثانوية يؤديها من يؤديها ويعرض عنها من يعرض عنها بلا حرج فى حالتى الأداء والمنع . بل هى واجب على ذى المال وحق للسائل والمحروم والعجزة والذين لا يجدون عملا .

والمعروف أن الإسلام رصد لهذه الفئات نسبة معينة من الثروة القومية تزيد فى بعض الحالات ولا تنقص فى أى حال من الأحوال .

هذه النسبة التى رصدها الإسلام لذوى الأعذار لاتنقص فى أى حال من الأحوال عن ٢٫٥٪ من الثروة القومية ، تخرج كل عام مرة من المال العامل وغير العامل ، ومن عروض التجارة ودخول العقارات . وهى تعادل جزءاً من أربعين جزءاً من إجمال الثروة القومية . فإذا فرضنا أن مدينة صغيرة فيها أصحاب رءوس أموال وفيها أصحاب أعذار وكان رأس المال فيها مائتى مليون جنيه . فإن الحق الواجب إخراجه منها لأصحاب الأعذار يبلغ خمسة ملايين جنيه . وإذا فرضنا أن عدد أصحاب الأعذار فيها ألف معذور عذراً يستحق به نصيبا من الزكاة كان نصيب الفرد الواحد منهم ألف جنيه فى العام . وهذا القدر يكفى لحاجياته طوال العام ليعيش حياة كريمة .

وتزيد هذه النسبة إلى ٥٪ فى نتاج الأرض من المحاصيل الزراعية التى تجب فيها الزكاة .

وكذلك فى نتاج الأرض من المعادن الطبيعية كالذهب والفضة والمنجنيز ويلحق بها البترول أو الذهب الأسود كما يحلو للبعض أن يسميه .

كما رصد لهم نسبة فى قطعان الماشية والأنعام بأنواعها المختلفة . وبهذا لم يفت نظام الإسلام الاقتصادى أن يكفل مصادر الرزق لجميع من فيه من طوائف .

ومراعاة العدالة فى الإسلام اقتضت أن تعفى أصحاب الملكيات الصغيرة

من إخراج الزكاة ، فوضعت حدا معينا فى كل ما يملك إذا بلغه وجبت الزكاة وإذا لم يبلغه أعفى منها .

كذلك فرقت العدالة الإسلامية بين نوعين من المحاصيل الزراعية . نوع تكون النسبة المخرجة فيـــه ٥ ٪ أى العشر إذا كان المحصول مسقيا بدون عناء - بالسيح - ولم يتكلف رب الزرع فى سقيه نفقات غير معهودة .

أما إذا كان السقى بنفقات باهظة فالنسبة الواجب إخراجها هى ٥ر٢ ٪ أى ربع العشر . وهذه الدقة فى التشريع ومراعاة الظروف لا وجود لها فى غير النظام الاقتصادى فى الإسلام ؛ لأن الإسلام شريعة أصولها من السماء وليست اجتهادات بشر يخطئون ويصيبون . !

وأصحاب الأعذار الذين أجاز الإسلام إعطاءهم من الزكاة ذكرهم القرآن بطريقة حاصرة جامعة مانعة . وذلك فى قوله تعالى :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم » التوبة (٦٠) .

للفقراء : وهم الذين لا يملكون ما يقوتهم لقلة دخولهم .

وللمساكين : وهم الذين لا يقدرون على العمل لعجز فيهم مأخوذ من سكن إذا لم يتحرك فهو مسكين .

وللعاملين عليها : وهم من يعملون على جمع الزكاة وتوزيعها وقد استنفدوا كل وقتهم فى سبيلها ولم يعملوا عملا آخر فلهم منها ما يكفى حاجتهم طول العام .

والمؤلفة قلوبهم : وهم من دخلوا الإسلام يعطرن منها تحبيبا لهم فى الدين وإشعارا بأنهم لم يخسروا شيئا بسبب دخولهم فيه . وهذا المصرف وإن وقف من عهد عمر بن الخطاب لسبب وجيه كان وقتذاك فإن العمل به الآن واجب،

لأن كثيرا ممن يدخلون فى الإسلام الآن يضارون فى أرزاقهم من قبل أهلهم ويضايقون فى حياتهم . هؤلاء يجب أن تسد حاجتهم بإعطاء نصيبهم من الزكاة .

وفى الرقاب : وهم الأرقاء الذين يطلب منهم مالكوهم أن يشتروا أنفسهم بمال يبذلونه لأسيادهم .

والغارمين : وهم الذين ركبتهم الديون فى نفقات واجبة ولم يجدوا سدادا لديونهم ، ومنهم التاجر يخسر كل ماله فى التجارة . والصانع والزارع إذا نزلت بهم جوائح كإحراق المصنع وتلف الزرع وكل صاحب مورد أصيب مورده إصابة بالغة .

وفى سبيل الله : إذا انعدمت الأعذار السابقة فلا بأس من إنفاق الزكاة فى المرافق ذات المنفعة العامة كشق الطرق وعمارة المساجد والمستشفيات ومعاهد العلم والمؤسسات الاجتماعية والوقف الخيرى .

وابن السبيل : وهو الغريب إذا فقد ماله حال غربته يعطى من الزكاة حتى يبلغ مأمنه أى بلده أو يحصل على مورد رزق ولو فى الغربة هذه الأعذار لا أعتقد أنها تركت عذرا إنسانيا إلا وله فيها وجود فقد تتبع القرآن أمهات الأعذار التى يستحق أصحابها الزكاة ونص عليها ، وهذا لا يعرف خارج دائرة الإسلام .

القرض الحسن :

ومن صور المرونة والاتساع فى الاقتصاد الإسلامى أن المحتاج إلى المال للإنفاق منه فى غرض شريف مشروع إذا لم يكن من ذوى الأعذار المذكورين فى آية الصدقات فإنه يستطيع أن يحصل على حاجته عن طريق القرض الحسن ، وعلى القادر إقراضه مع ضرب موعد للسداد أو إطلاقه . فإذا جاء وقت السداد استرد المقرض مقدار قرضه بلا زيادة ولا نقص .

وعلى المقرض أن يصدق فى الوفاء ولا يماطل . فإذا حان وقت السداد وعجز المقترض عن الوفاء فالإسلام يتوجه إلى المقرض برجاء جميل ، وهو أن يفسح المجال للمقترض فيسدد قرضه فى الوقت الذى يستطيع فيه الوفاء .

وفى هذه الحالة إذا تكرر العجز عن الوفاء فإن الإسلام يعرض على المقرض موقفين إنسانيين نبيلين :

أحدهما : أن ينتظر السداد حتى يحصل المقترض على ميسرة من أمره مهما طال الانتظار .

وثانيهما : أن يتصدق به على المقترض مادام عاجزا . وفى كلا الأمرين هو مثاب ومأجور قال سبحانه :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وإن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » البقرة (٨٠) .

إن الاقتصاد الإسلامى قائم على دعائم إيمانية وخلقية ، لذلك كان النموذج الوحيد القادر على إسعاد البشرية والوفاء بمطالبها فى ظل عقيدة صادقة وخلق كريم .

وكلاهما : العقيدة الصادقة ، والخلق النبيل يصنعان مجتمعا قويا متآلفا متحابا لا يشعر فيه الفقير بضيم أو حرمان لأنه فقير ، ولا يحس فيه الغنى بحقد أو حسد من المحرومين والمعوزين . لأن جميع أفراد المجتمع اشتركوا فى نعم الله بفضل التوجيه الإسلامى الحكيم .

ميزتان أخريان :

من مزايا نظام الاقتصاد الإسلامى ميزتان أخريان نشير إليهما فى إيجاز .

إحداهما : الإنفاق الحر غير المقيد بمقدار مخصوص أو زمن مشروط .

وهو رصيد احتياطى من فيوضات الإسلام الشعورية النبيلة يواجه به الأغنياء الظروف الطارئة فى المجتمع ، كأن يجهزوا جيشا لقتال واجب ، أو يخففوا شدة أصابت الناس . مثلما صنع الأغنياء فى عهد عمر بن الخطاب عام الرمادة فقد سخا الأغنياء واستطاع عمر أن يجتاز بالمسلمين تلك الأزمة بسلام ، وقد خرج المسلمون منها بدرس عملى تجلت فيه روح الإيثار وصار مضرب الأمثال فى التاريخ ومثلما فعل عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر الصديق حيث أنفق كل منهما جل ماله فى سبيل الدعوة .

ومثلما فعل المسلمون فى تجهيز جيش العسرة كل حسب مقدرته المالية وأثلجوا صدر رسول الإسلام بكرم ونخوة لم يسبق لهما نظير فى أمة غير أمة الإسلام .

ومثلما فعل عثمان بن عفان حين اشتد القحط بالمسلمين فى المدينة، وجف الغيث واستغل يهودى تلك الظروف ، وكان يملك بئرا وأخذ يبيع الماء بثمن بهيظ فتقدم عثمان واشترى ـ بحيلة وذكاء نادر ـ البئر من اليهودى ووقفها على منافع المسلمين .

ومثلما صنع عثمان رضى الله عنه وقد نزلت بالمسلمين مجاعة فجلب القوت من الشام فى قافلة غنية بما طاب ولذ ، وتقدم له التجار وبذلوا له أرفع الأثمان ولكنه كان يقول لهم : هناك من بذل لى ثمنا أكثر . وقالوا له : ليس بالمدينة تاجر غيرنا فمن الذى أعطاك ثمنا أكثر ؟ قال : الله ثم تصدق بما فى القافلة على المسلمين ولم يبع منها بدرهم واحد .

هذا هو الرصيد الاحتياطى الضخم فى نظام الاقتصاد الإسلامى . وسيظل هذا الرصيد مادام فى الدنيا إسلام ومسلمون ، وليس فى النظام الشيوعى ولا فى النظام الرأسمالى رصيد مثل هذا الرصيد ، لأنهما نظامان ـ مهما قيل فيهما ـ احتكاريان . أما نظام الإسلام فهو نظام له رسالة نبيلة يؤديها فى الحياة

حسب الخطة الإلهية الموضوعة له بكل إتقان وحكمة . لذلك فاق كل النظم ، وليس فى الوجود نظام مثله .

أما الميزة الثانية : فإن النظام الاقتصادى فى الإسلام خلا من كل سمة من سمات الاستغلال الجشع والغش الخادع . لذلك حرم الله الربا بكل أشكاله سواء كان فى القروض أو الأعمال التجارية أو فى استغلال الأرض . فمن أقرض فليقرض لله قرضا حسنا لا تزيد فيه المقادير المسترده بحال من الأحوال .

والله قد ضمن للمقرض قرضا حسنا ثوابا جزيلا بدل الزيادة الربوية التى قد يتقاضاها المرابون فى أى نظام من النظم .

وحذر الله المرابين بطرق عدة . حذرهم بلعن المرابين من اليهود . وحذرهم بسوء مصير المرابين حتى لو كانوا مسلمين . وحذرهم بخراب ثروات المرابين ولو بلغت عنان السماء .

وحذرهم بحرب من الله ورسوله على المرابين إذا لم يتوبوا ويستقيموا على الجادة ومن يقرأ أخريات سورة البقرة تبدو له سمات المنهج الإسلامى الذى هدف فيما هدف إليه إلى :

١ — حظر تكوين الثروات عن طريق الربا أو الغش الخادع .

٢ — حماية صغار الملاك من استغلال أصحاب رءوس الأموال الضخمة .

٣ — حماية ذوى الأعذار من براثن المرابين الجشعين .

وقد أعلن هذه المبادىء صاحب الدعوة فى حجة الوداع ، وقرر حقوقا كثيرة للإنسان قبل أن تعرف المنظمة الدولية تلك الحقوق بأكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان

ذلكم هو الإسلام . وهذا هو نظامه المالى والاقتصادى ، قائم على العدل والرحمة والتوازن ومحاربة الجشع وسوء الاستغلال وحماية الملكيات الصغيرة

وأصحاب الأعذار . وستحمد البشرية هذا النظام إذا أتيح لها فرصة التعامل به . ولن تحمد نظاما سواه لأنه قائم على أسس العقيدة الصادقة ، والخلق النبيل . وغيره قائم على الجشع أو الحرمان شيوعيا كان أو رأسماليا .

مراحل تاريخ المعرفة :

فرغنا من مناقشة مادية ماركس التاريخية فى المجال الاقتصادى ، وانتهينا فى هذا المبحث إلى تعرية فلسفة ماركس فى هذا المجال ، وأن العامل الاقتصادى ليس هو المسئول وحده عن تفسير حوادث التاريخ . وأن من يحصر مطالب الإنسان فى العنصر المادى وحده قمين بأن يوصف بأنه جاهل بطبيعة الإنسان من أن يوصف بأنه رائد من رواده ، وملهم يرسم له معالم الطريق . وقد ذكرنا كثيرا من الشواهد الكاشفة عن دجل ماركس والجموعة الشيوعية ، شواهد استقيناها من حركة التاريخ الإنسانى نفسه ، وشواهد استقيناها من الواقع الإنسانى المعاصر . وقارنا بين نظام الاقتصاد الإسلامى ، وبين ماوضع على أيدى ماركس من تصورات أرادوا حمل الاقتصاد العالمى عليها وظهر لنا بالدليل القاطع أن النظام الاقتصادى الإسلامى هو المساوق لمتطلبات الفطرة الإنسانية الخلاقة ، وأنه موضوع على أسس حكيمة مبنية على العدل والرحمة و الموازنة بين الحقوق والواجبات وأنه لا ضرر فيه ولا ضرار . يزواج بين حقوق الفرد وواجباته وحقوق الجماعة وواجباتها وأنه وضع حسابا دقيقا لحاجيات كل فرد فى المجتمع القادر منهم على العمل والكسب ، وغير القادر على العمل والكسب ، وأصحاب الأعذار الموجبة لإعانتهم وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم بحيث يستفيد « الجميع » من نعم الله ويعيشون بلا أحقاد ولا أضغان بفضل التوجيه الإسلامى الرشيد ، لأن نظام الاقتصاد فى الإسلام ذو رسالة عالمية إنسانية ولم يوضع لحساب طبقة على طبقة . بل هو عام النفع يجلب من مصادر مشروعة وينفق فى مصارف مشروعة . ومالك المال الأول هو الله ، وهو

مسائل كل راع عما استرعاه أما النظم الاقتصادية الأخرى فموضوعة ، على أسس غير سليمة تؤدى إلى الاحتكار حينا . وقتــــل المواهب الإنسانية حينا آخر .

وبقى علينا أن نناقش ماركس والماديين جميعا من وجهة نظر إسلامية فى التقسيم الثلاثى لمراحل المعرفة وهى :

المرحلة الأولى : وكان مصدر المعرفة فيها هو الدين .

المرحلة الثانية : وكان مصدر المعرفة فيها هو العقل .

المرحلة الثالثة : وكان مصدر المعرفة فيها — وما يزال — هو العلم الوضعى أو ما كان وسيلته الحواس الخمس .

هذا ما تصوره الوضعيون بدءا من أوجست كونت . وتابعهم عليه الماديون وأول ما يقال فى هذا التقسيم إنه رجم بالغيب وتخمين بغير دليل . هذا إذا أرادوا بهذا التقسيم التاريخ للمعرفة الإنسانية جميعا ، وهم قد أرادوا هذا فعلا .

رجم بالغيب لأن التاريخ الإنسانى مجهول ، ولم يملك أحد ولن يملك الوسائل التى تضع أمامنا الحقيقة خالصة من كل احتمال ومعلوم أن منهج البحث فى نشأة الحياة عامة ، والحياة الإنسانية بخاصة يعتمد على محورين كبيرين معروفين عند علماء الإنسانيات وهما :

الأول : عصور ما قبل التاريخ .

والثانى : عصور ما بعد التاريخ .

وقد أصاب الباحثون حينما انتهوا إلى هذا التقسيم المعقول ولكل منهما طريقة فى البحث والاستكشاف .

- فطريقة البحث فى عصور ما قبل التاريخ تعتمد على الفروض والتخمينات ولا يقطع فيها برأى حاسم .

« وطريقة البحث فى عصور ما بعد التاريخ تقوم على الروايات ودراسة الآثار والحفريات . ويمكن - إذا صحت الرواية وصدقت الدراسة - أن يقطع فيها برأى حاسم .

وأوجست كونت وأنصار المذهب الوضعى الحسى والماديون قد ورطوا أنفسهم حين أرادوا بهذا التقسيم شمول مراحل التاريخ كله ، سواء ماوقع تحت الضبط ومالم يقع . وهذه ورطة لا يمكن أن يبرأهم منها باحث منصف . إذ ما الذى أدراهم بأن تاريخ الإنسانية كلها كان على هذا النمط ؟ هذه دعوى تحتاج إلى دليل ، وليس من سبيل إلى دليل سوى الحدس والتخمين .

والذى لاجدال فيه أن أوجست كونت لم يستق تقسيمه الثلاثى لمراحل المعرفة الإنسانية إلا من تاريخ المعرفة فى أوروبا وحدها . لأن تقسيمه الثلاثى على الوجه الذى حدده صادق على مراحل المعرفة فى أوروبا كل الصدق . فقد مرت أوروبا فعلا بهذه الأدوار فى المعرفة ؛ لأنها :

١ - سادت فيها المعرفة الدينية من القرن الأول الميلادى ، وهو القرن الذى عرفت فيه أوروبا الدين المسيحى . وصارت المعرفة الدينية هى السيطرة على أوروبا إلى أواخر النصف الأول من القرن الثامن عشر كما تقدم فى مبحث المسيحية فى هذا الكتاب .

٢ - ثم عرفت أوروبا ماسمى بـ « عصر التنوير » بدءاً من أوائل النصف الثانى من القرن الثامن عشر حتى نهايته . وهى المرحلة التى عرفت بمرحلة سيادة العقل . والتى كانت معبراً قصيراً اجتازته أوروبا من السيادة الدينية إلى سيادة الفلسفة الجديدة وهى :

٣ - سيادة الحس أو الفلسفة الوضعية الحسية ، أو المادية الواقعية . وقد علت خلال هذه المرحلة أصوات انتزعت القيادة من الفلسفة العقلية

المثالية إلى ما يدرك بالحواس ويمكن خضوعه للتجربة والملاحظة والفحص المعملي . وقد قاد هــذه الفلسفة الجديدة أوجست كونت نفسه ، وتلاه فيرباخ وآنشتين تال وغيرهما .

وقد اهتدى أوجست كونت إلى هذا التقسيم من دراسة أطوار المعرفة عند الإغريق القدماء كما يرى فندلبند في نقده لفلسفة كونت أو تقسيمه الثلاثي على وجه التحديد .

* فقد كانت المعرفة عند الإغريق في أولى مراحلها ذات طابع ديني .
* ثم صارت عقلية على أيدي سقراط وأفلاطون .
* ثم صارت واقعية حسية تعتمد على التجربة والملاحظة على يد أرسطو

فكونت على صواب إذا قصر تقسيمه هذا على معارف أوروبا في تاريخ محدد معروف . وليس على صواب إذا أصر على أن هذا التقسيم شامل لتاريخ المعرفة عند كل الأمم والشعوب . وفي كل العصور ما دخل منها تحت الضبط وما لم يدخل .

فتاريخ الإنسانية كلها منذ أقدم عصورها إلى أحدثها أجل وأكبر من أن يقع تحت حصر ، فضلا عن أن يحيط به باحث واحد .

والمعروف عنــد علماء الإنسانيات مخالف لما يرى كونت وأشياعه . فقــد رصدوا في سير المعرفة الإنسانية عدة مراحل يمكن إيجازها في الآتي :

* مرحلة الأديان البدائية التي لم تستند إلى وحي سماوي، وهي أولى مراحل المعرفة عند الباحثين، ومن مظاهرها تقديس الظواهر الطبيعية كعبادة الكواكب ، ثم الطوطميات ، ثم عبادة الأسلاف ، وكذلك عبادة بعض أعضاء الجسم (أعضاء التناسل) وعبادة الأوثان والأصنام . وقد انتشرت الديانات البدائية بين أمم الحضارات القديمة كمصر وفارس والهند والصين واليونان واليابان والعبرانيين .

• مرحلة الفلسفات العقلية الأولى . وكان مهدها نفس الأمم الحضارية التى أشرنا إليها ، ولمع فى هذه المرحلة أعلام مايزال التاريخ يذكرهم ويذكر خلاصة آرائهم مثل كونفوشيوت وأختانون وزرادشت وغيرهم .

• ثم أعقبت هذه المرحلة مرحلة الأديان السماوية من اليهودية والمسيحية ، والإســلام .

• ثم نشأت فى أحضان الأديان الكتابية الثلاثة فلسفة أو فلسفات عقلية متعددة المشارب والمنازع . وصار لكل دين فلاسفة متعددون . ومنهم فى الإسلام علماء الكلام ومن أبرزهم مدرستا أهل السنة والمعتزلة ومن أعلامهم الإمام الغزالى وابن رشد وابن سينا . ومن فلاسفة اليهود موسى بن ميمون وسبينوزا ، ومن فلاسفة المسيحية كانت وديكارت وهيجل وفلونير وغيرهم .

• ثم نشأت فى أحضان هذه الفلسفات الفلسفة الوضعية ومن أعلامها فرنسيس بيكون ، وستيوارت ميل ووليام جيمس وهنرى برجسون وأوجست كونت نفسه فظهور الأديان الكتابية لم يقض على الفلسفات العقلية المثالية ، ولا حتى على الأديان البدائية التى ماتزال قائمة عند بعض الشعوب إلى الآن والفلسفات الوضعية لم تقض على الأديان الكتابية ولا الأديان البدائية ولا على الفلسفات المثالية « الميتافيزيقا » . بل إن هذه الاتجاهات تتجاور فى تآلف مرة وفى تنافر مرة . وما أكثر وجوه الاختلاف عند الأمم والشعوب بل عند أبناء الأمة الواحدة . ومن يزعم أنه يمكن أن يحصر سير المعرفة الإنسانية فى مضامين أو أشكال محددة فقــد أبعد فى الدعوى كمن يدعى أنه قادر على أن ينزح ماء المحيطات بدلو مصنوع من شبكة الصيد ؟ .

وهـــذا التقسيم الثلاثى لسير المعرفة الإنسانية تلقفه الشيوعيون

عن كونت ليبنوا عليه شرعية موقفهم من الدين كما تلقفوا من قبل كل الأفكار المريضة لتكون لبنات فى بناء الشيوعية المتداعى للسقوط أو الساقط فعلا .

وقد حملهم حبهم للإغراب والتذندق أنهم إذا احتاجوا إلى استعارة مناهج فكرية صحيحة من غيرهم أنهم لا يأخذونها إلا بعد أفسادها بأى مسخ أو تعديل كما صنع ماركس بمبادىء هيجل على النحو الذى تقدم بيانه فهيجل وضع فلسفته لدعم الإيمان بالله الخالق العظيم ، ولكن ماركس لما رأى نفسه فى مسيس الحاجة إلى أصول فلسفة هيجل استخدمها ـ مكرها لها ـ فى هدم الإيمان بالله وبالدين وبكل ما هو موصول بالدين .

إصرار على الكفر والإلحاد :

إن ماركس كما سجل عنه الباحثون فى فلسفته أصولها وغاياتها كان مصراً على الكفر والإلحاد من قمة الرأس إلى أخمص القدمين .

فالمادية التى اختارها ماركس سماها « المادية الثنائية » ، لأنه أراد أن يميزها عن مذاهب مادية أخرى كانت شائعة فى عصره .

منها « المادية المكنية » ، وهى تتخيل الكون على شكل مكنة مدارة قد ركبت كل أداة منها فى موضعها وتدور كلها كما تدور الآلات .

وقد رفض ماركس هذه « المادية المكنية » ، وسبب رفضه إياها قد فطن إليه الباحثون يقول أستاذنا العقاد فى توضيح هذا السبب :

« وهى ـ يعنى المادية المكنية ـ مذهب يفتح الباب لتصور « المدبر » الذى ركب تلك الآلة ويحرك دواليبها ، ويضع كل جزء منها فى موضعه ويديره بالتوافق مع الأجزاء الأخرى لإنجاز عملها ، وتحقيق أغراضها ومثل هذا الباب قد تأتى منه الرحمة ، وقد يفضى إلى افتراض القدرة المدبرة الحكيمة . فلا ينبغى أن يفتح ولابد من إغلاقه وإن لم تقم فى المذهب الماركسى حجة واحد على إغلاقه » .

أى أن ماركس عدل عن المادية المكتية ، لأنها صالحة لأن تكون طريقا الإيمان بالله وقدرته ، وماركس لا يرى للكون خالقا غير الكون نفسه ؟!

ويستشهد العقاد بكلام لماركس يقول فيه ناقداً لمادية فيرباخ أحد دعاة الوضعية فيقول :

« يقول ماركس فى رسالته عن الفيلسوف فيورباخ : أن العيب الأكبر فى مذاهب المادية الموجودة ، ومنها مادية فيورباخ أن الموضوع والحس إنما تفهم على أنها موضوعات للتأمل ولا تفهم على أنها عمل إنسانى يحس ويتصرف : وأنها هى صاحبة الفاعلية » .

وماركس – هنا – يعيب على فيورباخ أنه جعل المادة الطبيعية موضوعاً للتأمل فقط، بينما التأمل عند ماركس عمل إنسانى . أما الطبيعة نفسها أو المادة فهى صاحبة الفاعلية ، يعنى الخلق والإيجاد والابداع .. ؟!

ثم يعلق أستاذنا العقاد على عبارة ماركس بما يكشف مرادة بشكل وضوح فيقول :

« فلا بد عند ماركس من مكنة تدير نفسها من باطنها ولا يمكن أن تدار من خارجها على فرض من الفروض . ولهذا يجب أن تسقط المادية المكنية من الحساب على أى احتمال » .

الأستاذ العقاد لم يتجن على ماركس فى هذا القول ، فعبارة ماركس نفسه نص قاطع فيه .

المادية النامو سية :

ويرفض ماركس ، وهو يصر على الكفر والإلحاد مادية أخرى غير المادية المكنية ، وهي المادية الناموسية ، وهي التي يقول أصحابها : إن ظواهر الكون المحسوسة كلها مادية تديرها النواميس — يعني القوانين — المركبة في طبائعها ، وتتحرك في نظامها بأمر خالق المادة ، وخالق النواميس . .

يقول الأستاذ العقاد :

« وإذا كانت المادة المكنية مرفوضة في رأى ماركس ، لأنها قد تفتح الباب لافتراض المدير المدبر ، فالمادية التي تؤمن بوجود الحقيقة من وراء الظواهر والنواميس مرفوضة من باب أولى »(٦) .

إن كارل ماركس كان يحمل في يده معولا وهو يطالع الفلسفات التي عاصرها فيحطم بذلك المعول كل الأشعة التي تقود إلى الإيمان بحقيقة الحقائق الكبرى وهو « الله » البارىء الخالق المصور . ولم يحمله على هذا إلا إصراره على الكفر والإلحاد مهما كانت قوة الأدلة والبراهين الداعية إليه .

وحركة التمرد على الإيمان الديني التي سادت في عصر التنوير في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت أولا بالنسبة إلى العقيدة الإلهية بتحييد « الله » عن الكون . وشبهته — سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا — شبهته بصانع الساعة . ومرادهم من هذا التشبيه أن الكون — الآن — يعمل بدون احتياج إلى خالقه كما تعمل « الساعة » وهي في معصم لابسها بدون احتياج إلى صانعها . . ؟ !

وبعد عصر التنوير خطا العلمانيون في أوروبا الخطوة الأخيرة في طريق

(٦) الشيوعية الإنسانية في شريعة الإسلام (١٠٧ - ١٠٨) .

الكفر والإلحاد . ورفضوا فكرة الإله صانع الساعة إلى فكرة الساعة التى صنعت نفسها . بل تفاخروا بهذا القول وقالوا : إن فى الكون إلها واحداً هو قوانين الطبيعة ولا نداء لهذا الإله إلا النداء المتكرر منه وهو : لا تؤمنوا بإله . ؟!

وماركس اختار فكرة « الساعة التى صنعت نفسها » وهى آخر صيحة كان قد وصل إليها العلمانيون الذين قامت فلسفة ماركس المادية على تصوراتها الواهية .

وهكذا تبنت الشيوعيـــة كل الأفكار الميتة ، وارتمت فى أحضان شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وضلالا وجهلا .

هذه المقدمة تقودنا إلى الاقتراب من تفسير الشيوعيين للدين بوجه عام . ولكن قبل التعرض لهذا الفرع نرى من الواجب أن نقف وقفة أخرى أمام المدخل الذى اتخذه الشيوعيون مبرراً لنكران الدين وكل ما انبثق عنه من عقائد وسلوكيات وأخلاق وآداب ، فالشيوعيون لم يهجموا على الدين بدون مسوغات لفقوها تلفيقا شأن المذهب الشيوعى نفسه من تلفيق والترقيع من شواذ الأفكار وضلالات الآراء والمذاهب .

المادة سابقة فى الوجود على الفكر ؟!

هذه العبارة المكونة من هذه الكلمات الست هى أس الضلال والتضليل المتفشى بين الشعوب والدول والأفراد عن انطلت عليهم أكذوبة الشيوعية لخسيوها فلسفة ومذهبا وما هى بفلسفة ولا مذهب ؛ لأن الفلسفة يراد منها محبة الحكمة ولا حكمة ولا محبة فيما يؤمن به الشيوعيون الآن أو قبل الآن وإن رقصوا حوله وطبلوا وملأوا ربوع الكون نباقا وخواراً .

وكان ماركس وهو يسطو على مبادىء هيجل يعمل لهذا التحول الخطير

كل حساب ، فرفض استخدام مبادىء هيجل فى الفكر واستخدمها فى المادة كما رفض كل من المادية الميكنية والمادية الناموسية ليطلق لفلسفته العنان فيما أراده لها من وسائل وغايات من أجلها كان الفكر الشيوعى - بل استغفر الله - كانت المادية الشيوعية .

ما هى المادة ؟

من اليسير أن نعرف المادة بأنها ما كان لها وجود خارج الذهن ، وتدرك بواحدة من الحواس الخمس . ولكن هذا التعريف غير مرضى عند الشيوعيين ، لذلك ترى لينين يقول فى تعريفها :

« هى مقولة فلسفية تخدم فى تعيين الواقع الموضوعى المعطى للإنسان فى إحساساته التى تنسخه ، أى تصنعه - ؟ تصوره ، تعكسه ، والموجود بصورة مستقلة عن الإحساسات »(٧) .

وخلاصة هذا التعريف أن لينين يتابع قس المادية الأكبر (ماركس) ويحدد دور المادة بعد كونها موجودة وجوداً مستقلا عن ذهن الإنسان بأنها هى التى تصنع الواقع الذى يحسه الإنسان . فهى إذن الفاعلة كما سبق أن قال ماركس فى تعليقه على فلسفة فيورباخ ؟ !

ويتابع ستالين سلفيه ماركس ولينين فى هذا المعنى فيقول :

« تقوم المادة الفلسفية على مبدأ آخر ، وهو أن المادة والطبيعة والكائن هى حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك أو الشعور وبصورة مستقلة عنه . وأن المادة هى عنصر أول ؛ لأنها منبع الإحساسات والإدراك والتصور ، بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق ؛ لأنه انعكاس للمادة ؛ إنعكاس للكائن . وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت فى تطورها درجة عالية من الكمال ،

(٧) الدفاتر الفلسفية (١ / ٣٢) نقلا عن : موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٣١) مكة المكرمة .

أو بتعبير أدق : أن الفكر هو نتاج الدماغ ، والدماغ هو عضو التفكير ، فلا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير »[٨] .

وإنجلز صديق ماركس ذهب هذا المذهب من قبل فقال : « لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة ؛ لأن المادة هي جوهر التغيرات التي تحدث »[٩] .

فماركس وإنجلز ، ولينين وستالين هم مؤسسو المذهب الشيوعي . وهاهي آراؤهم في المادة وصلتها بالفكر . فالمادة سابقة ـ عندهم ـ في الوجود على الفكر ، وهي — أي المادة — منبع الفكر وخالقته إلى أبعد الحدود . وقد منحوا المادة أو الطبيعة أو الكائن على حد تعبيراتهم ، منحوها صفات أخرى لتكتمل دائرة الإلحاد حسبما تصوروا .

وبناء على هذه التصورات التي تخيلوها بل توهموها حول المادة أنكروا كل وجود ماعدا وجود المادة . وقالوا أن ما وراء المادة من تصورات أو غيبيات إنما هو وهم من الأوهام . وإليكم أولا نص عبارته :

« ليس للكون نهاية ، ولا حدود ؟ . العالم أبدي ؟ وليس له أي بداية ولن يكون له أي نهاية ؟ ومن هنا فأي عالم غيبي غير مادي غير موجود ولا يمكن أن يوجد ؟ وفي واقع الأمر أنه إذا لم يوجد شيء غير المادة فلا يوجد غير عالم مادي واحد ... »[١٠] .

ومآل هذا الكلام في إيجاز :

« أن المادة أزلية لم يسبق لها بداية .. ؟ !

---

(٨) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية (٢٩) نقلا عن : موقف الإسلام من نظرية ماركس (١٢٤) .

(٩) نفس المصدر .

(١٠) أسس المادية الديالكتيكية ... (٣٩) مرجع سبق ذكره .

• أن المادة أبدية فلن تكون لها نهاية ... ؟!

• ليس فى الكون وجود غير وجود المادة نفسها ... ؟!

• أن كل ما وراء المادة وهم من الأوهام ... ؟!

• أن المادة هى الخالقة لما سواها ، إنسانا وغير إنسان ... ؟!

هذا صريح معنى كلامهم . وهذه الصفات التى منحوها المادة هى الصفات الواجبة لله عند المؤمنين سطا عليها الماديون كما سطوا على أفكار غيرهم من العلماء والفلاسفة والمتعالمين والمتفلسفين . وأضفوها على « كفرياتهم » كما ترى .

من التعميم إلى التخصيص :

فى النصوص التى نقلناها عن كبار مؤسسى المذهب الشيوعى تعميم فى إنكار كل وجود عدا وجود المادة الطبيعية . وها نحن أولاء أمام كلام أقس المادية الأكبر ماركس يقترب فيه من التخصيص بدل التعميم ، ويبدأ بالهجوم على الحقيقة الإلهية فى أسلوب مباشر فيقول :

« إن العزة الإلهية والهدف الإلهى هى الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ . والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئا »[11] ؟! هـذا الكلام لم يقله ماركس وإنما قاله « الشيطان » الذى استذله واتخذ منه بوقا بشريا ينفث من خلاله ضلالات الكفر والإلحاد . وليس فى هذا غرابة ، ولا هو مجرد تخيل منا . بل هو حقيقة جاء بها صريح القرآن فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١١) أصول الفلسفة الماركسية (١/٦ ٢) نقلا عن موقف الإسلام من نظرية ماركس (٢٧) المؤسس الفلسفة (١٢٣) .

« هل أنبئـكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

فالشياطين تتنزل في كل حين على أوليائها، وأولياء الشياطين هم الأفاكون الآثمون . وكارل ماركس ضليع فى الأفك والإثم . وسيأتي يوم القيامة وهو يحمل أوزاره وأوزار خلق كثيرين تسبب فى ضلالهم وإضلالهم .

وأستاذنا العقاد فى تحليله الرائع لشخصية ماركس انتهى إلى أنه مريض مرضا نفسيا هو المسئول - يعنى مرضه النفسى - عن كل أوهامه وضلالاته وهذا يتسق تماما مع ما أضفناه - هنا - من أن ماركس كان يتولاه شيطان ويوحى إليه زخرف القول غرورا .

ذهب الشيوعيون - تطبيقا لفلسفتهم - إلى إنكار وجود الله سبحانه وإلى إنكار الأديان جملة وتفصيلا وإلى إنكار الأخلاق الفاضلة والقيم والعواطف الدينية ، وإلى إنكار البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب . وحصروا مطالب الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، ولم يروا من ورائها شيئا .

ولما فتح لهم ماركس باب الهجوم على الحقيقة الإلهية تجرأوا وقالوا : « يجب القول بأن الله والديانة هما ظاهرتان إنسانيتان لأن العنصر الإلهى هو من إبداع الإنسان . وليس الإنسان من إبداع الله » ؟ !

منهج الإستدلال :

من حق القارىء أن يسأل : وما هى طريقة استدلال الشيوعيين على أن المادة سابقة على الفكر فى الوجود حتى رتبوا على هذا السبق ما رتبوه من أوهام ؟ !

والجواب :

ها أنتذا تمسك الآن بكتاب تقرأه . وحين أمسكت به ثار فى ذهنك مجموعة من الأفكار . فهذا الذى تمسك به فى يدك كتاب . لون غلافه كذا ولون الورق الداخلى كذا ، وموضوع الكتاب كذا . وعلاقتك بهـذا الكتاب كذا .

هذه الأفكار لو لم تكن لك صلة بهذا الكتاب ، ولا أنت تعرف عنه شيئا ، أو تعرفه معرفة سابقة وأنت لاه عنه الآن . لو كان الأمر كذلك لم يثر شىء فى ذهنك من الأفكار التى ذكرناها .

وهب أنك ألقيت الكتاب من يدك ، ووقفت فى شرفة منزلك المطلة على الشارع فأبصرت العربات تسير فيه . وهاهى ذى عربة تسير أمامك لونها أحمر مثلا ، وماركتها مرسيدس ، وموديلها كذا . فإن أفكارا من نوع آخر تقفز إلى ذهنك خاصة بالسيارة التى ركزت عليها ملاحظاتك .

هذان مثلان وغيرهما كثير ، ومن أكثرها غنى بإثارة الأفكار إذا كنت - مثلا - تستقل وسيلة من وسائل النقل لتصل إلى مكان بعد عشرة كيلومترات . فأنت تجلس على مقعد يتاح لك منه أن تبصر كل المناظر التى تقع على جانب الطريق الذى تسير فيه السيارة . فإن عدة مناظر ومرئيات تلحظها ، وكل منظر منها يثير فى ذهنك فكرة خاصة عنه وإن كانت عابرة عبور البرق ، وأنت تنتقل من مشهد إلى مشهد ، ومن فكرة إلى فكرة إلى نهاية الشوط . وكل فكرة تقفز إلى ذهنك ومشاعرك تكون نتيجة للمنظر الذى شاهدته أيا كان نوعه ، وحجمه ، وصورته ، وشكله . ولكنك لو قدر لك أن لا تقوم بتلك الرحلة فإن شيئا مما ذكرت لك لن يحدث على الإطلاق وقل مثل ذلك فى المذوقات ، والمشمومات ، والمسموعات ، والملموسات كل عنصر منها يترك عند التجربة فكرا أو شعورا خاصا به عندك أما إذا لم تر شيئا ، ولم تذق ولم تلمس ولم تشم ولم تسمع فلا يثور عندك شىء على الإطلاق .

إذا تأملت هذا جيدا ظهر لك :

١ — أن كل حاسة من حواسنا الخمس عندما تحدث صلة بينها وبين أى نوع من أنواع المادة تثير فينا شعورا خاصاً عنها بحسب الحاسة التى اتصلت بها :

لونا فى المرئيات ، وطعما فى المذوقات ، وحدة ورقة أو غلظة وخشونة فى المسموعات ، ورطوبة أو حرارة فى الملموسات، وطيبا أو قبحا فى المشمومات. وهكذا . وهذه المشاعر التى تثيرها فينا الحواس عند اتصالها بالمادة هى « الفكرة » الواردة فى كلام الشيوعيين .

٢ — أن هذه الفكرة — فعلا — متأخرة عن المادة والمادة سابقة عليها فى الوجود ؛ لأن المادة سبب ، والشعور المثار عنها مسبب ، والسبب « دائما » مقدم على المسبب إلا فى بعض الحالات فيكون السبب والمسبب مقترنين فى الزمن[11] .

هذا هو منهج الشيوعيين فى الاستدلال على أن المادة سابقة فى الوجود على الفكرة . وقد ضربت لك هذه الأمثال لأوضح لك معنى هذا الكلام فحسب، لا لأقول لك أن الشيوعيين صادقون فيما نحن بصدده من البحث وإنه كانوا صادقين فى هذا النوع من الصلة بين المادة وبعض الآثار الناتجة عنها . وستعلم كذبهم وخطأهم بعد قليل .

---

(١١) لإقتران المسبب بالسبب فى الزمان الواحد صور كثيرة ، مثل حركة القلم وأنت تكتب . فهى مسببة عن حركة يدك ومع هذا فإن الحركتين تحدثان فى وقت واحد . ومثل حركة الخاتم فى الإصبع ، فهى مسببة عن حركة الإصبع وزمانهما واحد .

مواجهة إسلامية لهذه الأوهام :

ها نحن أولاء قد عرضنا وجهة نظر الشيوعيين بكل أمانة وصدق . وجاء - الآن - دور المواجهة والمناقشة من وجهة النظر الإسلامية التي تتآخى فيها حقائق العلم والواقع والعقل مع النصوص الدينية . فلنأخذ في المواجهة ومن الله التوفيق .

قبل البدء في المواجهة نعيد مرة أخرى مزاعم الشيوعيين فيما تقدم ومرادهم من هذه المزاعم ليسهل علينا مضمون المواجهة فيما يستحق المواجهة منها .

ومزاعم الشيوعيين التي تقدمت ليست على درجة واحدة ، بل منها ما هو أساسي في مذهبهم ، ومنها ما هو مبني على ذلك الأساس بحيث إذا انهار الأساس انهار ما بنوه عليه . وإليكم رصد المزاعم من جديد :

١ - مزعم سبق المادة على الفكرة .. ؟!

٢ - مزعم أن المادة أزلية ليس لها بداية .. ؟!

٣ - مزعم أن المادة أبدية ليست لها نهاية .. ؟!

٤ - مزعم أن المادة هي الخالقة وليست مخلوقة .. ؟!

٥ - مزعم إنكار وجود ما وراء المادة المحسوسة ، وهو الله والدين والقيم الروحية

وعلى هذا الترتيب نمضي - بعون الله ومدده - في تفنيد هذه المزاعم .

مزعم أسبقية المادة على الفكرة في الوجود :

هذا المزعم هو قطب الرحى الشيوعي ، فقد بنوا عليه كل أوهامهم التي لغطوا بها طول حياتهم وما يزالون يلغطون ؛ لأنهم لما توهموا أن المادة سابقة في الوجود على الفكر ، نسبوا إليها كل ما في حياة الكون فالإنسان والحيوان والنبات من مخلوقات المادة ؟!

والإنسان هو الذى اخترع فكرة الإيمان بالله والقيم الروحية والأخلاق والحياة الآخرة . ؟ !

وما دامت المادة سابقة فهى أزلية لم يخلقها خالق سواها ؟ !

ومادامت المادة أزلية فهى - إذن - أبدية لاتفنى ، لأن ما ليس له بداية فلن تكون له نهاية ؟ !

وبناء على هذا فليس وراء وجود المادة وجود بل هو وهم من الأوهام .. ؟ !

فأنت ترى أن مزعم أسبقية المادة فى الوجود على الفكر هو قطب الرحى الشيوعى ، ومداو الأمر كله عندهم .

وحين يثبت خصوم الشيوعية بطلان القول بأسبقية المادة على الفكر فى الوجود فإن البنيان الشيوعى ينهار فى لحظة على من بناه وخصوم الشيوعية من وجهة نظر البحث الموضوعى غير مطالبين بجديد يقولونه فى أبطال الشيوعية بعد إثبات كذب القول بأن المادة سابقة على الفكر فى الوجود إلا إذا أرادوا أن يرفعوا الانقباض المنهارة فوق رءوس البناة .. !

الفكر نوعان :

وأول ما نواجه به دعواهم أن المادة سابقة على الفكر فى الوجود . وهى كما تقدم مرات أصل أصول مذهبهم ، أننا نقول لهم مجتمعين ومتفرقين ، من مات وهلك منهم ، ومن ما يزال حيا يأكل كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

نقول لهم : أن الفكر نوعان :

فكر سابق وفكر لاحق ، أو بلغة الفلاسفة : فكر فاعل وفكر منفعل والشيوعيون على طريقتهم فى الهروب والمسخ فروا من أحد نوعى الفكر واحتضنوا النوع الآخر .

فروا من الفكر السابق أو الفاعل ، واحتضنوا الفكر اللاحق أو المنفعل . ونحن نعرف لماذا فروا مما فروا منه ، ولماذا أقبلوا على ما أقبلوا عليه . ؟

نعرف أنهم فروا من الفكر السابق أو الفكر الفاعل ، لأنهم لو وقفوا أمامه لما خطوا خطوة واحدة فى طريق الهاوية التى هووا إليها .

ونعرف أنهم أقبلوا على الفكر اللاحق أو المنفعل لأنهم وجدوا فيه مركبا ذلولا حملهم ، وهم سكارى ، إلى مملكة الشياطين ،وأحلهم دار البوار .. !

نعم : إن الفكر نوعان :

سابق ولاحق ، أو فاعل ومنفعل . وقد تمسك الشيوعيون فى استدلالهم على أسبقية المادة على الفكر بشواهد مما تثيره المادة بعد إيجادها من مشاعر وأفكار فى الأذهان . وهذه هى الأفكار اللاحقة للمادة ، أو المنفعلة بها . استمدها الشيوعيون من الواقع الملموس المشاهد ، وهم فى استدلالهم هذا قد ابتعدوا عن « الحقيقة » وإن كان مصدرهم جانبا من جوانب الواقع .

ونحن فى مواجهتنا لهذه الدعوى نتمسك بأصل « الحقيقة » ونبدأ من أول خطوة فى الطريق ونستمد أدلة إبطال دعواهم من جانب من جوانب الواقع . ولكنه الجانب الذى يجب على طالب الحق أن يبدأ منه وهذا ما سنراه الآن :

شواهد من الواقع تبطل دعوى الشيوعيين :

١ ـ أنت الآن تقرأ هذا الكلام المكون كل كلمة منه من حروف مسطورة على ورقة . والكلام من حيث هو رسم وتصوير مادة مرئية ،

وكذلك هذه الورقة التى سطر هذا الكلام عليها . والكلمة عندما تقرأها تثير عندك فكرة بلا محالة . ولكن الفكرة التى تثيرها الكلمة عند قراءتها ليست هى الفكرة الوحيدة المتعلقة بالمادة أو الكلمة . لأن الكلمة كانت ثمرة لفكرة تقدمت بل ثمرة لأفكار تقدمت عليها ،وكذلك مجموعة الكلمات التى تألف منها كلام مفيد طال أو قصر ؛ لأن الكلام هو الظل الخارجى للأفكار ، وإذا لم نتكلم ظل الفكر معانى نفسية مجردة لا يعلم ولا يحس به إلا من تجول تلك المعانى فى نفسه .

أى أن الكلام سواء كان مقروءاً أو مسموعا يكتنفه نوعان من الفكر نوع تقدم عليه وهو النوع الفاعل المبدع الذى كان الكلام مسببا عنه، وهو العملية النفسية التى جالت فى نفس المتكلم فصدر الكلام معبراً عنها . وكان ظلالها وصدى و نوع تأخر عنه وهو المشاعر أو الأثر الذى أثاره الكلام عند قراءته أو سماعه فى ذهن القارىء والسامع . وهذا هو النوع المنفعل . كأن يثير فينا الكلام المقروء أو المسموع مشاعر بهيجة سارة أو حزينة مقبضة .

وكل من نوعى الفكر له صلة بالمادة ، ولكنها مختلفة من نوع إلى نوع فالفكر السابق على المادة صلته بها صلة السبب بالمسبب أو الفاعل بالمنفعل ولولا سبق هذا النوع من الفكر ما كانت المادة ولا الآثار المترتبة عليها والفكر اللاحق لوجود المادة له بها صلة ، وصلته بها صلة المسبب بالسبب أو المنفعل بالفاعل أو المعلول بالعلة .

فالفكر السابق هو سبب وجود المادة وفاعلها ولولاه لم يكن .

والفكر اللاحق هو مسبب عن وجود المادة ومنفعل بها ولولاها لم يكن .

ومعنى هذا أن المادة نفسها والفكر اللاحق المثار بسببها كلاهما مسببان عن الفكر الفاعل الذى تقدم عليهما ولولاه لم تكن المادة ولا الفكر المثار عنها .

ونستعين لإيضاح أكثر بالعملية الآتية :

إذا رمزنا للفكر السابق على المادة بـ (أ) .

ورمزنا للمادة نفسها التى تسببت عنه بـ (ب) .

ورمزنا للفكر اللاحق المثار عن المادة بـ (جـ) .

فإن صلة « ب » بـ « أ » صلة المعلول بعلته أو المفعول بفاعله أو المسبب بسببه . والمعلول لا يكون إذا لم تتقدم عليه علته ولو تقدما ذهنيا كحركة القلم الناشئة عن حركة اليد .

إذن «ب» مدين فى الوجود لـ « ا » .

وصلة « جـ » بـ « ب » مثل صلة « ب » بـ « أ » صلة المعلول بعلته . إذن « جـ » مدين فى الوجود لـ « ب » . ولولا « ب » لم يكن « جـ » .

وعلى هذان فإن : « ب » و « جـ » مدينان فى الوجود لـ « أ » . ولو لم يكن « أ » لانتفى وجود «ب» وإذا انتفى « ب » لزم منه ضرورة انتفاء « جـ » .

والخلاصة : أن كل صورة مادية لها ثلاثة عناصر :

- الفكر الفاعل المتقدم عليها . وهو الفكر المبدع الخلاق .
- والمادة نفسها من حيث هى مادة ، وهى المبدعة المخلوقة .
- والفكر المنفعل المتأخر عنها ، وهو الفكر الثانوى التقليدى .

والعنصر الأول هو الفكر السابق الفاعل الذى لولاه لما كانت الصورة المادية ولا الفكر الناشىء عنها .

والعنصر الثانى هو المادة نفسها .

والعنصر الثالث هو الفكر الناشىء عنها . أى أن الترتيب الوجودى بين عناصر الصورة المادية هكذا .

أ — ب — ج : بحيث لا يتقدم « ب » على « أ » ولا يتقدم « ج » على « ب » وإلا اختل التكوين أو انعدم .

ونسأل - الآن - هذا السؤال :

أى نوعى الفكر وقف عنده الشيوعيون ؟ !

والجواب :

إنهم وقفوا عند النوع الثانى من نوعى الفكر ، وترتيبه الوجودى هو الثالث فى تكوين الصورة المادية .

وهـذا النوع الذى وقفوا — عنده — لا تأثير له فى عملية التكوين بل هو « سالب » دائماً ، لأنه منفعل أو مفعول وليس بفاعل ولا مفعل .

وليس له وجود مستمر ، لأنه يتحقق إذا حدثت صلة لحاسة من حواسنا بالمادة . أما إذا كانت المادة معزولة عن صلة الحواس بها مع وجود المادة فلا وجود لهذا الفكر وتظل المادة أثراً من آثار ، الفكر الأول « الفاعل » .

وهـذا يبين لك فى وضوح أن الشيوعيين إنما توقفوا عند « فكر » ميت لاصلة له بعملية التكوين والإيجاد وبنوا على هذا الأساس المنهار مبدأهم القائل أن المادة سابقة على الفكر فى الوجود .

وها انتـذا قد عرفت أن الفكر الذى كان ينبغى أن يستخدم فى الاستدلال هو الفكر الأول « الفاعل » . ويترتب على هذا التحليل الواقعى

العلمى الذى مر بك أن استدلال الشيوعيون باطل . . باطل . . منهار - منهار .

ومثال آخر :

٢ — إذا وقع بصرك على حديقة زاهية ، نسقت فيها الأشجار ، فى نظام بديع ، وجرت بين ربوعها أنهار صغيرة يجرى فيها الماء الصافى الفضى اللون . وفرشت ساحاتها بالحشائش الخضراء ، تدفقت خلالها نوافير المياه ، وازدانت بالأزهار ما بين أبيض وأحمر وأصفر . وفاح أريجها عبقا يزكى الأنوف ويبعث البهجة والسرور فى النفس . فأنت - لا شك - أمام صورة مادية ساحرة وسرعان ما تعكس عليك آثاراً ومشاعر طيبة من حيث مافيها من نظام بديع ، ومناظر أخاذة تسبح بالنفس فى جو رحب فسيح هذه الصورة المادية المبهجة ترجع إلى العناصر الثلاثة التى مر بنا حديثها . . .

(ا) تقدم عليها فكر كان السبب فى إخراجها على الصورة التى رأيت . فكم من خطط هندسية وضعت وهى أفكار مجردة رسمت الصورة جزءاً جزءاً .

وكم من يد عملت فى تسوية الأرض وتهيئها وغرس الأشجار وتركيب الآلات والأجهزة ، والحديقة ، التى رأيت كانت جنينا فى غيب الغيوب ثم تفاعلت الأسباب مع المسببات . وخرجت الصورة من الفكر المجرد إلى الصورة الحسية بكل ما فيها من أشكال وألوان وتنسيق بديع . وصارت منبعا لإثارة المشاعر المناسبة لدى من يشاهدها ويتأملها .

ولولا الفكرة الأولى ما كانت الثانية ، ولولا الفكرة الثانية ما كانت الثالثة . ولولا الفكرة الأولى الفاعلة ما كانت الثانية المنفعلة الفاعلة ولا الثالثة المنفعلة دائما .

وأنت خبير أن الشيوعيين يتمسكون بالفكرة الثالثة المنفعلة دائما وهى لا تأثير لها فى عملية التكوين بل هى أثر من آثاره .

إذن فالشيوعيون يقفون عند « وجود » واحد من « الوجودات » الثلاثة محددين الصلة بينه وبين الوجود الأوسط ضاربين عرض الحائط بالوجود الفاعل .

أي أنهم وقفوا عند تحديد الصلة بين (ب ؛ ج) وألغوا وجود (أ) وهو أول خطوة فى عملية التكوين (ب — ج) وأسسوا على هذا التصور الفاسد أسبقية (ب) على (أ) ومن هنا بطل استدلالهم على مبدئهم .

وهكذا كل صورة من صور المادة حين تعكس مشاعر على إحدى حواسنا فإن تلك المادة توسطت فكرين : فكر سابق هو فاعلها ، وفكر لاحق هو منفعل بها سواء كانت تلك المادة مما يرى أو يذاق ، أو يشم أو يسمع أو يلمس :

عمارة ضخمة ، سيارة ، خضرة ، طعام شهى ا شراب لذيذ ، رائحة طيبة ، صوت رخيم ، ملمس ناعم ، إلى آخر ما يمكن تصوره من مدركات .

فالعمارة الضخمة : البديعة الصنع سبقها تصميم هندسى وهو فكر مجرد قبل رسمه على الورق ، صممه المهندس جزءاً جزءاً حتى صار وحدة كاملة .

وقد سبق أن رمزنا لهذا الفكر بـ « أ » .

ثم برزت العمارة فى الوجود كثمرة لذلك الفكر فكان « ب » .

ثم أثارت هذه العمارة مشاعر خاصة عند كل من رآها فكان « ج » .

والمعول عليه علماً وعقلا وواقعاً من هذه العناصر الثلاثة : (أ ـ ب ـ ج) هو (أ) وحده ؛ لأن فرض انتفائه يترتب عليه انتفاء كل من « ب » و « ج » .

وبعد هذا الترويض والتحليل نصل إلى هذا المبدأ الذى يقر به العلم والعقل والواقع وهو :

إن الفكر أسبق فى الوجود من المادة :

وهذا المبدأ يهدم من الأساس مبدأ الشيوعيين القائل :

إن المادة أسبق فى الوجود من الفكر ؟ !

فهذا مبدأ باطل ، لأن العلم يبطله ، والعقل يقر بفساده ، والواقع يشهد بكذبه . والدين يؤيد ما أجمع عليه العلم والعقل والواقع . .

ولكن هل مبدؤنا الذى وصلنا إليه خالص الثبوت مائة فى المائة حتى هذه الخطوة من البحث ؟

والجواب :

إن هذا المبدأ من حيث الحقيقة خالص الثبوت مائة فى المائة . أما من حيث البحث الجدلى فما تزال أمامنا شبهتان قد يتمسك بها الخصوم . ولابد من إزاحتهما عن الإعتراض أو الإستدلال الذى قد يلجأ إلية الخصم .

الشبهة الأولى :

قد يقول الخصم : إن صانع السيارة كان فى يده « كتالوج » قبل صنعها، كما كان فى ذهنه صورة السيارة السابقة التى تقدم صنعها .

والمهندس الذى صمم العمارة الضخمة كان فى ذهنه عشرات بل مئات الصور لعمارات قامت بالفعل . فكل من صانع السيارة وصانع العمارة حاكى أنموذجا كان قد رآه وارتسمت صورته فى مخيلته . إذن فالمادة هى السابقة على الفكر ، وليس الفكر هو السابق على المادة . ؟ !

والجواب :

أننا لا نعتمد على الفكر الذى هو رد فعل لمادة سابقة ، وإنما نعتمد على الفكر الذى لم تسبقه مادة .

ففي مثال السيارة نحن لا نعتد بالفكر الذي أنتج السيارة رقم اثنين أو ثلاثة أو ألف في ترتيب الموديلات . وإنما نعتد بالفكر الذي أنتج أول سيارة في الوجود فهو بلا نزاع فكر فاعل غير مسبوق بمادة قط أما الفكر الوسيط بين صنع صورة وصورة فلا نعتد به والإعتداد به ساقط عندنا وعند الخصوم على حد سواء .

وفي مثال العمارة الضخمة البديعة النظام نحن لا نعتد بالفكر المسبوق بتصور عن مادة سابقة . فهذا الفكر ساقط في هذا المجال ، وإنما نعتد بالفكر الأول الفاعل الذي صنع أو تقدم على صنع أول عمارة أنشئت في الوجود .

وهو بلا شك فكر لم يسبق بصورة مادية قط . نحن نعتد بالفكرة التي أنشأت أول مثال مادي في الوجود من تلك الأنواع التي ذكرنا طائفة منها .

أما الأفكار الثواني فلا يتعلق لنا بها غرض ولا نعتد بها . وهذا هو المطلوب .

ومن الصور المادية ما لم يتكرر له مثال قبله ولا بعده . مثل الأهرامات التي أنشأها الفراعنة القدماء . فمم استوحى الفراعنة تلك الأشكال ، إنها وليدة فكر غير مسبوق بمثال مادي . ولم يتكرر لها مثال في قوتها وضخامتها حتى الآن ؟ .

ومثل برج بيزا المائل إنه وليد فكر غير مسبوق بمادة من نوعه ولم يتكرر له مثال .

إذن فالشبهة التي يتمسك بها الخصوم — هنا — ساقطة ولا تقدح في صحة المبدأ الذي توصلنا إليه .

<u>إن الفكر سابق في الوجود على المادة :</u>

والمراد بالفكر — هنا — هو الفكر الفاعل الأول . وليست الأفكار الثواني فهي لا قيمة لها في أصل الموضوع .

الشبهة الثانية :

وللخصم أن يقول : إنكم تتحدثون عن مادة وصنعة ، ونحن نتحدث عن مادة وصنعة غير التي اتخذتموها أنتم طريقا للإستدلال .

أنتم تتحدثون عن مادة أو صورة مادية صنعها الإنسان .

ونحن نتحدث عن مادة أو صورة مادية لم يصنعها الإنسان .

وأنتم تتحدثون عن مادة صغيرة وصنعة صغيرة ، ونحن نتحدث عن مادة كبيرة هي الأصل وعن صنعة كبيرة وجدها الإنسان وليس له عمل فيها . بل هي عاملة فيه .

إذا قال الخصوم – الشيوعيون والعلمانيون – هذا قلنا لهم :

إن الذي تقولونه الآن لم يكن مفاجئة لنا . بل له عندنا ألف حساب وحساب . وكنا واثقين كل الثقة ونحن نصوغ المبدأ الحق الذي توصلنا إليه بعد تحليل صورة المادة الصغرى وهو :

أن الفكر أسبق من المادة في الوجود : كنا واثقين مما ستقولون وواثقين أن قولكم هذا لن يؤثر في صحة هذا المبدأ ، لأن قولكم هذا باطل – كذلك – بشهادة العلم ، وإقرار العقل ، وحكم الواقع ، وتأييد الدين .

وإليكم البيان :

إذا أبصرنا أمامنا ناراً موقدة ولكن في حيز ضيق ، ثم أبصرنا على مسافة منها ناراً موقدة ولكن على حيز واسع ممتد وعميق ، ومع اختلاف النارين في المقدار فإننا – بناء على التجارب المخزونة في أذهاننا – نثبت للنار الموقدة في حيز ضيق نفس الخصائص التي نثبتها النار الموقدة في حيز واسع ممتد وعميق فكلتاهما جسم ملتهب مضيء ، محرق .

هـذا هو حكم العلم والعقل والواقع ؛ لأن الشيئين اللذين بينهما تماثل تام من كل الخصائص الذاتية غير العارضة ما يثبت لأحدهما يثبت قطعا بالضرورة للآخر ، إذ لا مرجح لأحدهما على الآخر حتى يقع بينهما تفاوت ما .

وحين نأخذ قطعة من الحديد ونضعها فى النار فإنها تلين وتمتد ويحمر لونها بعد أن كان داكنا .

وهذه التغيرات التى حدثت لقطعة الحديد نعلم بالضرورة أنها ستحدث لكل قطعة حديد من نوعها ، لأن ما يثبت لبعض أفـــراد الجنس أو النوع من التغيرات الذاتية يحدث لكل أفراد الجنس أو النوع ما دامت الماهية والحقيقة واحدة .

وإذا وضعنا مقداراً ما من المـاء تحت درجة حرارة منخفضة فإنه بعد فترة معينة من الزمن يتكثف ويصبح ثلجاً ويزداد حجمه ويصفو لونه فإذا وضعناه تحت درجة حرارة مرتفعة انحلت كثافته وعاد إلى السيولة مرة أخرى . فاذا تركناه لمدة أطول تبخر شيئا فشيئا حتى لم يبق منه شىء .

وهذه التغيرات نعلم بالضرورة كذلك أنها ستحدث لكل مقدار من الماء إذا وضعناه فى نفس الظروف المذكورة . وليس حدوثها وقفا على المقدار الذى أجرينا عليه تلك التجارب ، لأن الماء كله له طبيعة واحدة فما يثبت لبعضه يثبت لكله بهذا قضى العلم ، وشهد الواقع وأقر العقل .

إذن فالأشياء المتماثلة تماثلا تاما فى الخصائص الذاتية فإن ما يطرأ على بعضها من العوارض يطرأ ضرورة لكل شىء منها إذا اتحدت الظروف والمؤثرات التى حدثت فيها تلك التغيرات . وهذا قانون لم يتخلف ولن يتخلف ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ونعود فنربط بينها مثلنا به الآن وبين الإجابة على الشبهة الثانية التى من حق الخصوم أن يثيروها ، وهى :

إن تمثيلنا بصنعة البشر غير تمثيلهم بما ليس للبشر صنعة فيه وهو الكون بما فيه من أرض وسماء وأنهار وهواء ومعادن وأفلاك فالعمارة الضخمة البديعة النظام ، والسيارة من قبيل المادة الصغرى والكون مادة كبرى .

وصنعة الإنسان صنعة صغرى . وصنعة الكون صنعة كبرى ، والفرق جد كبير بين المادة الصغرى والمادة الكبرى ، وبين الصنعة الصغرى والصنعة الكبرى .

قلنا إن من حق الخصوم أن يقولوا : إن المادة الصغرى كتشييد العمارة الضخمة أو صنع السيارة ، أو بناء الأهرامات ، أو برج بيزا المائل إذا سلمنا لكم أن الفكر فيها سابق على المادة فى الوجـــود فلن نسلم لكم بأن المادة الكبرى «الكون أو الطبيعة» قد سبقها فكر بل هى التى سبقت الفكر ؛ لأنها كانت ولم تكن إنسان فلم يكن - إذن - فكر ؟ !

هذا قصارى مايقوله الخصوم ، وليس لهم بعده من مقال . فلنأخذ فى إبطال دعواهم هذه بما يأتى :

إبطال هذه الدعوى :

علمنا مما سبق أن ما يطرأ على بعض أفراد الجنس أو النوع تحت ظروف ومؤثرات معينة يطرأ بالضرورة على بقية أفراد الجنس أو النوع إذا وضع تحت تلك الظروف والمؤثرات . لافرق بين صغيرها وكبيرها . فما يخضع له أقل جزء يخضع له أكبر جزء بل والوحدة الكاملة التى تتكون من جميع الأجزاء .

وقد علمنا أن العقل والعلم والواقع هذه المصادر الثلاثة أجمعت على أن «العمارة المشيدة» وهى صورة مادية قد سبقها فكر صادر عن مفكر كان

ذلك الفكر واحدا من أسباب تشييد العمارة وهى الصورة المادية الماثلة أمام العيان. ويستحيل فى حكم العلم والعقل والواقع أن تكون تلك الصورة المادية قد أوجدت نفسها .

والكون أو الطبيعة صورة مادية كالعمارة المشيدة وإن اختلفت الصورتان فى المقدار . فإنهما متحدتان متماثلتان فى الخصائص المادية :

فالعمارة المشيدة صورة مادية مصنوعة على شكل مخصوص .

والكون أو الطبيعة صورة مادية مصنوعة على شكل مخصوص واختلاف الشكل بين الصورتين لا يقدح فى أنهما متماثلتان فى الخصائص الذاتية ، فكل منهما :

مادة + صنعة = صورة مادية ماثلة للعيان أما اختلاف الشكل فهو من العوارض الطارئة على المادة من حيث أنها مادة ترى أو تسمع أو تلمس أو تشم أو تذاق.

وقد علمنا - يقينا - أن ما يخضع له أقل جزء من مادة متماثلة تماما فى الخصائص الذاتية يخضع له - ضرورة - كل أجزاء المادة أو الوحدة الكلية المكونة من جميع الأجزاء .

والعماره المشيدة ، وهى صورة مادية صغيرة بالنسبة للكون كله قد خضعت فى إيجادها لفكر سابق عليها صادر من مفكر ذى علم وإرادة وقدرة .

وكذلك الكون كله ، وهو المادة الكبرى خاضع فى إيجاده لفكر سابق عليه من مفكر ذى علم وإرادة وقدرة . هذا هو حكم العقل ، والعلم ، والواقع وليس بعد هذه المصادر مصدر آخر - غير الدين - يحتكم إليه .

لأن ما يخضع له جزء من المادة المتماثلة ينتقل - بالسراية - إلى جميع أجزاء .

ومن يفرق بين المتماثلين تمام التماثل في الخصائص الذاتية فقـــد قال بما لم يصدقه أحد .

وهنا ـ يحق لنا أن نقول : إن المبدأ الذي توصلنا إليه وهو : إن الفكر أسبق من المادة في الوجود : صحيح مائة في المائة صحيح من حيث معطيات العلم . ومن حيث شواهد الواقع ، وصحيح من حيث إقرار العقل ، وصحيح من حيث إزالة كل الشبهات المؤثرة في إثبات صحته . وصحيح من حيث مجيء الوحي الأمين به وها نحن قد وقفنا على معطيات العلم وشواهد الواقع ، وإقرارات العقل وسلامة المنهج البحثي المزيل لكل الشبهات . فماذا قال الوحي الأمين إذن ؟

بلاغات الوحي الأمين :

بلاغات الوحي الأمين القاضية بنسبة خلق الكون ومن فيه وما فيه لله خالق كل شيء أجل من أن نحصيها في هذا الكتاب . فلابد إذن من التمثيل دون الاستقصاء . ولنبدأ بهذا النص الآتي لأنه كأنه صيغ خصيصا لمواجهة الماديين المعاصرين من علمانيين وشيوعيين ووضعيين والنص هو قوله تعالى :

« قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » فصلت (٩ - ١٢) .

فالأرض والسموات وما بين الأرض والسموات مخلوق لله تعالى ، فهو ـ وحده الخالق ، وهو ـ وحده ـ رب العالمين ، والخلق ـ كله ـ من تقديره ، لأنه هو ـ وحده ـ العزيز العليم .

ويقول سبحانه :

« خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين . وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب . ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يتذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم » النحل (٣ — ١٨) .

إننا — مع هذه النصوص — أمام لوحة خالدة كلها دلائل ناصعة . إنها كلمات ولكنها ليست رسوما جامدة بل هى صورة حية للحياة التى نشاهدها ونحن بين أركانها كالذرات الهائمة فى الفضاء . فكل كلمة فيها تقابلها حركة من حركات الكون المدار بتدبير الخالق العظيم ترى فيها أقطار السموات والأرض ، وحركات الأفلاك السابحة فى مداراتها التى صنعتها يد القدرة . وترى الماء نازلا وجاريا على الأرض ، وترى الأرض جنة فيحاء فيها من كل زوج بهيج . وترى ما خلق الله لنا من أنعام تجود بما أودع فيها الخالق من خيرات وعطاءات هى طعامنا وشرابنا صباح مساء . ومع ما فيها من خيرات فهى مبعث السرور والجمال والبهجة . والبحار والأنهار تمدنا بمصدر الحياة « الماء » ، وتقذفنا بما

أودع الله فيها من لحم شيء، وملبس غنى. وتمير عليها السفن والبواخر العملاقة. كطريق ميسر ممهد للتجارة والنقل، بالإضافة إلى الوسائل البرية من خيل وبغال وحمير. المهيئة للركوب والمستخدمة كوسائل للزينة وتعاقب الأفلاك السماوية لإمداد الكون بالطاقة والضوء والنور والهداية. كل هذا هو من خلق الله. وهذه البراهين الساطعة. والأدلة القوية القاطعة. والشواهد الماثلة الناطقة إنما يخاطب الله بها من عباده من كان له عقل يتفكر ويتذكر. ولكن الذين هم كالأنعام أو هم أضل أعرضوا عنها وسووا بين الخالق وغير الخالق فضلوا وأضلوا. فمأواهم النار فتعساً لهم.

ويقول جل فى علاه:

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها. ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مد الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهارا. ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين إثنين، يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » الرعد (٢ - ٤).

فى هذه الآيات دلائل خارقة على عظمة قدرة الخالق، إنها فى الواقع تتحدث عن معجزات باهرة أولاها رفع السموات بدون أعمدة. وفى هذا تحد لقدرات الخلق جميعا؟ لأنهم يعجزون عن رفع « ريشة » تثبت فى نقطة من الفضاء فلا تميل ولا تتحرك، ولا تعلو ولا تسفل. وماذا يكون وزن الريشة فى وزن السماء الواحدة، بله السموات السبع.

إن هذا الكون كله مسير بقدرة الله وعلمه وتدبيره وإرادته. وليست هناك وسائل مادية تدير هذا النظام البديع الباهر:

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليما غفورا »[١٢] .

وفى التعبير بالمضارع « يمسك » ما يفيد استمرار هذه الظاهرة الإلهية المعجزة فهو ـ سبحانه ـ يمسكهما الآن ، كما أمسكهما قبل الآن ، وكما يمسكهما بعد الآن إلى أن يأتى الأجل المسمى المؤذن بزوال هذه الحياة الدنيا .

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ؟ ويمسك السماء أن تقع على الأرض بإذنه ؟ إن الله بالناس لرءوف رحيم »[١٣] .

أجل: إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا زوالا تاما أو تضطربا . ومسكه إياها مسك قدرة وأمر ، فهما الآن غير مأذون لهما بأن تزولا ، وحين يصدر الأمر لهما بالزوال زالتا . أى أن كلمة من الله صدرت فسكنتا بلا عمد ولا حوامل ولا جسور ولا روافع . وبكلمة من الله يؤذن لهما بالإزالة أو الزوال فتزولان و« يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .

فإذا تركنا السموات إلى الشمس . والشمس حجم صغير جدا بالنسبة للسماء ولغير السماء من الكواكب الأخرى . ونحن نراها الان فى حجم دائرة بالغة الصغر تحت أديم السماء والسماء ممتدة حولها من كل جانب إلى منتهى قوة البصر . هذه الشمس التى نراها صغيرة هكذا لأنها تبعد عنا بمقدار ١٥٠ مليون كيلو متر هى أكبر من الأرض إذ يبلغ قطرها ٠٠٠ر٣٩٢ر١ أى مليون وإثنان وتسعون وثلاثمائة كيلو متر . أى أنها أكبر من قطر الأرض ١٠٩

---

(١٢) فاطر (٤١) ومعنى أن الثانية فى « إن أمسكهما » النفى . أى إذا زالتا فلا يستطيع أحد من بعد الله أن يمسكهما .

(١٣) الحج (٦٥) .

مرات . وأثقل من الأرض بـ ٣٣٣٠٠٠ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ألف مرة[١٤]:

هذه الكتلة الضخمة محمولة بالقدرة الإلهية فى الفضاء الكونى الفسيح ، وكذلك السموات الطباق .

هذه الصنعة البديعة التى ليس للبشر تأثير فيها كيف يسوغ فى عقل عاقل أو علم عالم أو وهم واهم أنها وجدت قبل أن يكون شىء فى الوجود غيرها . وأنها هى أول خطوة فى الكون كله . لم يتقدم عليها فكر ولا مفكر ذو علم وقدرة وإرادة ؟!

إن حديث القرآن عن الكون حديث الخبير العليم بكل أسراره وقوانينه وظواهره وكوامنه ومباديه ومقاصده ومصيره . وصاحب كل صنعة دقت أم جلت هو وحده صاحب الكلمة عنها .

فصانع الإبرة لايحق له أن يتحدث عن سر صنعة « الطيارة » ، وإذا تطفل وتحدث عنها هذى هذيان المحموم ، وصار « بهلولا » من « البهاليل » يثير الضحك العميق عند الناس ، وقد يحملهم كبهاليل الشيوعية - على الاشمئزاز والتقزز . وحديث القرآن الصادق كل الصدق ، والباهر كل الانبهار عن الكون دليل على أن صاحب هذا الكلام (الله) هو صانع هذا الكون بكل مافيه من أسرار ودقائق سواء ماظهر لنا منها ، ومابطن منها عنا ، ومازال مباحث العلماء فى كل فن من فنون المعرفة الكونية يأتى الصواب والصادق منها مطابقا للإشارات أو التفصيلات العلمية الواردة فى القرآن الحكيم العظيم العزيز .

والعقل الإنسانى بدلالات العلم والواقع المحسوس لايسعه إلا الاعتقاد اليقينى بأن موجد هذا الكون هو « الله » لاشريك له . إن العقل يسلم فى رضا بالغ واقتناع شديد بهذه الحقيقة ؛ لأنه لم ولن يعثر على حقيقة سواها . هذا هو حكم العقل فى كل زمان ومكان . وهذا هو حكم العقل فيما أشبه هذه القضية .

---

(١٤) الموسوعة العلمية الميسرة (١٠) مكتبة لبنان .

مثال وتوضيح :

هب أن اثنين تنازعا حول جهاز من أجهزة العلم الحديث . يدعى كل منهما أنه هو صانع هذا الجهاز فيجب أن تكتب براءة الاختراع له دون صاحبه . ثم احتكما إلينا . وقد وقفا أمامنا أحدهما ممسك بالجهاز والثاني لم يتجاوز حدود الدعوى باللسان .

إن موقفي الخصمين هنا غير متعادلين فالممسك بالجهاز حائز . والحيازة قرينة قوية من قرائن التملك . فلو أننا حكمنا بأحقية الممسك بالجهاز لكنا على شعبة من صواب .

ولكن هب أننا أردنا أن نستوثق أكثر وأكثر فطلبنا من كل من الرجلين — على حدة — أن يشرح لنا حقيقة الجهاز المخترع المتنازع عليه . فأجاد أحد الرجلين وفصل الحديث عن تصميم الجهاز الداخلي . ووضع أجزاء ، وعلاقة كل جزء بالآخر ، ووظيفة كل جزء في الحركة الكلية للجهاز مع رسم واضح للدوائر الكهربائية التي فيه ، وكيفية تشغيل الجهاز وكيفية توقيفه ، والمهمة التي يؤديها الجهاز وهكذا .

ثم سألنا الآخر فلم يستطع إلا أن يصف الجهاز وصفا ظاهريا مثل لونه وشكله الهندسي مربع أو مستطيل ، وعجز تماما أن يقدم لنا أية معلومات عن تصميم الجهاز الميكانيكي الداخلي . ولا عرف كيف يعمل ولا متى يتوقف عن العمل . وقد جهل كل الجهل الوظيفة التي يؤديها الجهاز ما هي ؟

إذا حدثت هذه الواقعة فلمن نحكم بأحقية الجهاز المتنازع عليه . ؟!
ليس أمامنا إلا أن نحكم به لحائزه الخبير بأسراره ودقائقه . أما الآخر فهو مدع كذاب وقف به كذبه حيث يقف الكذب أمام الصدق .

والشيوعيون — قاتلهم الله — يدعون أن الطبيعة هي الخالقة ، ولم يأتوا بدليل واحد يقوى هذه الدعوى .

والوحى يقول : « إن الله هو الخالق . ويقدم مئات الأدلة الصادقة على صحة هذا القول ، فليس للعقل ولا للعلم ، ولا للواقع المشاهد إلا الإقرار القائم على كل اقتناع بأن الله هو الخالق المصور . لأنه هو الخبير العليم بأسرار الكون القادر على كل شيء .

أما الطبيعة فلم تدع أنها خالقة ، ولا تصلح لأن تدعى هذه الدعوى . وإنما الذى ادعاها لها قوم آخرون . وهذا يجعل دعوى الشيوعيين أضعف بكثير من دعوى الرجل الكذاب الذى نازع فى شيء ليس له وهو به جاهل ؟! .

والناظر فى حديث القرآن عن الكون والطبيعة يخرج بنتيجة واحدة على وجه الإجمال . فإذا ريم شرحها اتسع البحث والمقال . وتلك النتيجة الواحدة على وجه الإجمال :

« إن الكون أو الطبيعة أو المادة مقهورة لله ، مصنوعة لله ، طائعة لله مسخرة لمنافع العباد . الله هو خالقها قبلا ـ والله هو المتصرف فيها قبلا والآن وبعداً .

فليست المـــادة خالقة ، بل هى مخلوقة ، ولا قاهرة ، بل هى مقهورة ، ولا مسخرة بل هى المسخرة . ولا متصرفة بل هى المصرفة .

وإنما الخالق القاهر المسخر المصرف هو الله « الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

هذا كاف :

أجل . هـذا كاف فى تقويض دعوى الشيوعيين . فإن دعواهم الطويلة العريضة قد بنوها ـ ولسوء حظهم ـ على أن :

المادة سابقة فى الوجود على الفكر : هـذا هو أساسهم الذى أقاموه على شفا جرف هار فانهـار بهم فى نار جهنم . وها نحن ـ بحمد الله ـ قد أثبتنا ـ فى يقين لا يقبل الشك ـ أن الفكر أسبق من المادة فى الوجود . بل

ليس الفكر وحده . وإنما مع الفكر السابق مفكر أسبق ذو علم وإرادة وقدرة وسقنا على هذا المبدأ الإيماني الراسخ العظيم عشرات الأدلة والبراهين فكان يكفينا هذا فى نفض أيدينا من غبار الشيوعية ورمادها دون أن نقف وقفات أخرى أمام فرعيات مزاعمهم التى بنوها على هذه الدعوى التى انهارت فانهارت معها مابنوه عليها من فرعيات . كان يكفينا هذا كما قلنا من قبل . ولكننا نملك وقتا لا نبخل به على ما تهاوى من أنقاض البناء الشيوعى المنهار . فلنرفع من تلك الأنقاض ـ كى تتم عملية التطهير ـ ما يسمح به الوقت . ومن الله ـ وحده ـ العون والسداد .

أزلية المادة :

لا أرانا ونحن نواجه فرية الشيوعيين القائلة بـ « أزلية المادة .

لا أرانا أننا أمام فكرة جديدة لم نواجه من قبل . بل قد مر بنا مضمونها ومعناها وإن لم تكن بهذا العنوان « أزلية المادة » لأن مبدأهم الذى تقدم « أسبقية المادة على الفكر فى الوجود » متضمن لهذا المعنى « أزلية المادة » .

ويريدون بـ « أزلية المادة » قدمها وأنها وجدت بلا بداية . وقد نقضنا فيما تقدم مبدأهم المذكور ، وأثبتنا بالأدلة القواطع أن المفكر أسبق من المادة فى الوجود ، وأن ما من صورة مادية أياً كانت صغيرة فى حجم علبة الكبريت ، أو كبيرة ضخمة مترامية الأطراف بعيدة الغور متعددة العناصر دقيقة التركيب كالكون . ما من صورة من هذه الصور المادية إلا وقد تقدم عليها فكر هو سبب فيه أو واحد من أسبابها إن أردنا تحرى الحقيقة وضبط الموضوع .

وفى قولنا : الفكر أسبق فى الوجود من المادة ، مجاراة للخصم فى أصل القضية لأن قولنا : الفكر أسبق فى الوجود من المادة ، هو العكس المنطقى لقولهم ،

، المادة أسبق فى الوجود من الفكر ، نعم أنه مجاراة جدلية . وإلا فاتنا لا نكتفى بتقدم « الفكر على المادة » فالصورة عندنا لها عناصر أخرى بها تتم عملية التكوين لأى صورة من صور المادة صغيرة كانت أو كبيرة .

ولنأخذ من هذا الكتاب الذى تقرأه — الآن — مثلا، لأنه أقرب المدركات إليك وأنت تقرأ .

هذا الكتاب صورة مادية بلا نزاع . وقد تقدم عليه من حيث أنه كلام مؤلف خمسة عناصر :

مؤلف + فكر + علم + إرادة وقدرة ، وقد جرى منهج الشيوعيين على اعتبار الفكر فى هذا المجال . ولكنه كما علمت فيما تقدم الفكر اللاحق لا الفكر السابق .

فهذا الكتاب سبق على تشكيله فى هذه الصورة المادية التى تراها العناصر الخمسة المشار إليها . وهى :

المؤلف . والفكر الذى تعلق بتصور الكتاب قبل البدء فيه . والعلم الذى أهل للسير فى تحرير المادة العلمية والإرادة الحرة التى لم يعقها عائق عن ممارسه العمل المطلوب لهذا التصور . ثم القدرة المنفذة لإخراج ذلك التصور فى هذه الصورة المادية على الشكل الذى صارت به كتابا يقرأ .

إذن فلا بد — ضرورة — قبل تكوين أية صورة مادية من توافر هذه العناصر قبل إخراجها فى صورتها الماثلة ، وهى :

- الفكر الذى يتصورها .
- والمفكر الذى يصدر عنه الفكر .
- والعلم المحيط بذلك التصور الموضوع .
- والإرادة الحرة التى تتعلق بإنجاز ذلك التصور .

• ثم القدرة المنفذة لذلك التصور على الهيئة التي أريدت .

وهذا الكون بما فيه من أسرار ودقائق وأرض وسماء، وفضاء وأفلاك وبحار ومحيطات وأنهار ، وزروع وجبال وصحارى وملائكة وجن وإنس وأنعام وطيور . هذا الكون إنما هو صورة مادية كبرى مجتمعة فى تفرق ، ومتفرقة فى اجتماع .

وقد علمنا أن كل صورة مادية لابد أن تسبق بعناصر خمسة لأنها مصنوعة وهى :

الصانع ، والفكر ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة . ولكل صنعة صغرى عناصرها المناسبة لها . أما صورة الكون أو المادة الكبرى فإن الله — وحده — هو صانعها بتدبيره وعلمه وإرادته وقدرته فهى إذن ليست أزلية ، لأنها حادثة قد تقدم عليها فاعلها المدبر العالم المريد القدير .

هذا دليل من أدلة حدوث المادة ولها أدلة أخرى نذكر منها :

• إن الأزلى هو الفاعل غير المنفعل ، أو المؤثر فى غيره ولا يتأثر هو بغيره . أو كما يطلق عليه بعض العلماء : هو المحرك الأول الذى لا يحرك . ويقصدون به « لا يحرك ، لا يؤثر فيه غيره أو هو « العلة الأولى التى يفسر بها غيرها ، ولا تحتاج هى إلى تفسير لاستغنائها بذاتها عن سواها » .

وهذه الضوابط كلها لا تنطبق على « المادة أو الطبيعة » .

أما أولا ؛ فلأنها منفعلة غير فاعلة فى غيرها فعلا يعتد به فى هذا المجال .

وأما ثانياً : فلأنها متأثرة غير مؤثرة فى غيرها تأثيراً يعتد به فى هذا المجال .

وأما ثالثا ؛ فلأنها محركة غير محركة لغيرها حركة يعتد بها فى هذا المجال .

وأما رابعا ؛ فلأنها معلولة غير معللة لغيرها تعليلا يعتد به فى هذا المجال .

إنها منفعلة لعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .

وإنها متأثرة بعلم الله وإرادته وقدرته وخاضعة لتدبيره وتصرفه .

وإنها محركة بعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .

وإنها معلولة لعلم الله وإرادته وقدرته ، وخاضعة لتدبيره وتصرفه .

وهذه كلها صفات الحوادث فالمادة حادثة وليست أزلية .

• ودليل ثالث : إن المادة التي يزعم الماديون والشيوعيون أنها أزلية هي أحط أنواع المادة ، لأن أنواع المادة أربعة :

١ — ما يحس وينمو ويتحرك بالإرادة الحرة ويعقل . وهو الإنسان .

٢ — ما يحس وينمو ويتحرك بالإرادة ولا يعقل ، وهو الحيوان الأعجم .

٣ — ما ينمو ولا يحس ولا يتحرك بالإرادة ، وهو النبات .

٤ — مالا ينمو ولا يحس . وهو الجماد كالأرض والجبال والصخور وهكذا .

هذا النوع هو الذي يعنيه الشيوعيون وأضرابهم . ويقولون إنه أزلي وهو الخالق لكل شيء .. وهو منهم دعوى في منتهى السخف إذ كيف يهب الحياة ماهو ليس بحي . إن فاقد الشيء لا يعطيه . فلو كانت المادة أزلية وهي الخالقة لكان الأولى أن تهب لنفسها الحياة قبل أن تمنح غيرها حياة ؟ ! !

أبدية المادة :

المراد من أبدية المادة أنها ستدوم أبدا بلا نهاية ، لأن المادة عند من يقول بأبديتها : لا تفنى . هكذا قال الماديون في العصور الحديثة ، والقول بأبدية المادة قديم . فقد كان ممن قال به في القديم الحكيم اليوناني « جالينوس » ودليله على أبدية العالم ظاهرة جزئية من ظواهر الكون ، وهي ثبوت الشمس على حالتها دون أن يطرأ عليها تغيير . قال : لو كانت الشمس تقبل الإنعدام لظهر عليها ذبول في مدة مديدة ، قال : والأرصاد الدالة على مقدارها منذ

آلاف السنين لاتدل الآن إلا على ذلك المقدار واستدل جاليغوس بهذه الملاحظة على أبدية العالم . . ؟!

ثم جاء الفلاسفة من بعده وتمسكوا برأيه هذا . وقد تصدى لهم الإمام الغزالى رحمه الله فى كتابه « تهافت الفلاسفة » وأبطل رأيهم « عليا » من ثلاثة وجوه :

الأول : أن هذا الدليل - وغيره - على فرض صحته هو دليل بقاء طويل وليس دليل أبدية(١٥) .

الثانى : الجزم بانتفاء ذبول الشمس غير مسلم ولا هو صحيح لجواز أن يكون قد حدث لها ذبول ولكنه خفى علينا .

الثالث : وهذا الدليل كان يمكن التمسك به لو كانت أسباب الفناء محصورة فى الذبول ، ولكن أسباب الفناء ليست محصورة فى الذبول فلا يصح أبداً التمسك بهذا الدليل . [تهافت الفلاسفة : (١٢٦) وما بعدها] .

وحجة الإسلام الغزالى موفق كل التوفيق فى نقض أدلة الفلاسفة على أبدية العالم ، وقد كان رحمه الله قد نقض أدلتهم - بوضوح - على أزلية المادة . وذكر فى تصديه لبطلان الأزلية أن ما ذكر فى بطلان الأزلية المادة هو بعينه أدلة بطلان الأبدية وهذا لم يمنعه رحمه الله من التصدى من جديد لنقض أدلة الأبدية .

والذى ذكره الإمام الغزالى فى تساوى الأزلية والأبدية فى أدلة إبطالهما تمسك به النقاد المعاصرون . فقالوا بعد إثبات فساد أزلية المادة حين تصدوا لنفى الأبدية :

---

(١٥) فالدوام الطويل له نهاية كعمر نوح عليه السلام . وعمر الكون نفسه . والدوام والبقاء بمعنى واحد . أما الأبدية فمعناها ما لانهاية له . وبذلك نفهم تفرقة الغزالى بين الأبدية والبقاء .

إن المادة بطل القول بأزليتها وثبت أن لها « بداية » وكل ما له بداية فله حتما نهاية . فالمادة ليست أبدية لأنها حادثة .

وأنت خبير أن هذا من قبيل الجدل النظرى القائم على المسلمات العقلية . وبقى من مصادر البحث :

دلالة العلم الواقعى .

ثم دلالة الوحى الدينى . ونذكرهما على هذا النظام :

دلالة العلم الواقعى :

كانت المادة قبل تطور العلوم محتفظة بذاتها فالحجر حجر ، والصخر صخر ، والأرض أرض . ولكل كتلة مادية ثلاثة أبعاد كما قال آنشتين صاحب النظرية المعروفة بالنسبية . وتلك الأبعاد هى :

الطول + العرض + العمق . ويضاف عند صاحب النسبية بعد رابع هو :

الزمان . ولكن الزمان غير داخل فى نظام التركيبة الذاتية للمادة . وبتلك الأبعاد الذاتية الثلاثة شغلت الكتلة المادية « حيزا » من المكان متناسبا مع حجمها تناسبا طرديا .

وهذا حمل الناس قديما بل وإلى عهد قريب أن يقولوا : « إن المادة » لا تفنى ولعل هذه الملاحظة هى التى أوحت إلى الفلاسفة وإلى الماديين من الشيوعيين والعلمانيين والوضعيين من بعدهم بأن يقولوا : « إن المادة » أبدية وسيطر هذا الفهم على العقول ردحا من الزمن . وظنوا أنها حقيقة لا تقبل الزوال .

العلم يبدد هذا الإعتقاد

ولكن العلم جاء بما يبدد هذا الإعتقاد ، ويزعزع ذلك الفهم المخدوع الذى وثق فيه الناس حينا . ودعا العلم بموقفه الجديد إلى تغيير النظرة العتيقة وإحلال العقيدة الصحيحة ، محلها .

فبعد أن وقف الناس حيناً عند الذرة ، وظنوا أنها وحدة الوجود المادى وأنها غير قابلة الإنقسام لفرط صغرها ، سرعان ماتبدت الحقيقة عارية من كل لبس فإذا بالعلم يقول : أن المادة قابلة الإنقسام ، وأنها تتحطم ؛ لأنها مركبة من شحنتين كهربيتين سالبة وموجبة ، والشحنة الكهربية مجردة عن كل حامل مادى . وأن المادة إذا حطمت تحولت إلى قوة إشعاعية هائلة يمكن أن تستخدم فى تعمير الكون أو تدميره على حد سواء . وهكذا ظهرت المفاجآة الكبرى :

« هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار ، وتتكشف المادة عن أصلها الأصيل فإذا هى « طاقة » أى قوة مجردة يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادى المحطم ، وذلك الصنم الساقط المهدم ، وهكذا يقترب عالم المادة رويدا رويدا من عالم المجردات ، ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى كما يتصل به من جهة حده الأعلى . وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره؛ لأنه يحس أثره، ويكاد يلمس خطره . أجل ، لقد أصبح العلم اليوم يؤمن بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ، ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر ، المزود بأدق المقاييس والموازين (١٦)

ومعنى هذا :

١ — المادة تفنى فهى إذن ليست أبدية ولا أزلية .

٢ — وحين تفنى المادة تتحول إلى طاقة مجردة من أشكال المادة تماما .

٣ — إن الإعتماد على التجارب الحسية ـ وحدها ـ ليس هو مصدرا للمعرفة الوحيد ، فإن فى الوجود عالما أو عوالم لا يمكن إدراكها عن طريق الحواس .

---

(١٦) الدين (٩٠) للمرحوم د ـ محمد عبد الله دراز .

٤ — إن العلم يؤمن عن اقتناع ورضى تامين بحقائق خارج الكون المادى يدركها العلم بمعونة العقل فلا يسعه إلا الإيمان اليقيني بها .

ومع العلم فى دليل آخر :

إن مبدأ تحطيم الذرة وتحويلها إلى إشعاع هائل هو إحدى الوسائل العلمية التى بددت وهم الواهمين بأن المادة لا تفنى ، وأنها أبدية ليست لها نهاية .

وللعلم وسائل أخرى غير التحطيم فى إثبات فناء المادة ، علميا ، ومن تلك الوسائل الكشف العلمى الآتى :

الانتقال الحرارى :

يقول إدوارد لوثر كيسيل فى الرد على القائلين بأزلية المادة أو الكون أو الطبيعة ، . . ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى الأخير . فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا . . فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة (كالشمس) إلى الأجسام الباردة . ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث ترتد الحرارة من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة(١٧) .

، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون ، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير فى طريقها فإننا نستطيع

(١٧) لإيضاح هذا نقول : إذا وضعنا جسما باردا بجوار جسم ساخن فإن الحرارة تنتقل من الحار إلى البارد تدريجيا حتى تتساوى درجتا الجسمين الحرارية ثم تأخذان فى الانخفاض بتوقف المصدر الماد بالحرارة . ويستحيل عودة الحرارة من البارد إلى الحار مرة أخرى . بل ستزول الحرارة منهما معا .

أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا ، وإلا لاستهلكت طاقته من زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط فى الوجود .

« وهكذا توصلت العلوم ـ بدون قصد ـ إلى أن لهذا الكون بداية ، وهى بذلك تثبت وجود الله : لأن ماله بداية لايمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ، ولابد من مبدىء أو من محرك أول أو من خالق هو « الله »[18] .

ويقول جون كليفلاند كوثران :

« وتدلنا العلوم الكيميائية على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة . والآخر بسرعة بطيئة ، أى أن المادة ليست أزلية وليست أبدية كما يزعم الماديون .

فالعلوم الكيماوية والطبيعية ـ وغيرهما ـ تخطوان خطوات كبيرة يوما بعد يوم بما يكشف عن الحقيقة التى غابت عن الأذهان على أمد طويل . وتنحو العلوم الآن إلى مايؤيد حقائق الإيمان ، ويثبت خطأ الاستنتاجات « الفطيرة » التى يتمسك بها الماديون ، ومما تقدم بدا لنا واضحا أن الشيوعيين الآن تائهون بين خبر كاذب ، وتنبؤ أكذب :

بين خبر كاذب حيث قالوا بأزلية الكون . وقد أثبت العلم والعقل والواقع كذب قولهم .

وتنبؤ أكذب ، حيث قالوا : بأبدية الكون . وقد أثبت العلم والعقل والواقع كذب ماقالوا .

إخبار الوحى الدينى :

فى الوحى الدينى نعول كل التعويل على ماورد فى القرآن الكريم وحده دونما سواه من التوراة والأناجيل .

أما التوراة المحرفة فإن عقيدة البعث فيها لا نكاد نعثر عليها فى نص صريح .

(١٨) الله يتجلى فى عصر العلم (٢٧) .

بل أن من أوضح الواضحات فى التوراة أن الثواب والعقاب مقصوران على هذه الحياة الدنيا . فالثواب إما خير تجود به الأرض ، أو كثرة فى الذرية وسيادة اليهود على كل الأمم من غير اليهود .

وأما العقاب ، فهو إما حرمان من الخيرات الدنيوية ، وإما فى الذرية أو هزيمة أمام الأعداء .

أما الأناجيل فإن ثقة الباحثين فيها قد اهتزت ، حتى أخرجوها من دائرة النصوص المقدسة ووصفوها بأنها « تعبير بشرى غير أمين عن حقيقة كبرى لايشك أحد فى وقوعها ، وهى رسالة السيد المسيح عليه السلام . إن الأناجيل هى تدوين لتلك السيرة النبوية لم يراع فيه المدونون أمانة النقل ولا صدق التعبير .

ولذلك . فليس أمامنا سوى القرآن الكريم والنصوص القرآنية التى تدل على زوال الحياة الدنيا وتبدل المادة الكونية وزوالها فأكثر مايحاط به ـ هنا ـ ومن ذلك :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . وبرزوا لله الوحد القهار »[19] .

فهذا نص قاطع بأن مظاهر الكون المألوف لنا ـ الآن ـ سوف تزول وتحل محلها عناصر أخرى . فتبدل الأرض يتبعه تبدل ماله صلة بها من جبال وأنهار وزروع ومعادن وأشكال وصور لا حصر لها .

وتبدل السموات يلزم منه تبدل كل الأفلاك ؛ لأن السموات أعظم ما فيها ترى الأبصار واقرأ معى هذا النص :

« إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا

(١٩) إبراهيم (٤٨) .

السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت . . . »[٢٠] فى هذا النص أخبار صادقة عما سوف يصيب بعض عناصر الكون من تبديل فالشمس تكور وينتهى دورها ، والنجوم يذهب نورها . والجبال تسير وتنسف . والبحار تشتعل نيرانا . والسماء تزال منها زينتها ولونها . والنار تبرز مستعرة . والجنة تظهر دانية من أهلها .

وفى نصوص أخرى السماء تنشق ، ويتبدل لونها . والنجوم تنتثر وتزول والجبال تنسف نسفا وتكون كالصوف المحلوج ، والأرض تخرج مافيها من ودائع كانت أمينة عليها .

ثلاثة قوانين :

وصفوة القول : أن نصوص القرآن الكريم تضع الكون بين ثلاثة قوانين لله سبحانه وتعالى :

الأول : قانون الخلق والإبداع على غير مثال . فالكون له بداية وغير أزلى.

الثانى : قانون التصرف والتدبير بعد الخلق والإبداع . فالله هو المدبر الآن لهذا الكون وشئونه وليس له فيه شريك ولا ولى من الذل . فالكون محتاج لله فى ذرة من حياته . وليس الكون مكتفيا بنفسه .

الثالث : قانون الإفناء والإبادة . فالله هو الذى سيفنى الوجود الدنيوى تهيئة للحياة الأبدية . فالكون له نهاية وليس أبديا .

وليس بين مايقرره القرآن من نهاية هذا العالم وما يقرره العلم من نهاية العالم حين يتوقف مصدر الطاقة ويصل الكون إلى « الصفر المطلق » وتنعدم الحياة ويختل الوجود . ليس بين مايقرره القرآن وما يقرره العلم من تناقض . مادام العلم لم يدرك متى يصل الكون إلى « الصفر المطلق » فقد يكون هذا « الصفر غير المدرك » هو نهاية حياة وبداية حياة أبدية .

(٢٠) التكوير (١ — ١٤) .

لا وجود لغير المادة . . . ؟!

أعود فأذكرك بالأساس المتهاوى الذى بنى عليه الماديون (الشيوعيون) مذهبهم - استغفر الله - بل تصوراتهم حول قضايا الوجود . ذلك الأساس المتهاوى هو - كما علمت - : المادة أسبق فى الوجود من الفكرة .

وقد رتبوا على هذه المقولة التى ظهر لك فسادها عدة تصورات واهمة مثل: أزلية المادة ، وأبدية المادة . وقد فرغنا من بيان فساد هذين التصورين فى إيجاز كما عرفت .

والتصور الواهى الذى نقف أمامه الآن اعتقادهم أن لا وجود لغير المادة . ويسمون ماعدا المادة عدة مسميات :

غيبيات + ما وراء الطبيعة + الميتافزيقا . وقد حصروا وسائل المعرفة فى معطيات الحواس الخمس . وهذا لازم تصورهم ، إذ ماداموا لا يؤمنون بشىء سوى المادة فليس لهم وسائل معرفة إلا الحواس الخمس . فهم فى مادتهم سجناء كما ترى . أما المعانى والحقائق المجردة فلا صلة للشيوعيين بها . فهم يعيشون فى حالة طفولة دائما . وأعنى بها طفولة المعرفة لا طفولة الطهارة والنقاء .

وفى مواجهتنا لهذه الجهالة العمياء التى لا ترى وجودا لغير المادة نسير على نفس المنهج من الإحتكام إلى العلم والواقع والعقل والوحى الدينى الأمين ، وهى مصادر الفكر والمعرفة الإنسانية الراشدة .

دلالات العلم والعقل :

خذ إليك - مثلا - الرقم (٢) مكررا تمهيدا لإيجاد قيمته على الطريقة الرياضية أى :

٢ + ٢ = ٤ فطريقة الجمع هى إحدى وسيلتين من وسائل الرياضة فى إيجاد قيمة العدد (٢) مكررا . أما الطريقة الثانية فهى طريقة الضرب ، أى : ٢ × ٢ = ٤

فإذا استعرنا الأسلوب المنطقى لهذه العملية بنوعيها جمعا وضربا نستطيع أن نقول إن المقدمتين فى كلتا العمليتين هما : النتيجة ؛ لأن الرقم المراد إيجاد قيمته مكرر فى كل من العمليتين كما ترى :

٢ + ٢ = ٤ أو ٢ × ٢ = ٤ وقد اشتركت الحواس مع العقل فى إدراك عناصر العملية سواء كانت جمعا أم ضربا .

فالعين ترى العدد مفرقا (٢ ، ٢) وتراه مجموعا (٤) . وليس للحواس هنا من دور سوى الإدراك المادى . أما العقل فهو الذى توصل إلى القيمة (٤) وكل ما تدركه الحاسة هنا هو الانتقال من رقم إلى رقم : ٢ ، ٢ ، ٤ .

وخذ إليك - مثلا ثانيا - العدد (٣) مكررا (٣ ، ٣) وطبق عليه نفس العمليتين فى إيجاد قيمته هكذا .

٣ + ٣ = ٦ . هذا فى عملية الجمع ، أما فى عملية الضرب فيكون :

٣ × ٣ = ٩ . فإنك تجد الحواس فى العملية الأولى (الجمع) أدركت العدد المطلوب مفرقا (٣+٣+٣) ومجموعا (= ٩) فالنتيجة هى المقدمتان وهما ماثلات أمام النظر .

أما فى عملية الضرب فإن شيئا قد طرأ لم تدركه الحواس ؛ لأنها فى العدد المفرق لم تجدها أمامها إلا (٣ ، ٣) أما فى العدد الجمعى فقد فاجأها الرقم (٩) فاختلفت النتيجة مع المقدمتين . فمن أين جاء تكرار العدد (٣) ثلاث مرات فى النتيجة (٩) ؟ !

إن حاسة الإبصار ليس أمامها إلا (٣ ، ٣) ومع هـــذا فإن النتيجة صحيحة . ولكن صحتها جاءت من طريق آخر غير طريق الحواس جاءت عن طريق العقل . فالعقل — وحده — هو الذى يفهم من ضرب العدد (٣)

فى نفسه أن المجموع = ٩ وعمل العقل — هنا — عمل ذهنى لاتدركه الحواس بداهة .

ويمكننا أن نكرر هذا فى ميدان العمليات الرياضية آلاف آلاف المرات فنجد العقل يدرك من المعانى الذهنية المجردة ما لا حصر له . ولولا تدخل العقل بملكاته لضاعت أكثر حقائق الرياضة أدراج الرياح « إن الإحساس (الحواس) إنما تحمل إلى عقولنا صور الأشياء فقط ، أما العلاقات القائمة بين الأشياء ، سواء فى ترتيبها المكانى أو الزمانى أو تسبب بعضها عن بعض . فإنها إدراكات وأحكام عقلية لا وجود لها فى صور الأشياء المحسوسة .. »[٢١] .

ومثال آخر :

وقد ترى إنسانا وبيده حروق ظاهرة فيسعفك العقل فى الحال بأن يد هذا الإنسان قد مستها النار أو جسم ملتهب مما له صلة بالنار أو مولدات الحرارة المرتفعة . يسعفك العقل بهذا الحكم ، وأنت لم تر الواقعة التى تسببت عنها تلك الحروق . فأين شاهد الحواس هنا يا ترى؟ إن الحاسة اقتصر دورها على أن تريك الحروق معزولة تماما عن سبب حدوثها ثم تتوارى وقد أدت دورها ليتولى العقل وحده ربط المسببات بأسبابها .

والحكم الذى أقره العقل حقيقة مجردة تماما عن التقيد بقيود المادة وصورها المحسوسة .

وقد تسمع وأنت مار فى طريق طفلا يبكى بصوت مرتفع ، أو إنسانا يئن أنينا عاليا ، فتدرك فى الحال — بعمل العقل — أن هذا الطفل يبكى من أمر أساءه ، خوف ، أو جوع ، أو ضرب .

وأن الإنسان الذى يئن إنسان يتألم من وجع أو ألم نزل به . . .

---

(٢١) قصة الإيمان (١٦٣) .

تدرك هذا بحكم العقل الذى يحاول - دائما - وفى صمت وهدوء أن يربط كل ظاهرة يدركها بأسبابها المناسبة . ويحدد العلاقات بين المسببات وأسبابها وقلما يخطىء فى هذا المجال .

وقد تلتقى فى طريق باثنين تعرف أحدهما ولا تعرف الآخر ، فيقول لك الذى تعرفه أن هذا شقيق فلان ، فتدرك من هذه العبارة أنهما ولدا عن أب وأم فهما ينتميان إلى شجرة نسب واحدة . وأنت لم يتفق لك أن رأيت أباهما أو أمهما . ولم تعرف العلاقة التى كانت بينهما من قبل . ولكن العقل استطاع حين أدير مفتاح عمله أن يحدد تلك العلاقات ويؤلف بينها وهى غائبة عنه .

فكيف يستقيم لأولئك الحمقى أن ينفوا وجود غير المحسوسات ، ووجود غير المحسوسات أكثر بكثير من وجود المحسوسات . فما من مدرك حسى إلا وقد تولد عنه مدرك غير حسى . فهما بهذا الاعتبار متساويات . ولكن المدركات غير الحسية لها مصادر أخرى غير التولد عن المدركات الحسية . وبهذا الاعتبار فإن الموجودات غير الحسية تفوق بكثير المدركات الحسية وهذا ما غفل عنه سجناء المادة المظلمة .

والعلم مع تسليمه بوجود حقائق يعرفها بآثارها يعترف بأن ماهياتها لا تدخل تحت الضبط العلمى من أى نوع كان ذلك العلم .

فالأثير يسلم به العلم ، ولكن ما هو الأثير ؟ لا أحد يعرف .

والروح التى هى قوام الحياه ، حقيقة لا ينازع فيها العلم ، ولكن ما هى الروح ؟ لا أحد يعرف .

بل والعقل تلك الملكة الهائلة ، ماهو ؟ وأين موقعه من جسم الإنسان ؟ وكيف يعمل ؟ لا أحد يعرف .

والأشعة الحمراء ، والأشعة فوق البنفسجية التى يستخدمها العلم ما هما ؟ لا أحد يحيط بهما ؟

إن الوجود غير المادى أكثر من أن يحيط به الإنسان . ونحن لا ندرك إلا ظاهراً من الحياة الدنيا — كما جاء فى الكتاب العزيز — فكيف تذهب قطعان من البشر إلى نفى كل وجود خارج وجود المادة ؟.

وبم نسمى هؤلاء إلا أنهم يعيشون — دائماً — فى طفولة المعرفة فالطفل ـ وحده ـ وإن شاركته العجموات ـ لا يدرك إلا ما وقع تحت واحدة من حواسه المدركة . وهو عن إدراك المعانى المجردة بمعزل . وقد فات الشيوعيين أن وراء كل معلومة حسية مادية حكما عقليا لا يتخلف وأن الحواس جميعا إنما هى أســلاك منبثة حول ذلك « العملاق » العجيب لتقذف إليه بالمعلومات « الفجة » فتنصهر فى « بوتقته » ثم يصدر العقل فى الحال حكمابه تتم عملية المعرفة فى حدودها المألوفة عند البشر . ولا صلة للحواس فيما كان من شأن العقل وداخلا فى سلطانه .

فالعين ترى ـ مثلا ـ جماعة من الناس قوامها خمسة أفراد مثلا . والعقل يصدر حكمه بأن هذه الجماعة « قليلة » .

وترى العين جمعا من الناس لا يدخلون تحت حصر ، فيسارع العقل ويصدر حكمه ويقول أن هذه الجماعة « كثيرة » .

فرؤية احياء « هى عمل العين ، والقلة ، والكثرة هى عمل العقل .

ويذوق اللسان شرابا يتقزز منه فيقول العقل هـذا « مر » ويذوق شرابا آخر يتلذذ منه فيقول العقل هذا « حلو »

وتلمس اليد جسما مضرسا فيقول العقل : هذا « خشن » .

وتسمع الأذن لحنا مفرحا فيقول العقل : هذا « طيب » .

وتسمع صوتا مقبضا منفرا فيقول العقل : هذا « ردى » .

ويشم الأنف رائحة ، مبهجة فيقول العقل : هذه رائحة « زكية » .

ويشم رائحة مقززة تشمئز منها النفوس فيقول العقل : هذه (منتنه) .

وترى رجلا حسن البزة وجيه الطلعة فيقول العقل : هذا (ثرى) .

وترى آخر رث الثياب هزيل الجسم فيدرك العقل أنه رجل (فقير) .

وهكذا دواليك ما من ظاهرة حسية إلا وللعقل فيها (حكم) .

والظاهرة الحسية ظاهرة محـــددة ، أما الحكم العقلى فقاعدة كلية مجردة كانت تلك الظاهرة أحد (ماصدقاتها) أوأفرادها فالعالم (غير المادى) أرحب أفقا من العالم المادى الضيق ومما اختص به العقل طائفة من (الكليات المعنوية) يصعب حصرها ومنها التفرقة الدقيقة بين :

الصدق والكذب ، والصحة والبطلان، والحسن والقبح، والشرف والخسة، والأمانة والخيانة ، والوجود والعدم، والتآلف والتنافر ، والتلادة والطرافة، والحضور والمضى ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والكمال والنقص ، والوفاء والغدر ، والكرم والبخل ، والبطولة والجبن ، والحلم والطيش ، والاعتدال والتطرف ، والإستقامة والإنحراف ، والإيمان والكفر .

هذا ولو رحنا نتتبع هذه المتقابلات لما وقفنا عند نهاية قريبة . ولكننا نكتفى بهذا القدر من الموجودات (المثالية) التى لم يدركها من رضوا بطفولة المعرفة ، فسجنوا أنفسهم فى حدود (المادة) المظلمة وحسبوا أنهم (الفهماء) من بين الناس ، وهم أغبى أغبياء البشر . ؟ !

دلالة الوحى :

وحى الله الأمين يتحدث عن العالمين حديث الأمانة والصدق . والعالمان اللذان يتحدث عنهما هما :

عالم الحياة الدنيا وعالم الحياة الاخرة . وحديثه عن عالم الحياة الدنيا جامع بين الحسيات والمثاليات . فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر ، والقيم الفاضلة التى دعا إليها ، ورغب فيها هى قيم روحية مثالية لا تستقيم حياة البشر إلا بالتصديق بها .

وحديث القرآن عن الحياة الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وثواب وعقاب ، وجنات وارفة تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ونار تتلظى لا يصلاها إلا الأشقى . هذا كله تجسيم وإبراز للعالم الآخر الذى لم يدخل فى حيز المادة الضيقة التى يدور فى فلكها الشيوعيون .

ومن الحقائق الإيمانية قوى الخير ، وهم الملائكة . وما أكثر ما تحدث عنهم القرآن وقوى الشر ، وهم الشياطين ، وللقرآن عنهم حديث متواتر ، والجنة والنار هذه هى معالم العالم غير المادى فى القرآن الكريم . وهو عالم زاخر فياض لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الأمين من الحديث عنه إجمالا أو تفصيلا أو إشارات لاحة ، وفى النصوص الآتية قطوف من حديث القرآن عن العالم غير المادى :

(شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [٢٢] .

(فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا ما رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) [٢٣] .

---

(٢٢) آل عمران (١٨) .

(٢٣) البقرة (٢٤ - ٢٥) .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا ... » (٢٤) .

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » (٢٥) .

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .. » (٢٦) .

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٢٧) .

توخينا فى هـــذه الآيات أن تكون دالة على أسس الإيمان بالعالم غير المادى ففيها الحديث عن الإيمان بالله وهو الأصل الأصيل للحقائق كلها . ثم الملائكة ثم النار وصفاتها . ثم الجنة ونعيمها ، ثم الرسل ، والكتاب ، وهو إسم جنس يشمل الكتب السماوية كلها ، ثم الجن والشياطين ، ثم نحدث عن يوم القيامة . والشيوعيون ينكرون هذه الحقائق كلها ؛ لأنها ليست من الصور المادية . وهب عزيزى القارىء أن الشيوعيين عذرا فى كفرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وجنته وناره واليوم الآخر ؛ لأنهم لم يروا شيئا منها . هب أن لهم عذرا فى هذا فكيف يكون لهم عذر فى إنكار الشياطين والكفر بهم . إن الكفر بالشياطين معناه أن الشيوعيين يكفرون بأنفسهم هم ؟! وهل يرجى من أناس يكفرون بأنفسهم خير قط ؟! .

---

(٢٤) البقرة (   ) .
(٢٥) الجن (١ — ٢) .
(٢٦) الملك (٥) .
(٢٧) الزمر (٦٨) .

حديث القرآن عن العالم المادى :

الحياة الدنيا فى القرآن وسيلة لا غاية . فهى ليست مطلوبة فى نفسها ، وإنما هى وسيلة لحياة أخرى أطيب وأخلد وأبقى . وقد طالب الله فيها عباده بعدم الركون إليها وأن يتخذوها معبراً للنعيم المقيم . فمن أحسن فيها كان له جزاء الحسنى . ومن أساء فقد خسر الدنيا والآخرة . وحديث القرآن عن الحياة الدنيا وما فيها من مظاهر وصور مسوق لغرضين إذا افترقا اجتمعا .

أحدهما : الإمتنان على الخلق بمظاهر النعم المسداة إليهم من الخالق ليشكروه ويقدروا نعمه حق قدرها .

والآخر : أن يلفت الأنظار إلى بديع صنعته سبحانه ، وبليغ حكمته وجليل قدرته فيما صاغت يد القدرة مما ليس للبشر إليه سبيل ليكون فى ذلك دلائل قوية من دلائل الإيمان اليقينى بالله وامتثال أمره واجتناب نواهيه .

هذان الغرضان نحسب أنهما محيطان بكل صور الحديث عن الحسيات فى القرآن الكريم . ولنسق على هذا ما يؤيده ويقويه :

أولا : «أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ . لو نشاء لجعلناه حطاما فظللتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون ؟ . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » .

فى هذا البيان الساحر الآسر عظات بالغات استظهرها البيان الحكيم من بعض الصور المادية المحسوسة التى يعيشها البشر فى الأحوال الخاصة والأوضاع

العامة بدأ بظاهرة التناسل ، ووقف الإنسان عند طرفيها الأدنى والأعلى .
فالطرف الأدنى هو « وضع ذرة الماء فى الرحم » وفى هذا عملان ، عمل ساذج
حيوانى للإنسان ، وهو مجرد القذف ، وعمل حكيم لعلم الله وإرادته وقدرته ،
وهو الخلق والتكوين والتنشئة . وجانب الإنعام — هنا — ظاهر فى العملين
البشرى والإلهى . بيد أن البيان الحكيم يقفز قفزة سريعة من تمثيل هذه
الصورة الحسية إلى إبراز أثر القدرة والحكمة الإلهية التى تعجز عندها قدرات
البشر . فهى الخالقة — أعنى قدرة الله — وإذا كان الخلق هو « الحياة » والله
واهبها . فإنه — كذلك — قدر الموت لكل حى . والقدرة الإلهية لا تقف عند
هذا الحد المألوف ، بل هى قادرة — إذا تعلقت بالقدرة إرادة — أن تبدل
الأوضاع التى عليها الخلق . وتنشئها فى أوضاع أخرى لا تقع تحت سمع وبصر
البشر . دليل ذلك أن النشأة الأولى ظاهرة جلية . والله الذى أنشأ النشأة
الأولى قادر على نشآت أخريات ، لأنه على كل شىء قدير .

وهذا مع أنه بيان للإنعام الإلهى على الخلق ، فهو دليل من أدلة الإيمان
بالخالق العظيم .

ثم انتقل إلى صورة أخرى عامة تتكرر كثيراً وتفترش جزءاً كبيرا من
الأرض وتقوم عليها حياة الإنسان والطيور والأنعام . ويتصدر هذه الصورة
استفهام وما هو باستفهام . وإنما لتمثيل الصور فى الذهن ليتحدث عنها البيان
وهى ماثلة للعيان : « أفرأيتم ما تحرثون » انها جملة تضع فلاحة الأرض
كلها على مسرح متحرك .

أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . إن عمل الإنسان فى فلاحة الأرض
ينتهى بوضع « الحب » وسقيه ، ثم تتولى العناية الإلهية الإنبات والإنماء
والتشكيل والتصوير والتكوين والإثمار والإنضاج ، والتهيئة للإنتفاع بضروب
من المنافع التى تفيد الإنسان فى حياته .

وللقدرة الإلهية معادل أو معادلات أخرى . فهى قادرة على أن تجعل الزروع حطاما قبل أن تصل إلى درجة التهيئة للإنتفاع . وإذا أراد الله هذا جمدت أرادت البشر ، وكلت قدراتهم إلا من التحسر والتندم ، وهكذا تآخت مظاهر الإنعام ودلائل الإيمان والتوحيد أمام صور حية لا يملك المخاطب أمامها إلا التسليم والإذعان طوعا أو كرها .

ثم ينتقل البيان الحكيم إلى « الماء » الذى جعل الله منه كل شىء حى : إنه ينزل من السماء من جبال فيها من برد . ويتوجه البيان بهذا الاستفهام : « أفرأيتم الماء الذى تشربون » ليصور حقيقة الماء فى الذهن وكأنه حاضر ماثل ينظر إليه المخاطبون وهى يجرى سهلا طيعا بين أيديهم ، وقد كان فى الآفاق العالية لا تناله يد مخلوق ولو طالت . ويعاد الاستفهام مرة أخرى ليذكر الإنسان بضعفه وبجلائل نعم الله عليه: أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ » .

ثم يجمع إلى هذه الصور صورة « النار » ومنافعها عند الإنسان لا تقف عند حد معلوم فهى « الطاقة » الثانية بعد الماء تستخدم فى الأغراض الصغيرة كطهو الطعام وفى الأغراض الكبيرة كصهر الحديد والنحاس والمعادن التى هى قوام الصناعات العملاقة . ويسأل البيان الحكيم: « أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .

ونلحظ أن البيان القرآنى حرص على حذف الجواب فى كل استفهام فى فواصل الآيات التى ترددت فيها نسبة « الظاهرة الملفوت إليها النظر » بين فاعل ليس هو بفاعل . وفاعل هو حقا — الفاعل .

وسر هذا الحذف أن هذه الاستفهامات جوابها معلوم . فالخالق هو الله والزارع هو الله ، ومنزل الماء من المزن هو الله ، ومنشىء النار هو الله . فليس السؤال عن الفاعل من هو؟ بل هو تذكير وتقرير بحقائق أدت وتؤدى غرضين جليلين .

أحدهما لفت الأنظار إلى جلائل نعم الله ودقائقها . وصنوفها وصورها .
والآخر سوق الأدلة والبراهين على صحة الإيمان بالله وما بعث به رسله .

فالمادة أو الطبيعة أو الكون موضوعات للتأمل والغذاء الروحى الإيمانى من جهة . ووسيلة الإعاشة من جهة أخرى . إنها طريق الإيمان بالخالق ، ووسيلة للإمتاع الذوقى الجمالى أكثر منها مطعما ومشربا وملذات . فهذه زائلة ، وتلك باقية . هذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثانياً : ونحن الآن على مقربة من لوحة صنعت بريشة المبدع الخبير فاقت كل صور الإبداع فى صوره وأشكاله البشرية . لوحة جمعت مساحات شاسعة من خريطة الكون المرئى وغير المرئى بمقياس رسم تمثل وحدة القياس فيه ، وهو أبعاد ومساحات على الورق واحداً من المليون من عمق المشاعر . وأضعافاً مضاعفة بلا حصر من المساحات الواقعية التى تمثلها تلك اللوحة البديعة حقا .
وتلك اللوحة هى :

قال الحق تبارك وتعالى :

« قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون . أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة . ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه . ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل لا يعلم من فى السموات

والأرض الغيب إلا الله . وما يشعرون أيان يبعثون . بل إدارك علمهم في الآخرة . بل هم في شك منها . بل هم منها عمون »[٢٨] .

هذه اللوحة المبدعة جمعت أقطار السموات والأرض وما بينهما ، لقطات عميقة فسيحة تنقلات سريعة خاطفة ، ولكنها شديدة التأثير ، حيث نرى قدرة الله ـ وحدها ـ هي المهيمنة على كل ذرة من ذرات الكون ، هي المحركة ، وهي الخالقة ، وهي الواهبة ، وهذه المناظر الحسية تخللها وقفات تتجاوز مظاهر النعمة لتعود بالحقيقة إلى مصدرها ، وتضعها موضعها بين حقائق الإيمان ، فالله ـ وحده ـ هو الله وليس له شريك لقد امتزجت مظاهر الإنعام الحسي وغير الحسي هنا بدلائل الإيمان الناطقة ، ولو لم يكن في الوحي إلا هذه المجموعة من الآيات لكانت كافية في تقرير عقيدة التوحيد ، لأن موضوع هذه اللوحة كما ترى هو موضوع الكون والحياة ، بطول الكون وعرضه وعمقه وبطول الحياة وعرضها وامتدادها .

وهكذا يوظف القرآن المشاهد المادية المحسوسة للغرضين الكبيرين اللذين هما :

١ ـ الامتنان على العباد بجلائل النعم ودقائقها ، ظاهرها وباطنها .

٢ ـ إبرازها كدلائل على عقيدة التوحيد ، وهي ـ في الواقع ـ كذلك . دلائل مسطورة بحروف واضحة يقرؤها كل الناس . بكل سهولة ويسر . وتقوم الحجة لله على خلقه .

فالمادة مخلوقة لا خالقة ، لها بداية وليست أزلية ، ولها نهاية وليست أبدية وهي موضوع للتأمل واستخلاص العبر الداعية إلى الإيمان بالخالق العظيم وليس الوجود المادي هو كل « الوجود » بشهادة العلوم ، وإقرار

---

(٢٨) النمل (٥٩ - ٦٦) .

العقول ، ودلالات الواقع ، وتأييد الوحى . وهذه هى أسس الفكر والمعرفة الإنسانية وليس وراءها إلا الوهم .

والذين لا يتجاوز إيمانهم المادة وصورها خلقاء بأن يسلكوا فى عداد العجموات . هذا نزلهم عند الله وعند الناس . وإن رفعنا من قدرهم ولم نخطىء فى وصفهم ، فهم يعيشون فى طفولة المعرفة . وقد قطع الناس - غيرهم - أشواطا واسعة الخطو فى الرقى والتسامى وصدق النظر ، وبعد الإدراك . وصدق الله العظيم :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة . ولهم عذاب عظيم » .

ولنذكر - معا - قول الشاعر فى وصف البلادة :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

الله ذو الجلال والإكرام :

الله ذو الجلال والإكرام ، هذا « العنوان » آثرنا أن نجعله هو « العنوان » الذى نناقش تحته فكرة الألوهية عند الشيوعيين ، وهو مناقض تماما لتلك الفكرة عندهم ، والعنوان الذى كان ينبغى وضعه على هذا المبحث ، ولكننا تأدبا مع « الله » ذى الجلال والإكرام آثرنا وضع هذا العنوان ، ولم نخضع لما يقتضيه البحث من وضع عنوان مطابق للفكرة التى نبحث فى ظله ؛ فالشيوعيون ينكرون وجود الله عملا بمذهبهم المادى ، والعنوان الذى كان مناسبا لهذه الفكرة أن يقال « الله لا وجود له » - سبحانه عما يقول الظالمون - ولو أننا صنعنا هذا الصنع لكان لنا مندوحة ، فناقل الكفر على سبيل الحكاية - ليس بكافر . ولكننا لم ننظر لطبيعة الاعتقاد الشيوعى فى الله ، والذى سنعرض له - هنا - بل نظرنا إلى الواقع والمآل فآثرنا معنى « الاثبات »

على معنى « النفى » ، لأن هذا « النفى » لا وجود له إلا فى أذهان أو فى أفواه الملحدين .

هذه مقدمة كان لابد منها حتى يكون القارىء على بينه من الأمر . ولا ريب أن حسن التأدب مع الله أولى بالرعاية من أدب البحث نفسه وبخاصة إذا كان التصور المراد درسه وهما من الأوهام ، وهو ما عليه الشيوعيون فى كل تصور فضلا عن تصورهم فى فكرة « الألوهية » التى هى مدار الإيمان عند المؤمنين .

.... (٢٩) :

إن تصور الشيوعيين أن الله غير موجود . كان الهدف من وضع أساس المذهب المادى عندهم . وأساس مذهبهم كما تقدم مرات تلك الفكرة الواهمة التى قالوا فيها :

« إن المادة أسبق فى الوجود من الفكرة :

وقد وقفنا على حقيقة المادة وهى ما يدرك بواحدة من الحواس الخمس وبناء على هذا التصور الواهى قالوا بكثير من التصورات الواهية . منها ما تقدم من قولهم بأزلية المادة وأبديتها ، وأنها هى الخالقة ، وحدها ، وقد أخذوا هذا القول عن داروين الذى قال : « إن المادة هى الخالقة ، وأنها ليست لها نهاية فى الخلق ؟ !

ثم قالوا : إن الوجود الحقيقى هو للمادة وأن ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات لا وجود له » . وإنما هو « ما وراء المادة » إنعكاسات للمادة فى ذهن الإنسان وليس له وجود فى الواقع ؟ !

(٢٩) هذا الفراغ هو موضع عنوان فكرة الألوهية المنفية عند الشيوعيين آثرنا تركها هكذا « فراغا » لأن نفى الألوهية لا وجود له إلا فى خيالهم .

ومعلوم أن فى مقدمة « الغيبيات » التى لم تقع تحت الحس « الله » سبحانه وتعالى الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير .

فالله فى التصور الشيوعى الواهم لا وجود له ؛ لأنه ليس مادة فلا يقع عليه الحس بأى صورة من الصور . وما دام هـذا شأنه فهو — عندهم — غير موجود ؛ لأنه - عندهم - لو كان موجوداً لأمكن أن يقع تحت الإدراك بواحدة من الحواس :

يرى ، أو يسمع له صوت ، أو يجس ، أو تشم له رائحة ، وهذا لم يقع فهو إذن غير موجود عندهم ؟!

ثم راحوا يتوسعون فى هذا التوهم فقالوا : إن الله انعكاس من تأثيرات الطبيعة فهو من ابتداع الإنسان ، وليس الإنسان من ابتـداع الله . وكذلك كل العلوم والفنون والآداب والقيم الأخلاقية والعادات والتقاليـد والقوانين والوطنية ، كل أولئك أمور ابتدعها الإنسان متأثرا فيها بانعكاسات الطبيعة أو المادة ، إذ لا وجود لغير الطبيعة أو المادة المحسوسة ، وأنها كانت ولم يكن الإنسان ثم كان الإنسان من خلقها وابتـداعها والإنسان هو الذى ابتدع كل تلك الأشكال والصور الذهنية وقسمها ونوعها كيفما شاء .. ؟!

ثم ذهبوا بعد ذلك إلى أن كل القيم غير المادية خاضعة للتغير حسب تأثر الإنسان بظروف المادة . فإذا طرأ عليها تغيير تغيرت تبعا لها قيم الإنسان الدينية والخلقية وسائر آرائه ومعتقداته . فليس فى الوجود شىء ثابت قط ، بل كل ما فيه خاضع للتطور والتبدل والتغير .. ؟!

يقول كارل ماركس فى البيان الشيوعى :

« إن الشبهات التى تلقى على الشيوعية من جانب الدين، أو جانب الفلسفة، أو جانب الأفكار النظرية على العموم غير جديرة بالجد فى تمحيصها واختبارها .

فهل يحتاج الأمر إلى بداهة عميقة لنعلم أن خواطر الإنسان وآراءه ومداركه ، أو بكلمة واحدة وعيه ، يتغير مع كل تغير يطرأ على كيانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة »[٣٠] .

ماركس يذهب إلى أن تغير كل القيم والآراء تبعا لتغير المادة أمر بدهى ظاهر لا يحتاج إلى شرح وتدليل . هكذا يثق كل الثقة كما ترى . وكأنه يتكلم عن معادلة رياضية أو بديهة عقلية ، أو ظاهرة حسية جليـــة . وفاته كما فاته قبل ذلك كثير أنه يقف مع الفروض المثيرة ، والأوهام الزائفة . ولا أعتقد أن القارىء فى حاجة — بعدما تقدم من هدم الأساس الذى بنوا عليه هذه التصورات — من مواجهة جديدة لفكرة نفى الألوهيـة عند الشيوعيين . ومع هذا ، الغنى ، عن المواجهة فإننا نقف أمام هذه الفكرة بالمرصاد لنرى زيفها — من جديد — بحكم العقل ، والعلم ، والواقع والوحى . فتعال معى والله يرعانا ويسدد خطانا فإننا من أجل نصرة حقه نعمل وفى سبيله نجاهد .

العقل والإيمان بالله :

العقل أعظم الملكات الإنسانية فى إدراك الحقائق واتخاذ القرارات والأحكام ، ومن وسائل تغذية الحواس وتجارب العلوم ، ومن موجهات العقل ومرشداته الوحى الإلهى والحقائق الدينية . ومعلوم أن دور العقل يأتى فى أعقاب مدركات الحواس ومحصلات العلوم ، فهو القضاء العالى بعدها . والحقائق الدينية عاصم للعقل من الإنحراف والزيغ .

والعقل يصل إلى « أحكامه » عن طريق عملية التفكير والسبر والقياس والموازنة والترجيح والتمييز .

وموقف العقل من قضية الإيمان بالله موقف قديم قدم العقل نفسه . فهو

(٣٠) الشيوعية الإنسانية (١٦٢) مرجع سابق ذكره .

منذ وجد متطلع نشط فى السعى وراء هذه الحقيقة التى لا مناص للعقل من التعلق بها والأخذ فى الحوم حولها حتى فى عصور الهمجية منذ أول أطوار التاريخ الإنسانى الذى يدرك بالظنة قبل الضبط والتحديد .

ثلاث مراحل للعقل :

وعلماء الإنسانيات والمقارنة بين الأديان قد أجمعوا على أن العقل الإنسانى مر بثلاثة مراحل - قبل الأديان السماوية - فى مسألة العقيدة الإلهية . وأن تلك المراحل كانت تنمو نموا رأسيا كل مرحلة منها كانت تعلو التى قبلها تبعا لتطور العقل ونضجه حتى بلغت فى المرحلة الثالثة مرحلة القرب من الكمال .

والمراحل الثلاث هى :

الأولى : مرحلة التعدد ، وفيها لم ير العقل حرجا فى أن يكون لهذا الكون أرباب متعددون لا رب واحد .

الثانية : مرحلة الترجيح والتمييز ، وفيها تنبه العقل إلى ضرورة المقارنة بين الآلهة والأرباب وتقديم إله على إله والركون إليه دون سواه مع إبقاء « سواه » على أنه رب أو إله ، ولكنه فى حكم المعزول أو الموقوف .

الثالثة : مرحلة التوحيد . وفيها عزل العقل الإنسانى الآلهة أو الأرباب الذين كانوا موقوفين أو معزولين فى مرحلة الترجيح والتمييز ، أو كانوا آلهة « احتياطيين » عزلهم العقل فى مرحلة « التوحيد » وصار يؤمن بإله واحد كاملا أو قريبا من الكمال حسب الجهد العقلى المبذول .

هذا ما أجمع عليه علماء المقارنة بين الأديان(٣١) .

---

(٣١) انظر كتاب « الله » (٧١) للأستاذ عباس محمود العقاد ط دار المعارف .

ونرى أن سمة أخرى من سمات البحث في العقيدة الإلهية كان يجب أن يشار إليها — هنا — وتوضع في مرتبتها اللائقة بها بين هذه المراتب الثلاث وهي — فيما نرجح من خلال القراءات الطويلة في هذا المجال — مرحلة الانتقال من :

التجسيم والتشبيه إلى التجريد والتنزيه . ونعتقد أنها رابعة المراحل في الترتيب .

وهذا التدرج كان ثمرة للنظر العقلي المستمر ، وكان التوحيد والتجريد هو أرقى مراحل الاعتقاد ، وقد جاءت الأديان السماوية بصدق ما انتهى إليه العقل مضيفا إليه ما كملت به عقيدة التوحيد والتجريد في أسمى صورة .

فالعقل أدرك منذ - البدء - ضرورة الإيمان بالخالق . واهتدى إلى بعض صفاته التي رأى أنها لازمة من لوازم « الألوهية » .

وكان دور الوحي محصورا في دائرتين كبيرتين في مجال العقيدة الإلهية :

إحداهما : سوق الأدلة والبراهين القاطعة على وجود الله سبحانه ونفي أن يكون للكون خالق سواه ، أو مشارك له أو معين :

والثانية : إثبات الكمال المطلق لله وأنه ليس كمثله شيء .

لماذا اتجه العقل نحو عقيدة الألوهية . . ؟

للعقل — بوجه عام — موقف أمام كل الظواهر والجوانب يحاول فيه أن يكون بينه وبينها انسجام مستمر يضفي العقل من خلاله ما يمكن أن نطلق عليه « شرعية الوجود » وإذا استعصى على العقل فهم ظاهرة من الظواهر ولم يحدث انسجام بينه وبينها ظل يفكر فيها إلى أن يصل إلى تحقيق ذلك الإنسجام من خلال تفسير مقنع لإضفائه « شرعية الوجود » عليها . وإلا ظلت مصدر قلق واضطراب مستمر عند العقل .

وهذا الإنسجام الذى يسعى العقل لتحقيقه بينه وبين الكائنات والظواهر ينقسم قسمين كبيرين :

الإنسجام الثابت :

أحدهما : إنسجام ثابت ومطرد بين جميع العقول لقيـــامه على أسباب وتفسيرات واضحة كاشتداد الحرارة صيفا ، واشتداد البرودة شتاء ، واستواء سطح سائل كالماء فى أوان متجاورة بينها اتصال من الداخل [الأوانى المستطرقة] ورؤية الاجسام الطويلة قبل القصيرة إذا كانت على بعد واحد من « الناظر » قبل الوصول إليها . وهكذا .

الإنسجام المتردد :

والآخر : إنسجام غير ثابت وغير مطرد عند كل العقول . وهذا القسم خاص بكل ظاهرة أو كائن له تفسيرات مختلفة ، وتعليلات متباينة ناتجة عن خفاء فى «حقيقته» وتعدد الإتجاهات حوله تبعا لقوة الخفاء وضعفه . فالروح - مثلا - شديدة الخفاء لدرجة أنها يتأبى على العقول فهمها ، ومع ذلك فإن كثيراً من العقلاء قد حاولوا وضع تصور لها . ولكن على سبيل الظن لا اليقين مع أن العقل يؤمن بخروج « الروح » عن دائرة بحثه .

ومثل القيم المثالية كالخير والجمال والحق والإلزام الخلقى ، وقد مر بنا الإشارة إلى المذاهب فى مصدر الالزام .

ومثل البحث عن مصادر المعرفة فقد اختلف البحث العقلى والوضعى حولها . وقد ناقشنا هذا فى شيء من التفصيل فيما تقدم .

وكل هذه المحاولات كان الهدف منها تحقيق الإنسجام بين العقل وبين الظواهر والكائنات وفهم القيم فيما هو خارج عن دائرة البحث الحسى الوضعى .

ذاك هو - إجمالا - موجز موقف العقل من حقائق الأشياء فيما كان

الإنسجام فيه ثابتا مطرداً كالقوانين الرياضية والطبيعية وما كان الإنسجام فيه غير ثابت وغير مطرد .

وسبب اختلاف العقول حول تفسير بعض الكائنات راجع فيما أرى إلى مصدرين لا ثالث لهما ، وهما :

١ — خفاء وغموض محيط بجانب من جوانب الظاهرة موضوع البحث ، أو محيط بكل جوانبها كالروح والعقل .

٢ — عظمة الكائن أو الظاهرة موضوع الدراسة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك البحث حول : لماذا اتجه العقل أول ما اتجه إلى البحث عن ومن العقيدة الإلهية . وهو موضوع الدراسة فى هذا الفرع الذى سبقت الترجمة عنه منذ قليل .

نموذج من العمل العقلى :

قد تكون جالسا فى مكتبك تقرأ أو تكتب ، وفجأة تسمع « جرس التليفون » يرن بجوارك ، فتتوقف عما كنت فيه وترفع سماعة التليفون ، وتستعد لعملية إرسال واستقبال ؛ لأنك قد جاءت إشارة سريعة من العقل بأن أحداً قد طلبك ويريد أن يحادثك فى شأن ما .

فإذا لم تجد أحداً على الطرف الآخر وإن حرارة الجهاز عادت ترنونات داخلية متتابعة وضعت السماعة . ولكن العقل يعطيك تصوراً آخر يفسر به هذه الواقعة . وهى أن أحداً لم يطلبك ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك فإن واحدة من حالتين كان يجب أن تحدث :

فإما أن الذى طلبك لم يحارك فى الحديث بل امتنع لأمر ما .مع استمرار رفع السماعة من الجهاز الطالب . وفى هذه الحالة لا تسمع إلا صمتا فلا الجهاز يعطيك علامة « المشغول » ولا الرنين المتواصل الداخلى الذى نسمعه عادة عندما نرفع سماعة الجهاز لنتصل بجهاز آخر وإما أن الطالب سارع ووضع سماعة الجهاز وفى هذه الحالة تسمع الصوت الخافت المتقطع [أوو — أوو] وهى علامة الجهاز المشغول .

ومعنى هذا أن ماساً كهربائياً غير مقصود قد مس جهازك ثم زال أثره عند رفعك سماعة تليفونك .

ويأبى العقل كل الإباء أن الرنين الذى سمعته وكأن شخصاً آخر قد أراد الإتصال بك . يأبى العقل أن هذا « الرنين » قد حدث بدون مؤثر قط .

والعقل فى مثل هذا الموقف يمارس عمله فى حرية كاملة حول تفسير الظواهر لتحقيق الإنسجام وإضفاء « شرعية الوجود » عليها وهو حين ما يفعل هذا يستند إلى قوانينه وبدهياته ومنها قانون :

العلية أو السببية . وهذا القانون تسلم به كل العقول أيا كان مصدرها . اللهم إلا فريقا من الناس ينفون مبدأ السببية وسوف نشير إليهم فى موضع قادم بإذن الله . وهذا المثال الذى قد مناه للعمل العقلى حول ظاهرة « بسيطة » أو « جزئية » ولكن العقل يعمم هذا العمل فى كل الظواهر والحقائق حقيرها وعظيمها ومن عظيم الحقائق التى حاولت العقول - قديما وحديثا - فحصها ودرسها بغية الوصول إلى معرفة أسبابها ومكوناتها ودواعيها تحقيقا لإيجاد الإنسجام بينها وبينه :

حقيقة التدين قبل نزول الأديان السماوية : هذه الحقيقة هى التى قد ترجمنا لها من قبل بـ :

لماذا اتجه العقل نحو العقيدة الإلهية : وكنا قد أرجأنا الحديث عنها حتى نفرغ من التمهيد الذى قد مناه . ونبدأ الآن - بعون الله - فى الإجابة على هذا السؤال الذى شغل ويشغل العقلاء من مفكرين وفلاسفة وعلماء منذ أقدم العصور إلى الآن .

وغير خاف على القارىء أن هذه الحقيقة من الحقائق العظيمة ، ولذلك

كان لاختلاف الآراء حولها مجالات واسعة كما سيتضح فى غضون البحث .

قدم النزعة الدينية :

دل البحث الحديث فى تاريخ الإنسانيات أن النزعة الدينية قديمة منذ أقدم العصور ، لافرق بين القبائل الهمجية والتى أخذت بقسط من الحضارة . فقد كثرت الرحلات إلى خارج أوربا فى القرن الثامن عشر ، وقد اكتشفت من دراسة الأساطير والعوائد والتقاليد أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل منها أمة من الأمم القديمة ، رغم التفاوت فى الرقى . وأنها أقدم من الحضارات المادية . ولم يكن السبب فيها خداع الرؤساء وتضليل الدهاة من الكهان . وليست أسبابها طارئة على الإنسان بعد قطعه أشواطا من أشواط التاريخ . بل كانت تعبر عن نزعة أصلية مشتركة عند جميع الأمم والشعوب على مدى التاريخ الإنسانى كله .

فقد أثبت لانج وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى كل من أوستراليا وأفريقيا وأمريكا . وأثبتها شريدر عند القبائل الآرية القديمة . وأثبتها بروكلمان عند القبائل السامية قبل الإسلام .

وأثبتها لرواه ، وكاترفاج عند أقزام أواسط أفريقيا . وأثبتها شميدث عند بعض الأقزام وعند سكان أوستراليا الجنوبية الشرقية .

وانتهت بحوث شميدث إلى أن فكرة « الإله الأعظم » توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية[٣٢].

ويقول معجم لاروس للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية وإن

---

(٣٢) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (١٠٨) بتصرف .

الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالية الخالدة للإنسانية » .

ويقول : « إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى ولا تضعف ولا تذبل إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد » .

هذه الحقائق التى تكشفت للدارسين تولدت عنها نظرية فى مجال نشأة العقيدة الآلهية . عرفت بإسم :

« فطرية التوحيد وأصالته » وقد ناصرها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، منهم من أشرنا إليهم منذ من قبل .

وقد قضت هذه الدراسات التى قام بها لانج وزملاؤه على فكرة واهمة روج لها فولتير محييا بها رأى السوفسطائيين القدماء الذين كانوا يقولون : إن ظاهرة التدين عرفت متأخرة فى تاريخ الإنسان الذى كان يعيش دهراً طويلا بلا دين فعمت الفوضى الناتجة عن الحرية المطلقة ثم اهتدى بعض العباقرة إلى فكرة إيهام الناس بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شىء ، وتسمع كل شىء ، وتهيمن بحكمتها على كل شىء ، فجاء فولتير وقال :

« إن الإنسانية لابد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة فى حالة مادية خالصة قوامها : الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحدادة ، والنجارة قبل أن تفكر فى مسائل الدينيات والروحانيات ... وإن فكرة التأليه إنما اخترعها الدهاة الماكرون من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء »[٣٣] .

---

(٣٣) المرجع السابق (٨٠) هذا وقد ردد ماركس وانجلز نفس هذه العبارة فى تعليل نشأة المسيحية . وسيأتى ذكره فيما بعد .

هذه الفكرة التي تابع فيها فولتير السوفسطائيين ماهي إلا مجرد دعوى واهمة عارية عن كل دليل يقربها من التصديق . وقد عرفنا أن مباحث لانج وزملائه وانتهائها إلى « فطرية التوحيد وأصالته » قد قضت على تصور فولتير والسوفسطائيين . وبات من المسلم به عند الدارسين الموضوعيين أن ظاهرة التدين بوجه عام صاحبت رحلة الإنسان من أول عهده بالحياة . ولم يخل منها عصر ولا شعب ولا أمة يقول هنرى برجسون في تأكيد فطرية التدين :

« لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم ولا فنون ولا فلسفات . ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

ولهذا فإن دارسى تاريخ الأديان لم يكن همهم - كما نرى من مباحثهم - البحث عن ظاهرة التدين وجدت أم لم توجد ، وإنما كان همهم البحث عن أسباب وجودها ومعرفة أشكالها وصورها . أما وجودها في نفسه . فقد كان حقيقة عندهم لم ينازع فيها منصف ، وإن وجد نزاع كما رأينا عند السوفسطائيين وفولتير ، وكما عند الشيوعيين ، فهو نزاع ساقط ، لأنه لم يقم على دليل قط .

المذاهب في تفسير نشأة التدين :

تتعدد المذاهب في تفسير نشأة التدين ، واقتراب البشر من الإيمان بالله ، تتعددا ظاهرا . ونوجز فيما يأتي الحديث عن أمهات المذاهب في هذا الشأن .

١ — التأمل في الكون :

من البديه والمعقول جداً أن يكون النظر والتأمل في الكون أو الطبيعة من المصادر المطروقة عند الباحثين في أسباب نشأة التدين والإيمان بالله . فالكون يراه الإنسان أكبر وأعظم منه ، مصداق هذا قوله جل في علاه : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ... » .

والكون كما نرى - ليس ساكنا بل تتوالى فيه حركات منتظمة كحركات

الأفلاك الظاهرية وحركات غير منتظمة كالرياح والسحب والرعد والبرق والأمطار والسيول وهو - بهذا - مدعاة للفات الأنظار، ومسرح للفكر. هذه الحركات التى يحس بها الإنسان يشعر - وهو يحس بها - أنه ليس فاعلا لها، وهو أعجز ما يكون أمامها فليس هو قادر على وقف حركات الأفلاك، ولا إسكان الريح، ولا إسكات الرعود، ولا إخماد البروق، ولا دفع الأمطار والسيول، ولا على تلطيف حرارة الشمس إذا اشتدت، ولا تعديل برودتها بل هو كائن حقير بين هذه القوى الفلاية القاهرة المستقلة عن إرادة البشر، المستأبية على قدراته.

وهذا بالطبع يولد عنده الدهشة والإعجاب، ثم يدفعه تفكيره إلى التساؤل أو السؤال عن مصدر هذه المعجزات، التى لا حول ولا قوة له أمامها إلا أن يتقى بعضها بالهروب منها كأن يأوى إلى مغارة أو ظل شجرة يتقى بها مس الشمس.

والتساؤل أو السؤال ينتهى به إلى أن «فاعل» هذه الظواهر يجب أن يكون ذا قدرة تفوق قدرات البشر؛ لأن أحدا من البشر كائنا من كان لا يدعى أنه أهل لإحداث هذه الظواهر. وإذا ادعى فإنه لا يصدقه أحد، بل لا يصدق هو نفسه. وهذا العجز الظاهر عند الإنسان هو طريق الإيمان «بالله»، وهو سبب التدين منذ القدم. ومن أشهر القائلين بهذا المذهب العالم الألمانى ماكس مولر. وقد استخلص هذا الرأى من دراسة قام بها حول الأساطير والتماثيل القديمة. وقد جاء من بعده من العلماء وعلل كيف اهتدى الإنسان إلى الإيمان بالله من التأمل والنظر فى ظواهر الكون والطبيعة. وأعجبنى فى هذا التعليل عبارة لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز إذ قال:

«فالصواب فى هذه النقلة الفكرية من المادة إلى الروح، أنه انتقال من الكائن إلى المكون» (٣٤).

---

(٣٤) الدين (١١٦) مرجع سبق ذكره.

لقد أصاب الشيخ دراز أيما إصابة . فإننا مانزال إذا أعجبنا بصنعة ماننتقل من الإعجاب بها إلى الإعجاب بصانعها . وقد قاد التفكير فى الكون الإنسان الأول إلى معرفة مكون الكون وخالقه . والمعتبر فى هذا المجال إدراك الحقيقة الإلهية دون الوصول إلى دقائق الصفات والخصائص المتعلقة بها .

ويرى المرحوم دراز أن الإهتداء إلى الحقيقة الإلهية من خلال التأمل فى الكون مصدره التزاوج بين مبدأين نفسيين هما :

غريزة عقلية جبل عليها الإنسان ، وهى غريزة التطلع لفهم ما فى الكون من عجائب وأسرار . كما يتأمل الناقد أثرا أدبيا رائعا ليقف على سر الجمال فيه . وحاسة وجدانية ، وهى حاسة التذوق الفنى لما فى الطبيعة من جمال وجلال وهذا شرح طيب جدا . ونضيف إليه إن التذوق وحده غير كاف بل لابد من سبق الفهم عن إعمال حركة العقل فى الأثر موضوع الدراسة .

التأمل فى الكون نوعان :

بعض الدارسين يطلق على المذهب الذى تقدم : مذهب الطبيعة العادية لأن صاحبه « ماكس مولر » إكتفى بمظاهر الطبيعة العادية الهادئة فى تقرير مذهبه . ويرى هؤلاء الدارسون أن مذهب الطبيعة العادية هذا يقابله مذهب طبيعى آخر ، هو : مذهب الطبيعة الشاذة العنيفة ويعزون هذا المذهب إلى العالم الإنجليزى : جيفونس . لأن جيفونس يرى أن مظاهر الطبيعة العادية لا تكفى فى إيقاظ فكرة التدين والإهتداء إلى الحقيقة الإلهية؛لأن تكرارها على الحواس يجعلها مألوفة عند الناس فلا تحتاج إلى تفسير وعلل .

أما الظواهر العنيفة المفاجئة - غير المنتظمة - والعوارض النادرة التى يضطرب بها النظام العادى : كالرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، والعواصف الهوجاء ، والصواعق المدمرة ، والزلازل العنيفة ، والخسوف والكسوف والأمطار الغزيرة والسيول الهادرة هذه الحوادث لها تأثير قوى فى المشاعر

يولد الذعر الشديد الذى به يظهر ضعف الإنسان ويتلمس سبل النجاة بأى ثمن ويتطلب قوة تحميه وتؤمن حياته .

هذه خلاصة مذهب جيفونس، وقد تدخلنا بعبارات من عندنا لإيضاحه على أن جيفونس لايمنع دور الظاهر العادية فى تكوين النزعة الدينية وإنما يعول على غير العاديه بشكل ملحوظ .

والمذهب الطبيعى بنوعيه ، أوالمذهبان الطبيعيان اللذان قال بهما كل من ماكس وجيفونس أثيرت حولهما ملاحظات لاداعى لذكرها كلها هنا؛ لأن هدفنا وضع تصوير موجز لقدم ظاهرة التدين وتفسير أسبابها فى مواجهة دعوى الشيوعيين الواهمة بأن « الله » غير موجود ؟ !

ولكن اعتراضا واحدا أثرنا ذكره تتميما للصورة ، وهو صالح لأن يكون مذهبا طبيعيا ثالثا بعد مذهبى ماكس وجيفونس .

نقد صائب :

فقد نقد بعضهم « ساباتيه » مذهب جيفونس بأن شعور الرهبة والخوف من القوى « العلوية » لا يكفى وحده فى تفسير ظاهرة التدين . وأنه لابد له من شعور آخر يوازيه ويلطف من حدته ، لأن الخوف إذا استبد بالإنسان أهدر إرادته وشل حركته وولد عنده اليأس والقنوط . إذن لابد لتحقيق الشعور الدينى من مقاوم للخوف . وذلك المقاوم هو الرجاء والأمل الجميل البسام . وبالخوف والرجاء يصبح المرء فى موقف متعادل يستثمر فى ظله كل طاقاته وملكاته .

وهذا مذهب محمود ، وقول سديد من « ساباتيه » وكأنه نظر إلى قوله تعالى : « يدعوننا رغبا ورهبا » والخوف والرجاء هما حقيقة التدين الصحيح فى أرقى مظاهره وأسمى درجاته . فالجمال فى الكون يبعث على الرجاء . والجلال فى الكون يحمل على الشفقة والخوف . وهما - أعنى الرجاء والخوف - أشبه ما يكون بالدائرة الكهربائية العاملة ، وهى لاتعمل إلا بطرفيها الموجب

والسالب ، وإذا فصل أحدهما عن الآخر توقفت تماما فالخرف كما قال ساباتيه يولد اليأس ويقتل الإنسان إذا انفرد عن الرجاء . والرجاء ـ وحده ـ يولد الغرور والإنخداع ولاصلاح للإنسان إلا بخوف يقتل غروره، وبرجاء يبدد يأسه، ويعيد توازنه وتعادله .

هذا ، وقد أصاب ساباتيه فى نقد وتقويم مذهب جيفونس . وهو فى قوله هذا تسنم الذروة العليا فى هذا المجال .

المذهب الروحى :

إرجاع ظاهرة التدين إلى سبب روحى مضاد فى ظاهر الأمر إلى المذاهب التى أرجعتها إلى أسباب مادية . وعند التأمل والنظر تجد هذه المذاهب تلتقى عند نقطة واحدة .

لأن المذاهب الطبيعية التى عزت ظاهرة التدين إلى التأمل فى الصور المادية والأشكال الكونية عادية ، كانت أو عنيفة أو متعادلة على نحو ما مر عند كل من ماكس مولر وجيفونس وساباتيه ينتهون إلى الاعتقاد فى روح عظيمة (الحقيقة الإلهية) ولا يقفون عند الصور المادية الصماء .

والمذهب أو المذاهب الروحية تلتقى مع المذاهب الطبيعية فى الغاية التى انتهت إليها وهى «الروحية» ويظهر فى الفرق بينهما فى طريقة الإبتداء فقط . أما الغاية فواحدة .

فالمذاهب الطبيعية تنتقل بالظاهرة الدينية من المادة إلى الروح والمذاهب الروحية تنتقل بالظاهرة الدينية من روح إلى روح فالمآل واحد ـ كما ترى ـ والإختلاف فى نقطة التحرك أو الإبتداء ولكن مبدأ الإنتقال من روح إلى روح يقذف بسؤال حاصله ما هو الفارق بين الروح المنتقل منها والروح المنتقل إليها ؟ !

وكيف يكون هـــذا الإنتقال من الروح الأولى إلى الروح الثانية يا ترى ؟!

وفى الإجابة على هذا السؤال . وبخاصة فى الشق الأول منه محاولات شتى يفرق بعضها فى التفلسف . ولذلك فإننا نختار أيسرها فى الإيضاح وأبعدها عن التعقيد ، وهو :

إن الأصل فى هذه الطريقة هى عبادة الأسلاف أو أرواح الموتى ويقول أصحاب هذا الرأى أن الإنسان الأول تكونت عنده عقيدة من مبدأين كان أحدهما سببا فى الآخر

المبدأ الأول : أن شيئا لا يكون من لاشىء . وترتب على هـــذا المبدأ اليقينى .

المبدأ الثانى : أن الشىء لا يكون لاشىء . وبذلك اعتقد الإنسان أن الروح بعد انفصالها عن الجسد تصبح روحا خالصة له وجود مستقل عن وجود الجسد ، بل هو وجود أرقى ؛ لأنه فى حالة تلبس الروح بالجسد لا تكون الروح روحا خالصة ، ولذلك تسمى « النفس » لأنها محكومة بمادة الجسد ، وبعد انفصالها تستقل بالوجود الروحى الخالص وهو وجود خالد لا يطرأ عليه عدم .

هذا الذى تقدم صالح لتفسير عبادة الأسلاف أو أرواح الموتى . ثم كانت مرحلة الإنتقال من عبادة أرواح الموتى إلى الإيمان بالروح العظمى « الحقيقة الإلهية » فهنا لم يكن الإنتقال من « مادة إلى روح » كما فى المذاهب الطبيعية . بل كان الانتقال من روح إلى روح . من روح كان لها تلبس بالجسد فى زمن ما إلى روح خالصة لم تتلبس بجسد ، وهى « الحقيقة الإلهية » مدركة على نحو من الأنحاء .

وأصحاب هذا الاتجاه يتوسعون فى أدلة الإثبات ومجال التطبيق ، فمن

أدلة الإثبات ظاهرة الأحلام والرؤى ، فهى شعبة من شعب الحياة الروحية الخالصة قوت الاعتقاد بإمكان وجود الروح بعد الإنفصال عن الجسد بالموت[٣٥] أما فى مجال التطبيق فقالوا إن عبدة الكواكب لم يعبدوها إلا بعد أن تخيلوا فيها أرواحا حية عاقلة[٣٦] . وقد تبنى الفلاسفة من بعد هذا التخيل ورقوا به إلى درجة الاعتقاد ، ولم يرتضه حجة الإسلام الغزالى ونقده نقدا وجيها[٣٧] .

وتعزى هذه النظرية « النظرية الروحية » إلى فيلسوفين كبيرين : هما تايلور وهربرت سبنسر ، وتايلور هو أول من قال بها وتابعه سبنسر فى شىء التعديل .

ومهما اتسع مجال التطبيق أو تعددت أدلة الإثبات فإنها فى جملتها قد أسفرت عن تكوين الاعتقاد فى أمرين :

الأول : أن فى الوجود كائنات عاقلة لا تقع عليها الحواس ، سواء أكانت فى الأصل أرواحا إنسانية انفصلت عن أبدانها . أم كانت منذ البداية أرواحا مستقلة . أم كانت روحاً أجل من ذلك وأسمى .

الثانى : إن هذه الكائنات الغيبية قد تتصل بالعالم النفسى أو الحسى من الناحية الإنسانية ، وتترك فيه أثرا من آثارها العجيبة .

ومن هذه الاعتقادات توصل الإنسان إلى الإيمان بـ « الحقيقة الإلهية » على أنها « الروح العظمى ذات القدرة الخارقة » التى خلقت الكون ومن فيه وما فيه ، وهى وراء كل التغيرات التى تحدث إما منتظمة . وإما مفاجئة لأن الشىء لا يكون عن لا شىء . فلكل مصنوع صانع ، ولكل مخلوق خالق هو « الروح الأعلى » أو « الله » جل فى علاه .

(٣٥) انظر « نشأة العقيدة الإلهية » للعقاد مع نقد وجيه له (٧٥) .
(٣٦) الدين (٦٤) للمرحوم دراز مرجع سابق
(٣٧) تهافت الفلاسفة (٩٠) للإمام الغزالى .

٣ - المذهب النفسى :

المذاهب أو المذهب النفسى فى الكشف عن أسباب ظاهرة التدين والاقتراب من إدراك الحقيقة الإلهية ، قائم على رفض ما تقدم من مذاهب طبيعية وروحية .

وقد ذهب هذا المذهب كل من أوجست ساباتيه ، وهنرى برجسون مع اختلاف فى بعض التصورات .

وتتلخص نظرية ساباتيه أن العقيدة الإلهية تتولد عن بعض الملاحظات النفسية وبخاصة عن تجربة الإرادة الإنسانية مع المؤثرات الخارجية التى تهدر قيمة الإرادة - أحيانا - فيختلف ما يريده الإنسان ويقع مالا يريده .

أى أن تخلف ما يقصده الإنسان ويجد فى طلبه يترك فى نفسه أثرا قويا بأن فى المحيط الخارجى عن الإنسان قوى أخرى تقف أمام إرادات الإنسان فإذا وافقت إرادتها إرادته حصل المطلوب . وإذا لم يوافق إرادتها لم يحصل مراد الإنسان .

وما يراه ساباتيه قد أحس به أعرابى قديم فى بساطة ووضوح . فقد سئل هذا الأعرابى : بم عرفت ربك ؟ قال : «باختلاف الظنون» أى أن المرء يعتقد أو يظن أن شيئا ما سيكون لتوافر أسبابه ، ثم يفاجأ بأن اعتقاده أو ظنه تخلف ، ووقع ما لم يكن فى الحسبان .

ومع بساطة ما عبر عنه الأعرابى . ووجازة ما صورنا به نظرية ساباتيه فإن هذه التجربة تكشف عن حقيقة عظمى لا تقع تحت حس . تلك الحقيقة ماثلة فى أن هذا الكون تسيره إرادة أكبر من إرادتنا ، وتسيطر عليه وتوجهه رضينا نحن أم أبينا .

ومع تلك الإرادة قدرة هائلة جبارة تسحق كل ما عداها من قدرات إذا وقفت فى طريقها .

ووراء تينك قوة قاهرة جبارة هى « الحقيقة الإلهية » أو هى : « الله » رب العالمين .

ومن هنا يتبين أن المبدأ العالمى الذى يخضع له الإنسان ليس هو ذلك الكون المادى (لأن الكون غير عاقل) بل هو الروح العالمية التى تديره. ذلك أن القوة العاقلة لا تخضع إلا لسلطان قوة عاقلة أجل منها تسيطر عليها وعلى العالم بأسره على السواء . . . فلا تملك الإنسانية إلا أن تخضع لهذا السلطان الأعلى .

أما برجسون فخلاصة رأيه أن ظاهرة التدين والإيمان بالحقيقة الإلهية ولدتها حاجة الإنسان إلى التعادل والتوازن بين رغبات الفرد ومصلحة الجماعة ، فلم يكن الفرد ليضحى ببعض رغباته حارما منها نفسه مقدما مصلحة الجماعة على منافعه إلا بتصور أجل وأعلى من المحافظة على حقوق الجماعة ومن هنا تولدت عقيدة الإيمان « بالله » وهو أهل للتضحية والطاعة .

نظرية ديكارت :

ومن شعب المذهب النفسى فى تعليل ظاهرة التدين نظرية ديكارت وإن لم يقدمها هو لتعليل الظاهرة بل قدمها كدليل على وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخلاصة نظريته أن الإنسان إذا قارن بين النقص وبين الكمال الذى يسعى هو للحصول عليه ، وبين الكمال المطلق ، فإن ذلك يقوده ـ ضرورة ـ إلى تصور الحقيقة الإلهية .

لأن فكرة الكمال المطلق ليست فكرة خيالية ولا اختراعا ولا فرضا . بل هى ضرورة تفرض نفسها على كل العقول .

فهى حقيقة لا بد لها من مصدر :

ولا يجوز أن يكون مصدرها العدم ؛ لأن العدم لا يحقق الوجود ، كما أن الصفر لا يتولد عنه عدد إيجابى .

ولا يجوز أن يكون مصدرها النفس فالنفوس هي مصدر النقص الذي يحاول العقلاء التخلص منه .

فلم يبق إلا أن تكون صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية خارجية ، هي مادة الكمال المطلق ومصدره ، وهي المثل الأعلى وهذا المثل الأعلى هو « الله » .

ومؤدى قول ديكارت ينتهي بنا إلى مبدأ عام أدركه الإنسان منذ فجر التاريخ الإنساني وإن عبر عنه ديكارت تعبيرا فلسفيا . ذلك المبدأ هو محاولة إسناد الحقائق إلى من يناسبها من « الفاعلين ، وهو مبدأ » السببية » أو قانونها المعروف . ومصداق هذا أن ديكارت نفسه لم يرض أن يكون فاعل « الكمال المطلق » العدم أو النقص الكامن في النفس . واهتدى إلى أن مصدره حقيقة إيجابية ليخرج بهذا القيد (العدم المحض) خارجية ، ليخرج بهذا القيد أن النفس هي مصدر الكمال . وعلل عدم صلاحية العدم والنفس لأن يكون واحد منهما مصدرا للكمال المطلق بأن العدم لا يصدر عنه وجود وأن النفس الناقصة لا يصدر عنها كمال مطلق ؛ لأن فاقد الشيء في الحالتين المذكورتين لا يعطيه . وهذا قانون ثابت من قوانين الواقع والعقل .

ويوضح لنا هذا الفهم بصورة أحكم قول ديكارت نفسه في الاستدلال المباشر على وجود الله مستخدما مبدأ أو السببية :

« أنا أفكر . فأنا — إذن — موجود . فمن أوجدني ؟ ومن خلقني ؟ إنني لم أخلق نفسي ، فلا بد لي من خالق . وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود وهو الله بارىء كل شيء »[٣٨] .

(٣٨) قصة الإيمان بتصرف يسير (٣٣٠) .

المذهب الأخلاقى :

يعزى هذا المذهب إلى الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت وله فى تقرير هذا المذهب شرح ليس بالقصير ، ونأمل أن نلخصه فى عبارات موجزة تحاشيا للإطالة . ومن يرد أن يطلع على كلامه فلينظره فى مظانه[٣٩] .

هذا المذهب شبيه بمذهب ديكارت الذى أوجزناه فيما تقدم . وخلاصة مذهب « كانت » أو النهاية التى انتهى إليها من شروحه المستفيضة نصورها فيما يأتى :

• إن فى حياتنا مبدءاً أو دستورا أخلاقيا فطريا يحس به حتى الأطفال حيث يستحسنون أشياء ويستقبحون أشياء ، ويفرقون بين ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك .

- وهذا القانون الأخلاقى (الأدبى) له من القوة والسلطان ما للقانون الطبيعى فى التعبير فى كل منهما عن شىء موجود . (لحسن الصدق وقبح الكذب وهما حكمان من أحكام القانون الأخلاقى الأدبى يعبران عن شىء له وجود مثل أحكام القانون الطبيعى كتمدد الحديد بالحرارة وتقلصه بالبرودة)[٤٠] .

• القانون الأخلاقى يسعى بنا لتحقيق « الخير المطلق » والحياة الدنيا لا تتسع لتحقيق هذا الخير المطلق ، فلابد من حياة لانهائية يتم فيها هذا التحقيق (يعنى الحياة الآخرة) ويريد بالخير المطلق انتصار الفضيلة والسعادة على الرذيلة والشقاء .

• وبعد تحقيق الخير المطلق يبقى من مطالب العقل تحقيق « الخير الأعلى » الذى تتوزع فيه درجات البؤس والشقاء ، والسعادة والنعيم على حسب الأعمال والبواعث والمقاصد . فلا بد إذن من مبدأ أعلى يحقق هـــذا

(٣٩) ينظر قصة الفلسفة لول ديورانت (٢٦٤) والدين للمرحوم دراز (١٤٩) وقصة الإيمان لنديم الجسر (٨٤) .

(٤٠) هذه زيادات من عندنا للايضاح والبيان .

التوازن . مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته . ويصير هو فى تصرفاته على وفق قانون عادل . وما ذلك (المبدأ الأعلى) إلا خالق الطبيعة والإنسان جميعاً ، وهو « الله تعالى » .

تشابه نظريتى كانت وديكارت :

هذه خلاصة موجزة جداً وأرجو أن تكون أمينة ووافية بالمراد . وتشابه نظرية «كانت» بنظرية «ديكارت» أن «الكمال المطلق» عند ديكارت يناظر «الخير الأعلى» عند «كانت» وتفترق النظريتان فى أن ديكات يرجع فلسفته إلى «النفس» و «كانت» يرجع فلسفته إلى «العقل» لذلك يرى «كانت» أن «وجود الذات الإلهية» ليس موضوع علم ومعرفة بحيث يثبت بالبرهان أو التجربة . بل هو «إيمان عقلى» يحكم العقل به لدعم فكرة الأخلاق أو معقولية الأخلاق(٤٠).

وعلى كثرة ما وجه إلى مذهب «كانت» من نقود فإنها انصبت على المقدمات التى وضعها . أما النتيجة فصحيحة كما ترى ولم ينازع فيها منصف قط .

ويشفع لكانت ولغيره من الباحثين والدارسين أن «الحقيقة» التى دارت حولها دراساتهم وبحوثهم وفلسفاتهم هى «الحقيقة الإلهية» كل منهم التمس لها أدلة وبراهين ومنازع صدروا عنها تقرير تلك الحقيقة وإقامة الأدلة والبراهين عليها . و «الحقيقة الإلهية» أعظم حقائق الوجود . فكان الاختلاف فى رسم الطرق الموصلة إليها أمراً وارداً بل هو الواقع الذى لامناص عنه . فكمال الله وجماله وجلاله فوق كل العقول والعلوم والمدارك . «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» .

---

(٤١) هذه المذاهب التى رصدناها لم يخل واحد منها من نقد . وبخاصة مذهب «كانت» ونحن — هنا — نكتفى بإيرادها وحدها دون الإطالة فى ذكر النقود ؛ لأن هدفنا التدليل على أن الحقيقة الإلهية نالت حقها من الإدراك والشروح وليست محض تصوراً وهمياً كما قال الشيوعيون موضوع الدراسة .

المذهب الاجتماعى :

ينسب هذا المذهب إلى عالم الاجتماع المعروف دوركايم . وهو مذهب نذكره لأنه واحدة من الفلسفات التى ظهرت فى تفسير أسباب التدين ، وإن كان صاحبه قد هبط به إلى أحط مظاهر الدناءة ليولد عنها أسمى ظاهرة عرفها الإنسان منذ أقدم العصور .

فهو بعد أن مهد القول لصنع نظريته بادئا بالتوتم وهو اللقب الأسرى، لأنه يفترض أن لكل أسرة لقب يجمعها عند الإنسان الأول . وتعتز كل أسرة بلقبها ، وتعتقد أن من يحمل شارة اللقب ينصر بفضلها فى الحروب . وكان الناس يجتمعون فى مواسة خاصة بهم مرحة وصاخبة ينسون فيها أنفسهم ويطلقون العنان لحركاتهم العنيفة على دقات الطبول وأنغام المزامير حتى يصابوا بالذهول الذى يفضى بهم إلى انتهاك سياج المحرمات الجنسية التى كانوا فى حياتهم العادية يحترمونها كل الاحترام . وقد ينسبون هذا التطور الخطير إلى حضور روح الأجداد ، ظنا منهم أن الذى يحدث كان سراً من أسرارها .

ويخلصون من ذلك كله إلى تقديس الاجتماع الذى وقعت فيه تلك النشوة الشيطانية لأن كل نفس انسلخت فى ذلك «الاجتماع» من مقوماتها ومشخصاتها الفردية وانمحت فى « شخصية واحدة » هى « ذلك الاجتماع » ولهذا صارت الجماعة تعبد نفسها من حيث لا تشعر .

هكذا تصور دوركايم أصل التدين . فقد بدأ به من « الدناءة » وانتهى به إلى « عبادة الجماعة نفسها » وهى واهمة أنها تعبد غيرها .

ودوركايم أدلى برأيه هذا فى عصور ازدهار المعرفة ، وانتشار مذاهب وفلسفات راقية فى تصور أسباب التدين فى عصور التاريخ القديم . ولكنه رفضها وقال ما قال على النحو الذى رأيت .

والعلماء قد أشبعوا مذهبه نقداً بل نقضاً ؛ لأنه انحرف بالحقيقة انحرافاً لايصدر عن من له مسكة من عقل ، أو نصيب من حياء .

ولا غرابة فى هذا فدوركايم عريق فى اليهودية . فلا غرابة أن يقول ما قال لخدمة المخطط الصهيونى فى تدمير الأخلاق وتحقير الدين بتحقير بواعثه ومصادره وكل إناء بالذى فيه ينضح كما يقول المثل .

مذهب الوعى الكونى :

ويرى الأستاذ عباس العقاد بعد أن ألم بخلاصة سريعة للآراء فى التعريف بأسباب التدين أن هذه الظاهرة ، ظاهرة التدين عند الإنسان الأول لها سبب واحد لاينكر ولايستبعد مع جواز أن يستبعد غيره من الآراء وهذا السبب الذى يذكره المرحوم العقاد ترى أن غيره من الأسباب الصحيحة أو التى يقل الخلاف حولها ترجع إليه ؛ لأنها إذا صحت فهى منبثقة عنه .

إنه : الوعى الكونى . هذا هو السبب الذى ذكره المرحوم العقاد، ولاح باللوم على الباحثين الذين لم يهتدوا إليه وكان ينبغى أن يهتدوا إليه ؛ لأنه أظهر الأسباب . يقول رحمه الله :

« فلابد من صلة بين الكون وبين كل موجود فيه ولابد من أن تمتزج هذه الصلة بالوعى والشعور متى كان الموجود من أصحاب الوعى والشعور . ومن العجيب أن يعرف العلماء شيئاً يسمى الغريزة النوعية ، بل شيئاً يسمى غريزة الجماعة ولايعرفون شيئاً يسمى الغريزة الكونية أو السليقة الكونية » .

« فمن المحقق أن الصلة بين الكون وموجوداته ماثلة فى جميع الموجودات . ومن المحقق أن الوعى لايخلو من ترجمان لهذه الصلة لايحصره العقل ؛ لأنه سابق له ، محيط به ، غالب عليه »(٤٢) .

---

(٤٢) الله (٠٢٥) ومابعدها .

والوعى الكونى كما يرى العقاد ملكة قابلة للترقى . وسلطانه فوق مدركات الحواس جميعا ، وفوق مدركات النفوس والعقول والملكات المدركة وأن هذا الوعى الكونى هو الذى قاد الإنسان فى مسألة الديانات منذ أقدم العصور .

فالديانات فى كل قبيل تترجم هذا الوعى الكونى منذ القدم ، وتمثله بما تشاء من الرموز والعبارات .

هذا ما ارتضاه المرحوم العقاد . وهو فهم صائب ولا يقف ما قاله العقاد عند حد ظاهرة التدين ، بل يجوز - تعميمه - فى كل مجال عال فيه فكر الإنسان وجال فى مجال المعارف والعلوم ، بل والآداب والفنون وما صح من الفلسفات فى كل عصر ومصر .

المذهب التعليمى :

فى المذاهب المتقدمة ترى الإنسان قد وصل إلى « التدين » بنفسه من خلال التأمل فى الكون وربط المسببات بأسبابها ، وما أشبه هذا من الدواعى التى قيل إنها هى أوجدت ظاهرة التدين عند الإنسان فى عصوره الأولى كونية كانت أو روحيه أو نفسية أو أخلاقيه أو اجتماعية ، والتدين على هذه المناهج هدف سعى إليه الإنسان ولم يسع هو إليه .

وهناك مذهب آخر يقابل تلك المذاهب جميعاً يرى فيه أصحابه أن الدين عرف عند الإنسان فى كل العصور عن طريق « التعليم » من الوحى الأمين الذى لم يخل منه عصر ولا أمة من عهد آدم إلى ختام رسالات السماء . فالناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل ، ولكن بنور الوحى وهديه .

والواقع أن لا منافاة بين هذا المذهب « التوقيفى » وبين ما عداه من مذاهب اجتهادية . لأن دعوة الوحى لا تحجر على حركة الفكر والعقل ، بل هى أدعى لإثارة الفكر والعقل ، وكثير من نصوص الوحى استحثت العقول

على البحث ، والنفوس على التأمل ، والعواطف على التحرك ، والفكر على العمل فهناك قدر مشترك بين المذهب الاجتهادية والمذهب التعليمي . ولا يخفى عنا هنا أن رسالات السماء كانت تحدث بينها فترات تطول أو تقصر . وما سجله العلماء والدارسون فى العصر الحديث من أوضاع القبائل والشعوب البدائية يؤكد أن الصلة بين هذه المذاهب جميعاً قائمة فى بعض النواحى وأن الفكر الإنسانى قمين بأن يتجه نحو « الحقيقة الإلهية » حتى ولو لم يوجهه إليها وحى . ولاقاده إليها رسول . ولذلك التقى قرار العقل « الواعى » مع أحكام الوحى . من أن الإيمان « بالله » ضرورة عقلية مثلما هى ضرورة من ضرورات الوحى . وحقيقة لاتستقيم الحياة بدونها والعقيدة التى يجمع عليها النقل والعقل هى من أرسخ العقائد على الإطلاق .

العمدة فى المذاهب الشارحة :

المذاهب الشارحة لمنشأة ظاهرة التدين التى قدمناها مختارة من جملة مذاهب فى هذا المجال . لأن هناك من يقول إن سبب ظاهرة التدين هو « السحر » ؟ ومن يقول : إن السبب فيها حاسة دينية مركبة فى مشاعر الإنسان . ومن يقول : إن العقيدة الدينية غذاء الروح مثل الطعام والشراب فى تغذية الجسد ، والروح ميالة - بالطبع - للبحث عن غذائها مثل الجسد .

والعمدة أو المرتكز العام الذى استندت إليه جميع المذاهب الشارحة لنشأة ظاهرة التدين هو المحاولة الجادة للتعرف على « سبب » مناسب للوجود الكونى كله . أو هو محاولة لايجاد « الإنسجام » بين حقائق الكون وبين عقل الإنسان ومشاعره وقلبه . فقانون « السببية أو العلية » هو الناظم لشتات ما تفرق من مباحث وآراء . ظاهر فى بعضها ، وخفى فى بعضها الآخر .

وقد وقف الفكر الإنسانى من حقيقة الكون والحوادث العظمى التى تجرى فيه مما هو فوق تدبير البشر وقدراتهم عدة مواقف .

* فعلماء الدين يرون — وهذا حق — أن الكون وما يجرى فيه من حوادث عظمى مخلوقة لله سبحانه . فهو سببها وعلتها . ولا سبب ولا علة لها سوى الله بارىء الكائنات .

والنصوص الدينية متضافرة على هذه العقيدة ، وفيها من الأدلة والبراهين مالا يمكن دفعه أو الوقوف أمامه . وأن أداة الخلق والتكوين كلمة « كن » إذا قضى أمراً . فإذا قال « كن »[٤٣] كان فى الحال ما أراد أن يكون . وعملية الخلق الإلهى تتوقف على ثلاث مقدمات :

* علمه المحيط . وإرادته المخصصة . وقدرته المنفذة لما أحاط به علمه ، وخصصته إرادته الحرة المطلقة من أية قيود تفرض عليها من مصادر أخرى .

* والفلاسفة الإلهيون (المؤمنون) يذهبون مذهب علماء الدين فى أن السبب الضرورى والنهائى فى خلق الكون وما فيه ومن فيه هو الله جلت قدرته ، ولكنهم يختلفون مع علماء الدين فيقولون إن الخلق لا يقع مباشرة من الله ، بل بوجود وسائط فى شكل علل أو أسباب .

فالله يخلق العلل والأسباب ، وهى تؤثر فى وجود ما يترتب عليها تأثيراً مباشراً .. ؟ !

والأسباب عندهم مؤثرة بطبعها ، أو بعلة فيها أو بقوة مودعة فيها أوجبت حدوث ما ترتب عليها . وعلماء الدين يردون هذا القول ويردون أن المؤثر الحقيقى المباشر هو الله . والأسباب مجرد علامة سلبية ، لا قدرة لها على التأثير . وفى ذلك يقول بعضهم :

---

(٤٣) بعض العلماء يقول إن كلمة « كن » تحقيق للارادة غير مشروط أن يقول « كن » فمن أراد شيئاً كان على الوجه الذى أراده سبحانه .

ومن يقل بالطبع أو بالعلة — فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة — فذاك بدعى فلا تلتفت

والخلاف بين علماء الدين والفلاسفة الإلهيين ربما كان يسيراً كما ترى .

« أما الفلاسفة الماديون ، ومنهم ماركس والشيوعيون فلا يرون للكون خالقاً . ويرون أن الكون هو الذي خلق نفسه ، وهذا باطل عقلا وعلما وواقعا . لأن المعدوم لا يؤثر في نفسه بالوجود . لأن تأثيره في نفسه يقتضي كونه مخلوقا قبل التأثير وهذا لم يقل به أحد حتى الماديون أنفسهم . وإنما كان باطلا لأنه يفهم منه - بجلاء - أن الشيء كان معدوما وموجوداً في وقت واحد . ولا يوجد عقل مهما كان حظه من الوعي والإدراك يسلم بهذه الدعوى المنكرة بكل مقياس .

وبعضهم يقول إن الكون خلق صدفة . وهذا القول يعادل أن الكون خلق نفسه في الغرابة والخروج عن « المعقول » و« المعلوم » ، وكذلك عن « الواقع » ، أن أبسط العقول وأدناها ذكاء ينكر كل الإنكار أن يرى - مثلا - مثلثا مرسوما على ورق ويقال له : إن هذا المثلث لم يرسمه راسم وإنما المثلث رسم نفسه ، أو أن هذه الخطوط والأبعاد تآلفت وتضامت هكذا عن طريق « الصدفة » فإذا كان هذا بالنسبة إلى « المثلث » فكيف بمن يقول : إن الكون خلق عن طريق « الصدفة » مع ما في هذا الكون من نظام وإحكام وأسرار ودقائق أسرت فحول العقلاء ، وسمت فوق كل المعارف والعلوم . ومنها ما حير العقول جميعاً ، وأعجز العلم والعلماء[٤٤] .

سؤال هذا موضعه :

قد يدور في نفسك سؤال ، ولا بد أن يدور ، ومن حقه أن يدور . ذلك السؤال مؤداه :

---

(٤٤) سيأتي لهذا بيان واف قريباً إن شاء الله .

إننا نحن ـ معاشر المؤمنين ـ رفضنا كل الرفض أن يكون الكون أو المادة على حد تعبير العلمانيين والشيوعيين قد خلق نفسه . واستندنا في هذا الرفض إلى قاعدة وهي أن الشيء لا يمكن أن يؤثر في نفسه بالخلق والايجاد وهو لم يكن موجوداً ، وقلنا إن كون الشيء معدوما موجوداً في وقت واحد مستحيل عقلا . وأن كل مخلوق لابد له من خالق متقدم عليه هذا ما قلناه ، وهو حق ، أفليس من حق الماديين أن يواجهونا بنفس المشكلة في مسألة أزلية الله ـ سبحانه ـ إذ كيف صح لنا أن نعتقد أن الله خالق غير مخلوق ، ؟ وماذا نقول لهم إذا قالوا : « ان دعواهم أن الكون خالق غير مخلوق » == قولنا : « إن الله خالق غير مخلوق » فما الفرق بين القولين إذن ؟

وجواب هـذا أوانه :

نبادر فنقول : إن الفروق بين عقيدتنا ودعواهم أوضح من الشمس في رائعة النهار . وهذه الفروق ترجع إلى عدة اعتبارات وليس لاعتبار واحد . فمنها فروق ترجع إلى « تحرير المناط » أعني ـ هنا ـ فحص وتحديد أطراف الدعوى أو القضية عندنا نحن معاشر المؤمنين ، وعند عبيد المادة وجهلاء العلمانية . ومنها فروق ترجع إلى « الوضع الاستدلالي » أو المركز القانوني بلغة المحامين المعاصرين .

فالدعويان وإن بدتا متكافئتين أمام النظرة الساذجة العجلى فإنهما جد مختلفتين عند الدرس والفحص . فلننظر فيهما من خلال الإطار ذي الجناحين الذي رسمناه منذ قليل ، وهو :

• فحص الدعويين من حيث تحرير المناط أو المقابلة بين الأطراف .

• فحص الدعويين من حيث الوضع الاستدلالي أو المركز القانوني . كما أسلفنا . وبالله التوفيق ومنه السداد .

أولا : من حيث تحرير المناط أو المقابلة بين الأطراف :

تختلف الدعويان بهذا الاعتبار أختلافا بينا يتضح لك من خلاله أن دعوى الماديين من علمانيين وشيوعيين لا تصلح قط أن تكون طرفا قاهراً لعقيدة المؤمنين . بيان ذلك فى إيجاز :

١ — أن الله فى عقيدة المؤمنين نسب خلق الكون إلى نفسه ، وهو أهل للخلق .

٢ — أما المادة أو الكون فى دعوى الماديين فلم تدعى أنها خلقت نفسها ولا تملك حتى مجرد الإبانة عن هذه الدعوى . وإنما الماديون أدعوا لها هذه الدعوى ، وهى خرساء لا تتكلم ، عمياء لا تبصر ، صماء لا تسمع ، جامدة لا تتحرك و بليدة لا تحس ولا تشعر عاجزة لا تقدر على شىء .

٣ — إن المادة أو الكون فى عقيدة المؤمنين هى دليل الدعوى وسندها. وبراهين صحتها الناطقة بأفصح بيان ، وأجلى عبارة .

٤ — أما المادة أو الكون فى دعوى الماديين فهو « موضوع الدعوى » عندهم ، وجعل الدليل عند قوم ، هو الدعوى عند آخرين مفتقر إلى دليل جديد لا وجود له .

٥ — إن المادة أو الطبيعة هى « المصرفة » - اسم فاعل - عند الماديين ، مع أن « التصرف » واقع عليها . وقاهر لها .

٦ — إن المادة أو الطبيعة هى « مصرفة » - اسم مفعول - عند المؤمنين والمصرف هو « الله » جل فى علاه .

فها أنت ترى فروقا جد متباينة فى الدعويين . قوة ورسوخ فى جانب ، وضعف فى جانب آخر . وتلك القوة ، وذاك الضعف يظهران لك بوضوح فى الوضع الاستدلالى لكل منهما .

ثانيا : فحص الوضع الإستدلالى أو المركز القانونى لكلتا الدعويين :

الظاهرة المتنازع حولها :

من البديه أن تقول : « إن الظاهرة موضوع النزاع هى : الكون أو المادة أو الطبيعة » .

فنحن ـ معاشر المؤمنين نقول : « إن خالق الكون وما فيه ومن فيه هو « الله » جل فى علاه .

والماديون يقولون : «إن المادة خلقت نفسها وخلقت ما فيها ومن فيها»؟

ومن حيث الوضع الإستدلالى أو المركز القانونى فإننا نملك مئات الأدلة والبراهين على صحة « عقيدتنا » .

أما الماديون فلا يملكون نقيراً ولا فتيلا على صحة دعواهم . فدعواهم معراة من كل دليل . ومن أية جهة تصدى لهم خصومهم فإنهم سرعان ما يكشفون عن بطلان تلك الدعوى دون الاحتياج إلى أن ينتقلوا إلى جهة أخرى

ونحن ـ معاشر المؤمنين ـ نملك أمامهم نوعين من الأدلة :

* النوع الأول : أدلة هجومية ساحقة :
* والنوع الثانى : أدلة دفاعية سابقة .

والماديون لا قدرة لهم على أن يقفوا أمام أى من النوعين هم لا يملكون ولا يقدرون أن يقفوا أمام الأدلة الهجومية المقوضة لدعواهم .

وهم لا يقدرون أن يقفوا أمام الأدلة الدفاعية الناصرة لعقيدتنا .

ما هى المادة :

المادة هى ماله وجود موضوعى خارج الذهن ، أو هى مايدرك بواحدة من الحواس ، وقد مر بنا هذا المعنى قبل ذلك مرات ولكننا أعدناه لترتب عليه هذا السؤال .

ما هى أقسام المادة :

المادة قسمان كبيران أحـــدهما متنوع إلى ثلاثة أنواع . أما قسماها الكبيران فهما :

١ — المادة غير العضوية أو « الجماد » وضابط هذا القسم أنه : ما لا ينمو ولا يتكاثر (لا يتوالد) ولا يتحرك حركة حرة أو « ماليس له إرادة » وقد تعرف بأنها « الكائن غير الحى » .

٢ — المادة العضوية أو « الكائن الحى » وأنواعه الثلاثة هى :

(ا) ماينمو ويتكاثر وليس له إرادة ولا إحساس ، وهو « النبات » بكل أصنافه .

(ب) ماينمو ويتكاثر ويحس وليس له « عقل » وهو « الحيوان » من ماشية ودواب وزواحف وطيور وأسماك وهوام إلخ .

(ج) ماينمو ويتكاثر وله عقل وإرادة حرة ، وهو « الإنسان » .

ترتيب هذه « المواد » ترتيبا تنازليا :

حين يراد ترتيب صور المادة تنازليا تأتى على هذا النسق :

- الإنسان .
- الحيوان .
- النبات .
- الجماد .

فأعلاها شأنا ومنزلة الإنسان . وأحطها وأدناها الجماد . ولو فرضنا جدلا أن بعض هـذه « الكائنات » له فى البعض الآخر تأثير بالخلق والإيجاد والتكوين فإلى أى مرتبة من هذه المراتب الأربع يتجه العقل ؟

هذا سؤال مهم جدا . والخلق والإيجاد والتكوين عملية شاقه فى أعلى درجات المشقة لأنها تتوقف على ثلاثة عناصر وهى :

• العلم ، وليس مطلق علم ، ولكنه علم من نوع خاص .

• الإرادة وليست مجرد إرادة ، ولكنها إرادة من نوع خاص .

• القدرة وليست أية قدرة ، ولكن قدرة من نوع خاص .

وإذا تسامحنا واكتفينا باشتراط مطلق علم ، ومطلق إرادة ، ومجرد قدرة ، فعند من نعثر على هذه العناصر من كائنات المادة ؟

إننا لن نعثر عليها إلا عند « الإنسان » وحده .

أما الحيوان فلا .

وأما النبات فلاءان .

وأما الجماد فثلاث لاءات ، لا ، لا ، لا ، واحدة ولا إثنتان .

مغزى هذا التحليل :

أردنا من هذه التحليل أن نبين لك إلى أى مدى غرق المـاديون من علمانيين وشيوعيين فى الضلال والجهل ؛ لأنهم منحوا « الطبيعة الجمادية » صفة « الخالقية » لما عداها من كائنات عضوية [النبات — الحيوان — الإنسان] ؟ !

وما جعلوها خالقة إلا وقد جعلوها : عالمة علما من نوع خاص ، ومريدة إرادة من نوع خاص ، وقادرة قدرة من نوع خاص ؟

والطبيعة الجادية لاتوصف بشيء مما وصفوها به لأنها «ليست» حية . ؟!
بل هي «موات» ، لأنها لم تذق - قبلا - طعم الحياة[٤٥] وفاقد الشيء لا يعطيه ،
والميت لايهب غيره الحياة ، ولا يهب نفسه الحياة ؟! .

والماديون يقولون : إن المادة الجادية هي الخالقة لنفسها ولغيرها مما هو أعلى منها شأنا من نبات ، وحيوان ، وإنسان ؟! قالوا هــذا فخالفوا كل معروف ومألوف ، وأتوا بمنكر من القول وزورا .

• اهدروا كرامة العقل وقوضوا سلطانه ؟! .
• وخانوا أمانة القلم وسوأوا سمعته ؟! .
• واستهانوا بدلالات الواقع ووأدوا شواهده .
• وصدق عليهم إبليس ظنه فهم في جهلهم وكفرهم يعمهون .

وصدق عليهم قول الحق علام الغيوب :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله . له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك . وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

هم الأخسرون من أول جولة :

هذه هي الجولة الأولى مع أئمة الكفر كانوا هم فيها الأخسرين ؛ الأخسرين أمام العقلاء وأمام العقل . والأخسرين أمام العلماء وأمام العلم ،

---

(٤٥) لعلك تلحظ أن الفرق بين « ميت - وموات - أن الأول يطلق على من سبقت له حياة . والثاني يطلق على ما لا عهد له بالحياة مطلقا ، كالأرض ، والحجر ، والرمل ، والثرى فإن وصفت شيئا منها بميت فعل المجاز لا الحقيقة .

بل هم الأخسرون أمام أنفسهم . وقولهم هذا إن كان له دلالة فدلالته بكل وضوح :

أن الماديين من علمانيين وشيوعيين ليسوا بعقلاء ولا بعلماء وأن العقل والعلم منهم براء .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » :

دعوى لا دليل عليها :

تبين لك ـ أيها القارىء الكريم ـ أن قول الشيوعيين مردود عليهم ، ولا ينطلي إلا على من كان على شاكلتهم من الجهلاء ومذهوبي العقول ومع ارتداد قولهم عليهم ، ووأد دعواهم في مهدها فإنهم لا يملكون دليلا واحدا يؤازره العلم ، ويعاضده الواقع ، ويقبله العقل أو حتى يمنحه قليلا من المهادنة . ومع هذا فإن دعواهم موغلة في البطلان من أي جهة نظرت إليها . فقد ظهر لك بطلانها فيما تقدم مرات . آخرها كان حيث جعلوا فاقد الشيء معطيا له . وهذه مقولة من أشد المقولات فساداً بلا أدنى نزاع ؛ لأن فاقد الشيء لا يكون معطيا له بأية حال من الأحوال . وهلم بنا ـ الآن ـ نثبت معاً بطلانها من جهة أخرى .

مسبب بلا سبب ؟ ! :

إن دعوى الشيوعيين أن المادة هي التي خلقت نفسها وخلقت غيرها من كائنات حية إنما هي تتمثل في النهاية في أن دعواهم محصورة في وقوع مسبب بلا سبب وهذا باطل ، لأن العقلاء اجمعوا على أن كل موجود ـ ماعدا الله والمعجزات ـ لابد له من سبب أو علة قد تقدم عليه .

والمادة عاجزة كل العجز عن أن تصلح سببا في إيجاد نفسها وإيجاد ما عداها . وعجز المادة نفسها سرى إلى الشيوعيين أنفسهم حيث عجزوا كل

العجز عن إقناع خصومهم حين سألوهم : وكيف خلقت المادة نفسها ؟ فلم يزيدوا فى الجواب على: خلقت نفسها لأنها هى الخالقة .. ؟! وبعضهم جاهر بأن هذا السؤال لايجوز وروده . وذلك هى المشكلة الصعبة التى لم يستطع الماديون ـ ولن يستطيعوا ـ أن يجتازوها ؛ لأنهم يرون أن فى اجتيازها إقرارا بالإيمان بالله الخالق العظيم .

حصار قاتل :

هذا وقد عرفنا من قبل أن الشيوعيين ينسبون الخلق والإيجاد إلى أحط أنواع المادة (الجماد) ولم يسندوه إلى أعلاها (الإنسان) وفعل الإنسان أرقى وأكمل من فعل المادة ـ غير الإرادى ـ[٤٦] .

وهم مضطرون فى ذلك اضطرارا ، ومقهورون قهرا ، وذلك لأمرين بارزين :

أولهما : أن العلم يجمع على أن الكون المادى موجود قبل خلق الإنسان .

وثانيهما : أنهم لو ادعوا ان الإنسان هو خالق المادة لحوصروا من جهتين قاتلتين :

(ا) أن يقال لهم : وأين كان الإنسان قبل أن يقع منه خلق الكون ؟

(ب) وأن يقال لهم : أقيموا الدليل على صحة هذا بأن يخلق إنسان الآن — من الشيوعيين — كائنا حيا ليثبت أن الإنسان — فعلا — قادر على الخلق ؟!

وفى كلتا الحالتين فلا حيلة أمام الشيوعيين إلا إظهار العجز والبوء بالخسران المبين .

---

(٤٦) ليس للمادة (الجماد) فعل إرادى على الإطلاق لذلك قلنا ـ غير الإرادى ـ وهو وصف للفعل لاتمييز بين أنواع فعل لها .

ستالين وفشل التجربة :

واكاد اعتقد أن الشيوعيين بعد أن ثبت عجزهم فى نسبة الخلق إلى المادة « الجامدية » كانوا على استعداد بتعديل مذهبهم بنقل « الخلق » من المادة الجامدية ، وهى أحط أنواع المادة كما علمت ، إلى «الإنسان» وهو أرقى أنواع المادة ، ولكن الواقع المؤلم لم يساعدهم على الإفصاح بهذا التعديل والسبب فى هذا تجربة فاشلة كل الفشل كانت قد وقعت فى عهد ستالين خلاصتها :

محاولة للخلق عن طريق الإنسان :

فقد عهد ستالين إلى « أوبارين » رئيس الأكاديمية العلمية السوفيتية أن يثبت علميا أن الحياة نشأت « تلقائيا » من المادة دون الاحتياج إلى فرض قوة أخرى (الله) وراء عمليات الخلق .

وأغدق ستالين على « أوبارين » وزملائه من أعضاء الأكاديمية بما لذ وطاب من المتع ظنا منه أن ذلك سيوصلهم إلى نجاح التجربة . وظل « أوبارين » وزملاؤه فى العمل يواصلون العمل ليلا ونهارا طوال عشرين سنة فى محاولات مستمرة بلا جدوى . وفى عام ١٩٥٥ خرج أول تقرير علنى قال فيه أوبارين :

« إن النجاح الذى حققته علوم البيولوجيا (الأحياء) السوفيتية حديثا يؤيد الوعد بأن مسألة خلق كائنات حية بطرق صناعية ليس ممكنا فحسب ، بل سيتحقق عما قريب » ؟ ! !

وظل العالم ينتظر تحقيق الوعد ، ومات ستالين ولم يتحقق شىء . وفى عام ١٩٥٩ أعلن أوبارين فى مؤتمر دولى للبحار عقد بنيويورك هذا القرار الخطير :

« إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من مواد غير عضوية

(أى غير قابلة للتولد) سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل » الله أكبر ، الله أكبر .

هذا القرار الخطير كان جديرا بأن يفتح أمام أعلاج موسكو باب الإيمان بالله . ولكن الشيطان سارع وأملى على أوبارين هذا الإستدراك ، وإن فى الإمكان توليد الحياة بشرط أن تكرن المحاولة على كوكب غير الأرض . وذلك نظراً لأن ظروف الأرض الحالية لم تعد مهيأة لذلك » ؟ !(٤٧) .

فانظر كيف زين الشيطان لأوبارين طريق الهروب من الإيمان ؟ ! وماذا كان على الرجل لو استسلم لتلك الحقيقة الجبارة بدلا من التمادى فى الضلال والإرتماء فى أحضان الشيطان ؟

نعم : إن الشيطان هو الذى أملى على هذا العلج الأحمق ما أملى لتحيط به خطيئة فيكون من أصحاب النار .

وما أحلى أن نتلو - هنا - قول الجليل :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ، ويهديه إلى عذاب السعير » .

وقوله تبارك وتعالى :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها . ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

---

(٤٧) انظر «الله جل جلاله» ٥٧ .

متابعة حتى النهاية :

إن الهـــدف من وراء ذلك التكليف الذى عهد به ستالين إلى رئيس الأكاديمية وزملائه أن تصل التجربة إلى « نتيجة » تساند عقيدة الدولة فى الكفر والإلحاد . وهلك ستالين وخيبة الرجاء كانت لحمته وسداه ولعنة الكفر كانت كفنه ومثواه .

أما رئيس الأكاديمية فقد استطاع أن يزحزح قليلا من وصمة الخزى والعـار عن وجهه أمام المؤتمرين فى نيويورك إذ ذاك . وظن أنه نجا وما نجا .

والآن ، وقد عرفت روسيا غزو الفضاء ، ووصلت إلى الكواكب غير كوكب الأرض . فلماذا ـ وقد تهيأت لها الظروف التى كان قد تمناها أوبارين ـ لم تعد إجراء التجربة من جديد ، ليتحقق لها توليد الحياة عن طريق علمائها وتبرهن للمؤمنين بالله أنهم على خطأ جسيم ؟ !

إن روسيا ـ الآن ـ خطت خطوات جبارة فى العلم المادى بعد ما يقارب ثلاثين سنة من تجربة أوبارين فما الذى جعلها تصمت صمت الأموات عما كانت تحاوله من قبل ؟ !

إنه انتصار الإيمان على الكفر ، والحق على الباطل . إن أمامهم صخرة عاتية تحطم قرون الوعول والبغال وإن غلظت . إنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا .

وما أحلى وأجمل أن نردد معاً قول القوى الجبار ذى الجلال والإكرام .

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ـ ولو اجتمعوا له ـ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » .

تلك هي حقيقة الإيمان التي يجب أن يؤمن الناس بها في الدنيا . ومن لم يؤمن بها - هنا - آمن بها في « النار » وساءت النار مستقراً ومقاما .

تأديب . ونعم التأديب :

كان الفشل الذريع الذي منيت به أكاديمية الكفر والإلحاد في محاولة توليد الحياة بعيداً عن « الله » كان ذلك الفشل تأديباً حكيما ومؤلما لأئمة الكفر والضلال من العلمانيين والشيوعيين . فقد كانوا يتطاولون من قبل بأنهم قادرون على « الخلق والتكوين وتوليد الحياة في المواد الميتة » . حتى لقد قال بعض العلمانيين من قبل :

« أعطني وقتا ومواد أخلق لك إنسانا » ؟ ! (٤٨) .

وما أكثر المواد التي تجمعت بين « أصابع » أوبارين وزملائه .. ؟ !

وما أطول الوقت الذي قضاه أوبارين وزملاؤه في محاولة توليد الحياة التي باءت بفشل قاهر . وبعده توقف ذلك التطاول وحزت تلك « الألسنة » وخفت صوت الباطل « إلى الأبد » أجل فقد كان ذلك الفشل تأديبا لهم ونعم التأديب ولو كان أولئك المتطاولون صادقين لكان أولى بهم أن يحتفظوا بالحياة لأنفسهم بدل أن يمنحوها لغيرهم ، ولكن أمر الله الذي خلقهم نفذ فيهم جميعاً ولم يستطع أحد دفعه . ثم تعال وردد معي قول الفعال لما يريد فهذا أوانه :

« كل نفس ذائقة الموت ... » .

« قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت أن كنتم صادقين » .

إن « الله » هو مفتاح النور والهداية في هذه الحياة . ومن عاش وليس

---

(٤٨) العلمانية .

فى « قلبه » هذا المفتاح عاش وأبواب النور أمامه مغلقة . وخرج من الحياة وأبواب الجحيم أمامه مفتحة ، « تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار » .

عودة للإيمان بالأسباب :

من المواقف التى حمل الإفلاس المذهبى والعلمى الشيوعيين عليها هذا الموقف الذى نكشف - الآن - عما فيه من خزى وإفلاس وتردد . ذلك أن الدارس لأصول الشيوعية يجد الشيوعيين يتذبذبون بين الشىء ونقيضه ويتبعون « الشبهات » ظانين أن الناس لاعقول لهم ، وفى الواقع أنهم هم ليس لهم عقول .

فقد رأينا منذ قليل أنهم أهدروا قيمة قانون « السببية » حين ادعوا أن المادة قد خلقت نفسها ثم خلقت غيرها من الكائنات . وذهبوا إلى أن المادة مكتفية بنفسها دون احتياجها إلى سبب أو علة أولى تفسر إيجادها فهى إذن « مسبب لاسبب له » ؟!

وقد وقف الشيوعيون عند القول بأن المادة مكتفية بنفسها غير محتاجة إلى سبب خارج عنها فرارا من « الإيمان » بالله ؛ لأن الخطوة الأولى بعد هذا لابد أن تفضى إلى « الإيمان » وهو أعدى أعداء الشيوعيين فيما هم قد كفروا بالسبب ، وزعموا أن « المادة مسبب لاسبب له ، أو هى السبب والمسبب فى آن واحد .

ولكنهم عادوا للإيمان بالسبب أو الأسباب بعد ذلك فى تفسير ظواهر جزئية داخل إطار المادة نفسها . وكان مقتضى مذهبهم أن لايقيموا للأسباب وزنا فى مجال آخر قط . فكان كفرهم بالأسباب فى المسألة « الأم » وجود المادة . وإيمانهم بالأسباب فى الظواهر الجزئية دليلا على إفلاسهم المذهبى والعلمى فى آن واحد .

المجال الذي أعملوا فيه الأسباب :

إنهم كفروا بالأسباب فى خلق المادة وتكوينها ؛ لأن الإيمان بالأسباب فى هذا المجال ينصر قضية الإيمان ؟!.

وآمنوا بالأسباب فى مجالات أخرى ، لأن الإيمان بالأسباب فى هذه المجالات يهدم - فى نظرهم - قضية الإيمان ؟!

فعداوتهم للإيمان بالله كان وراء كفرهم فيما كفروا به ، ووراء إيمانهم فيما آمنوا به . وذلك ديدنهم أبداً .

والمجالات التى آمنوا فيها بالسببية هى الظواهر الكونية ، أو ما يجرى فى الكون من «عمليات» ثانوية كتحول الماء إلى «جليد» مرة . وتحوله إلى «بخار» مرة أخرى .

وكمجىء الولد جامعاً بين ملامح لونية وغير لونية خاصة به ، وملامح موروثة عن أبيه او أمه أوهما معاً .

مثال الولد :

يفسر الشيوعيون مجىء الولد جامعاً بين ملامحه الخاصة والتقليدية بأن هذه الظاهرة ترجع إلى صراع دار بين قانونين من قوانين المادة وهما :

* قانون الوراثة .
* وقانون التغير .

فقانون الوراثة يقتضى «النمطية» أى أن الولد يكون شبيها بأبيه تماما أو بأمه .

وقانون التغير يقتضى أن يكون الولد مخالفا تماما فى ملامحه الظاهرة وغير الظاهرة لكل من أبويه .

ولكنه - فى الواقع الأغلب - يأتى وسطا بين بين . فلا هو مشابه لهما تماما ، ولا مخالف لهما تماما .

والسبب - عندهم - أن الصراع الذى دار بين القانونين لم يكتب فيه الفلاح لأحد القانونين على الآخر . فحقق قانون الوراثة بعض الانتصار ، وحقق قانون التغير بعض الانتصار فجاء الولد جامعاً بين الملامح والخصائص الموروثة، وبين الملامح والخصائص الناتجة عن قانون التغير . وهذا عند الشيوعيين هو السبب الأول والأخير فى تفسير هذه الظاهرة . ولا يطلبون لها تفسيراً آخر أبعد من هذا التفسير خشية أن تنزلق أقدامهم فى طريق الإيمان بالخالق العظيم .. ؟!

ومثال الماء :

وظاهرتا تحول الماء إلى جليد أو بخار ، وظاهرة بقائه على حالة السيولة يفسره عندهم أن هناك قانونين يتصارعان ؛ قانون الإنسجام وقانون التفرقة :

فحين تتعادل درجة الصراع بين القانونين يبقى الماء فى حالة السيولة . إذ لا غالب ولا مغلوب حينئذ .

وحين ينتصر قانون الإنسجام على قانون التفرق يصبح الماء جليداً .

وإذا انتصر قانون التفرقة على قانون الإنسجام صار الماء بخاراً وبهذا ترى الشيوعيين قد سروا سروراً عظيما ؛ لأنهم استطاعوا أن يفسروا كل التطورات فى عالم المادة تفسيراً لا يفترض - عندهم - معه وجود إله خالق متصرف فى الكون ومن فيه وما فيه . وقد استسمنوا ورم هـذا التفسير وذهبوا إلى أن قوانين المادة أو الطبيعة كافية جداً لتفسير أسرار الطبيعة . وأن الإيمان بوجود قوة أخرى فوق الطبيعة « الله » لا تدعو إليه ضرورة قط ؟!! .

يقول هيكل صاحب نظرية الأثير :

« الطبيعة تحتوى فى ذاتها على كل القوى المطلوبة لإحداث جميع صور الوجود فيها ، والأنواع ينشأ بعضها من بعض بالتحول طبقا لقوانين وتبعا لترتيب فى الإمكان منذ الآن تحديده . . ؟ ! فلاشيء فى الطبيعة لا يفسر بالطبيعة ؟ ! ولاشيء تقدم على الطبيعة ولاشيء يسمو عليها . فالطبيعة عند من يعرف قوانينها ، وبخاصة الإنتخاب الطبيعى والتطور هى فى ذاتها التى خلقت نفسها » ؟ !(٤٩).

هكذا توهم الماديون الملحدون أن الطبيعة قد خلقت نفسها . وهذا تعبير تواطأ عليه كل من داروين وهيكل فى محاولات يائسة لاغتصاب عمليات الخلق والتكوين من القدرة الإلهية . وهو - أى هذا التعبير - يرادف تعبيراً آخر كانوا يطلقونه فى وجه المؤمنين بالخلق الإلهى وهو « التولد الذاتى » وقد باء كلا التعبيرين بالفشل أمام نقود علمية كشفت عن زيف الملحدين فاضطروا إلى أن يعدلوا عن خلق الطبيعة نفسها ، وعن نظرية التولد الذاتى إلى القول بأن المادة خلقت مصادفة ، وهى محاولات - كما ترى - تفر من الإيمان بالله .

ونظرية الصدفة قد أبطلها العلماء تماما لأن ضعفها مساو لضعف القول بالتولد الذاتى أو أن الطبيعة هى الخالقة . فهذه المزاعم كلها لاسند لها قط

لا من العلم ؟ ! .

ولا من العقل ؟ ! .

ولا من الواقع ؟ ! .

أما فقدان سندها من العقل والواقع فحقيقة لا تحتاج إلى تدليل . وأما فقدان سندها من العلم فإننا إذا نحينا الإحتكام إلى نقود المؤمنين فإن فى اعتراف الملحدين أنفسهم بهذه الحقيقة ما يثلج صدورنا نحن المؤمنين أكثر مما يثلجها أقوال المؤمنين ؛ لأنهم قد يرمون بالتعصب .

(٤٩) انظر العلمانية (٣٣٨) سفر عبد الرحمن الحوالى - مكة المكرمة .

ومن شواهدنا على ما نقول أن نحيل القارىء إلى التجارب الفاشلة التى وقعت فى الأكاديمية العلمية السوفيتية فى عهد ستالين . وفى فترة رياسة أوبارين للأكاديمية . وقد مرت منذ قليل .

ومن شواهدنا الجديدة موقف « جورج والد » وقد كان من القائلين بنظرية « التوالد الذاتى » أو المصادفة كبديل للتوالد الذاتى ولخلق الطبيعة نفسها . .

فقد حاول هذا الرجل (جورج والد) مرات أن يثبت صحة الخلق بعيداً عن قدرة الله ، وكان يبوء بالفشل فى كل مرة . ثم اعترف - أخيراً - بفشله المتكرر ، وانتهى إلى نفس النهاية التى كان قد انتهى إليها أوبارين من قبل فى مؤتمر البحار الدولى عام ١٩٥٩ م .

فقال : « إذا عجزنا عن تحقيق ما نتمناه فليس معناه أننا فقدنا كل شىء . فسلالتنا البشرية سوف تحاول مرة أخرى فى غير هذا المكان »(٥٠).

فانظر - هداك الله - كيف اعترف هذا الرجل بعجزه . ولكنه - بإيحاء من الشيطان - حاول أن يزيح عن وجهه - مثل أوبارين - قليلا من سحب الخزى والمهانة ، وقال : إن البشر سيحاولون فى غير هذا المكان أن يعيدوا التجربة من جديد ؟ !

إن هذا « الوغد » من حقه أن يعترف بفشله . ولكن ليس من حقه أن يتنبأ عن عمل سيقوم به البشر من جديد . ولو كان هذا التنبؤ صادقا لقام البشر فعلا بما توهم هذا « الجورج » وليس كل البشر مثل أوبارين أو جورج مخدوعين وجهلة .

---

(٥٠) العلم : أسراره وخفاياه (٣٠٤) .

الأسباب بأثر رجعى :

لم يكتف الماديون الملحدون بالوقوف بالأسباب عند الظواهر الجزئية التى تفسرها مثل التشابه بين الأولاد وآبائهم ، والأحوال الطارئة التى تعرض للماء كما تقـــدم بل أرادوا أن يعودوا بالأسباب بأثر رجعى فيفسروا بها تصورهم الواهم حول خلق المـادة نفسها . وذلك ظاهر كل الظهور فى النص الذى نقلناه عن هيكل صاحب نظرية الأثير العلمانى المادى .

ونقطة الضعف الظاهرة كما ترى أنهم ـ أى الماديين ـ رفضوا أولا أن يكون وراء المادة سبب فى خلقها حيث كان تسليمهم بالسبب هناك مفضيا إلى الإيمان . ثم عادوا فأرادوا أن يستدلوا بالأسباب اللاحقة لخلق المادة الحاصلة بتفسير بعض الظواهر الجزئية ـ على صـدق دعواهم أن المـادة هى . الخالقة نفسها . ؟ !

وهذا ساقط ـ علميا ـ لأن الأسباب اللاحقة لا تفسر ولا تكون علة فى الأشياء السابقة عليها ؛ لأن السبب مقدم ـ عقلا ـ على المسبب . فلا يكون سبب الشىء متأخرا عنه ، ولا المسبب عن الشىء متقدما عليه . وبهذا يصاعد العقل المـــلم فى سقوط استدلال الماديين بالأسباب اللاحقة على المسببات المتقدمة . فهو إذن ساقط عقلا كما سقط علميا .

فالنار ـ مثلا ـ سبب فى الإحراق . فلا يكون الإحراق سببا فى إيجاد النار والحمار سبب فى النهيق فلا يكون النهيق سببا فى إيجاد الحمار ؟ !

والشيطان سبب من أسباب الضلال فلا يكون الضلال سببا فى إيجاد الشيطان .

والشيوعية سبب فى « الإلحاد » فلا يكون الإلحاد سببا فى إيجاد الشيوعية

فكيف يكون الصراع - مثلا - بين قانون الوراثة والتغير - إذا سلمنا به جدلا - سببا فى إيجاد المادة الجادية ؟ ! .

وكيف يكون الصراع بين قانونى الإنسجام والتفرق - إذ سلمنا به كذلك جدلا - سببا فى إيجاد المادة . . ! ! ؟

محاصرة فى كل طريق :

وقوانين الطبيعة أو المادة الجادية وغير الجادية التى سردها الماديون وعزوا إليها تفسير أسرار الكون كله حصروها فى أربعة قوانين رئيسية وفرعوا عنها قوانين فرعية لاحصر لها . والقوانين الأربعة الرئيسية هى :

الترابط - الحركة - التناقض - التطور :

وقد خضعت هذه القوانين لحملات نقد ونقض لاحصر لها ، وحامت حولها سحب من التشكيك حملت الشيوعيين أنفسهم على التراجع حينا ، وعلى التعديل حينا آخر ، وانبرى علماء متخصصون لمناقشة هذه القوانين من كيماويين وطبيعيين ، ورياضيين . ولا سبيل هنا لمناقشة كل ماقيل فى هذه القوانين . لذلك نوجز الحديث عن أثر النقود والدراسات التى قامت حولها وهى تتلخص فى الآتى :

١ — أسفرت الدراسات والنقود عن التسليم بصحة ثلاثة من هذه القوانين وعن بطلان واحد منها هو الأساس الذى قامت عليه فلسفة ماركس والماديين والعلمانيين جميعا . وهو قانون « التناقض » ، ومن الطريف أن تكون الفلسفة المادية قائمة على هذا « القانون » الذى يمكن تفسيره عندهم بأن « الشىء يحتوى على عناصر بقائه وعلى عناصر فنائه من آن واحد وأن هذه العناصر فى صراع دائم لايتوقف » .

وقد أثبت العلم خطأ هذه المقولة وأن الصحيح أن ظواهر الوجود قائمة على التوازن والتعادل ناتج عن حركة حول محور ثابت . فالتوازن هو الأصل ويحدث الصراع عند الإخلال بهذا التوازن.

ومن الخير أن نسوق مثالا على تطبيق قانون « التناقض عندهم » وهو مأخوذ من قول انجلز : إن كل كائن عضوى هو فى كل برهة ذاته أوغير ذاته ؟! فهو يتمثل فى كل برهة المادة التى يتزود بها من الخارج - يعنى كالطعام والشراب وما يدخله إلى الرئتين عن طريق الشهيق - ويتخلص من مواد أخرى - يعنى مثل الفضلات التى يطردها عن أحد السبيلين ، والعرق الذى يفرزه جسمه ، وما يخرجه عن طريق عملية الزفير - كما أن بعض خلايا بدنه تموت فى كل برهة ، وخلايا أخرى تتكون من جديد . وإن مادة بدنه لتتجدد كليا خلال فترة زمنية تطول أو تقصر ، وتحل محلها ذرات أخرى من المادة بحيث أن كل كائن عضوى يظل هو نفسه بصورة دائمة . ومع ذلك فهو كائن آخر »(٥١).

وإذا دققت النظر فى قول انجلز لا تجد تناقضا أبدا فيما قال . فأخذ الإنسان العناصر الصالحة لحياته من طعام وشراب وغيرهما ، وطرد العناصر الضارة من فضلات وعرق وغيرهما ، واستنشاق الأوكسوجين وطرد ثانى أكسيد الكربون . وإماتة خلايا وتوليد خلايا أخرى إنما هى عمليات تجرى فى غاية النظام والإنسجام لإحداث التوازن فى الكائن العضوى ومنه الإنسان . والتناقض عما ذكر بمنأى . ولكنه الجهل والعناد وعمى البصيرة .

إن التناقض فيما ذكر إنجلز كان يمكن أن يكون لو كان الإنسان يأخذ عناصر بقائه ثم يلفظها هى هى بعينها ، ولو كانت الخلايا التى تموت هى هى

---

(٥١) انظر موقف الإسلام من نظرية ماركس (٣٣٩) والعبارات الموضوعة بين شرطتين هكذا (- ... -) زيادة من عندنا للايضاح والشرح .

التى تحيا ، والأوكسوجين الذى يأخذه فى عملية الشهيق هو هو الذى يخرجه فى عملية الزفير . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فالإنسان يتمثل العناصر الصالحة ثم يتخلص من العناصر الفاسدة ، فأين التناقض إذن ؟ إن القوم — الشيوعيين — قد لفهم الجهل من كل جهة . جهل بالألفاظ ، وجهل بالمعانى ، وخلط بين هذا وذاك . وصدق الشاعر الذى قال :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

والشيوعيون لما ساءت أفعالهم ساءت ظنونهم وسرائرهم وصدقوا ما يتراءى لهم من أوهام .

والخلاصة :

إن مذهب الشيوعيين قد بنوه على أسس منها النقيض أو التناقض ، ولما أثبت العلم والواقع فساد هذ المبدأ أو على الأقل عـدم جدواه لبناء صرح الشيوعية — البالونى — عليه تشقق ذلك الصرح وتبدد ما فيه من محتويات هى فى الواقع شبيهة بالهواء الفاسد المختزن فى جوف « بالونة » لها حجم الفيلة ووزن « الخفاش » والبالونة مهما انتفخت فإنه يكفى لإفسادها أن تثقبها بدبوس صغير فإذا هى ضامرة كأن لم تـكن شيئاً من قبل .

٢ — والدراسات العلمية والنقود الموضوعية التى دارت حول قوانين المادة وأوضاعها عند الشيوعيين أقرت صحة قوانين : الترابط والحركة والتطور . وهذه القوانين لم يكتشفها الشيوعيون . بل هى حقائق معلومة عند الخاصة من العلماء بدقائقها وأسرارها ، وعند عامة الناس بثمارها وآثارها .

ولكن الذى أثبتته الدراسات أن هذه القوانين لم تخدم قضية الكفر والإلحاد التى تبناها الشيوعيون والعلمانيون والماديون . وإنما هى براهين

حق ، ودلائل صدق صحة عقيدة الإيمان بالله الخالق العظيم وهذا ما دعت إليه الفطر السليمة ، وقواه العلم الصحيح ، وسانده الواقع المشاهد ، وأيده العقل المتزن المستنير .

وتثبت ـ هنا ـ أمام القارىء نصوصا سجلها العلماء من غير المسلمين من اهتدوا إلى الحقيقة التى لامناص عنها. فإذا بالإيمان يفيض من خلال ما كتبوه وسجلوه بأمانة وصدق .

يقول كليفلاند كوتران معلقا على دقة النظام الكونى وما فيه من عجائب مدهشة وحكم بالغة ، وأسرار ناطقة :

« وعلى ذلك فإن الكون المادى الذى يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط . فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟! لاشك أن الجواب سوف يكون سلبيا بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة ، أو تتحول الطاقة إلى مادة فإن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وجدت قبلها . فإذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها . فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى »[٥٢].

هذا ما انتهى إليه هذا « المفكر » حين سار مع الفكر فى مساره الصحيح فالخالق هو « كائن غير مادى » لامحالة . ومن هو ذلك الكائن غير المادى يا ترى ؟

---

(٥٢) الله يتجلى فى عصر العلم (٢٤ — ٢٥) .

إنه «الله» وليس شيئا آخر غير الله . ولكن الذين كفروا بربهم يعدلون .
وصدق شاعرنا الذى يقول :

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

وفى نفس المعنى ، وبنفس القوة والوضوح يقول إدوارد لوثر :

« والواقع أن الكون لايزال فى عملية انتشار ، تبدأ من مركز نشأته واليوم لابد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة الخلق أيضا وهى فكرة تستشرف على سنن الطبيعة . لأن هذه السنن إنما هى ثمرة الخلق . ولابد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذى وضع قوانين هذا الكون ، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة . وليس من المعقول أن يكون هناك خلق دون خالق هو الله » .

فإدوارد لوثر ينتهى بنتائج العلوم الحديثة إلى ماهو ثمرة شرعية لها . وهى النهاية التى تقف على عتبة الإيمان . فالعلم - رضى الشيوعيون أم كرهوا - وسيلة من وسائل الإيمان . ودعامة من أقوى دعاماته . ولا عبرة عند العلماء بالإنتكاسة الشنيعة التى تورط فيها العلمانيون ثم ورثها عنهم الشيوعيون أئمة الكفر والإلحاد .

٣ - وانتهت الدراسات والنقود التى قامت حول مادية ماركس وأشياعه إلى :

١ - إن المادة لاتصلح سببا فى خلق نفسها ولا فى خلق غيرها بل لابد من سبب قد تقدم عليها هو « سبب الأسباب ، الله » .

٢ - إن قوانين المادة التى تكمن وراء الظواهر الجزئية بعد عملية الخلق الكونى كقانون الجاذبية وقوانين الإنسجام والتفرق ، والوراثة والتغير لاتصلح دليلا على خلق المادة نفسها ، فهذه القوانين هى نفسها مفتقرة إلى

سبب فى إيجادها يفسرها لأنها مخلوقة ، ولا يحتاج هو إلى تفسير لأنه «مسبب الأسباب» وهو «الله» سبحانه وتعالى .

٣ — إن العلوم ونتائجها تدعو إلى الإيمان «بالله» ، ولا يمكن أبدا أن تكون ضد الإيمان ، ولا سندا لبدعة «الإلحاد» التى تنادى بها العلمانية الجاهلة والشيوعية العمياء !

٤ — وأسفرت الدراسات أن المادة قائمة على التوازن والتعادل وليس على التناقض كما ذهب الشيوعيون ، كما أثبتت الدراسات جهل الماديين بالتناقض علما وعبارة .

٥ — وأثبتت الدراسات أن المادة ليست أزلية لأن لها بداية ، وليست أبدية لأنها تفنى وتصير إشعاعا فلها نهاية كما كانت لها بداية .

٦ — وأثبتت الدراسات أن الفكرة هى السابقة على المادة وليست المادة هى السابقة وإن وهم واهمون ، وضل فى فهمها ضالون .

٧ — وأثبتت الدراسات العلمية والنظر العقلى أن المادة غير صالحة لأن تكون هى العلة الأولى فى الوجود لأنها مفتقرة إلى موجد أعلى غنى بنفسه عمن سواه ، وهو «الله» ، وهى مقهورة لا قاهرة ، ومفطورة لا فاطرة ، وموضوع للتصرف لا متصرفة .

٨ — وأثبتت البحوث والدراسات أن المادة ليست هى «الموجود» الوحيد ، ولا هى — وحدها — مصدر المعرفة . فمع وجود المادة توجد معارف عقلية لا صلة للحواس بها كالإعتقاد بأن الشمس أكبر من الأرض مع أن قصارى ماتعطيه الحواس أن الشمس أصغر من الأرض وتوجد حقائق إيمانية منها مايدرك العقل «ماهياتها» ، ومنها مالا يدركها ولا يسعه إلا التسليم بوجودها لإقامة الدليل تلو الدليل عليها .

لقد نشط العلماء فى كل مجال ، وتقصوا مقولات الماديين وفحصوها بواسطة

وسائل المعرفة الإنسانية وخطأوا الماديين إما فى بعض الأسس والنظريات وإما فى النتائج التى رتبها الماديون على بعض الأسس التى لا نزاع فى صحتها وإنما فى ما أراده منها الماديون وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن التعصب والمغالاة والتحكم والسطو وقلب الحقائق هى سمات الفلسفة المادية ، التى تنتسب إليها شيوعية ماركس ومن دار فى فلكه من حوقى الفكر وسقيمى العقول .

الوضع الإستدلالى لعقيدة الإيمان :

ما مضى كان من أدلة الهجوم المقوضة لشبهات الكفر والإلحاد الذى انتهت إليه الأيديولجيات المادية ومن أبرزها الشيوعية ، إن كل قوانين الفكر السليم ومصادر المعرفة وحقائق العلوم فى كل مجال ، قد أجمعت على فساد التصور الشيوعى لا فى مجال العقيدة الإلهية وحدها بل فى كل التصورات الشيوعية الواهمة . فلم يملكوا وسيلة واحدة من وسائل الإقناع . وصاروا أضحوكة يتندر بها العلماء والعقلاء .

وجاء الآن دور الدفاع عن العقيدة الإلهية ، أو الوضع الإستدلالى على أن هذا الكون مخلوق لله وليس له خالق سواه . وليست دعوى الماديين من العلمانيين والشيوعيين بأن « المادة هى الخالقة » مكافئة لعقيدة المؤمنين « أن الله هو الخالق » .

فقد تباينت الدعويان من حيث « تحرير المناط » ومن حيث الوضع الإستدلالى لكل منهما .

وقد مر بنا الحديث عن دعوى الشيوعيين ، ووقفنا فيه على أن المادة أو الطبيعة هى :

موضوع الدعوى عندهم .

ومن حيث الوضع الإستدلالى فان الشيوعيين لم يملكوا دليلا واحدا على صدق دعواهم . إلى جانب أن العلم والعقل والواقع والفطرة ، كل أولئك أثبتت فساد التصور الشيوعى فى جملته وتفصيله . وفقدت كل التصورات المادية ما يساندها فى مجال الحجاج والجدل .

وحاصرتها سهام الحق من علماء ينتمون إلى كل جنس وصقع ، وما تزال جهود العلماء تضيف جديداً فى هذا المجال ، ولن تتوقف .

موضوع الدعوى فى عقيدة المؤمنين :

موضوع الدعوى فى عقيدة المؤمنين هو « الله » وكان موضوع الدعوى فى تصور الشيوعيين هو « المادة » أو « الطبيعة » والمقابلة بين موضوعى الدعوى - هنا - تسفر عن ضعف جانب وعن قوة جانب . فالقوة فى جانب عقيدة المؤمن . والضعف فى جانب عقيدة أو تصور المادى الملحد . وذلك من جهتين :

أولاهما : أن موضوع الدعوى عند المؤمن وهو « الله » قد نسب إلى نفسه خلق الكائنات جميعا .

أما موضوع الدعوى عند الشيوعيين، وهو « المادة » فلم تدعى هذا قط، ولا تصلح لهذه الدعوى . وإنما الذى ادعاها لها هم الشيوعيون .

ثانيا : أن الله أقام أنصع البراهين ، وأقوى الأدلة على صحة « الدعوى » وصدقها .

والمادة - موضوع الدعوى عند الشيوعيين - فضلا عن أنها لم تدعى قط - فإنها ليس لها أدلة على دعوى هى لم تدعيها . ولم يستطع من ادعاها لها ، وهم الشيوعيون ، أن يقيموا دليلا واحدا أو شبه دليل على صدق دعواهم كما رأينا فيما تقدم .

ونقرب لك المعنى بمثل :

هب أنك قاض وعرضت عليك الخصومة الآتية :

رجل فى يده حقيبة ، وهو طبيب .

ورجل آخر يمسك بيد رجل فلاح يفلح الأرض .

الرجل الأول يقول إن الحقيبة التى فى يده هى ملكه وليست لأحد غيره .

والرجل الثانى يقول إن الحقيبة التى فى يد الطبيب هى ملك للفلاح وليست للطبيب . والفلاح واقف لايتكلم ولم يدع أن الحقيبة له . ولكن الرجل يصر ويجزم أن الحقيبة التى بيد الطبيب هى ملك للفلاح بمافيها . وأنه - أى الرجل المدعى يستطيع أن يقيم الدليل على صحة دعواه .

هذه هى خيوط الدعوى قد نسجت أمامك على هذه الصورة التى صورتها لك . فماذا أنت فاعل ؟ .

لابد أنك ستطلب من الخصوم أن يقدم كل منهم بينته .

ه وهب أنك بدأت بالرجل الذى ادعى أن الحقيبة ملك للفلاح .

فقال : إن الحقيبة فيها كذا ، وكذا ، أخذ يعدد أسماء لآلات زراعية .

ه ثم ثنيت بالطبيب فقال : إن الحقيبة فيها كذا وكذا ، وكذا من آلات الطب الذى هو مهنته .

ثم أخرج (فاتورة) شراء الحقيبة ، و (فواتير) شراء الآلات الطبية التى بها ، وهى - جميعا - محررة باسمه الذى أثبت تسميته به ببطاقة تحقيق الشخصية .

ثم فتحت الحقيبة وتبين لك كذب (المدعى)غير الطبيب ، ووجدت ما فى الحقيبة مطابقا تماما لما ذكره الطبيب .

هنا أصبحت القضية جاهزة للحكم . فلمن تحكم ياترى ؟ ! وما هى حيثيات (الحكم) العادل ؟ ! وفى جانب من تحققت ؟ !

إنها تحققت فى جانب من قويت بينته . وساندتها قرائن الأحوال والبينة القوية كانت فى جانب الطبيب .

وساندتها قرائن الأحوال — وهى الحيازة ومناسبة ما فى الحقيبة لمهنة الطب — وليس الزراعة — كانت فى جانب الطبيب فالحكم العادل الذى يتعين عليك إصداره أن الحقيبة ملك الطبيب وليست ملك الفلاح . أما الذى ادعى أنها للفلاح فحاله لا يخرج عن واحد من احتمالين :

فإما أن يكون مجنونا ، وليس على المجنون حرج .

وإما أن يكون كذوبا مزوراً ، فيجب أن يعامله الناس على هذا الأساس .

وهذا التمثيل ينطبق على ما نحن فيه كل الانطباق :

فالطبيب الصادق = حقيقة الايمان ؛ لأن الله نسب الخلق والإيجاد لنفسه، وصدق كل الصدق فى وصف البينة ، وساندتها قرائن الأحوال من إقرارات العقول ، وحقائق العلوم ، وشهادات الواقع ، وإحساسات الفطرة والمدعى الكذوب المزور = الشيوعيين . والفلاح = المادة . والحقيبة = قضية الايمان الصحيح . والشيوعيون لم يصدقوا فى وصف البينة . ولم تساندهم قرائن الأحوال . بل أخفقوا كل الاخفاق فى دعواهم ،

دليل الدعوى عند المؤمنين :

إن دليل الدعوى عند المؤمنين هو موضوع الدعوى عند الشيوعيين وقد عرفنا من قبل أن موضوع الدعوى عند الشيوعيين « هو المادة ، وليس مطلق مادة بل المادة الجمادية . وهى أحط أنواع المادة من حيث ما يريده منها الشيوعيون ، وهو « الخلق والايجاد » .

وهذا — إذا تأملت — دعامة قوة عند المؤمنين . وعلامة ضعف عند الماديين الملحدين .

فقد التهمت قضية الإيمان موضوع الدعوى عند الملحدين ، وسيطرت عليه بكل قوة . وحولته إلى «مصادر أدلة» على صدق قضية الإيمان ، وتركت الإلحاد والملحدين معلقين فى الهواء لا يلوون على شىء إلا أن تتخطفهم الطير ، أو تهوى بهم الريح فى مكان سحيق .

أجل : إن الكون بما فيه ومن فيه من كائنات علوية ، وسفلية وفضائية هى فى الواقع مصادر براهين وحجج وأدلة على أن :

الله موجود .

الله هو الخالق المصور .

الله هو الواحد الذى لا شريك له .

الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

الله هو المتصرف فى الكون .

ظاهرة جليلة لا بد لها من تفسير :

هذه الظاهرة الجليلة هى الكون أنه حقيقة مدهشة لا يمكن إنكارها ولا التهوين من شأنها ، ولا يمكن للعقل أن يقف منها موقفا سلبيا دون أن يصل إلى تفسير لها يحدث الإنسجام التام بينها وبين العقل ، ويتحقق هذا التفسير وذلك الإنسجام حين يصل العقل إلى معرفة صانع هذا الكون ، وتقوم بين يديه الأدلة القاطعة على تعيين ذلك «الصانع» الأعظم من الكون ومن فى الوجود كله .

هذا ، وقد ثبت بكل يقين أن :

• الكون أو المادة أو الطبيعة لم تصنع نفسها . ولم يصنعها الإنسان ؛ لأنه لا يتصور وجوده إلا تاليا لوجودها . هذا هو حكم العقل الذى لا نزاع ولا تراجع فيه .

• إذن فلا بد لهذه الظاهرة الضخمة العظيمة من «صانع» تطمئن إليه النفوس ، وتقتنع به العقول .

ذلك « الصانع » هو الله - سبحانه . فهو سبب الأسباب وعلة العلل التي تفسر غيرها ولا تحتاج هي إلى تفسير . وقد تكفل القرآن الكريم بإيراد الأدلة القاطعة على صحة هذه العقيدة وصدقها ، والنظر المتأمل في آيات القرآن العظيم يجد أدلة هذه العقيدة مبثوثة فيه على نسق عجيب ، وفي عرض محكم يدركها الخواص بظواهرها وبواطنها ، ويدركها العوام بآثارها وظلالها فتتيسر أسباب الهداية أمام المهتدين ، وتقوم الحجة لله على الملحدين . ويحيا من يحيا عن بينة ، ويهلك من يهلك عن بينة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد البيان .

مناهج أو كيفيات عرض الدلائل في القرآن الحكيم :

للقرآن في عرض الدلائل على « الحقيقة الإلهية » مناهج أو كيفيات متعددة كلها تؤدي إلى « هدف واحد » هو الإيمان بالله الواحد رب العالمين. وندير حديثنا - هنا - عليها في إطاري منهجين اثنين :

أحدهما نتابع فيه العلامة ابن رشد . والثاني هدانا إليه النظر ، ولنبدأ بمنهج العلامة ابن رشد :

منهج ابن رشد :

نظر العلامة ابن رشد في مناهج الأدلة التي سلكها أهل الفكر والنظر من قبل ، وهم حسب كلام ابن رشد :

الأشعرية ، والمعتزلة والباطنية ، والحشوية ولم يرتض ابن رشد تلك المناهج وقال إن معظمها مبتدع بعد عصر الصحابة ، ولا تصلح لهداية جميع الناس إلى الإيمان بالله ، لأنها غالبا أقيسة عقلية مركبة ، وهي وإن ادركها بعض العباد - العلماء والخاصة - لم يدركها عوام الناس ثم ذهب العلامة ابن رشد يضع منهجا استدلاليا يستوي في فهمه الخاصة والعامة ، فهداه النظر إلى منهج

قال إنه مستفاد من الكتاب العزيز ، وأن الصحابة كانوا يعولون عليه [٥٣].

وخلاصة منهج ابن رشد هو ما يأتي :

إن النظر فى كتاب الله العزيز يفيد أن فى كتاب الله طريقا للدلالة على وجود الله ، وهذا الطريق محصور فى جنسين كل منهما يعتمد على أصلين [٥٤]:

١ — الجنس الأول ويسمى دليل العناية ، أى العناية بالإنسان حيث خلق الله لمنافع الإنسان جميع الموجودات من أرض وسماء ، وما فى الأرض من نبات وحيوان ومعادن وهواء ونار . الخ .

ويؤيد كلام ابن رشد قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا منه » البقرة (٢٩) وهذا الجنس يعتمد عند ابن رشد على أصلين :

أحدهما : أن جميع الموجودات موافقة لمنافع الإنسان ، والعناية به .

وثانيهما : أن هذه الموافقة مقصودة قصداً لفاعل حكيم مختار . هو الله .

٢ — الجنس الثانى ، وسماه ابن رشد دليل الاختراع . ويدخل فيه خلق الحيوانات كلها ، وخلق النبات ، وخلق السموات والأرض وكل ما بينهما . وهذا الجنس يبنى — عنده — على أصلين كذلك :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة على غير مثال سابق . وهذا كما يقول ابن رشد مفهوم فى نوعى النبات والحيوانات (ومنها الإنسان) لأننا نشاهد وجودها بعد عدمها بالتكرار .

أما السموات والأرض والأفلاك فنستدل - كما يقول ابن رشد - على أنها مخترعة مخلوقة من قبل حركاتها التى لا تفتر ، فهى مأمورة بالعناية ، ومسخرة لنا .

---

(٥٣) الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة (٤٦) دار الآفاق الجديدة بيروت.

(٥٤) لن نلتزم بحرفية كلام ابن رشد ـ هنا ـ بل سنتدخل ، بحذف ما تدعو الحاجة إلى حذفه ، وبإضافة ما تدعوا الحاجه الى إضافته توخيا للايجاز والإيضاح معا .

والأصل الثانى من أصلى دلالة الاختراع يقول فيه ابن رشد : فهو أن كل مخترع فله مخترع ـ (اسم فاعل) والأول (اسم مفعول) ـ من قبل غيره ضرورة (يعنى لزوما) عملا بقانون السببية .

هذا هو منهج العلامة ابن رشد(٥٥) . وفى أهمية هذا المنهج يقول ابن رشد بالحرف الواحد : « ولذلك كان واجبا على كل من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقى فى جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشىء لم يعرف حقيقة الاختراع » .

« وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة فى موجود ، أعنى معرفة السبب الذى من أجله خلق ، والغاية المقصودة به ، كان وقوفه على دليل العناية أتم . فهذان الدليلان هما دليلا الشرع » .

ويعمم ابن رشد منهجه هذا ويدرج تحت مفهومه كل آيات الكتاب العزيز الواردة فى الإستدلال على الحقيقة الإلهية . يقول :

« وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه فى الكتاب العزيز هى متحصرة فى هذين الجنسين من الأدلة ، فذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى »(٥٦) .

وعند التمثيل على المنهج نوع العلامة ابن رشد ورود آيات الإستدلال على وجود الصانع العظيم ثلاثة أنواع :

• آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية .

---

(٥٥) أنظر: الكشف عن الأدلة فى عقائد أهل الملة (٥٨ــ٦٠) مرجع سبق ذكره.
(٥٦) نفس المرجع (٦١) .

• آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع .

• آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعا .

وشهادة حق نقولها : إن العلامة ابن رشد كان موفقا فى تأصيل هذا المنهج ، صادقا فى فهم الكتاب العزيز ، حكيما فى التصور والعرض والتفسير.

تمثيلات ابن رشد :

مثل ابن رشد بآيات من القرآن الكريم للأنواع الثلاثة التى ذكرها ، نذكر منها ما يأتى :

• دلالة العناية :

أول ما مثل به على دلالة العناية الآيات الآتية :

« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا » النبأ (٦ – ١٦) .

أصاب ابن رشد بهذا التمثيل على دلالة العناية . لأن كل ما امتن الله به على عباده فى هذه الآيات داخل فى منافع العباد . ومن مظاهر عناية الله بهم . وإن شئت فقل : هذه المذكورات من لوازم تأثيث البيت الكبير الذى هو « الكون » وتهيئته للمعاش والراحة :

فالأرض ممهدة للزرع والحرث والسير ، ومثبته بالأثقال الموزعة على سطح الأرض توزيعا حكيما بحيث تساوت كتل الجبال التى فى شرق الأرض بالتى فى غربها لتتعادل كفتاها كما تتعادل كفتا الميزان بدون اضطراب[٥٧] .

---

(٥٧) انظر الإسلام فى عصر العلم (٢٧٠) د / محمد أحمد الغمراوى .

وجعل الانسان صنفين (زوجين) ليكمل أحد الزوجين الآخر ، وفى النوم راحة وتجديد للقوى . والليل ظرف مناسب (جداً) للخلود للراحة وترك العمل وآية النهـــار مبصرة فهى مجال للسعى والكسب . والسموات واقيات حافظات وهى « سقوف » البيت الكبير . والشمس تمد الكون بالطاقة والضياء والماء حياة الحياة . وفى الحب والنبات والزروع والحدائق ما لذ وطاب من مأكل شهى ، ومذاق هنى .

هذه المذكورات هى قطعا موجودات . وموجدها ـ لا محالة ـ هو الله فالله ـ إذن ـ موجود ، ووجوده أزلى أبدى لا يحتاج إلى موجد ولا معين وصنعته هذه صنعة بديعة فيها من الألطاف والعناية والإنعام مالا يصدر إلا عن « الله » الخالق العظيم . والوهاب الكريم .

٥ دلالة الاختراع :

ومما مثل به لدلالة الإختراع قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مما خلق ؟ . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » الطارق (٥ ـ ٧) .

وقف الله الإنسان على حقيقة خلقه ، ومبدأ تكوينه . ومبدأ تكوين الإنسان القريب هو الماء الدافق . وله رافدان : صلب الرجل وترائب المرأة هذا ماقرره القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. ثم جاء العلم مطابقا لخبر الوحى . فالإنسان لم تصنعه يد غير يد الله ، ولا قدرة غير قدرة الله . وذلك مظهر من مظاهر الإختراع الإلهى . وكل مخترع مخلوق له مخترع وخالق . ذلكم هو « الله » فالله ـ إذن ـ موجود . والوجود الكونى الدائم دليل من أدلة وجوده . والخلق المتكرر (نبات ـ حيوان ـ إنسان) من أدلة وجوده الغنى عن كل القرى .

دلالة العناية ودلالة الإختراع :

الآيات التى تجمع بين دلالتى العناية والإختراع يقول ابن رشد عنها

أنها أكثر من آيات العناية وحدها ، ومن آيات الاختراع وحدها ، وهذا صدق وصواب . ومما مثل به للجمع بين الدلالتين قوله تعالى :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» البقرة (٢١ ٢٢) .

فالذى خلقكم والذين من قبلكم فيه دلالة اختراع ظاهرة وجعل الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به للعباد فيه دلالة عناية واضحة فالله لم يخلق شيئا عبثا ، ولم يكن له فى الخلق شريك ولا معين وصنعته كلها حكمة وإبداع . والكون دليل وجوده الأزلى الأبدى فلابد لهذا النظام البديع من خالق ، ولا خالق له غير الله .

ابن رشد يعقب :

وبعد إيراد هذه التمثيلات نرى ابن رشد يعقب فيقول :

« فقد بان من هذه أن الأدلة على وجود الصانع منحصرة فى هذين الجنسين : دلالة العناية ، ودلالة الإختراع . وتبين أن هاتين الطريقتين هما طريقة الخواص ، وأعنى بالخواص العلماء . وطريقة الجمهور ، وإنما الاختلاف بين المعرفتين فى التفصيل . أعنى أن الجمور يقتصرون من معرفة العناية والإختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على الحس . وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان »[٥٦].

---

(٥٦) نفس المرجع (٦٣)

انتهى القول على منهج ابن رشد ، وقد وفقه الله فيه إلى كثير من الصواب أو إلى صواب يكاد يكون خالصا ، أقول يكاد يكون خالصا ؛ لأن ابن رشد جعل أدلة وجود الصانع «الله» محصورة فى دلالتى العناية والإختراع ولكننا مع إعجابنا بمنهجه وأفهمه له وتوظيفه للدلالة على الصانع العظيم وتحليله للدلالتين - لا نجاريه على فكرة الحصر هذه . لأن المتأمل فى الآيات التى يطلق عليها الدعاة المعاصرون مصطلح (آيات الدعوة) وهى الواردة فى شأن العقيدة ، وآيات الدلالة على وجود الصانع شعبة من شعب آيات الدعوة . المتأمل فى هذه الآيات تظهر له بوضوح أجناس أخرى غير الجنسين اللذين ذكرهما ابن رشد ، وحصر الدلالة فيهما على الوجه الذى تقدم .

والعلامة ابن رشد بالضوابط الدقيقة التى وضعها لمنهجه أخرج أجناساً من دائرة الإستدلال على وجود «الصانع» مبثوثة فى آيات الكتاب العزيز ، وهى على طرف الثمام لمن يريد . وأكاد أجزم - مرة أخرى - أن الذى بقى بعد منهج ابن رشد من الدلالات القرآنية على وجود « الصانع العظيم » أدخل فى باب الإلزام للمنكرين من دلالتى العناية والإختراع اللتين حصر فيهما منهجه على الصورة الدقيقة التى رسمها فأحكم رسمها .

وها نحن أولاء نكشف - بدورنا - عن بعضها لا عن كلها توخيا الإيجاز والإبانة معاً . ومن الله نستمد العون ، ونستلهم الرشاد .

دلالة التحدى والإعجاز والقهر :

هذه واحدة من الدلالات التى غفل عنها العلامة ابن رشد عفا الله عنه وأثابه .

وضابط هذه الدلالة أن يبين فى كتابه العزيز أن الخلق خاضعون له فى أمور كثيرة أرادهم بها . فمضت فيهم سنته ، ولم يستطع أحد من

الخلق - كائنا من كان - أن يرد قضاء قضاه الله فيه ولو استعان بكل الإنس ، وكل الجن .

وشواهد هذه الدلالة فى الكتاب العزيز كثيرة . ويحسن بنا أن نقف أمام ظاهرة عامة يستوى فى الإيمان بها الملحدون والمؤمنون وهى ظاهرة .

الموت :

إن هذه الظاهرة القاهرة حقيقة لا مراء فيها . وقانون إلهى نافذ فى كل حى . وسنة ربانية لا تدفعها قوة من قوى البشر . هى فى نفسها ظاهرة تحد وإعجاز ، وفى توقيتها ظاهرة تحد وإعجاز وفى خفاء أمرها ظاهرة تحـــد وإعجاز . وهى قسيمة الحياة فى أنهما عمل خالص لله فعجز البشر وكل الخلق عن إيجاد الحياة فى شىء كعجزهم عن دفع الموت عمن أراد الله به الموت . وقد ساق القرآن هذه الحقيقة فى صيغة قضية موجبة كلية على حد تعبير المناطقة . وذلك فى قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت . . . » .

فهذا قضاء الله فى خلقه . وهو خبر . وجلال الخبر وكماله فى صدقه وإطراده فى أفراده ، وشموله لكل متعلقاته . وهو - أعنى هذا الخبر بالذات - لا يصدر إلا عمن بيده الأمر كله ، وكان أهلا للتنفيذ دون أن تعوق إرادته أية قوة مضادة .

وهذا القضاء المبرم القاهر النافذ ورد فى القرآن الكريم . والقرآن كلام الله رب العالمين . والخبر صادق كل الصدق ، لأننا لم نر حيا خالدا بل فى كل يوم ، وفى كل ساعة نرى كأس الموت يحتسى . وأعناق الأحياء تتساقط ، وأجسادهم إلى التراب تعود .

فأين ماركس ؟ وأين إنجلز ؟ وأين لينين ؟ وأين ستالين ؟ وأين وأين إلى ماشاء الله ؟ لقد رمت أجسادهم وبليت عظامهم وضلوا فى الأرض ريثما يبعثون ويحاسبون .

أجل : كل نفس — هكذا بالسور الكلى الحاصر — ذائقة الموت . إنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا . إلا إننا نهيب بالملحدين — جميعا — ليجتمعوا فى صعيد واحد ويجمعوا كل قواهم وشياطينهم ليدفعوا الموت عن نفس حان أجلها . ولو كانت تلك النفس ذبابة أو فيلا ، فهل هم — ياترى — قادرون أم هم عاجزون ؟ !

إن الجواب معلوم . إلا فليعلموا أن صانع الحياة هو صانع الموت فليقروا به إن أرادوا لأنفسهم خيراً . وإن عاندوا فالحجة قائمة عليهم . وهذا دليلها :

الله الذى أجرى سيف الموت لحز الرقاب هو الذى خلق الحياة فى كل حى وهو — وحده — خالق المادة ومسخرها والمتصرف فيها وفى من عليها وما عليها . فهل — بعد هذا الدليل — يا أئمة الإلحاد — أنتم ما تزالون هكذا ملحدين ؟ !

إن الله هو صانع الحياة وليس غيره . وإن الله هو صانع الموت وليس غيره فمن ينكر وجود هذا الصانع . فليعد من مات إلى الحياة ، وليدفع الموت كل حى . أو بعبارة أكثر إعجازا : عليه — ليكون صادقا فى دعواه — أن عن يميت الموت ؟ ! .

مظاهر التحدى والإعجاز والقهر فى آيات أخرى :

* « قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » آل عمران (١٦٨) .
* « أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » النساء (٧٨) .
* « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت . . . » الأحزاب (١٦) .
* « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا . . . » الملك (٢) .
* « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . . . » الجمعة (٨) .
* « نحن قدرنا بينكم الموت والحياة وما نحن بمسبوقين » الواقعة (٩٠) .
* « إنك ميت ، وإنهم ميتون » .

هذه الآيات لها دلالتان :

إحداهما : أن الموت خلقه الله فهو من أمره ، كما خلق الله الحياة ولم يعط سرها لمخلوق . « قل الروح من أمر ربى » .

والثانية : أن الموت قضاء مبرم لا ينجو منه أحد، ولو كان نبيا أو رسولا إنسانا وغير إنسان .

المو ت لا يدفع :

وفى آيات أخر يقرر الجليل إعجازا آخر فى ظاهرة الموت غير الإبرام وغير الشمول . فالموت حين يجىء الأجل فهو واقع لا محالة ، ولا قوة لأحد تدفعه كلية أو ترجئه إلى حين . والآيات التى قررت هذا التحدى والإعجاز منها قوله تعالى :

* « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون »(٥٧) .
* « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون »(٥٨) .

صورة تحد وإعجاز مباشر :

وترد صورة فيها تحد ظاهر ، وإعجاز مباشر للخلق أن يدفعوا عن النفس الموت ساعة احتضارها .

« فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » الواقعة (٨٣ – ٨٧) .

هذه صورة لنفس حضرتها الوفاة فبلغت الروح الحلقوم . والناس حولها

---

(٥٧) المنافقون (١١) .
(٥٨) الأنعام (٦١) .

جالسون ، والعيون تنظر . والحيلة عاجزة ، وأمر الله نافذ والملائكة حضور يباشرون عملهم المكلفين به فى صمت رهيب . وجد لا يعرف التوانى . وهم أقرب شىء إلى النفس ولكن أحداً لا يبصر وإن كان ينظر إلى هذه الساعة الحرجة الجادة يتحدى الله الناس جميعا . ويتحدى الملحدين خاصة فيقول لهم : إن زعمتم أن ليس لكم رب خلقكم وأنتم مقهورون له فأمامكم هذه التجربة الصعبة : أرجعوا الروح التى تخرجها إلى مكانها من الجسد الذى خلا منها . ووزعوها فيه — كما كنا قد وزعناها من قبل — لتعيدوا له الحياة . فإن استطعتم فأنتم صادقون . وإن لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — فهذا واحد من أدلة الإيمان يتكرر كثيرا بعدد الأحياء منكم فآمنوا . وإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم الحجة فلا تلوموا إلا أنفسكم .

ونحن نتوجه بهذا التحدى والإعجاز القاهر لأئمة الإلحاد فى كل عصر ومصر ، ونقول بملء أفواهنا هذا دليل من أدلة الإيمان يثبت صدق عقيدتنا أن الله موجود، وأنه هو خالق المادة والكون والمتصرف فى المادة والكون . وخالق الأسباب والمسببات . بوجوده نفسر كل حقائق الوجود . ووجوده هو غنى عن كل تفسير .

الأمم كالأفراد :

وللأمم والجماعات أجل محتوم كآجال الأفراد ، إذا جاء لا يرد ولا يدفع ولا تنفع فيها الشفاعات والحيل :

« لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » يونس (٤٩) .

وما هو أجل الأمة ياترى ؟ هل هو توفى أفرادها فرداً فردا كل فى حينه المضروب : حتى يفنى آخرها وتكون الأمة — هنا — بمعنى الجيـــل .

أم هو سقوط الأمم وتدهورها كما تسقط الأمم ذات الحضارات وتموت معها حضارتها ؟ العلم لله وحده . ولكن موطن العبرة ـ هنا ـ أن لكل أمة أجلا مضروبا معلوما لعلام الغيوب . فإذا جاء الأجل نفذ بكل دقة فلا يتأخر لحظة من الزمن ، ولا يتقدم لحظة . وصدق الشاعر الذى قال :

والمنايا رصد للفتى حيث سلك
كل شىء هالك حين تلقى أجلك

والخلاصة : أن من أدلة وجود الصانع العظيم (الله) أن الإحياء والإماتة من اختصاص الإرادة والقدرة الإلهية . فإذا أراد الله حياة نفس فلا تستطيع قوة مهما بلغت أن تسلب تلك النفس الحياة . « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » ، وإذا أراد الله إماتة نفس حية فلن تستطيع قوة مهما كانت أن تدفع عنها الموت : « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » .

فمن نازع فى وجود « الصانع العظيم » فليبطل هذا القانون الإلهى . وما هو بفاعل . فسبحانك ربنا فأنت كما قال رسولك الأمين صلى الله عليه وسلم :

« ماض فينا قضاؤك ، عدل فينا حكمك » يا أحكم الحاكمين . لا ينفعك إيمان مؤمن . ولا يضرك إلحاد ملحد ؛ لأنك أنت الله ذو الجلال والجمال والكمال والسلطان ، « إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا » .

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

دلالة النظام والإطراد :

هذه الدلالة ، دلالة النظام البديع ، والإطراد المحكم من الدلالات التى لم يتنبه لها العلامة ابن رشد . ونعنى بها : أن لله نظاما مطرداً فى الكون ومن فيه ، وما فيه .

هذا النظام يجرى بوضوح حسب الإرادة الإلهية . ولا توجد قوة فى الأرض تعوق هذا النظام أو تعطله أو تبدله . وفى القرآن الكريم آيات لفتت الأنظار إلى هذا النظام ، واتخذت منه دليلا قويا على وجود الله وتفرده بالكمال . وسمو إرادته فوق كل الإرادات . وقدرته فوق كل القدرات . وعلمه فوق كل العلوم .

وتجىء فى سياق الكلام آيات فيها توقيف وتحد - كذلك - بأن هذا النظام المحكم البديع المطرد ماض حسب إرادة الله قاهر غير مقهور . وفيما يلى البيان :

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » [٥٩]

تشير هذه الآيات إلى النظام البديع المحكم المطرد فى مجالين جليلين :

أولهما : مصادر الخلق والإيجاد المتكرر من نبات وحيوان وغيرهما .

وثانيهما : حركة الأفلاك العظمى اليومية وما يترتب عليها من آيات كونية مدهشة .

فمصادر الخلق محصورة فى ثلاثة : إنبات الأرض ، وتوالد الإنسان ومصدر ثالث لا يعلمه الناس ويعلمه الخالق سبحانه . وقد يرد هذا

(٥٩) يس (٣٦ - ٤٠) .

سؤال مؤداه أن هناك «صدراً رابعاً للخلق أغفلته الآية الأولى وهو خلق الحيوان من دواب وزواحف وطير . والجواب : أن هذه الأنواع داخلة فى « مما تنبت الأرض » والإنسان - بدوره - كذلك ، ولكن الخالق ميزه وفضله عن المخلوقات الدنيا .

فهذا هو نظام الخلق والتكوين والإيجاد ، ليس له إلا خالق واحد ، ويد مبدعة واحدة . هو الله الذى أحسن كل شىء خلقه . فهل فى مقدور أحد أن يعدل هذا النظام . فليدع الماديون مادتهم . وليركعوا فى محرابها ويتوسلوا إليها أن تحدث تغييرا فى هذا النظام . ولينظروا عطاءها إن كان لها عطاء وتأثيرها إن كان لها تأثير ؟ ! وليبحثوا عن القبعة السوداء التى لا وجود لها فى غرفتهم المظلمة . . ؟ !

حركة الأفلاك :

أما حركة الأفلاك العظمى اليومية فعجب عاجب ، وإعجاز دائم . فالليل والنهار يتعاقبان فى نظام بديع حقا . كأن الليل يطلب النهار ، وكأن النهار يطلب الليل طلبا حثيثا فى كليهما . وأحيانا يطول الليل على النهار باقتطاع جزء منه . كما يطول النهار - أحيانا أخرى - على الليل باقتطاع جزء منه . وهذا الاقتطاع أو قل التداخل المسمى فى الكتاب العزيز بالإيلاج متساو تماما وبكل دقة . كأن أحدهما يقترض من الآخر « جزءاً » فى زمن ، ثم يرده موزونا بموازين « الذرة » فى زمن مماثل تماما لزمن الاقتراض . ويتساوان - الليل والنهار - فى يومين اثنين على مدى العام كله - أحدهما فى الاعتدال الربيعى والآخر فى الاعتدال الخريفى - وهذا ناشىء عن أوضاع حركة « الفلك » الدائبة التى قدرها العزيز العليم ، والشمس تجرى لمستقر لها لا يعلمه إلا الله ، والقمر مقدر منازل تقديراً حكيما فهو يسير فى مداره ومجراه من يوم خلقه الله دون اختلال « عفوى » أو توقف .

هذه الأفلاك العظمى تسبح فى الفضاء فى مسافات وأبعاد مقدرة تقديراً

حكيما حتى لا يحدث بينها اصطدام فتقع كوارث لا عهد للناس بها .. وليست الشمس والقمر هما وحدهما يسبحان فى الفضاء الكونى الهائل بل تسبح بجوارهما بلايين الكواكب والنجوم كل فى مداره الخاص به، محكومة بقدرة الله وتدبيرة دون احتياج إلى حركة تنظيم أو آداب وقواعد مرور . ولكنها تسبح — هكذا — فى يسر وسهولة واتزان دون أن يعوق حركاتها شىء : « صنع الله الذى أتقن كل شىء ... » .

هذا النظام البديع واحد من الأدلة لا على وجود « الصانع العظيم » فحسب ولكن على وجوده وكمال قدرته وبليغ حكمته وتفرده بالسلطان الذى ليس فوقه سلطان . فليدع عبيد المادة الجمادية مادتهم ؟ ولينظروا هل تجيبهم إذ يدعون ؟ أو هل تسمعهم إذ ينادون « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور . ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

الساعة الكونية :

« وجعلنا الليل والنهار آيتين . فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا » الإسراء (١٢) .

جعل الله الليل والنهار آيتين هو أس النظام الكونى فى أجلى مظاهره فهما — الليل والنهار — آيتان عظيمتان خالدتان ما خلدت الحياة . وناشئان عن عمل ضخم لا فاعل له سوى العلى القدير . فدوران الأرض حول نفسها دون أن يشعر أحد باختلال أو اضطراب فى سكونها وقرارها يترتب عليه آيتا الليل والنهار . ودورانها حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة المعروفة . ولو ظلت الأرض جامدة لا تتحرك لتوقف تعاقب الليل والنهار . ولما استطاعت قوى البشر جميعا أن تحركها ولتوقفت الحياة على ظهرها . فالناس ينامون والفلك يتحرك ، ويعملون والفلك يتحرك . ولا تأثير لهم ناموا أو عملوا فى إدارة الأفلاك بل ذلك نظام الذى بيده ملكوت كل شىء . ولكل

من آيتي الليل والنهار خاصة ووظيفة . خاصة الليل هي الإظلام المعبر عنه في الكتاب العزيز به « المحو » ، لأن الرؤية تختفي بالليل فكأن الأشياء التي كانت ترى نهاراً قد « محيت » ، فهي لا وجود لها كما يمحو الكاتب أسطراً كان قد كتبها .

ووظيفة الليل الراحة والجمام والسكون . وما أحوج الخلق إلى الراحة والجمام ؟! وخاصة النهار « الإبصار » ، ووظيفته النشاط والعمل والضرب في الأرض وما أحوج الناس إلى العمل بعد الراحة . والسعي بعد الكلال ؟!

إن للكون ساعة تدق بقدوم الليل فيركن الناس إلى الراحة ، وتدق مرة أخرى بقدوم النهار فينشط الناس للعمل .

وهذه الساعة تعلم الناس الحساب ليعرفوا المواعيد المناسبة لكل شيء ويحسبوا الأعمار ، ويضبطوا المعاملات ومواسم الحرث والحصد . وفي هذه الساعة الكونية مؤشران هائلان : الشمس والقمر ، بالإضافة إلى مؤشرات « ثانوية » دقيقة تضبط بها مواعيد أخرى لمن احتاج إليها . وعمل المؤشرين الهائلين موزع توزيعاً دقيقاً ومحكماً ورائعاً . أنهما يتعاونان في ألفة وإحكام لتحديد الأيام والشهور والسنين ، وإليك البيان :

وظيفتا الشمس والقمر :

فالقمر يحدد بداية الشهر ونهايته . والشمس تحدد بداية اليوم ونهايته كما تحدد بداية النهار (الوقت المضيء فحسب) ونهايته . وتحدد بداية الليل (الوقت المظلم فحسب) ونهايته . والقمر تحسب به السنين (الكونية) والشمس تعين الجهات الأربع . فهي تظهر من « الشرق » ، وتغيب في « الغرب » والواقف تجاه شروق الشمس يكون « الجنوب » عن يمينه ، « والشمال » عن « يساره » والواقف تجاه الغروب يكون « الغرب » أمامه ، و « الشرق » خلفه ، و « الجنوب » عن يساره ، و « الشمال » عن يمينه . وبتحديد الجهات الأربع « الأصلية » ، يسهل تعيين الجهات الأربع « الفرعية » ، وهي : الجنوب

الشرق ، والشمال الشرقي ، والجنوب الغربي ، والجنوب الشرقي . كما تحدد الفصول السنوية الأربعة بدوران الأرض حول الشمس . وبحركة الأرض حول نفسها تعرف مواقيت العبادات اليومية فالفجر يبدأ بسطوع عمود النور الباكر المؤذن بشروق الشمس . والظهر حين ينعدم « الظل » وقد توسطت الشمس كبد السماء . والعصر إذا بلغ ظل كل شيء مثله ، وبغروب قرص الشمس يكون المغرب وباختفاء الشفق الأحمر يكون العشاء .

وبالقمر تتحدد العبادات السنوية من حج وصيام كما تستعين النساء عن طريق حركته الدائبة ضبط بعض الأحوال الخاصة بهن (العادات الشهرية) والسنة القمرية معدودة بأيام لا تزيد ولا تنقص . وشهورها تتراوح بين حد أعلى « ثلاثون يوما » وحد أدنى « تسعة وعشرون يوما » وليس في الأشهر القمرية شهر كامل دائما ، ولا شهر ناقص دائما . فقد يكمل شهر في سنة وينقص في سنة ثانية .

وهكذا تتناوب الأشهر القمرية الإثنا عشر الكمال والنقص . وهذه ظواهر تحدث بعيدا عن تدخل « الخلق » وتدبيرهم وتقديرهم . إنها تدبير العزيز العليم . وهذا النظام المحكم البديع لم يتخلف ولن يتخلف . وهذه الساعة الكونية الكبرى لم يصبها عطل ولا فساد منذ خلق الله السموات والأرض ، ولا هي محتاجة إلى « صيانة » ولا قطع غيار ولا إشراف مهندسين ولا رقابة خبراء ؛ لأنها « صنع الله الذي أتقن كل شيء » والذي « أحسن كل شيء خلقه » « سبحانه في علاه » « بديع السموات والأرض » إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

والمؤشرات «الثانوية» من النجوم ، مثل سهيل ، والنجم القطبي علامات واضحة تهتدي بها قوافل التجارة في البر ، والسفن والبواخر في البحر ، ومنها ما يعرف به بدء الفصول ونهايتها . أليس وراء هذا النظام البديع المحكم يد مبدعة وصانع حكيم ليس كمثله شيء ؟ !

مراحل الإنسان وتنشئته ومصيره :

« هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

وهذا نظام خلق الإنسان وتنشئته ومصيره . خلقه على مراحل : المرحلة الترابية، والمرحلة النطفية، والمرحلة العلقية ، ثم التدرج فى الطفولة حتى بلوغ الأشد، ثم مرحلة الشيخوخة بيد أن بعضا تعاجله المنية فى مرحلة مبكرة من العمر . ولكن مع هذا التفاوت فى الأعمار فإن لكل منا أجلا مسمى هو بالغه . ومن يتأمل هذا النظام يعلم أن وراءه إرادة حكيمة ، وقدرة فائقة . ووراء هذه القدرة وتلك الإرادة قادر مريد هو « الله » جل فى علاه .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ذلكم هو الإنسان صنع الله . فكيف يرتاب إنسان فى وجود صانعه ؟ « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » ؟ . لا هذا ولا ذاك . فهم لم يخلقوا من غير شىء ولم يخلقوا أنفسهم . وهم عقلاء كملة . بل خلقهم الله . فكيف يقال : إن المادة الجمادية هى الخالقة . لو جاز أن يصدر خلق عن غير الله لكان الإنسان وهو أرقى وأكمل من المادة والنبات والحيوان، هو الخالق . . والإنسان مقر بأنه (مخلوق) وليس له خالق إلا الله . ولكن الإنسان ، أو بعض بنى الإنسان أسلموا قيادهم للشيطان فأضلهم وأفسد بالهم

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .

لا تبديل لسنة الله :

هـذا النظام البديع المحكم ، والإطراد المدهش دليل على وحـــدة الصانع جل وعلا وإذا تعلقت إرادة الله بوقف هـذا النظام (الكونى) عجزت كل القوى عنــد إعادته أو تبديله . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ، موقفا عباده على سعة سلطانه ، وبلوغ أمره ، ونفاذ ما يريد :

(قل أريتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون) .

إن إرادة الله وقدرته الذى أبدع هـذا النظام وأحكمه . وجعل تعاقب الليل والنهار سنة محكمة ، لهما صلاحية أخرى تتحقق - إذ أراد - بجعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة . وإذا أراد ذلك كان وليس فى مكنة أحد - غير الله - أن يعيد تعاقب الليل والنهار . لأنه لا يستطيع ذلك إلا إله ، ولا إله إلا الله .

وإذا أراد جعل النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، فلا يستطيع أحد غير الله أن يعيد تعاقب الليـــل والنهار ، لأنه لا إله إلا الله (إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده »

بطلان الصدفة :

فالله - سبحانه - موجود - وهـذه حقيقة الحقائق - ؛ لأن هـذا الكون لابد له من خالق ، ولا يصلح له خالق إلا الله ، ومحال عقلا وعلما وواقعا أن يكون هذا الكون العجيب الدقيق الصنع قد (وجد) من لاشىء ، لأن (لا شىء) لاينتج شيئا وليس هو قــد خلق نفسه فهذا باطل عقلا وعلما وواقعا . ولاخلقته الصدفة ؛ لأن الصدفة بفرض التسليم بها تجرى بين أشياء

موجودة . والمشكلة - هنا - لا تتعلق بالنظام والتنسيق بين أشياء عملت فيها (الصدفة) وإنما المشكلة هي مشكلة الخلق والإيجاد نفسه . ولا عمل للصدفة في الإيجاد بل هي تعمل ، وفي نطاق ضيق جدا ، في أشياء سبق وجودها قبل عمل الصدفة نفسها فمثلا قد تتكون كلمة من حروف طباعة مثل (ولد) إذا تناثرت الحروف من يد تحملها . فالصدفة هنا عملت في أشياء موجودة ، وهي حروف الطباعة ولكنها هي - الصدفة - لم تصنع أشكال حروف الطباعة ، ولا المادة التي شكلت منها .

ومع هذا فإن الصدفة تستحيل عقلا إذا زعم زاعم أن كتابا يقع في ١٠٠ صفحة مثلا وبه ثلاثون ألف كلمة قد صنعته الصدفة . والإستحالة العقلية هنا أسباب :

أحدها : إن الصدفة لا تنشيء مادة وإنما يمكن أن يقع تنظيم ضئيل منها لشكل مادي . مثل تجمع الحروف: الواو ، واللام، والدال في المثال السابق.

وثانيهما : أن العلماء - بعد الدرس والتجربة والسبر وضعوا قانونا للصدفة قالوا فيه (إن حظ المصادفة من الاعتبار (النجاح) يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة) .

أي كلما قل عدد الأشياء المتكافئة المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما زاد عددها قل حظها من النجاح .

وتطبيق هذا القانون أنك إذا رأيت حجرين - مثلا - أحدهما فوق الآخر كأنهما بناء لا نستبعد أن المصادفة - بمعونة عامل آخر كالريح ، أو سقوط أحد الحجرين من عل - قد أحدثت هذا الشكل لقلة التزاحم فيه .

أما حين تمر على حجرة مكونة من أربعة جدران ولها باب نافذ وفتحات لتمرير الهواء فإن العقل يستبعد - بكل قوة - عمل الصدفة لكثرة الأشياء المتزاحمة ولا بد أن يسلم العقل بوجود صانع مريد وراء هذا البناء قد أقامه لقصد أراده .

وماذا تكون الحيرة أمام هذا الكون العظيم الهائل ذى النظام البديع الذى لم يحط به علم الإنسان حتى مع تقدم البحوث والعلوم وأنهم كلما ازدادوا علما ببعض أسراره ازدادوا جهلا وتبين لهم أن ما ظهر لهم منه لا يساوى شيئا مما لم يظهر . وأن هذا الموقف قد فتح لهم أبواب الإيمان بالخالق العظيم على مصاريعها يقول آنشتين صاحب قانون النسبية وقد عمل فيه هذا الكشف العلمى عمله قال : (إن أجمل هزة نفسية تشعر بها هى تلك الهزة التى تعرونا عندما نقف عتبة الخفاء من باب الغيب ؛ إنها النواة لمعرفة الحق فى كل فن وعلم وإنه لميت ذلك الذى يكون غريباً عن هذا الشعور فيعيش مستغلقا رعبا من غير أن يجد روعه التعجب إلى نفسه سبيلا . إن جوهر الشعور الدينى فى صميمه هو أن نعلم بأن ذلك الذى لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته (الله) موجود حقاً . ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال التى لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا صورها (الظاهرة) دون الدقائق فى الأعماق) .

أجل : ما أصدق هذا الكلام وما أحلاه . ولا نملك أمامه إلا أن نتلو قول الحق تبارك وتعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ثالث الفروض :

وبقى فرض ثالث يدعيه الماديون فى أصل الحياة ، بعد فرضيهم السابقين

* إن المادة هى الخالقة .. ؟!
* إن المصادفة هى الخالقة .. ؟!

ويقولون فى الثالث : إن ذرات المادة قد تجمعت من تلقاء نفسها فنشأ عنها هذا الكون . وبدأت حركة الحياة ؟!

وهذا الفرض باطل كما بطل سابقاه لأن القائلين به محاصرون بهذا السؤال؟

ومن الذى خلق الذرات وأوجدها . ؟ ! ولهذا السؤال شق ثان هو :
ومن الذى منحها الحركة فتجمعت فكان الكون . ؟ !

فإن قالوا : خلقت نفسها رددنا قولهم هذا إلى قولهم الأول : المادة هى الخالقة ولففنا هما معاً بكفن واحد ، ولحدناهما فى لحد واحد .

وإن صمتوا ولم يجيبوا فقد لزمتهم الحجة ، وباءوا - وهم دائما باءون - بالخسران .

تلك هى مقولة الكفر والإلحاد بكل صورها قد ثبت بطلانها من كل جهة لها اختصاص بالصحة والبطلان . ثبت بطلانها بحكم العقل ، وثبت بطلانها بشهادة العلم ، وثبت بطلانها بدلالات الواقع . فأى سند بقى للماديين والعلمانيين والشيوعيين ؟ ! إنهم حزب الشيطان ملعونين أينما وجدوا .

« قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

النظر فى ملكوت السماوات والأرض :

فى مواجهتنا لدعوى الشيوعيين إنكار وجود الصانع العظيم ، قدمنا منهج العلامة ابن رشد . وألحقنا به منهجين وهما : دلالة التحدى والإعجاز والقهر . ودلالة النظام البديع والإطراد المحكم، وكان منهج العلامة ابن رشد قائما على دلالة العناية ثم دلالة الإختراع . وهذه الدلالات الأربع مجالها (الكون العظيم) الذى صنعه (الصانع العظيم) ؛ لأن الكون كتاب مقروء لكل ذى عقل وفكر ونظر والواقع أن دلائل الإيمان والتوحيد فى الكون لا تقع تحت حصر مطلقا فهى يدرك بعضها ولا تدرك كلها . وهذه قاعدة قد توصل اليها كل العقلاء .

وبعد هـــذا كله أردنا أن نقف أمام قائمتين من قوائم دلائل الإيمان والتوحيد فى ملكوت الله .

أولها : النظر فى ملكوت السموات والأرض .

والثانية . النظر فى خلق الإنسان . وفى كلتا القائمتين سنتوخى الإيجاز الشديد نظرا لتشعب البحث فيهما . فهلم بنا ومن الله التوفيق .

الكون موضوع التأمل :

يقول الحق تبارك وتعالى :

(أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء . . . .) .

النظر — هنا — هو التفكر والتأمل والإعتبار ، وملكوت : أى ملك . زيدت فيه الواو والتاء للدلالة على عظمته وضخامته . والسموات والأرض المضاف إليهما (ملكوت) هما موضوع النظر والتدبر . وما خلق الله من شىء : كل مخلوقات الله التى تقع تحت الحس والإدراك ؛ لأن دلائل الإيمان بالله وتوحيده مأخوذة من هذا الصنع المدهش العظيم . بكل مظاهره .

لماذا الحياة على الأرض ؟ :

الأرض هى أحد الكواكب السيارة : وقد جعلها الله — بعلمه وحكمته وتدبيره — مسرحا صالحا لحياتنا دون الكواكب الأخرى وهى مرتبة حسب بعدها وقربها من الشمس :

عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشترى ، زحل ، أورانوس ، نبتون ، ثم بلوتو .

لقد توصل العلماء إلى الأسباب التى جعلت هذه الكواكب غير صالحة للحياة كما توصلوا للمزايا التى اختصت بها الأرض فكانت مسرحا صالحا لحياتنا زروعا وحيوانا وبشرا .

وجملة الأسباب التى صارت بها الكواكب الأخرى غير صالحة للحياة يمكن إيجازها إجمالا فى :

- قرب الكواكب من الشمس أو بعده عنها . فقربها يتسبب عنه ارتفاع فى درجة الحرارة لا تطاق معه حياة . وبعدها يتسبب عنه برودة تدمر كل حياة .
- خلو هذه الكواكب من عناصر أخرى لازمة للحياة . وفيما يأتى موجز عن أسباب عدم الصلاحية للحياة لكل كوكب على حدة .

عطارد :

هو أكبر الكواكب حجما وهو غير صالح للحياة ، لأنه أقرب الكواكب إلى الشمس ، فالمسافة بينه وبينها ٥٨ مليون ك - م ويومه ٥٩ يوما من أيام الأرض وسنته ٨٨ يوما لسرعة دورانه حول الشمس . وطول اليوم على جدا كما ترى ويتسبب عنه إحراق الزروع وصهر المعادن وإماتة الأحياء لطول يومه وارتفاع درجة الحرارة فيه لقربه من الشمس . وأحد وجهى عطارد مواجه للشمس دائما فهو مشمس على الدوام والوجه الثانى لا يرى الشمس

دائما فهو زمهرير شديد . وليس فيه هواء ولا ماء وجاذبيته ضعيفة (نصف جاذبية الأرض) لذلك كان غيرصالح للحياة ونظام الفصول فيه قصيرلايساعد على الإنبات والنضج . [الفصل إثنان وعشرون يوما] ؟

الزهرة :

هى أقرب إلى الشمس من الأرض إذ تبلغ المسافة بينهاوبين الشمس١٠٨ ملايين ك ـ مترات . وسنتها مثل يومها (٢٢٥) يومامن أيام الأرض . أحد وجهيها مواجه للشمس دائماوحرارته٩٠ درجة مئوية . والوجه الثانى لايرى الشمس قط وحرارته٢٠ درجة تحت الصفر . ولاهواء فيهاولاماء ، فلايصلح واحد من وجهيها للحياة .

وبعد الزهرة تأتى الأرض وسيأتى الحديث عنها فى موضعه . أما الذى بعدها فهو .

المريخ :

يوم المريخ مثل يوم الأرض (٢٤ ساعة) بيد أن السنة تزيد على سنة الأرض الضعف تقريبا = (٦٨٧) يوما من أيام الأرض . ويبعد عن الشمس بمقدار ٢٢٨ مليون ك ـ م وحرارته نهارا بضع درجات فوق الصفر أما ليلا فتبلغ ٧٠ درجة تحت الصفر (؟ !) وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض ويرجح العلماء خلوه من الهواء وعدم صلاحيته للحياة .

المشترى :

يبعد عن الشمس ٧٧٨ مليون ك ـ م وسنته ١٢ ساعة ، ويومه عشر ساعات إلا عشر دقائق (٩ س و ٥٠ ق) وهو بارد جدا إذ تبلغ درجة حرارته١٣٠ درجة تحت الصفر (؟ !) وجاذبيته ربع جاذبية الأرض ويرى العلماء أنه غير صالح للحياة . وهذا بديه جدا .

زحل :

بعده عن الشمس ١٤٢٧ مليون ك — م وسنته طويلة جدا (½ ٢٩) من سنى الأرض ويومه قصير (١٠ س و ١٤ ق) وهو شديد البرودة إذ يصل إليه جزء من ٩٠ جزءا من حرارة الأرض . والمرجح أنه لاحياة فيه .

أورانوس :

ويبعد عن الشمس بمقدار ٢٨٧٠ مليون ك — م وسنته أطول من سنة زحل (٨٤) سنة من سنى الأرض (؟ !) ويومه (١٠ س و ٤٩ ق) ؟!

نبتون :

بعده عن الشمس : ٤٤٩٧ مليون ك — م . وسنته متناهية فى الطول إذ تبلغ ١٦٥ سنة من سنى الأرض ؟ أما يومه فثل أيام الأرض صيفا (١٥ساعة و ٤٨ دقيقة) . فكيف يكون صالحا لحياة ؟ !

بلوتو :

أبعد الكواكب عن الشمس: ٥٩٠٧ ملايين ك — مترات . وسنته أطول سنى الكواكب إذ تبلغ ½ ٢٤٨ سنة من سنى الأرض ؟ ! أما يومه فيبلغ ½ ٦ ستة أيام ونصف يوم من أيام الأرض .

لهذه الأسباب مجتمعة لم تكن هذه الكواكب صالحة لحياة زرع ولا حيوان ولا إنسان . ولهذه الأسباب أهبط الله آدم وزوجه من الجنة إلى الأرض ، ولم يهبطه إلى كوكب آخر وإلا لما عاش آدم ولا حواء ساعة واحدة . ولما كنا نحن شيئا يذكر على الإطلاق . والآن نستطيع أن نفهم سر تخصيص الأرض دون غيرها من الكواكب فى الأمر الإلهى الحكيم حين قال لآدم وحواء وإبليس :

« قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

لقد هيأ الله الأرض للحياة ، وأعدها للراحة وأودع فيها ما هو لازم لحفظ الحياة والنمو والإستمرار ، واللفظ القرآنى « مستقر » يوحى بمعان كثيرة ومزايا عظيمة خص الله العليم الحكيم الأرض بها كما قال سبحانه :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، وما أكثر ما وصف الله الأرض بالقرار والمهد والخير والبركة . ويجىء الآن هذا السؤال : ما هى المزايا والصفات التى خص الله بها الأرض فصارت صالحة للحياة الطبيعية التى نحياها فيها ؟

مزايا الأرض وصفاتها الطبيعية :

للإجابة على هذا السؤال صورتان :

إحداهما موجزة كل الإيجاز .

وثانيتهما مفصلة بعض التفصيل : فى الموجزة نقول :

إن الله تبارك اسمه أبعد عن الأرض كل الصعوبات المنافية لقيام الحياة واستمرارها مما قد وقفنا عليه فى الكواكب الأخرى ومنها :

* القرب والبعد عن الشمس . فأولهما تشتد معه درجة الحرارة وثانيهما تنخفض معه جدا .

* إنعدام « الجو » الصالح للحياة (أعنى الهواء) وانعدام الماء وهما قوام الحياة .

* ضعف الكثافة الذى ترتب عليه ضعف الجاذبية وهى من لوازم الحياة .

• عدم مناسبة الدوران حول الشمس الذى ترتب عليه طول السنة أو قصرها كما مر .

• عدم مناسبة الدوران التى تدورها الكواكب حول نفسها الذى ترتب عليه طول اليوم أو قصره .

سبع مزايا للأرض :

وفى الإجابة المفصلة بعض التفصيل نقول: إن العلماء بعد بحوثهم الفلكية والحيانية والجيولوجية والفضائية وغيرها وقفوا على سر اختصاص الأرض بصلاحيتها للحياة ورصدوا سبع مزايا لها لم تعرف لغيرها من الكواكب وهى:

١ – القرب المناسب من الشمس :

لأن المسافة بينهما تبلغ ١٥٠ مليون كـ – م طولى فليست هى قريبة منها قربا مضرا كعطارد والزهرة ولا بعيدة عنها بعدا مفسدا كالمريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو . لذلك صلحت للحياة من هذه الجهة .

٢ – إعتدال الحرارة على سطحها :

إعتدال الحرارة من أنسب ملائمات الحياة . وقد اكتسبت الأرض اعتدال حرارتها من موقعها المناسب من الشمس . ويقول الفلكيون إن أقصى درجة تصل إليها الحرارة على سطح الأرض هى ٥٠ درجة مئوية . وهى حرارة محتملة نوعا ما ولها مواسم وللناس عهد بها وتحفظ منها .

٣ – إعتدال كثافتها ومناسبتها للأجسام . ويقول العلماء أن كثافة الأرض تفوق كثافة كل كوكب حتى كثافة الشمس نفسها .

٤ — إعتدال جاذبيتها :

بين الكثافة والجاذبية صلة وثيقة . ولما كانت كثافة الأرض معتدلة اعتدلت تبعاً لها جاذبيتها . ويقول العلماء أن جاذبية الأرض لو قلت على ماهى عليه الآن لطار من وماعليها فى الهواء . ولوزادت للصق الناس بهافلا يستطيعون حراكا . فسبحان الذى قال : « الله الذى جعل لكم الأرض قراراً » .

٥ — إعتدال دورتها حول نفسها :

يوم الأرض هو ٢٣ ساعة و ٥٦ دقيقة شاملا لليل والنهار وهى دورة معتدلة جداً توزعت فيها فترات العمل (النهار) وفترات الراحـــة (الليل) توزيعا حكيما توازنت فيه الواجبات والحقوق على النحو الذى نحسه ونراه وهذا عمل رائع للإرادة الإلهية الحكيمة يظهر أثره إذا قارنا يوم الأرض بيوم غيرها من الكواكب التى تتفاوت فى الطول والقصر .

٦ — اعتدال دورتها السنوية حول الشمس :

ومن أروع مزايا الأرض اعتدال دورتها السنوية حول الشمس التى تنشأ عنها الفصول الأربعة (الشتاء والربيع والصيف والخريف) وتعاقب هذه الفصول فيه خير كثير للأحياء فكل فصـــل يمتد ثلاثة أشهر وتتبدل الأحوال الكونية تبدلا تدريجيا من البرودة إلى الحرارة ومن الحرارة إلى البرودة حتى لا يضار الأحياء الذين عليها . كما تساعد هذه الفصول على إنبات الزروع كلا فى وقته المناسب . ونحن نعلم أن بعض النبات لا ينمو إلا تحت درجة عالية (النباتات الصيفية) وبعضها لا ينمو إلا شتاء . وهكذا وأسرار الحكمة الإلهية فى هـــذا المجال لا تحصى ولا تعد . فسبحان الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . وكيف كان سيكون الحال لو كان عمر الفصل الواحد إثنين وعشرين يوما كما كان فى بعض الكواكب .. ؟ !

٧ - غناء جو الأرض .

في الأرض ماء مسلوك في البحار والأنهار والمحيطات والآبار والعيون ومن الماء جعل الله كل شيء حي ، ولو خلت الأرض من الماء هلكت الزروع وجفت الضروع ومات كل حي كان على ظهرها .

وفي الأرض غلاف هوائي يمد النبات والإنسان بعناصر الحياة ويخفف من حدة حرارة الشمس . واحتياج الأحياء إلى الهواء ألزم من احتياجهم إلى الماء . فالإنسان - مثلا - يحتاج إلى مقادير محددة من الماء يتناولها في فترات متقطعة بينها مدد زمنية تطول في الشتاء وتقصر في الصيف ،وللإنسان صبر على الماء وبخاصة في عبادة الصيام . كما أن له استغناء عن تناوله تماما في الليل حين يأوي إلى فراشه وينام .

أما الهواء فحاجته إليه دائمة ليلا ونهاراً صائما ومفطرا ؛ لأنه في عملية الشهيق (إدخال النفس في الصدر) يأخذ من الهواء (الأكسوجين) الذي تشتد الحاجة إليه . وفي عملية الزفير (إخـــراج النفس من الصدر) يطرد (ثاني أوكسيد الكربون) وهو عنصر سمي قاتل ، هاتان العمليتان (الشهيق والزفير) لا يتوقفان إلا عند الموت . ويحتاج الإنسان في الأواحل العادية إلى إجراء العمليتين إلى ما يقرب من عشرين مرة في الدقيقة الواحدة .

وهما تجريان بدون تدخل من الإنسان (أتوماتيكي) ولو توقف حدوثهما على عمل الإنسان كما حقساء الماء لما وجد الأحياء وقتا للعمل ولا للنوم . لذلك يسر الله اللطيف الكريم حصول الأحياء على عمليتي (الجذب والطرد) ليتفرغ الإنسان للأعمال الأخرى . وليجد وقتا للنوم مع ضمان استمرار العمليتين بشكل منتظم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » ؟ !

إعادة تصنيع العادم :

علمنا أن حصول الأحياء على عنصر « الأكسوجين » وطرد (ثانى أوكسيد الكربون) ضرورة ملحة من ضرورات حياتهم . ونريد أن نعلم أن لله تدبيراً آخر فى تيسير هذه النعمة واستمرار موازنتها على شكل مذهل للغاية .

عملية التمثيل الضوئى :

إحتياج النبات والزرع للعنصر (ثانى أوكسيد الكربون) كاحتياج الأحياء لعنصر (الأوكسجين) وثانى أكسيد الكربون يعتبر بالنسبة للانسان (عادم) على حد التعبير الاقتصادى المعاصر ، أى انتفع به مرة ولا يمكن انتفاعه به مرة أخرى وهو على حالته تلك ، وعلماء الاقتصاد لديهم مبدأ معروف هو (إعادة تصنيع العادم) ليمكن الإنتفاع به مرة أخرى كإعادة « طبخ » ورق الصحف والمجلات وصقلها لاستعمالها مرة ثانية . وهكذا : هذه العملية يجريها الله « الحكيم الخبير » دون احتياج إلى « أجهزة وآلات ومصانع ومهندسين وأيد ماهرة . فثانى اوكسيد الكربون السام الذى يطرده الإنسان فى عملية الزفير هو غذاء لازم للزرع والنبات ، يقوم بامتصاصه من « الجو » ثم يتمثله ، وبعد حصوله على حاجته منه يطرده وقد أعاد تصنيعه (اوكسوجين) مرة أخرى فيعود الإنسان يتناوله فى عملية الشهيق ، وهكذا تتم هذه (المبادلات) فى هدوء تام فى كل لحظة ، ونحن لا نشعر ؛ لأنها عمل قدرة هائلة ليست قدرتنا وإنما هى قدرة (الصانع العظيم) وتدبير حكيم ليس تدبيرنا ، وإنما هو تدبير (الحكيم) .. ؟ !

فهل هذه التدابير والحكم من صنع المادة الصماء العمياء البكماء ؟ ! كلا وبارئ الكائنات : بل من صنع الله الذى أتقن كل شىء . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

إنا كل شيء خلقناه بقدر :

الهواء الذى نستنشقه فى يسر وسهولة فنحيا وننمو ونعمل . هذا الهواء مكون من عنصرين عظيمين : (الأوكسوجين والنتروجين) ونسبة الأكسوجين فيه تبلغ ٢١ ٪ ونسبة النتروجين تبلغ ٧٨ ٪ فهل وراء تحديد هذه النسب الدقيقة من سر وحكمة ؟ .

أى وربى إن من ورائها سراً عظيما وحكمة بالغة مذهلة . يقول علماء هذا الشأن : إن نسبة الأوكسوجين لو قلت عن هذا المقدار لمات كل الأحياء اختناقاً ؟ .

ولو زادت عن هذا المقدار لكان عود كبريت صغير يشعله رجل فى أحد أطراف الأرض كفيلا بإحراق كل ما على الأرض من زرع ونبات وحيوان وإنسان ؟ ! .

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم »

ميل الأرض على محورها :

جرى بنا أن نشير هنا - إلى عجيبة من عجائب الصنع الإلهى المتقن الحكيم فقد رصد علماء الهيئة انحرافا أو ميلا للأرض على محورها قدروه بـ ½ ٢٣ درجة . ولم يكن هذا الميل أعتباطا وإنما لحكمة جليلة من حكم الصانع العظيم (الله) .

إذ لولا هذا الميل الذى ترتب عليه حدوث زاوية فى وضع الأرض على محورها قدرها ½ ٢٣ درجة لأختل نظام الفصول الأربعة المتنقلة على الأرض ولأصبح وسط الأرض صحراء محترقة فى صيف دائم . وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو زاد هذا الميل عما هو عليه - الآن - لأصبحت المنطقتان المعتدلتان

كالقطبين . إما فى ليل وشتاء طويلين . أو نهار وصيف طويلين . لهذا كان الخير كله والكرم كله ، والحكمة كلها فيما قدره الله وأراده .

وباجتماع هذه الأسباب كلها : من السرعة إلى المسافة إلى المدة إلى شكل الأرض ، وشكل مدارها ، إلى الميل على المحور كانت الفصول الأربعة وتم الاعتدالان ، وحصل التبخر فى مياه الأرض ، وحملت الرياح الأبخرة وكثفتها الأجواء الباردة فى الأفق ، وسيقت إلى البلاد الميتة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وصلحت الأرض للحياة فكانت مهداً وذلولا نمشى فى مناكبها ونأكل من رزق الله وإليه النشور .

أهذا الصنع المحكم البديع صنع المادة ؟ ! أم صنع الصدفة ؟ ! كلا وبارىء الكائنات . إنه « صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه » « ذلك تقدير العزيز العليم » .

الإنسان موضوع للتأمل :

عرفنا أن فى ملكوت السموات والأرض (الكون) رصيداً زاخراً من دلائل الإيمان بالله ، لا على أنه موجود فحسب ، بل على كمال علمه وإرادته وقدرته وكرمه وتدبيره ، وأنه ليس كمثله شىء .

والواقع أن قضية « وجود الله » لما كانت دلائلها ظاهرة جلية فإن القرآن — فيما أرى — واجه قضية « التوحيد » أكثر مما واجه قضية « الوجود » وذلك فيما أرى لسببين :

أولهما : الإشارة إلى أن مبدأ وجود الصانع العظيم (الله) ينبغى أن لا ينازع فيه عاقل فدلائله أظهر من أن يبحث عنها ، فهو مبدأ مفروغ منه وينبغى عدم النزاع فيه .

ثانيهما : أن إثبات أدلة « التوحيد » تقتضى لزوما إثبات قضية « الوجود »

وهذا موضوع أشير إليه هنا بمجرد إشارة ، وهو جدير بأن يفرد ببحث خاص من واقع رصد النصوص القرآنية وتحليلها ودراستها . وآمل أن يهيء الله لنا أسبابه فنمضى فيه على هدى منه .

والإنسان كالكون فيه من دلائل الإيمان بالصانع العظيم رصيد زاخر . ولو أن إنسانا التمس براهين الوجود و والتوحيد وتفرد الله بالجلال والجمال والكمال من داخل نفسه (نفس الإنسان) وأحسن التبصر والإعتبار لما احتاج إلى دليل آخر يهديه ، اللهم إلا إذا أراد تكرار النظر فى براهين فكرة هو بها مؤمن من طريق آخر أصدق إيمان . ومفتاح اقبال الإنسان على نفسه ليستخرج منها قواطع البراهين على الإيمان بالله هو قوله تعالى :

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

أجل . ما أبدع الصنعة الإلهية فى خلق الإنسان .وما أحكم وأدق تخليقه وتكوينه .

فالإنسان موضوع دراسات عميقة ومتعددة لكثير من فروع العلم الحديث من طب وعلم نفس ، واجتماع ، وأخلاق . إلخ ، إلخ . ويكفى فى علم الطب أن يقف الإنسان على علم « التشريح » فيرى من الداخل أصول عملكة إلهية تسحر العقول وتأخذ بالألباب ، ويكفى أن يعلم الإنسان بما وقف عليه العلماء من حقائق مذهلة فى « تركيبة » الإنسان . وما استفادوه منها فى واقع الحياة العملية المعاصرة .

فن وقوفهم على « تصميم جهاز الإبصار » العين تعلموا تصميم آلات التصوير ومن وقوفهم على « تصميم جهاز السمع » الأذن تعلموا تصميم آلات مبكرات الصوت ومن وقوفهم على « تصميم جهاز التخليق » الرحم تعلموا تصميم

أنابيب أطفال الأنابيب ومن وقوفهم على «تصميم رسم الأنامل» اهتدوا إلى وسيلة الكشف اليقينية «أخذ البصمات» واستعانوا بهـا على معرفة «الفاعل المجهول».

ومن وقوفهم على «تصميم جهاز الشم» تعلموا صنع أجهزة إدراك الروائح مع الفوارق العظيمة بين الخلق الإلهى والتقليد البشري(٦٠).

ومن وقوف العلماء على «تصميم الذاكرة» تعلموا صنع «الكمبيوتر» لتخزين المعلومات وتنظيمها وتفريغها فى وقت الحاجة إليها.

ولكن صنع الله الذى أتقن كل شيء معجز كل الإعجاز. فهذه الأجهزة الإلهية مكونة من عصب ودم وشحومات وعظم ولحم. بينما صنعة البشر تقوم على الضخامة وتصنع من المعادن. فكم يبلغ حجم «العين» من حجم آلة التصوير؟

وكم يبلغ حجم الأذن من جهاز آلة تكبير الصوت، وكم يبلغ حجم الأنف من جهاز تمييز الروائح الست؟!

صنعة لا تحاكى:

وإذا كان الإنسان قد استفاد من وقوفه على تصميمات أجهزة الهيئة فى الإنسان فحاكاها وسخرها لمصلحته. فإن كثيراً من «صنائع الله» تتأبى على التقليد والمحاكاة.

فمثلا ظاهرة الصوت تختلف من إنسان إلى إنسان لدرجة أنك متى سمعت صوت إنسان لك به معرفة من قبل فإنك تعرف أنه «فلان» قبل أن يقع عليه بصرك. فالإنسان يعرف عن طريق السمع بصوته كما يعرف عن طريق

---

(٦٠) ورد فى برنامج «العلم والإيمان» التليفزيونى أن العلماء تمكنوا من صنع جهاز للشم لا يميز أكثر من ست روائح مع أن آلاته تملأ ثلاث غرف كبيرة؟!

البصر بملامحه ولونه فما هو السر في اختلاف أصوات الناس مع أن العضو الناطق (اللسان) واحد في الجميع ؟!

واختلاف الألوان حتى بين الأشقاء ما سره وما مصدره ؟!

قد يقول بعض الناس من المتعجلين المخدوعين بظواهر العلوم إن اختلاف الأصوات قد يرجع إلى طبيعة « الأحبال الصوتية » وأن اختلاف الألوان قد يرجع إلى عاملي الوراثة (الجينات) والبيئة هذه التفسيرات وإن شاع الأخذ بها وإن القائلين بها يجهلون حقيقة بالغة الأهمية . فبالرجوع إلى القرآن الكريم نرى أن اختلاف الأصوات والألوان من بدائع صنع الصانع الحكيم وأن الله سوى بينهما في أنهما من إبداعه كإبداع السموات والأرض وفي ذلك يقول :

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين » الروم (٢٢) .

وحتى لو أرجعنا هذه الظواهر الخارقة إلى أسباب معلومة فمن الذي خلق تلك الأسباب وربط بينها وبين مسبباتها ؟ أإله غير الله تعالى الله عما يشركون .

عمليات الهضم والتمثيل :

لابد للإنسان من طعام يمريه ، وشراب يرويه . وليس للإنسان من عمل إلا أن يجلس على المائدة فيتناول الطعام ويضعه في فيه ويقضمه ثم يقذفه إلى مستودعه الأمين .

وحتى في هذا الجانب الذي يختص به الإنسان . فلولا اليد التي خلقها الله ، ولولا الفم الذي خلقه الله ، ولولا القواطع والأضراس التي خلقها الله ، ولولا البلعوم الذي خلقه الله لما تمكن الإنسان من الانتفاع بطعام مر، ولا شراب راو . ولكن بمعونة الله تمكن واستطاع .

وتبدأ بعد هذه المرحلة مرحلة أخرى لا علاقة من قريب أو بعيد للإنسان بها . فالجسم لا يستفيد من هذه النعم إلا بعد أن تهضم وتتحول إلى غذاء طبيع للجسم (دم – جلوكوز) ولكى يتحول الطعام إلى هذه الدرجة لابد من أجهزة دقيقة تعمل ، وعمليات كيماوية تجرى . ولكن كيف تعمل تلك الأجهزة . ومن يديرها . وكيف تحدث تلك العمليات الكيماوية الدقيقة المعقدة ؟ ومن أين تأتى المواد اللازمة لإجرائها ؟ ومن الذى يقدر نسبها وأحجامها . أفى الجسم خبراء ومراكز بيع مواد كيماوية ومعامل تشرف ؟

كلا . إن الإنسان وهو يتناول طعامه كالزارع الذى ينتهى دوره بوضع البذر فى الأرض وسقيه بالماء ثم ينصرف إلى حال سبيله ولا علاقة له قط بعملية الإنبات والإنماء !

والقدرة التى تنبت النبات وتنميه وتقويه وتنضجه وتؤتى ثماره هى القدرة نفسها التى تعمل داخل جوف الإنسان ، فتشرف على عمليات الهضم والتمثيل والتنقية والتوزيع، وهى التى تأمر الأجهزة بإفراز العصارات اللازمة لعمليات التحويل الكبرى التى تجرى بداخل الإنسان والإنسان غافل لاه عما يدور بداخله .

وتلك القدرة هى التى تبقى فى الجسم العناصر الصالحة للحياة ثم تطرد ما عداها من عناصر ضارة ومؤذية . فليسأل الإنسان هل لو بقى الطعام الذى يتناوله على حالته وطبيعته أكان ذلك يفيده أم يضره . وهل هو الذى يقوم بعمليات التحويل التى لولاها لمات الإنسان انتفاخا ؟ إن عناية الله محيطة بالإنسان ، والله بالإنسان رءوف رحيم لا يكلفه إلا ما يستطيع . أما مالا يستطيع – وهو لازم له – فإن القدرة الإلهية تعفيه من المسئولية عنه وتقوم هى بخدمة الإنسان فى صمت دون أن تكلفه من الأمر شيئا .

أليست هذه دلائل إيمان بالخالق العظيم . وبراهين وجود وتوحيد وكمال مطلق .

حسن التصوير ومرونة التركيب :

فى التركيب الداخلى للإنسان دلائل إيمان كاملة لايحتاج معها المؤمن إلى دليل. واستقصاء بدائع الصنعة فى الإنسان يحتاج الكشف عنه إلى جهود علماء متخصصين فى شتى مجالات العلوم . وأين نحن من هذه المنزلة الصعبة المرتقى . إننا لانملك إلا ترديد قول الشاعر فى شكواه من الحرمان وتمنيه أن يكون طائرا ليدرك مافاته من آمال :

أسرب القطا هل من يعير جناحه   لعلى إلى من قد هويت أطير ؟!

ولنلتقط - الآن - صورة من الظاهر لتلك المملكة الإلهية المعجزة التى حالت حصونها دون توغلنا فى أعماقها . ولهـــذه الصورة التى سنلتقطها بعدان :

إحدهما : حسن التصوير وجمال الاستقامة فى بناء الإنسان .
وثانيهما : مرونة التركيب والمهارة فى القدرة على التصرف حسب الحاجة.

* حسن التصوير :

منن الله على الإنسان لاتعد ولا تحصى . ومن أجلها وأظهرها جمال التصوير وحسن التقويم فى البناء الهيكلى للإنسان . فعلى كثرة ما خلق الله من شىء فإن خلق الإنسان . على أجمل الأشكال وأبهى الصور وهذه حقيقة لم ينازع فيها أحد .

وقد أقسم الله - وهو صادق أقسم أم لم يقسم - بأن تقويم الإنسان هبة من الله لم يهبها لمخلوق مما نحسه ونراه .

«والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» وحسن تقويم الإنسان أنه لم يخلق زاحفا ولا من ذوات الأربع وإلا لكان حشرة أو منعكس التكوين كالحيات والفيلة والبغال وحسن

تقويم الإنسان واعتدال شكله نعم جليلة ومظهر من مظاهر التكريم والتفضيل الذى امتن الله به على عباده ، وتودد إليهم به وهو غنى عنهم .

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟. الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك » ؟

فمن شكر هذه النعم أن لا يغتر الإنسان بربه الكريم فيقابل النعم بالمعاصى ويقول :

« الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ، والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ... » .

أجل . لقد أحسن الله صورنا أحسن تصوير وفضلنا على كثير من خلقه . وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة . هذا ، وقد ورد فى الحديث : « إن الله خلق آدم على صورته » ، وهذا الحديث يطابق دلالات الآيات ويفيد أن الإنسان مخلوق على هذه الصورة من يوم خلق الله أبا البشرية آدم ولم ينحدر الإنسان عن أصل كان يجمع بينه وبين القرد كما زعم داروين الدجال .

* مرونة التركيب :

إن تركيبة الإنسان مصممة تصميما بديعا ، ومهيئة تهيئة موافقة جدا للأعمال المختلفة التى يزاولها الإنسان فى كل عصر من عصوره .

فتأمل أخى المؤمن تركيب « اليد » من أطراف الأصابع إلى الكتف وجرب الأوضاع الممكنة التى يمكن تحدث فيها حسب حاجة الإنسان والأعمال التى يصرفها ويريدها . فهى إن تركتها على سجيتها تدلت ملاصقة للجنب ، هذا وضع من أوضاعها . فإذا لقيت صديقا فى الطريق وأردت أن تصافحه طاوعتك اليد فى الامتداد صانعة مع أعلاها زاوية مختلفة الأبعاد حسب وضع اليد التى أنت تصافحها . قائمة أو حادة أو منفرجة . وإن أردت

معانقته طاوعتك يداك فالتفتا حول صديقك الحميم . كما تطاوعك يدك أو يداك بالخضوع التام حسب التصرف المطلوب منهما . سواء كنت فلاحاً تحرث الأرض، أو قائدا لمركبة أو طائرة، أو مهندسا أو طبيبا أو بناء، أو طاهيا أو نساجا أو جنديا فى الميدان . تمتد معك فى الجهات الست أماما وخلفا وشمالا وجنوبا وفوقا وتحتا وما بين هذه الجهات من جهات متداخلة لا حصر لها . تتحرك إحدى يديك حسبما تريد إن احتجت إلى استعمال يد واحدة وتتحرك يداك معا إذا احتجت لاستعمال كلتا اليدين .

وذلك بفضل التدبير الإلهى عند خلقك وتكوينك . فقد جعل لك مفصلا مرنا عند الكتف يمكنك من تحريك اليد كلها من مبتدئها الأعلى إلى منتهاها الأسفل إذا أردت أن تستعمل هذا المستطيل كله فى عمل تطلب منك هذا الاستعمال، وجعل لك مفصلا وسطا عند منتصف المستطيل لتتمكن من الحركة النصفية إذا أردت . وجعل لك مفصلا ثالثا عند اتصال بداية الكف بنهاية الذراع وبهذا التركيب المرن أمكنك أن تتحكم وأنت تصرف يدك على ثلاث درجات :

- درجة تستعمل فيها كل العضو من الكتف إلى النهاية .
- ودرجة تستعمل فيها النصف الأسفل من بداية الذراع إلى النهاية .
- ودرجة تستعمل فيها الكف وحدها من بدايتها عند منتهى الذراع إلى النهاية .

ولك — الآن — أن تسأل نفسك : ماذا كنت ستفعل لو جعل الله هذا على شكل مستطيل صلب خال من المفاصل، مستعص على التثني ؟

إنك فى هذه الحالة لن تتمكن من عمل شىء ؟ فبم — إذن — ترفع الطعام والشراب إلى فمك ؟ !

أتخطمه كما تخطمه الماشية ؟ هب ان هذا ممكن، ولكن من الذى سيطهو

لك الطعام ؟ ومن أين يكون الطعام يا ترى ؟ إننا لا نملك وسيلة نحرث بها الأرض ، ونضع فيها البذر ، ونرعى الزرع ونحصده ونذريه ونطحنه ونعجنه ونخبزه ؟ لا شيء من ذلك سيكون . إننا سنكون فى هذه الحالة آلة صماء لا تعمل .

إن كل شيء سوف يتوقف ، والسبب أن هذه « اليد » جمدت ولم تتش لجمدت معها حركة الحياة .

والآن : أفلا يحق للصانع المدبر أن يلفت أذهاننا إلى أنفسنا لننظر فيها صنعه البديع وتدبيره الرائع . فيقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ويقول :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

الدقائق للدقائق :

ومن العجب العجاب فى خلق الله الإنسان وتكوينه وتشكيله « الكف وماحوت » ، فى جعل الكف كثيفة منبسطة حكمة مذهلة ، وفى تفرع الأصابع عنها حكمة أكثر ذهولا . ولكننا نمر على هذا كله ونحن غافلون . وتؤدى الكف مع مجموعتها النشيطة المرنة « الأصابع » ، مهمة جليلة : القبض والبسط ودقة التصرف إذا احتاج « العمل » إلى بسط وقبض ودقة تصرف . والإنسان يعمل بيده أعظم أعماله وأجلها وأبدعها وأروعها . وللأصابع فى بديع صنع الإنسان دور بالغ الأهمية . بل إن دقائق صنع الإنسان إنما هى وليدة هذه الأعضاء الدقائق . ولولاها ما عرف جيل حضارة الماضى . وما اطلع حاضر على نتاج غابر من العلوم والفنون والآداب . فنحن مثلا نلم بحضارات القدماء فى شتى مظاهرها مصنوعة أو منقوشة أو مسطورة فى كتاب . نحن نقرأ الياذة اليونان القدامى والأوديسا . وبدائع الرومان . والفراعنة والهنود وغيرهم من أمم الحضارة . ومعاهد العلم .

نطالع جمهورية أفلاطون ، وآثار كونفشيوث ، وقانون حورابى ، وغفران أبى العلاء ، وقانون ابن سينا وإشاراته ، وتهافت فلاسفة الغزالى ، وتهافت التهافت لابن رشد ، وكوميديا دانتى ، ونقوش وادى النيل وما بين النهرين . بل ونسمو وتسمو معنا أرواحنا ونحن نقرأ المصحف الشريف ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، ورسالة الإمام الشافعى ، وموطأ مالك ، ومسند الإمام أحمد ، وتفاسير ابن عطية وابن جرير وجار الله الزمخشرى . وغير هذا مما أبدع وراع من توجيهات السماء وحضارات الأمم . ولولا هؤلاء الجنود « الخمس » التى تسطر لك هذا الكلام الآن « الأصابع » ما كتبت يد كاتبة لعين قارئة . ولا ستغلق كل جيل على من يليه . ولتوقفت الحضارة الإنسانية عند درجة الصفر فالأصابع هى آلات الخدمة والإبداع . وهى أدوات « مطواعة » لما يراد منها . وقد فصلها الخالق تفصيلا رائعا كما فصل العضو الحامل لها . فسهل استعمالها ، وأمكن فى يسر تثنيها وتحريكها . فهى سلاح الخبير فى « مختبره » ، وسلاح الكاتب فى « محرابه » ، وسلاح المهندس فى « مكتبه » ، وسلاح الحائك فى « حانوته » ، وسلاح الجندى فى « ميدانه » ، وسلاح الفنان فى « كوخه » ، وسلاح الصانع فى « مصنعه » ، وسلاح التاجر فى « متجره » ، وسلاح الطاهى فى « مطهاه » ، وسلاح الخابز فى « مخبزه » ، وسلاح الطبيب فى « عيادته » ، وسلاح الجراح فى « مشرحته » ، وسلاح كل عامل فى « معمله » .

إن الأجيال تتناقل أصول العلم والمعرفة ، وبدائع الآداب والفنون ، ونفائس الحضارات عن طريق النقوش والكتابة . وهما صنعة « الأصابع » وما من عمل كبير أو صغير ، عظيم أو حقير إلا وبصمات هذه « الأطراف المبدعة » ظاهرة عليه ، وكامنة وراءه . فهذه « اليد وجنودها الخمس » هى السلطة التنفيذية لكل ما أبدعت العقول والقرائح . واليد وجنودها طرف من هيكل الإنسان . وكم فى هيكل الإنسان من دقائق وأسرار وحكم أبدعها بديع السموات والأرض . وقد صدق الشاعر الذى يخاطب الإنسان :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وما يقال عن اليد وجنودها النشطين المهرة يقال عن مرونة الهيكل الإنسانى كله فقد فصله القادر الحكيم تفصيلا أقدره على دقائق التصرف ، ومختلف الأوضاع من قيام وانحناء وجلوس والتفات وامتداد وانكماش وتثن . ولم يخلقه صلبا جافا متأبيا على ما يراد منه ، بل خلقه مرنا طيعا منقاداً بما يتفق وخير الإنسان فى دنياه وآخرته . فالإنسان من حيث هو جسم وروح وقدرة وإبداع إنما هو إحدى معجزات الخالق تسير على الأرض . ودليل ناطق من أدلة وجود الصانع المبدع . فهو برهان الإيمان أن أريد على الإيمان برهان !

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »(٦١) .

نذكرك فلا تنس :

نذكرك ـ أيها القارىء الكريم ـ فلا تنس ، أننا الآن فرغنا من فرع خطير من فروع هذا البحث ، وهو أن الماديين من علميين وشيوعيين لم يملكوا دليلا واحدا ولا شبه دليل ـ ولن يملكوا ـ على أن المادة أو الطبيعة هى التى خلقت نفسها ثم خلقت غيرها . فهذه دعوى خاسرة بكل مقياس أو هى لا تصلح أن تسمى دعوى مجرد تسمية فى ميزان العقل والعلم والواقع .

أما نحن ـ المؤمنين ـ فلدينا من الأدلة والبراهين والحجج القواطع على صحة الإيمان بوجود الصانع العظيم « الله » ، وعلى توحيده وتفرده بالجلال والجمال والكمال ، لدينا من الأدلة والبراهين والحجج ما تنوء بحمله الرواسى وقد قدمنا منها ما سمح به المقام . ومن يرد أن يحصيها كلها فعليه أن يحصى كل شىء فى الوجود ، لأنه تبارك وتعالى كما قال حكيم من أحكم الشعراء .

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

---

(٦١) الأنعام (   ) .

الشيوعية والدين :

لا يحتاج القارىء إلى ذكاء أو فطنة بعد ما تقدم ليعرف موقف الشيوعية من الدين لأن كل خطوة خطاها الشيوعيون إلى الوراء كانت وسيلة لا غاية أما الغاية فهى إنكار الدين وإزاحته من ساحات الريادة والتوجيه ليخلو « الجو » للبث الشيوعى المسموم . وهذه « ليلى » الشيوعيين التى رقصوا لها وطبلوا وغنوا وما يزالون هم وعملاؤهم ممن ينتسبون إلى الإسلام ظاهـــراً ويبطنون له العداء والحقد يرقصون ويطبلون ويزمرون ويغنون ويلغطون لغط المحموم المغشى عليه من الموت

الدين مخدر أو أفيون الشعوب ؟ !

يقول ماركس عن الدين : « إنه نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها ؟ إنه أفيون الشعوب » ؟ !

ويقول : « إنه الأفيون الذى يخدر الشعب لتسهل سرقته » ؟ !

ويقول : «إن الدين كان وسيلة الإخضاع الروحى كما كانت الدولة وسيلة الإخضاع الاقتصادى » .

هذا وصف ماركس للدين ، وما كان ينتظر من رجل مثل كارل ماركس أن يقول عن الدين غير ما قال .

أما انجلز رفيق ماركس فيقول :

« ينشأ (الدين) قبل أن تنهج الوسائل التى يكسب بها الإنسان معيشته وأن الإنسان يواجه الطبيعة مباشرة فى تلك الحالة فتقف أمامه الطبيعة قوة غلابة غامضة فيعبد (الإنسان) مالا يدركه منها ؟ ! وما الدين إلا انعكاس القوى الظاهرية التى تسيطر على معيشته اليومية » .

ويقول : « إن أصحاب المصالح قد استغلوا المسيحية كلما وجدوا لهم

مصلحة فى استغلالها لجعلوهـا دين الدولة بعد قرنين ونصف من ظهورهـا . وجاء البرجوازيون فى ألمانيا فأبدعوا البروتستانتية ولم يستفيدوا منها لضعفهم فاستفاد منها الملوك المطلقون، لأنها رفعت عنهم سلطان الكنيسة والدين جملة هو الغذاء الخادع للضعفاء ؛ لأنه يدعوهم إلى احتمال الظلم ولا يزيله ، ويقول ماركس فى وصف المسيحية خاصـة . « إن المسيحية تحبب الجبن واحتقار النفس ، وإذلالها. وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد » ومن أقوال عامتهم عن الدين :

« كل مسألة اختلف فيها العلم مع الدين . فالصواب فى جانب العلم، والخطأ فى جانب الدين » ؟ !

« إذا تكلم العلم فليخرس الدين » ؟ !

معنى هذا الكلام :

يقصد العلمانيون والشيوعيون أن يصفوا الدين بأنه :

• وسيلة خادعة لجأ إليها الأغنياء والأقوياء ليتمكنوا من إحكام القبضة على الشعوب ويسخروها لخدمتهم ؟ ! .

• إن العلم وحده - ويقصدون العلم المادى - هو مصدر المعرفة فيجب أن يكون هو المطاع لا الدين ، لأن الدين من اختراع البشر وانعكاس لقـوى الطبيعة ، وصور المادة ؟ !

• إن الدين يدعو إلى قبول الظلم والاضطهاد ويحط من كرامة الإنسان بتخديره له ووعده بالتعويض فى حياة آخرة ؟ ! .

نقد ونقض :

من سوء حظ الشيوعيين أن الباطل مصاحب لهم فى كل تصوراتهم . وهم دائما يبنون تصوراتهم على أوهـــام ويتصيدون النظريات والآراء الباطلة لتكون أسسا لأيديولجياتهم .

*فدعواهم أن الدين وسيلة لجأ إليها الأغنياء والأقوياء لإذلال الشعوب وضمان السيطرة عليهم . هذه الدعوى أول من قال بها السوفطائيون ثم أخذها عنهم فلوتير . وقد تقدمت الإشارة إلى هذا فيما قبل . وكانت هذه الدعوى في الأصل تعليقاً مباشراً عند الشيوعيين على المسيحية بوجه خاص كما تقدم آنفاً عن انجلز . ثم عممها عملاء الشيوعية فيما بعد فطبقوها جزافاً على الإسلام . وهي - في الواقع - أكذوبة على المسيحية والإسلام معاً .

فالمسيحية والإسلام دينان سماويان . وليسا من انعكاس الطبيعة ولا من اختراع الإنسان . وقد حسمنا الموقف في هذه « الدعوى » في غضون هذا الكتاب .

وتاريخ المسيحية والإسلام معاً يكذب دعوى الشيوعيين أن الدين عامة ، أو المسيحية خاصة كانت مصيدة الفقراء التي دفعهم إليها غيرهم من الأغنياء والأقوياء .

لأن المسيحية آمن بها الأغنياء والأقوياء من المسيحيين كما آمن بها فقراؤهم وضعفاؤهم . وكلهم كانوا صادقين في الإيمان بها . ولو كانت المسيحية مصيدة وحبسا لما زج أغنياء المسيحية وأقوياؤها أنفسهم فيها وقراءة التاريخ في هذا المجال تكشف عن جهل الشيوعيين ومغالطاتهم لحقائق التاريخ القديم والحديث .

أما إذا أريد الإسلام بهذه المقولة فإن تاريخه منذ عصر نزوله لا يكتفي بتكذيب الشيوعيين والكشف عن جهلهم فحسب . بل ينسفهم نسفا من الوجود الإنساني أو يخرجهم من دائرة العقلاء إخراجا لا رجعة فيه .

لقد انضوى تحت لواء الإسلام أغنى الأغنياء ، وأقوى الأقوياء كما انضوى تحت لوائه الأحرار والعبيد ، الرجال والشباب والنساء والأطفال والفقراء والضعفاء على حد سواء .

فعبد الرحمن بن عوف ، وأبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان كانوا من أغنى أغنياء العرب . ولم يمنعهم ثراؤهم وحسبهم وقوتهم وشرف أرومتهم من أن يرتموا فى أحضان الإسلام ، وأن يبذلوا الغالى والنفيس من ثرواتهم فى سبيل الله ونصرة الدين .

أما من عادى دعوات الرسل على مدى التاريخ النبوى كله من الأغنياء والأقوياء فإن سبب عدائهم للرسل معروف . فاشتغال الغنى بماله . واغترار القوى بقوته كان هو سبب الأسباب فى العداء والإعراض والإعتراض . والقرآن يقدم للعالم تفسيرا صادقا كل الصدق . مما يعتبر قانونا من قوانين علم النفس البشرى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه إستغنى » ، فطغيان بعض الأغنياء والأقوياء طبيعة من طبائع النفوس .

هذا ، ولوكان للشيوعيين بصر بالتاريخ ، وفقه بمراميه ، وإلمام بخط سيره لعلموا أن الواقع التاريخى يعكس دعواهم تماما . ويظهرهم وهم يرتدون ثياب الزور والبهتان .

فدعوى الشيوعيين أن الدين من اختراع الأغنياء أكذوبة تاريخية لا تقل شناعتها عن شناعة قولهم : إن المادة هى الخالقة : خلقت نفسها ثم خلقت غيرها ؟ ! .

ذلك ، لأن التاريخ الدينى النبوى يدل بوضـــوح على أن الأغنياء ، والأقوياء كانوا دائما يقفون فى طريق الدعوات السماوية ، ويعادون الرسل ويتهمونهم بالكذب ويحذرون الناس من متابعة الرسل وتصديقهم . والشواهد على ذلك كثيرة ومنها :

- قول كبراء ثمود لضعفائهم لما بعث الله إليهم صالحاً عليه السلام :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم

أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا: إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا . إنا بالذى آمنتم به كافرون » الأعراف (٧٥ - ٧٦) .

• وقول قوم شعيب لشعيب ولمن آمن معه :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن .. » الأعراف (٨٨) .

• وقول قوم نوح فى وصف من آمن به منهم :

« . . . وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل . بل نظنكم كاذبين » هود (٢٧) .

فالأقوياء تكبرا وغناهم أعدى أعداء الرسل :

• إتهموهم بالكذب على الله .
• حذروا الناس من تصديقهم واتباعهم .
• شهروا فى وجوههم السلاح وأنزلوا بهم أشد صنوف الأذى والعذاب
• أضلوا غيرهم بجذبوهم إلى حزبهم .

ولذلك فإن خصومة عنيفة ستنشب بينهم فى عاقبة الأمر حين يقول الضعفاء لربهم .

« ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » الأحزاب (٦٧ — ٦٨) .

وحين يقول بعضهم لبعض فى النار :

« وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار؟ قال الذين استكبروا: إنا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » غافر (٤٨ — ٤٨) .

هـذا هو موقف (البرجوازيين) الأغنياء ومالكى الثروات من الدعاة والرسل موقف عداء سافر ، وتكذيب مستمر . فلو كان الدين من اختراع أصحاب المصالح كما يقول حزب الشيطان من سوفسطائيين وعلمانيين وشيوعيين لما كان لهم هذا الموقف المخزى من الدين بل لناصروه وحشوا العامة عليه ليزيدوا لهم « جرعة المخدر » فيعيشوا فى « غيبوبة الأفيون » ولا يفيقون « كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا » .

شبهة وردها :

ولكن قد يقول قائل : إن هذا ما يقرره القرآن وهم غير مؤمنين بالقرآن فلا تلزمهم حجة بما تقول ؟ .

والرد : إن الذى يقرره القرآن هنا هو ما قرره تاريخ الإنسانية المحفوظ . والقوم - أعنى الشيوعيين — وإن لم يؤمنوا - معنا - بالقرآن فهم مؤمنون بالتاريخ ، وقد اعتمدوا عليه فى مذهبهم الاقتصادى . فالحجة قائمة عليهم بهذا الاعتبار .

وإن ارتابوا فى وقائع التاريخ فإن فى الواقع المعاصر ما يلزمهم بالحجة وبصدق التاريخ . فإن أصحاب المصالح والسلطان هم الآن من أعدى أعداء الدين لأنهم يخشون منه تحريره للإنسان وتبصيره إياهم بحقوقهم . وأصحاب المصالح (البرجوازيون) يعتبرون هذا من الدين تحريضا عليهم لتقويض عروشهم وحرمانهم من أساليب البطش والطغيان واستذلال الناس . وإنجلز نفسه قد أدرك هـــذه الحقيقة حين قال إن الملوك المطلقين قد استغلوا البروتستانتية — لأن فيها نزعة تحرر من قيود رجال الدين — واستفادوا منها ؛ لأنها خلصتهم من سلطان الكنيسة . إذن فدعوى الشيوعيين أن الدين توليفة مخترعة اخترعها أصحاب المصالح من ذوى المصانع والإقطاع ورءوس المال ليخدروا بها الشعوب . هذه الدعوى أكذوبة مفضوحة لا سند لها من

التاريخ ولا من الواقع شأنها شأن كل الدعاوى والتصورات الشيوعية سواء وقفوا بها عند حدود المسيحية، أو تجاوزها إلى الإسلام. فهم - على أى تقدير - مخطئون مبطلون.

هل الدين مخدر كما يقولون؟:

كذب الشيوعيون فى دعواهم أن الدين من اختراع أصحاب المصالح ورجال الإقطاع حين أرادوا أن يفسروا أسباب نشأة الدين من الوجهة التاريخية والوجهة النفسية والوجهة الاجتماعية، والوجهة الاقتصادية.

وكذب الشيوعيون حين أرادوا أن يفسروا واقع الدين وحقائقه وغاياته ومقاصده بأنه مخدر للشعوب. يزين لهم الخنوع ويحبب إليهم الذل، ويسوغ عندهم الظلم والاضطهاد.

كذبوا فى هذه الدعوى كما كذبوا فى غيرها. وجهلوا الدين كما جهلوا حقائق التاريخ وثمرات العلوم.

والجدير بالذكر، الحقيق بالتنبيه أن الشيوعيين استنتجوا هذه الدعوى المكذوب من مطالعات مخدوعة فى الديانة المسيحية. ووقفوا عند نصوص مبالغ فيها فى الدعوة إلى السلام والتسامح مسطورة فى الأناجيل من مثل: من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومثل: باركوا لاعنيكم، وما أشبههما.

ولهذا فهم ماركس أن المسيحية تبارك الجبن، وتحبذ الذل والخنوع وكل صفات الكلب الطريد؟!

وقف ماركس عند ظواهر هذه النصوص. ووقف مثله الشيوعيون من بعده ولم تقيموا شأنا لحقائق التاريخ المحفوظ، وفيه أن المسيحيين ناضلوا

نضالا مريرا من أجل دينهم ضد الرومان ، وضد اليهود وسقط منهم الشهداء بالمئات والألوف .

ومعلوم أن الدين الذى تقصده الشيوعيون - وبخاصة فى عبارة ماركس التى يقول فيها أن المسيحية تحبذ الذل والخنوع - إنما هو الدين المسيحى فحسب . وعبارات ماركس وإنجلز صريحة فى هذا الإفصاح كل الصراحة وليس معنى هذا أن الشيوعية لا تعادى الإسلام . بل هى أشد عداء له من عدائها المسيحية . ولكن سبب أو أسباب عدائها الإسلام غير سبب أو أسباب عدائها للمسيحية . وإن كان فى أسباب العداء لهذا ولتلك قدر مشترك بين الديانتين العالميتين . فقد كرهوا فى الإسلام غير الذى كرهوه فى المسيحية على ما سيأتى تفصيله قريباً بإذن الله .

جهل رءوس الشيوعية بالأديان :

ماركس وإنجلز هما رأسا الشيوعية المدبران ويداها الحائكتان لنسجها لحمة وسدى . وهما - مع هذا - كانا جاهلين كل الجهل بحقائق الأديان ولم يعرفا عنها إلا القشور والزبد . وقد انعكس جهلهما بالأديان على أتباعهما فى عصرهما ومن بعدهما وإلى هذا الوقت الذى نسطر فيه هذه السطور . يدلك على هذا كلام الرجلين عن الدين وفهمهما له .

وروت إحدى الصحف الشيوعية أن مبشرا بالماركسية ألقى محاضرة على طائفة من علماء الكيمياء قارن فيها بين المسيحية وبين الكاثوليكية على أنهما ديانتان مختلفتان . وجهل هذا المبشر الإلحادى أن الكاثوليكية شعبة من شعب الديانة المسيحية وليست دينا مختلفا عنها .

وفى الواقع أن مواجهة الشيوعية بدعاواها المريضة - المسيحية وحدها - لا يحقق كبير انتصار عليها . وبخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن الشيوعية فى

حملتها الضارية على المسيحية لم تقصد مسيحية المسيح عليه السلام بقدر ما تقصد مسيحية بولس التي اعتنقتها الكنيسة بعد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م وهي مسيحية مزورة محرفة — كما عرفنا من قبل — وفيها من العيوب والمثالب ما يطمع الفكر الشيوعي العلماني والفكر العقلي المثالي في دحرها والانتصار عليها . وقد كان لهم ما أرادوا بعد أن توارت المسيحية البولسية إلى الوراء . وأدركت أنها ليست من فرسان الميدان الذي جال فيه العلمانيون والعقليون . فرضيت من الغنيمة بالإياب .

الإسلام في مواجهة حاسمة :

عادت الشيوعية الإسلام — وما تزال تعاديه — لغير الأسباب التي عادت المسيحية من أجلها . عادت الشيوعية المسيحية ؛ لأنها دين ، والدين عند الشيوعيين « خرافة » .

وعادت الشيوعية الإسلام لأن الإسلام دين . والدين عند الشيوعيين وهم

وعادت الشيوعية الإسلام لأسباب أخرى غير أنه « دين » عادته لأنه المنافس الوحيد الخطير الذي وجدته يقف أمامها على خط آخر « ساخن » لم تر الشيوعية للمسيحية فيه وجوداً ولا سلاحاً هي تخشاه على حاضرها ومستقبلها . نظرت فلم تجد — هنا — إلا الإسلام والإسلام وحده .

وجدته على هذا الخط « الساخن » يحمل من أسلحة الدمار للشيوعية ولكل المذاهب الباطلة ما ليس له نظير ولا وجود إلا في « ترسانة » هذا الإسلام .

هذا الخط « الساخن » هو مجال القيادة والريادة والتوجيه لشئون الحياة كلها . وجدت الإسلام بمنهجه الحكيم صالحاً لإرادة كل المجتمعات دون أن يعيا أو يكل .

لذلك نشطت الدعاية الشيوعية ضد الإسلام بعد أن عزلت المسيحية عن مسرح الأحداث وورثت مواطن كثيرة من مواطنها .

الإسلام دين الوعي والقوة :

كان من السهل والميسور على الشيوعية أن تتهم المسيحية بالضعف والخنوع ولكن هذه التهمة إذا أريد توجيهها إلى الإسلام وجدت أمامها كل العوائق والعراقيل . وإن صدق من يقول إن الشمس سبب الظلام في الكون فلن يصدق من يقول إن الإسلام مخدر أو يحبذ الذل والخنوع . والشيوعيون لم يفرقوا ـ حتى الآن ـ بين دين يمكن أن يتهم بهذه التهمة . ودين يسمو فوق كل التهم والظنون . وهو الإسلام .

فليس الإسلام مخدرا لتابعيه ، لأنه يوقظ فيهم روح الوعي في السر والعلانية فالمسلم يعمل في ظل رقابة حكيمة لا يخفى عليها شيء :

« . . . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيـــه . وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » يونس (٦١) .

في هذا الظرف المحيط بكل شيء يعمل المسلم . فهو دائما يقظ واع لايرى نفسه ـ وحده ـ أبداً .

« ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم » المجادلة (٧) .

فالله ثان مع الواحد ، وثالث مع الإثنين ـ ورابع مع الثلاثة ، وخامس مع الأربعة ، وسابع مع الثمانية . فأين المفر ؟ . إنه يحصى عمـــل العاملين وإن ظنوا أنهم بمنأى عن الرؤية .

فهل يوصف دين هذا شأنه بأنه مخدر ؟ وإذا كانت هذه اليقظة تخديراً فما هي اليقظة ياترى .

ويقول الحديث الشريف : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ويقول : « اتق الله حيثما كنت » .

ويقول : « استحيوا من حق الحياء » .

ومن النصح المسموع فى الإسلام : « بادروا بالأعمال » و « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

وفى الإسلام وعيد شديد لمن يغفل عن مراقبة ربه ويلهو ويلعب .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال : رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى » .

فأين التخدير فى الإسلام . إن المخدر - فعلا - هو الذى يقول: إن الإسلام مخدر أو هو أفيون الشعوب .

إن الإسلام أحاط الإنسان بطاقات هائلة من التوجيه والتشريع لا تترك ذرة واحدة من حياته أو أى سلوك كبير أو صغير إلا والإسلام فيه توجيه من خلال ثلاثة أصول تنتظم النشاط البشرى كله . وتلك الأصول هى :

الأصل الأول : إفعل : ويندرج تحت هذا الأمر أفعال الخير كلها سواء كانت واجبة كأداء العبادات المفروضة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كانت مندوبة يترجح فعلها على تركها كصلة القربى والإحسان إلى مستحق الإحسان .

الأصل الثانى : لا تفعل : ويندرج تحت هذا النهى كل أفعال الشر سواء

كانت محرمة كعقوق الوالدين وخيانة الأمانة ونقض العهد والغش والخديعة. وأذى الجار واختلاس الأموال والسعى بالفساد بين الناس . أو كانت مكروهة يترجح تركها على فعلها كالتراخى فى أداء الواجبات وعدم التورع عن الشبهات والمبالغة فى المدح أو الذم .

الأصل الثالث: إفعل - لا تفعل: ويندرج تحت هذا الأصل بفرعيه الأمور المباحة إباحة مستوية الطرفين . وهو كل خير لم يلزم الشرع الناس بفعله ولم يحرمه عليهم ، لأن أبواب الخير واسعة وطاقات الناس مختلفة فى القدرة على فعله . ومثاله بناء مدرسة أو مستشفى أو شق طريق لقادر عليه . فالإسلام لم يوجب ذلك وجوبا حتى يعاقب من لم يفعله من الأثرياء ، ولم يحرمه على من أراد أن يتطوع به .

هذه الأصول الثلاثة انتظمت النشاط البشرى كله ، والمسلم المكلف خاضع لها خضوعا تاما . ورقابة الله مطلة على الجميع ، فكيف يقال : إن الإسلام مخدر لتابعيه وهو يوجههم هذا التوجيه . ويراقبهم تلك المراقبة الدقيقة ويحصى عليهم أعمالهم ثم يجازيهم عليها على هذا الأساس : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

والإسلام منهج آخر فى بعث الوعى فى وجدان المسلم حيث حثه على النظر فى الكون والتدبر فى آيات الله فى النفس وما خلق الله من شىء . وقد مرت بنا نماذج كثيرة فيما تقدم لفت القرآن فيها الأنظار إلى بدائع خلق الله وجميل صنعه . وهل توصف أمة بفقدان الوعى ودينها يخاطبها فى كل حين بمثل قوله تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم . إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى . ولكن عذاب الله شديد » الحج (١ - ٢) .

إنها أمة ذات رسالة فى هذا الكون . وقد وضع الله فى يديها أمانة وحيه واستودعها خواتيم كلماته . ورسم لها طريق الظفر فى الحياة وخطها من النجاح والتردى رهين تمسكها بدينها . فإن غفلت عنه يوما فهى الملومة ، وليس الإسلام .

الإسلام دين العزة وليس الخنوع :

وصف الشيوعيون الدين - بعامة - بأنه يدعو إلى الخنوع والذل والاستكانة . وهذا الوصف أبعد ما يكون عن الإسلام . ومن يصم الإسلام بهذه الوصمة ! فإنه إما جاهل بالإسلام ، وإما عدو لدود له واجتماع هذين الوصفين [الجهل بالإسلام والعدواة له] متحقق فى أئمة الإلحاد وعملائهم . ومن الطريف جدا أن الشيوعيين ، وهم من أكبر خصوم الإسلام قد وصفوه بهذا الوصف . وأن خصوما آخرين للإسلام جميعنا يعرفهم قد وصفوه بعكس ما وصفه به الشيوعيون فقالوا : إن الإسلام دين السيف . ويريدون من هذه المقولة أن أمر الإسلام قام على السيف والبطش وليس على الإقناع . وهذا يدلك على أن خصوم الإسلام - جميعاً - يصدرون أحكامهم عليه بالهوى دونما سواه وكلهم كاذبون فيما يقولون . ومسألة « السيف هذه » ذكرناها هنا لأن فيها رداً من بعض خصوم الإسلام على بعض خصوم الإسلام لأن من يقول : إن الإسلام دين السيف يبطل قول من قال : إن الإسلام يدعو إلى الذل ويحبذ الخنوع والاستكانة . فالسيف رمز القوة كما نعلم . بيد أن القوة التى تمدح مرادة عند من وصفوا الإسلام بأنه دين السيف . فهذا تطرف وهذا تطرف ، وكلا الفريقين على خطأ فاحش .

ويكفى أن نقول فى الرد على من وصف الإسلام بأنه دين السيف أن الإسلام لم يحارب فكراً بالسيف . وإنما حارب الفكر المنحرف بفكر صحيح ، وحين لجأ أصحاب الفكر المنحرف الضال إلى حمل السيف حمل الإسلام السيف

على سيوفهم ، لأن لكل حالة سلاحها المناسب لها والمعاملة بالمثل شرع مرتضى عند جميع العقلاء . ومبدأ دولى معروف فى الفقه الدولى المعاصر .

« القوة العسكرية »

أما الذين وصفوا الإسلام بالخنوع والذل والإستكانة ، فإننا نقول فى مواجهة دعواهم هذه :

إن الإسلام دين العزة والشموخ والكرامة . والعزة فيه صنو الإيمان بالله ذى الجلال والإكرام . أما أدلتنا على ما نقول فأكثر من أن تحصى ـ هنا ـ ومنها :

١ ـ الأمر بالقتال فى سبيل الله :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

٢ ـ الأمر بالثبات فى ميدان القتال إذا وجب :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبر . إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً لفئة فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم وبئس المصير .

٣ - الأمر بالقتال لرد الاعتداء وتأديب المارقين :

فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

٤ - الأمر بالقتال إذا طعن العدو فى الدين ونقض عهداً :

« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة . أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » .

٥ - الأمر بالإعداد لقتال العدو جهد الطاقة :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . . . » .

٦ - الإعلام بأن الموت فى سبيل الله هو الحياة :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

« فرحين بما آتاهم الله من فضله . ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

٧ - الإعلام بأن الفرار من الموت فى القتال لا يحقق نفعا :

« قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل . وإذاً لا تمتعون إلا قليلا » .

٨ - الإعلام بأن كل مشقة يلقاها المقاتل فى سبيل الله هو مأجور عليها :

« ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون

موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

٩ – الإعلام بأن الجهاد فى سبيل الله تجارة رابحة :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن . وذلك الفوز العظيم » .

١٠ – الإعلام بأن الله نصير المجاهدين فى سبيله :

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . ويشف صدور قوم مؤمنين » .

النصوص المتقدمة تكشف بجلاء عن القوة المهذبة التى ربى الإسلام عليها الأمة أمام العدو الذى يريد أن ينال من قدرها أو يهدد وجودها ، أو يعوق رسالتها . وهى قوة مهذبة لأن مبعثها الحق . وتهذيبها أنها لا تبدأ بالعدوان وإنما ترد العدوان ولا تقتحم على الآمنين أوكارهم وإنما تشهر السلاح فى وجه من شهر فى وجهها سلاحا فإذا خمدت الفتنة عادت الأمة إلى هدوئها وقرارها ونشطت فى أداء رسالتها فى عفة وعدالة . وليست هى أمة جائرة يحملها النصر على الفساد فى الأرض ومواصلة العدوان :

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » إن غاية القوة المهذبة فى الإسلام هى إعادة الأمور إلى نصابها ، فإذا عادت وجب الكف عن القتال :

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

« إن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ... » .

وبعد تحقيق الانتصار ورفع حالة الطوارئ . فإن الأمة تعرف ماذا تعمل :

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .

هذه هي بعض ملامح سياج الأمن الخارجي لمنهج الإسلام الذى دعا الأمة لتكون قوية فى « الحرب » كما هى قوية فى « السلام » .

« القوة الأدبية » :

القوة العسكرية تحمى الأمة من العدوان الخارجي كما تحمى كل فرد فيها نازلة من حفظ كيان الجماعة إلى حفظ كيان الأفراد .

والقوة الأدبية تحمى كل فرد فيها من الجور والضعف كما تحمى الأمة نفسها صاعدة من نظام الأفراد إلى نظام الأمة .

ونعنى بالقوة الأدبية أن الإسلام حرر الفرد من عوامل الضعف والذل والخنوع ودعا كل فرد إلى أن يأخذ بأسباب تلك القوة الأدبية فلا يخشى أحدا إلا خالقه ومولاه ولا يجعل للشيطان منافذ إلى نفسه ، وحين يكون أفراد الأمة أقوياء قويت الأمة المكونة منهم . وفيما يأتى صورة موجزة للتربية الإسلامية التى هدفت إلى خلق الشجاعة الأدبية فى أفراد الجماعة المسلمة .

١ - **إذا أراد الله حياة نفس فلا قوة فى الأرض تميتها :**

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . . . » .

٢ - **كفالة الله بالرزق لكل مخلوق :**

« وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

٣ - **النفع والضر بيد الله وحده :**

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

٤ — لاحزن ولا فرح فالمقدور بيد الله وحده :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » .

٥ — التوجه بالرجاء إلى الله وحده :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده . وهو الغفور الرحيم » .

« مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

٦ — رحمة الله واسعة فلا يأس ولا قنوط :

« قل : ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

٧ — دفع مرارة الخوف بحلاوة الرجاء :

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

٨ — البرىء لا يؤخذ بذنب غيره :

« ولا تكسب كل نفس إلا عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى ... » .

« كل نفس بما كسبت رهينة ... » .

٩ — لكل عمل عند الله جزاء يوفاه العامل :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض .... » .

« إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

١٠ — الناس سواسية عند الله ولا فضل إلا بالتقوى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » .

١١ — عند فوات المأمول يجب أن يثق المسلم فى اختيار الله :

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ... » .

١٢ — والإتصال بالله ميسر للمسلم دون وساطة كهان :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

فاذا يخاف المؤمن أو يحذر غير الله . فهو - أى المسلم - أمام الناس سيد نفسه ، وهو أمام الله عبد ممتثل ، عزيز بإيمانه ، كريم بتقواه غنى بحظه . خضوعه بين يدى الله شموخ . وافتقاره إلى الله غنى . الله هو الذى خلقه ورزقه وهو - وحده - مصير أموره ، ومصرف شئونه . وسائله عما استرعاه . وليس لمخلوق عليه سلطان .

وبهذا المقام الرفيع الشامخ فخر من فخر فقال :

وممـا زادنى شرفا وتيها ‏ ‏ ‏ وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ‏ ‏ ‏ وأن صيرت أحمـــد لى نبيا

هذا هو الإسلام فى مواجهة الأيديولجيات المعاصرة فإذا أرادت الإنسانية أن تسعد بحياة الدارين فليس أمامها من طريق إلا الإسلام، والإسلام وحده.

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

المبحث الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٢٨٨٣ / ١٩٨٧